تقديم

عبد الحميد عقار

تستأنف "**آفاق**" صدورها بهذا العدد الخاص المزدوج. هناك حرص، ورغبة أكيدة في انتظام صدورها فَصْليا، وفي مراعاة ما تتطلبه الفصليات من دقة اختيار، وتنوّعٍ متجانِس، وملاءمة وجودة. هناك كذلك، حرصٌ مضاعَف على أن تظل "**آفاق**" منبراً متميزاً ومستقلا للفكر وللإبداع المتحرِّرين من سجن العادة والتقليد، ولبلورة الجديد من الرؤى والأفكار وصيغ الإبداع وتعبيراته، طموحاً في أن تشيِّد فضاء يضفي الحيوية على الحوار وتبادل الرأي بصوت عالٍ، بصدد إشكالات اللحظة في تعقيدها وتناقضاتها، وبصدد ما يحققه الإبداع الأدبي والفني والفكري من تراكم، وما يثيره من تساؤلات منهجية وفنية ومعرفية، وبصدد الشرط التاريخي والثقافي والإنساني للمبدع وللمواطن في مغرب وعالم اليوم على السَّوَاء.

من أهداف المجلة، مواصلةُ الإسهام في إلقاء الضوء بتؤدة وعمق ووعي نقدي على المشهد الثقافي قيْد التشكُّل والتحوُّل في آن واحد، وعلى رصيده الفنِّي والفكري المتحصِّل عبر السنين والأجيال، والذي صار في تنوع مرجعياته ولغاته ورؤاه، بمثابة ذخيرة تغني الوجدان والمتخيل، وتستحق المحاورة والاستعادة النقدية.

ولتحقيق ذلك، ستتغذى المجلة في بناء مادتها ومحتوياتها من الاستكتاب، ومن الندوات والملتقيات التي ينظمها اتحاد كتاب المغرب، ومن إسهامات المبدعين والمثقفين، تلك التي تستجيب لمقاييس النشر بالمجلة، ولما ترومه من أهداف ثقافية وإبداعية. مثلما ستتغذَّى من تجارب الأصوات الجديدة ذات التميُّز اللاَّفت في الإبداع أو البحث، وذات الأفق الواعد في الإغناء والإضافة.

إن العدد 70–71 الذي يفتتح هذه السلسلة الجديدة من "آفاق"، يعطي فكرة عن هذا الطموح وآليات تحقيقه : هناك توازن في المادة بين الإبداع والبحث أو الدراسة، مثلما هناك انفتاح على التجارب والأجيال في تنوعها وتتاليها وتحاوُرها، وتعتبر الترجمة نافذة تعزِّز هذا التوجه، كما أن المتابعة النقدية للإصدارات الجديدة تبرز أهمية المواكبة النقدية، ودورها في الاكتشاف والتقويم، وتثمين التراكم والتحوُّل ؛ ويعبِّر الجرْد المكرَّس لأنشطة الاتحاد عن الشَّفافية واحترام الحاجة إلى التوثيق.

أما حوار العدد وملفه المخصَّصَان للسياسة اللغوية بالمغرب، فعدا كونهما إصغاءً مقصوداً لواقع لغوي غنيٍّ بتعدُّده، لكنه مهدَّد بغناه، لم يعد يقبل الصمت ولا الوقوف عند حدود الرأي والاجتهاد الفرديين وهما ضروريان ؛ عدا ذلك، فالحوار والملف، جاءا استجابة نقدية مسلَّحة بوعي ومعرفة متجددين لمقاصد توخَّيْناها نوجزها كالتالي :

1. التقويم العلمي والنقدي للخيارات اللغوية المتبنَّاة، من حيث النصوص المنظمة والمرجعيات المؤطرة والأهداف المبتغاة، ومن حيث واقع الممارسة ا الفعلية للغة أو اللغات بالمغرب، ابتداء بالحياة الخاصة والعامة، وانتهاء بالإبداع فكرا وإبداعا وعلما، ومرورا بالتعليم والإدارة والمرافق العمومية والإعلام، وأسباب الحظوة والترقي الاجتماعيين.

2. الوقوف على العوائق التي تحول دون التجانس بين السياسة اللغوية، وبين ممارستها فعليا في أرض الواقع. عوائق تحول، أيضا، دون التدبير المنتج والإيجابي لواقع لغوي مركب بطبيعته، وغامض من حيث الإرادة السياسية الرسمية في مستوى تصريفه. إنه الأمر الذي يخلق الانطباع بأن الوضع اللغوي، اليوم، وربما منذ الاستقلال، أقرب ما يكون إلى الارتباك والالتباس، ومهدد بتدبير تعددي "متوحش".

3. بلورة أفكار وتصورات بإمكانها تأمين السلاسة والتهيئة العلمية والثقافية والقانونية لتدبير لغوي عقلاني متجانس ومتوازن، يستجيب للحق في اللغة الوطنية الرسمية، أي العربية، والحاجة إلى النهوض بها وإعادة تثمين مكانتها ودورها بشكل إيجابي وظيفيا ومعرفيا وتواصليا ؛ والحق في لغة وطنية أمّ، لغة التنوع الثقافي، أي الأمازيغيات، وحاجتها إلى الدعم والتأهيل العلمي والإدماج في السياق المجتمعي ؛ والحق في لغة أجنبية تدعم الانفتاح والتقدم هي اليوم، ولأسباب سوسيو ثقافية وتاريخية، الفرنسية ثم الإسبانية والإنجليزية. هذه الخطاطة لا تلغي بالطبع الحاجة إلى الاهتمام بشكل ما بالدَّارجة آو العامِّية والحسّانية.

هذا التأليف لمواد العدد، يتيح اقتراباً ملموسا، بهذا القدر أو ذاك، من مكونات المشهد الثقافي الراهن، وما يخترقه من أسئلة، وما يواجهه من تحديات ؛ لكن، وهو الأهم، ما يراكمه من إبداع واجتهاد، قوامهما البحث عن القيمة المضافة، وعن تعزيز مسار التحديث العقلاني المنتج والخلاَّق.

نقوش على الماء

مبارك ربيع

ديباجة

من لا يكتب يعْرف.
من لا يسمع يُحدّث.
من لا يقرأ يعلّم.
ما يفتأ شيء يشدنا يظل، بقوة ما، إلى الأرض وما بعد غد.

1. السوق

كل شيء يتغير ... ربما لا تدرك المرأة ذلك وهي تسأل عن ثمن القماش... تقول إنه لم يعد يستجيب للذوق كما كان عند ظهوره منذ سنة أو أكثر ... الزواقة هذي ما بقا لها شان... الزواقة الجديدة باردة عليها وحلوّة ... تغمز المرأة وتقول : الجديد له بنّة... يقفز على العبارة يكملها دون شعور :

ـ والبالي لا تفرط فيه ...

يكمل حكمة المرأة التي يعرف أنها لا تنشد الحكمة مما تقول، وإنما تنزيل الثمن، هذا ما سيسفر عنه الموقف... هو الكساد ضارب أطنابه، ويعلن عن نفسه في هذه المراودات...

تدرك المرأة أنه يورطها في تكملة رأس الجملة في بقية العبارة، أو هي التي رغم الشطارة والحذق، إنما تقع في فخها، ليقودها إلى حيث يريد، كما خططت وتخطط... تقول إنه لا أحد اليوم يفكر في البالي... الخير موجود وكله جديد... خذ ما تبغي... المهم... الثمن ؟ بيت القصيد طبعا... الكساد... لعنة الله علي الكساد... من سحنتها المربدة مسبقاً، يخيل إليه أنها كفيلة من هول غلاء، أن تشهق هلعاً لو أهداها القماش إرضاء لسمائها الملبدة الجافة... لابد من مجاملة ومناورة حتى لا يضيع كل شيء... تشرق المرأة بجفاف ريقها تكاد، وهي تسمع الثمن من نطقه، بناء على إلحاح منها... نار... تقول نار... الثمن نار... لماذا نار ؟ يا خويا الرخا عطا الله... الثوب بالعرام... تقول تكاد تشهق تطير : نار لاسعة... ترمي المرأة بحرّها القماش من يدها نافخة على أناملها من لهب الحريق... لابد من مجاملة ومناورة مع التزام حد، حتى لا تنقلب الأمور وتذهب بكل شيء... ومع ذلك يسود الكساد...

آه، ومتى تهب رخي ريح تجارية لا عاصفة ولا ناسفة ؟ جماعات... جماعات... يتكاثف المشترون حول البضاعة، وأنت في الملكوت التجاري الأعلى، ناشقاً بملء الجوارح كلها والحواس، نسيم الأرباح، متشابكة أطراف بعضها ببعض، يركب بعضها بعضاً ؛ وحذق المرأة المعهود، ذاك الذي كان يرتع في بحابح الكساد مناوراً مراوغاً، لا يعود في عز ريح تجارية خالصة، يملك أن يترك ليمناه ما بيسراه، لتسابق الأيدي على كل شيء، وتسارع المهج لكل شيء ؛ والثمن... الثمن ذاك الذي كان ناراً أي نار ؛ لم يعد أكثر من مرتفع لسان بركان نافث هادر، لا أحد يشعر به... جارف لا يقاوم إغراؤه، يركبه الكل والكل يجري مجراه... ويلغى بلغاه... أه... ليت... متى يهب ريح؟

يتملى المرأة في حركة تعاملها مع أنواع القماش... يدرك حالها من هيمنة الكساد، يتطلع إلى عينيها، يعمل جاهداً ليقتنص نظرة مواجهة منها، فلا يظفر... ماسحة بانتباذ وإهمال كل ما تلمسه وتراه، تنتقل بلا مقدمات ولا تركيز من هذا لذاك... جاهداً يحاول الالتقاء بنظرتها فلا يظفر... لا التماع إغواء يشع منها، ولا مؤنس برق أنثوي... وتمضي المرأة وغيرها إلى غيره، وغير غيره... كغيرها وغيره... بلا جدوى ؛ تمضي يكاد يشيع من عبارتها أثر التهاب، يفغم يكاد من أناملها شياط...

2. الحب

مغرية واجهة السحر... مغرية جذابة يختلط فيها ويتقاطع التماع بريق بآخر... أهات طوق، على بوح نحر، وصراخ معصم... عريق جوهر على بهاء ماس، وخالص إبريز... ساحرة فتانة واجهة كل الجذب والإغراء... تاج زهر فواح وانسياب مطرز ناصع على فرع هيفاء، ينتحر خطوه المضمر في بحر فستان، تزين إشراق المحيا منه نظرة وسع كون، وأحضان ترحاب...

ساحرة فاخرة واجهة الجلال والبهاء... تشد المهج والأبصار إلى شلال الحب... ترتوي لا تكاد... وكيف ؟ هل تروي الرؤية إلى معين... عبر بلوري شفاف ساحر... محجوز ببلور شفاف حاجز ؟ لم لا يضيق بفيض معينه البلور، يتسامى روْحاً ينفح أرواحاً، أو يتجسم فتيتاً شتيتاً ينعش قلوباً وأبداناً، يذيع الحب، ينثر بذار الأمل في الأصقاع العميقة والصحارى القاحلة الخوالي... ؟

تقف أمام الواجهة وقفة التهيؤ للخطو هيئة المتثبت على المشهد... يحملها إلى عمقه المشهد، يتضاءل حس الحضور إلى ما حولها ممن استوقفهن الوقوف... تتضاءل من حولها حركاتهن وأصواتهم المنبهة والأخرى الصامتة والأنفاس المضمرة الملتقطة لأنات وتمنيات وآهات... يغيب ما حولها، وقد غابت بدروها في عمق المشهد خلف الزجاج، تسبح في الأبيض الناصع المجلل بإكليل الزهر والحرير، تتقاطع على سحر وجودها في فيض الفستان، التماعات ثمين ونفيس ونادر... توزع من إشراقاتها وتنثر على فسحة الكون، حباً ونجوماً وابتسامات...

- البنت آ بنتي بحال التمرة... بحال التفاحة... بحال كل حاجة زينة، وقتها وقتها ما يفوت...

يفوت ؟ من بيده أن يفوت أو لا يفوت ؟ شبابنا اليوم، الشبان بالذات، لا يبدو أنهم يعشقون فاكهة إلا خارج وقتها، لا قبله ولا داخله أبداً ؛ هذا إذا كان هناك من يعتبر أن ثم فاكهة أصلا، حتى يكون لها زمن أو لا يكون...

- يا بنتي، الزين والصغر ما يدوم... وحتى حاجة ما هي دايمة...

- يعني ؟

- شوفي...

وما تفعل غير ذلك ؟ إنها على وشك أن تقول لنفسها بصراحة كاشفة : لم يعد للانتظار معنى... بما يعني أنها فقدت الأمل، أو على الأصح، أنها لن تجد من معنى لشيء حتى ولو تم الآن، فأحرى أن يتم بعده...

جرب قلبها أن يخفق لرؤية الحبيب، لذكره لصورته وتصوره، جربت أن تستقي من ينبوع الحب، أن تفجره من ذاتها وتستحم بكل القوة والتلقائية في عرض أمواجه ؛ شاركها واستحم مثلها من رأته يفجر من ذاته مثل ما تفعل، وأكثر ؛ أو هكذا كانت تتخيل... إلى أن بدا أن الينبوع يجف أو ينحرف عن مجراه... مجراه !

مجراه ؟ أي مجرى ؟ كانت تعتقد أن لكل عقدة حل ولكل بداية نهاية ... أي نتيجة نهائية سعيدة، بما يعني خاتمة وتتويجاً... بما يعني رقياً وارتقاء، ورفعة وارتفاعاً ؛ ويعني بالذات سخافة رأي كل من يقول بفاكهة وأوان... إنها علاقة وتبادل وليست مجرد ربط ورباط ؛ والأمر أبعد من أن يكون آلية لآكل ومأكول... ومثلها بدا أن الآخر يقاسمها الرأي، أو هكذا فهمت... شاءت أن تفهم كما أدركت بعد فوات أوان... هكذا ترجع إلى "الأوان" بعد رفض إصرار... تعود إليه مجرد قاموس بدلالة حرفية لا محتوى له من فاكهة وموسم... متى ؟

هل فاجأته فعلا عندما أسرت وأصرت على خاتمة ؟ لم يفهم ...

ـ نتزوجو ... الله يجعل البركة...

تعني أن يعلنا ما هو معلن، ويعرفا بما هو معروف... إنما أن يحددا تاريخاً... ويبدأ من جديد على عمق آخر ما بدأه سابقاً... تعدد له أن الوضع مناسب ؛ تخرجا، وكل منهما على عتبة الإنتاج والاشتغال... فيض الفستان... بحر الناصع الثلجي يلف الوجدان وخفق أجنحة وحواس، وتقاطع التماعات النادر والنفيس، على الكيان المزدهي بكامل البهجة والإشراق، تنعكس رؤاه في ألف بلور يعز أن يحتويه سحر واجهة، أو يحويه زجاج... لكل سحره...

لم تلاحظ عليه أثر فهم لخطابها، كررت، بدا كالمستفيق على شفا من حالق :

ـ عمري ما فكرت هكذا ...

هي التي تستفيق مقذوفة من حالق بلا قعر ولا قرار... عمره... عمره ما فكر ؟... حتى مجرد تفكير... ؟ يعني أن كل المدة، وهي ليست أقل من سنوات جامعية كاملة... طوال العشرة هذه، لم تلمح أنه لا يفكر في الزواج... أبداً... أبداً... وإلى هذا الحد تخدعها المظاهر والمشاعر ؟ وطوال المدة كلها، كان وحده من دونها، يعرف يقيناً أنهما مجرد اثنين عابرين كل في حياة الآخر... وهي، هي وحدها بدونه التي كانت بعكس ذلك، تعرف يقيناً أن كلا منهما خلق لصاحبه... هكذا بكل بساطة وتناقض وبلادة إحساس ؟ صداقة كانت ؟ أإلى هذا الحد صداقة ؟ صداقة إذن تنفي ما عداها بالمعنى الذي يجعلها ـ كما يجعله ـ ترفض كل صداقة من نوعها مع غيره، وهو يقبل ذلك، يزكيه

ويشجع عليه، بل يشترطه ويفتعل الكثير حتى لا يحصل... كل هذا وتخطئ القراءة، دون أن يخطئ هو أبداً أو يحرّف، فهو لم يفكر أبداً... أبداً... !

تدفع الباب الزجاجي، تدلف إلى الداخل، يأتيها البائع، تشير إلى العروسة الساحرة المعروضة في الواجهة، يناولها مثيلتها في علبة، تتأمل عن قرب عبر الواجهة الشفافة للعلبة، ملامح البهجة على تقاسيم العروسة، وازدهاء الناصح المنسدل على الكيان ومواقع التماعات النادر والنفيس... أهم شيء، أغلاه أنفسه وأقله قيمة في الآن نفسه: ثبوت هذه الملامح البهيجة... أبداً... أبداً ؛ أما الحب، الحب... عذاباته وأفراحه... صدماته وأحلامه... تحولاته : أيصبح الأعز الأندر ضمن كل شيء ؟

تبدو العروسة في العلبة أقل جاذبية، بين يديها تجدها أقل حرارة وسحراً ؛ تتطلع جانبياً عن غير قصد باتجاه الواجهة الزجاجية، يفهم البائع حركتها على نحو معين، يؤكد بالأيمان أنها أخت تلك المعروضة في الواجهة، أختها تماماً... تماماً... مطابقة في كل شيء تماماً... تماماً ؛ لا شيء يختلف، ولديه كل المجموعة يعرضها عليها إن أرادت، لكن لا فرق إطلاقاً...

تخرج يتعلق بيدها الكيس محتوياً علبة العروسة، لتطرحه بما فيه، عند أول منعطف...

3. الروح

لم يكن الأمر جدياً ولا شبيهاً بالجد في بداية الأمر، مجرد توعك لا يوحي بشيء، شعور غير محدد بعدم الارتياح، لا يؤلم معه شيء ولا يريح آخر ؛ وإنما إحساس بانفقاد شيء غير معين، لعله أشبه ما يكون، بحبة حصى دقيقة في أقصى مقدم داخل الحذاء، تشعر بوجودها غير المحدد، دون أن يمنع في شيء من طبيعة قصدك وخطوك... أكثر من ذلك، قد لا تنفذ أبدا رغبتك في إزاحتها، لمجرد أنك كلما قررت ذلك، كلما غاب عن بالك في الوقت المناسب، ونسيت أن تفعله حيث يتعين، فلا تملك إلا أن يستمر الأمر كما هو : لا أنت منزعج من وضع ولا أنت مرتاح له...

العلاج نفسه لم يكن أقل جاذبية، رياضة محببة في كل شيء : غذاء معتدل مدروس، وفوق ذاك لذيذ ممتع ؛ يوم منظم، نوم غير مبكر، لكنه يميل إلى ذلك، فترات راحة بعد كل فترة شغل وانشغال... كل ساعتين على الأكثر، تدعوان إلى قرابة ربع ساعة من الحركات غير المتعبة، بل هي

أشبه ما تكون بعبث بسيط منظم، يمس كل الأطراف والحواس، مع البطن والجذع...

ـ ما شاء الله... حالتك أحسن، والله يا أخي... شف المرايا بنفسك...

نظرة مودة تقدح الصدق، والقلب بين جوانحك ينبض محبة للكون بكامله والوجود، هذا الذي يبادلك مشاعر نبل ومودة ؛ ليست وحدها الأزمات ما يحتاج إلى إشعار بالدفء، بل أيضاً وبالذات شبه الأزمات، هذه العابرة سحابات صيف، بالصفاء نفسه والشفافية ؛ لا تزيد في الواقع على أن تهديك المعبر والمخبر... معبر مشاعر وقلوب ومخبرها...

ـ خذها عطلة... ريّح نفسك وانس كل شيء إلا راسك... ارتح وريّح...

يكاد يهنئك كما تهنئ نفسك... من لا يهنئ نفسه، وهو يجد أنه ربما لأول مرة يتيح لذاته أن يهتم بها، أو يجعلها محط اهتمام...

ـ لا بأس من نظام التغذية والحركة وبعض الجهد... ضروري وحيوي جداً ؛ لا لحالك... الحالة بسيطة جداً، أقل من عادية...

ما يفتأ حسن النيات يبين عن ذاته، ومحض المحبة يعبر... النظام... النظام ضروري في كل شيء... ضروري للجميع وطوال الحياة... وهو ما نفتقده حين نتصرف بأثمن ما فينا، على أسوإ وجه... وهو يعني فقط، ترك العادات البوهيمية المعهودة في تعاملنا مع نعمة الصحة والحياة...

كل شيء يبدو كأنه قفص من ذهب... الأحبة لا يخفون عنايتهم ولا اطمئنانهم لكل شيء، لهذا التوعك العابر، توعك لم يزد على أن جعلك تطمئن أكثر، إلى كل شيء حولك وفيك، وكأنك وكل شيء يرتبط بك، من ظفر أنمل أو أصبع في يد أو قدم، إلى شريكة العمر والأكباد من بنات وبنين، إلى إخوة لم تحبل بهم ولا أنجبتهم لك أم... كل شيء في وجودك، يشعر بأنك أمام اختبار حي سعيد، يؤشر كل ما فيه ومنه، على الدفء والسلامة، مع عميق الحنو، ودافق السعادة والحنان...

ـ يمكن لك تأخذ حريتك... الآن...

ـ الآن ؟

- من الآن...
- وقبل ؟
- ... ما تحرم نفسك حتى من حاجة...
- ... النظام... والدواء !؟
- خذ حريتك الكاملة ... تماما !

نظرة أفصح من صائف شمس ظهيرية، أبعد مرمى، أشد غوراً من عمق محيط... هذه الحرية... هذه الآن... ومن الآن... بعد كل ما قبل... ليست إلا كل الحرْمان... قفص الحرمان الجميل قبلها والقيد اللطيف، كان... كان له الطعم والنكهة والمذاق... أما الآن... ومن الآن... !؟

طقس :

الحالة العامة بدون تغير يذكر. يبقى الحال على ما هو عليه، ما بين صحو وغيم. سماء شبه صافية وتستمر. الحرارة على حالها، مع ارتفاع طفيف، عابر ومؤقت، ما يلبث أن يعود لسابق حاله. الرياح متقلبة نسبيا، بدون قوة وبدون اتجاه. بحر قليل الهيجان إلى هامد. حركة الموج متباطئة ضعيفة، قليلة الارتفاع.

امرأة العصافير

أحمد المديني

جلست أخيرا إلى الكرسي المديد، وفي الموقع المفضل، وهي تلتقط أنفاسها، وُتصدر أخرى ساخنة. جلست ومدت ساقيها، فيما أسندت ظهرها كاملا إلى الخلف لتجلب أكبر قدر من الراحة. ذراعاها، أيضا، ارتخيا كما لو أنهما مفصولان عنها، بينما رنا وجهها إلى السماء ورأسها يتمايل قبالة شمس دافئة في هذا الضحى. تستطيع أن تعتبر نفسها مرتاحة الآن، أي أفضل بكثير من ذي قبل، من دقائق بدت فيها وهي تكاد تفقد زمامها، لا لشيء، وإنما لمجرد النسيان، أو الإهمال، أو القلق، أو التوتر الزائد عن حده، أوهذه الأسباب مجتمعة مما كان سيتلف برنامجها الإعتيادي، ويفسد عليها بالتالي يومها كله.

كان عليها أن تصل في الموعد المضروب، المستأنس، والذي صار مألوفا مع توالي الأيام. أن تكون هناك في الوقت المناسب، بل الضروري، والذي تعده جزءا من برنامجها اليومي، لم لا تقول من حياتها كذلك. هي لا تستطيع أن تقدر أيّ خسارة ستلحقها، تعني أيّ خيبة ستحس بها في ما لو وصلت متأخرة، ولم تجد أحدا، وفاتها اللقاء، وإذن يضيع النهار، يتنغّص الخاطر، تعود أدراجها والندم يتأكلها، والحسرة، أيضا، مثل من أضاع موعدا غراميا تهيّأ له الأيامَ والليالي، كما حدث معها من وقت بعيد لا تذكره، وعندما حانت لحظة اللقاء، الحاسمة، تبخر كل شيء لسبب لا أهمية لذكره، لأن كل شيء ضاع.

عادة تصل إلى منتزه مارس والساعة تمام العاشرة. وهي لا تحتاج إلى النظر، ولو عرَضًا، إلى الساعة المحفورة في برج المدرسة العسكرية المنتصب، هناك، عن بعد. الساعة في رأسها لا تخطئها، صيفا وشتاء، لنقل حين الجو صحو، بلا غيوم ولا أمطارعلى الخصوص. وهي تتأكد من الساعة حد اليقين وقتما ترى الرجل الرياضي يمر قريبا منها، يتنفس بعمق وقد أنهى هرولته الصباحية. استطاعت أن تضبط وقت مروره بساعة البرج، مرارا وتكرارا، لم يتأخر دقيقة عنها، أي مثلها تماما، أو تقريبا، فهذا اليوم، مثلا، لم تره. الأغلب على الظن أنه لم يحضر، بل الأغلب أنها تأخرت عن الوصول. أجل، فالنسيان بات يستفحل فيها، كدليل إضافي على خرفها، وإلا لماذا اضطرت للعودة إلى البيت لإحضار الصّرة اليومية. أدى بها حرصها عليها إلى أن تضعها قبل النوم عند عتبة الباب، فلا يمكن أن تخطئها العين بتاتا. تعلم جيدا أن حمل الصرة حكم ضرورة لدى الذهاب، أو سيتلف الموعد، وتتكدر طوال يومها. الأنكى أنها تبقى منشغلة البال، حين لا تراهم، هل حضروا كالعادة، أم غابوا، وإن غابوا فلأي سبب، وعساه خير، أم ؟ إلا هذا الصباح غادرت الشقة ساهية عن حمل الصرة. الأدهى من هذا أنها لم تهيئها أصلا، وهو ما تؤنب عليه نفسها بإيلام شديد، إذ معنى ذلك أن الموعد لم يعد يعنيها، أن علاقتها تنفك عن محيطها، وسوف تقبع وحدها، ويكفيها هذا تأويلا أو ستغرق في البكاء.. وبلا طائل، والأجدر بها أن تعجل، وقد أعدت الصرة من جديد، لتستدرك ما فات من دقائق، وتلتحق بالمكان المناسب، وفي الوقت المناسب، وعندئذ فقط يمكن أن تستغفرخطأها، وأن تسترجع نفَسَها الهادئ، وجسدُها مسترخ فوق الكرسي المديد ، بينما الشمس تغمرها من كل ناحية.

الشمس ! لن تخفي هذه الرغبة، بحبوحة الدفء التي تحب أن توجد فيها، وملاحة ما يطبع الجلد من سمرة، هيهات أن تنكرها. لابد أن الرجل الرياضي لاحظ كيف أنها تنشر جسمها، ولماذا لا تسميه لحمها، ما دامت تعرض صدرها وذراعيها، وقليلا فوق أعلى تنورتها، فضلا عن وجهها تبقيه مركّزا على قرص الشمس، وهذا بعد أن تندلك بدهن خاص يسرع تذهّبها. لا شك أنه لاحظ عنايتها هذه، وكم مرة ضبطته يختلس إليهاالنظر، تريد أن تقول يأكلها بنهم وهو ذو السحنة السمراء، لا تحتاج إلى تلميع أبدا. إنما عليها أن لا تنكر أن فضوله إزاءها يقوى قبل ذلك، أي في لحظات انكبابها على موعدها، وأداء طقوسه، دائما تقريبا. فكّرتْ أن الأمر لا يعدو هذه القرينة، وإلا فستتعدى حدودها، ستمسي خرفة حقا، فهل سيُغوى بامرأة في سنها رغم ما تبذل للمحافظة على لياقتها، واعتدادها بحالها في طريقة جلوسها، وخاصة نظراتها الذاهبة إلى بعيد في شرود وتعال عما حولها، أبدا، أبدا.

لم تعنها الشمس هذا الصباح، رغم أنها منتشرة في كل أطراف المنتزه بسخاء مثير. كان عليها أن تستدرك ما فاتها، وتعيد ضبط الساعة على قياس الموعد المحسوب حتى وقد تأخرت عنه

هنيهات، هو الندم مرة أخرى. من حسن الحظ أن الكرسي المديد كأريكة لم يشغله أحد بعد، وهذا وسواس لايفارقها، وهي اعتادت الجلوس هنا وليس في أي مكان آخر. ستقول، مرة أخرى، بسبب مقابلته الشمس مباشرة، بينما الحقيقة موقعه الذي تحول إلى نقطة للقاء، للقاء الصباحي الذي لا تستطيع أن تفوته، وخاصة حين يصفوالجو، وتخلو السماء من غيومها ورعودها. وإنها لتتذكر الآن بأنها لم ترتب شيئا مسبقا. أن ما حدث تمّ صدفة، في هذا الكرسي بالذات، قصدته دون أن تفكر بلقاء أحد، ولا مزاحمة سواها فيه، وعلى كل فالمنتزه واسع، ولمن شاء أن يجلس حيث يشاء. وهنا، حيث اختارت يخلو المكان عادة من الجالسين، ومن السياح، أيضا. اوئلك البلهاء، السّذّج، من يابان وأمريكان ، دعك من الطليان، يقصدون الجزء الشمالي للمنتزه حيث ينتصب بعجرفة قلّ نظيرها ذلك النصب الحديدي الغبيّ المسمّى "برج إيفل"، يتراكضون تحته كالنمل حاملين كاميراتهم يطلبون الخلود ؛ أما هي فإلى الجزء الجنوبي ترتاح، وكرسيّها تفضل بعد أن تمّ اللقاء.

الصدفة، أو القدر، أو أي تسمية أخرى هي ما دفعها ذلك اليوم إلى القدوم للمنتزه. كانت تكتفي بحديقة الحي، وهي ساحة صغيرة مشجّرة تجتمع فيها بضع نسوة هنّ على الأكثر خادمات إفريقيات وآسيويات يحرسن أطفال الفرنسيين، النائمين في عربات واسعة، بينما، هن، يلكن العلك أو يثرثرن في الهاتف المحمول كالببغاوات. غير بعيد عنهن بعض المتقاعدين، أو متسكعون يجرون خطى متثاقلة ولا يعرفون أين يمضون. هي، أيضا، مثلهم لم تكن تعرف أين تمضي بعيدا عن هذه الحديقة ، واعتبرت أنها محظوظة لقربها من بيتها : خطوات ويصبح لها أهل ورفقة، على الأقل ما تتصوره كذلك ولو وهما. وكان بوسعها أن تكتفي بهذا المكان، أن تعتبر نفسها سعيدة فيه بلا مبالغة، لولا ثرثرة هؤلاء الإفريقيات التي لا تتوقف. ثم عادت ففكرت بأن السبب الحقيقي شيء آخر تماما أو سُتتهم بالعنصرية، لأن هؤلاء الخادمات ضروريات ليتمكّن الفرنسيون من زيادة النسل، وإلا سينقرضون ويستوطن السود والصّفر والعرب أراضيهم إلى الأبد. الحقيقة أن ما يزعجها هم الأطفال، سواء في العربات أو خارجها، حين يتدافعون متعابثين، مقيمين حولهم زوبعة من الصراخ والغبار. هي تحب الأطفال، إنما إلى حد لا يقلق راحتها، وهي تراهم يتحكمون في آبائهم، بينما لا تريد أن يتحكم في حياتها أحد. وهي لم ترزق ولدا، بل لم تتزوج أبدا، أو نسيت أنها تزوجت، أو شيء من هذا القبيل، لكن هذا لا يعني أنها كانت ستستسلم لهم ولهذه العاطفة، لو صارت أمّاً ذات يوم. لذا حين واتتها الشجاعة، بالأحرى الصدفة التي قادتها إلى منتزه مارس وقد طرقت حديقة الحي يوما فوجدتها مغلقة الأبواب لإصلاح، فإنها لم تتوان عن التغيير. من حسن الحظ أن اليوم كان مشمسا حين أدركت المجلس الذي سيصبح مجلسها، وألِفته في حينه، ثم عادت إليه، وظلت. هنا لا يصل إليها صياح الأطفال، ولا ثرثرة الخدم بلكناتهم الخشنة، وبعض المدمنين يحرقون جوفهم بكحول رخيص فوق كراسٍ بعيدة، ومرتينيكيات برميليات، يلاحقن من

تسّول له نفسه ترك كلبه يخرأ على العشب بحرية. هنا هي حرة، وسعيدة، وما همّ إن ظهرت في عيني الرجل الرياضي الفضولي وحيدة، مستوحشة لا تكلم أحدا ولا يجالسها أحد، أو تقريبا.

الحق أن هلعها تفاقم وهي تقترب من المنتزه وكان حريّاً بها أن ترتاح، مخافة أن تجد المجلس مشغولا فيخيب عندئذ أملها في اللقاء، في تلك الفرحة التي صارت تولد وتينع منها كالوردة كلما وصلوا وتحقق ذلك الشيء. ستكابر إن لم تقل إنها اعتادت الكرسي الطويل، ذاك، بالذات، حدّاً لم يعد عنه بديل، بل ولتقول في خاطرها، ولدى قدومها الآن متلهفة، كرسيي !، إنه كرسيي !، وعيناها تلهثان قدامها تستبقان الوصول وأمل أن تجده بعد فارغا، غير مشغول، وخاصة من اوئلك الأشقياء، المدمنين الذين بلا سقف، يقيمون هنا العام بطوله يعاقرون الخمرة ويحكّون جلدهم الأجرب، وكلما رأوها قادمة، إن لم يحرنوا حيث هم عاجزين عن جرجرة الخطى، حاولوا استعادة بعض إنسانيتهم الضائعة فاصطنعوا التهذيب طمعا في مقابل قنينة. وهي لم تعد تحفل بهم، ولا بمشاعرهم إن لم يحملوا أجسامهم الخِلقة ويتركوها تتهيأ، كما تحب، لسعادة اللحظة القادمة. أجل سعادة لا يعرفها حتما هؤلاء، ولا الجدات المارات يدفعن أمامهن كالفلاليس أحفادهن ووجوههن تعلوها بشاشة بلا حدود، وإن بدون غبيات، مغفلات، تركن مواصلة الحياة كما يحببن للإنشغال بخَلف يظنَنّ أنه سيجلب لهن الخلود. لا، هي لا تنخدع لذلك، أما لحظة سعادتها فأجلّ من أن يعرفن، هنّ الساذجات يُسقن أمامهن فلاليس تتبول وتخرأ كما تشاء. كلا، ما هي بحاجة لهذه الخلفة، ولا لكل ما ينشغل به السكان هنا من كلاب يعتبرونها الرفيق الأول والوفي للإنسان. فلا نظير في الوفاء لما تعرف وتعيش، ولذا تحرص أشد الحرص على كرسيها، والوصول في موعدها، لكي لا يطير فرحها عنها حين تطير.

لكن هل هذا معقول ما تعيشه، وما لها لاتقول إنها تحس به كما لو كان عاطفة جياشة تذكرها بأيام الحب القديم، فات وجمرةٌ منه بعد تحت الرماد. جارتها الحدباء، الجاسوس على الجميع، ضبطتها تلاحظ مغادرتها الشقة في أوقات منتظمة، وقتها المخصوص بها في النهاية، بل ذهبت إلى حد التلميح لها مرة بوجود شيء ما "Pas très catholique" في سلوكها هذا، وأوحت بشكوكها إلى جيران آخرين حرضتهم على استهجان سلوك امرأة في سنها هي، وما تزال ترتب لها مواعيد غرامية، وإلا لم الحرص المفرط على دقة الوقت، وانتظام الخروج، وطبعا، الذهاب إلى المنتزه الكبير، الواسع، المتعدد الشعاب والممرات، حيث يمكنك المشي على هواك، والجلوس في أماكن خبيئة، خلف أحراش متوارية، هناك، تماما، حيث يناسب تبادل القبلات، لم لا العناق أيضا، لم لا أشياء أخرى كما يفعل فتية اليوم،، إنما هؤلاء فتية بأعمار غضة وشهية متفتحة للحياة، لبعضهم، فما بالها هي تتكالب على شيء ليس من حقها، على ما فاتها. لم تكتف الحدباء بالتلميح والتشكيك، بل انتقلت إلى النيل منها مباشرة ؛ أولم تغمز من قناتها حين ألقت في وجهها عند مدخل العمارة، وعلى

مسمع، بأن حديقة الحي، لأمر ما، أضحت أكثر رونقا وطهرا في الأيام الأخيرة، وهي بإمكانها مواصلة نزهاتها ، هناك، حيث تذهب كل يوم ؛ يا للعجوز الحدباء الوقحة !

* * *

لا أعلم حقا ماذا دهاني اليوم لأتأخر. ما دهانا جميعا، نحن الذين لنا وقت محسوب ومضروب مع كل شيء. من عادتي في مثل هذه اللحظة أن أكون هناك، أن نكون قد وصلنا. وصلنا، وجلسنا، واسترحنا، قبل أن نقضي حاجة جئنا من أجلها. هي عادتنا، ولا قبل لنا بتبديلها ما دمنا عرفنا الطريق إليها، وما دامت هي والمنتزه قد أصبحا واحدا، إذ كلما اتفق أن ذهبنا إلى هناك، إما فرادى أو مجتمعين على الأغلب نجدها وصلت. نجدها في المجلس نفسه، وحدها دائما، وهي تبدو أنها لاتبالي بمن حولها أو قليلا بنفسها. أغلب الظن أنها إما سيدة عازب، أوأرملة، وربما مطلقة، شأن نساء بالآلاف في هذا البلد. على كل فقد فات الأوان لتستدرك حالتها وتسعف وحدتها "C'est une femme d'un certain âge" . لا شك أنها لم تنجب، أي ليست جدة، ونحن، على كل، لم نرها تدحرج أمامها أحفادها يتقافزون كالفلاليس، متلعثمين وصارخين مرة، مرة : "Mamie ! Mamie !" حين يعثرون على أكفهم وتكدم ركبُهم ووجوههم. تكون جماعتنا قد طوّفت في أرجاء عديدة، لا سيما إذا صحا الجو، وحين نتعب نأوي أخيرا إلى "Champ de Mars". أنا بالذات من أشار بهذا المكان، فيما غيري يفضل "Le parc Monceau" أو "Le parc Georges Brassens"، فتبعوني بلا اعتراض، وهم لم يندموا بعد أن ألِفوه وألِفوها فيه، إلى حد أنها أصبحت جزءا من حياتهم اليومية، إن لم أقل الأهم.

في البداية لم أعرها اهتماما خاصا. كنت أمر أو أطوف حولها، كسواها، فأنا أعرف أن نسوة هذا الحي أنانيات ومتعجرفات نوعا ما. تسمعهن يقلن بُغنّة مصطنعة، وبلا مناسبة "Ô, j'habite le VIIème !" وقد يضفن لتميّز أكبر : "A deux pas du Champ" لتحسب حسابك معهن، أي أنهن لسن من أحياء العربان والزولو والصُّفر في "Clichy" أو "Belleville" ولا حتى من الدائرة 13 و14، التي تعج بالطبقة الوسطى. إنما لم يكن يظهر على من ستصبح أليفتنا ما ينفر منها، ولذا تشجّعنا وأخذنا نقترب منها تدريجيا، وإن بقينا حذرين فالبشر هنا على العموم متحفظ، ونحن، أيضا، لنا كرامتنا ولا نحب أن نتكالب على أحد، رغم أننا، أحيانا، نكون قد بتنا على الطوى، وفي أمسّ الحاجة لمن يسعفنا. في المرات الأولى استغربت من وضعها، أي كيف تجلس، وكيف تعرض وجهها وذراعيها وساقيها على الشمس، حين تفيض أنوارها دافئة بعد فصل الشتاء. طبعا إن امرأة في سنها لا تغري كثيرا، وربما لهذا السبب هي لا تبالي فتكشف لحم ثوب ينكمش، تعوّضه بسمرة مذهّبة تطبع الجلد كله، وهذا مهم عند نساء هذا الحي منهن من تدفع من

أجله أغلى الثمن. ثم صرت آلف شكلها، وأراها بلا اشتهاء مثل شيء ثابت في الحقل الواسع الذي نمرح في مساحته الممتدة من "L'Ecole militaire" إلى "La Tour Eiffel" ذهابا وإيابا. بدت هي، وأحسسنا من شكل ملامحها، أيضا، أنها بوضع من يرغب في تآلف أقوى تجاهنا. لا تشير إلينا بأي تحية مباشرة، أو تبتسم تلميحا بالترحيب كما هو مطلوب لهذه الحالة، لكن ذراعيها ويديها ينفرجان ثم يرتخيان على خلفية الكرسي الطويل حيث تجلس بما يشي بسرور يعلن استدعاءه للآخرين وترحابه بهم. وبهذه الصورة أصبحت فعلا مختلفة جذريا عن عجائز المنتزه، وعن الأمهات الشابات اللواتي غاديات رائحات يدفعن أمامهن عربات محملة بالتوائم، وفي بطونهن حمل آخر، هن الولودات، الشبيهات بحيوان الكونغورو، لا يعرفن البشاشة وقد تحصد عبوسهن أو تطيّرهن إن مررت قربهن، خلافا لها هي، من أضحت، شيئا فشيئا، تلقي إلى جماعتنا نظرات ودودة إلى حد، وتشجع على الاقتراب منها أكثر فأكثر.

كان ورائي أمر شاق ليتحقق القرب منها، أن أقنع رفاقي بأن السيدة جادةٌ في التفاتها إلينا، ولولا ذلك لما أشارت بأصبعها نحوي تطلبني للدنوّ منها، وسأبالغ قليلا لو أضفت للجلوس إلى جانبها. لا، بل هو الواقع، لأنها مالبثت، بعد الإشارة، أن عدّلت من جلستها لتفسح لي إلى جانبها فوق الكرسي الخشبي الطويل. من اللياقة أن لا أخذلها، لكن كيف أفعل بأصحابي، ولماذا لا تدعونا جميعا وهي ترى أننا لا نكاد نفترق حين نمر غير بعيد عنها وقد سرت بيننا الطمأنينة. لذا اضطررت أن ألتفت إليهم بسيما من يطلب أكثر مما يعتذر، وكم فوجئت أن وجدتهم واجمين، أعني متحفظين، أعني معاتبين لسان حالهم يقول : هكذا تتخلى عنا في أول مناسبة تجمعه بامرأة، حتى والشباب غادرها، ونحن الذين حلقنا في الأجواء كلها معك، وتعرضنا للآفات، وتركنا أمهاتنا وأقاربنا لنبقى دائما لانفترق، وتريد هذه المدهونة تحت الشمس أن يتشتت شملنا، أن تأخذك منا، ونحن نضيع، هكذا سنضيع بدونك. لم أسمع كلاما من هذا القبيل، ولا هي، بالطبع. حدست ما يجري أو يدور في الخواطر فقط، ومن الجائز أنها حدست بدورها في فطنة مشتركة فتوافقنا واتجهنا إلى أن نتراضى، من غير أن نحتاج إلى كلام، لا قليل ولا كثير. والحقيقة أنها خاصية، وأسميها خصلة عندنا معا، أن نلغي الكلام في تعاملنا. هي بوحدتها المزمنة لم تكن تحتاج إليه، ونحن، أيضا، إذ لا نتوقف عن قطع المسافات نستغني عنه، فنستطيع أن نعبّ الهواء كما نشاء ونحن نخترق زحام المدن وضجيجها حيث لا أحد يسمع أحدا، أبدا. إنما ليس مثلنا، نحن الذين نعرف أن نوقف حركة دائبة لنحط بهدوء ودعة في رحاب منتزه مارس. أجل، أجل، أنا من يفضله، ويحرص على القدوم إليه أكثر منهم جميعا. لا بد لي أن أعترف أنها هي، تقع في قلب هذا الاهتمام، وأنا أجد أفضل لي الوقوف على الأرض، لم لا يكون على مقربة منها، خير لي من الصعود عاليا أعلى طبقة في برج إيفل، كما يحلو للأمريكيين واليابانيين والألمان والطليان والعربان ؛ أظن كل بني الإنسان الذين

يحلون بهذا المكان.

في الأخير، وقد لاحظتْ أن لا سبيل للانفراد بي، وجهتْ إليهم نظرات معتنية، سأضيف إنها لم تخل من حنوّ، فأحسست بأن عتابهم الصامت لي يخفّ للتو. وبينما كنت أعوّل على الانصراف معهم تجنبا لإغضابهم، ألفيتني ألتفتُ إلى السيدة المتشمِّسة، السيدة التي، ونحن ننظر نحوها بلا خفر ولا حذر، لم تعد وحيدة ولا متحفظة مثل الجنس الفرنسي كله، وأراها وهي تمد ذراعيها إلى الأمام بوسع طولهما، ومن غير أن تفتح فاها، تنادينا، تقول لنا برقة، بحنو، وبرجاء : تعال، تعالوا إليّ، إليّ أيها العابرون، أيها الآتون من حيث لا أدري، الآن أدري أن لكم مكانا بقربي، إلى جانبي، وسأعطيكم، سأطعمكم مني، من لحمي، من كل ما عندي، إنما إليّ اقتربوا، وبين أحضاني العبوا، واطربوا، واصخبوا، ولكم أن تفعلوا بعد ذلك ما شئتم، سواء إلى الأعالي جنحتم أم في الأرض اضربوا. ولم يك قد بقي بيننا وجلستها سوى خطوتين في لهفتي، وفرسخين من العدّ الصحيح، حين أدركت أننا تأخرنا عن موعدنا، وربما فاتتنا بُلغتنا.. وما هكذا يُجازى من أفسح لك المجلس وأوسع لك قلبه بإشارة، فأوعزت لصحبي وصويحباتي أن ما زال في الوقت فسحة أمل لاستدراك، ولنترك طريق المشي البطيء للراجلين، ولنحلق إليها بأسرع من شوقها بأجنحة الحنين.

* * *

كان هذا اليوم مشمسا أكثر من أي يوم ربيعي آخر. سماؤه زرقاء زرقة خلابة، وهي رغم تأخرها النسبي في موعدها، والكرسي الطويل شاغر لحسن الحظ، والرجال المدمنون غادروا إلى جهة أخرى "Et les Mamies, heureusement, ne sont pas là encore". وإذن فكل شيء على ما يرام، تقريبا كل شيء، ما دام لا ينقصها شيء.. أم ترى ؟ ولم يكن منها هذا ظنا ولا سوء تقدير، بل الحقيقة عينها، بل الخوف من حقيقة ظلت تؤجلها، تستبعدها، تلغيها عنادا واستبسالا منها حتى لا يقع المحذور ويسقط في يدها لأنها، هي الحمقاء، لم تحسن هذه المرة ترتيب وقتها ففاتتها سعادتها اليومية، الربيعية، ما يعطي لهذا الفصل طعما لديها، ما يملؤها حبورا كلما جاءت وجاءوا والتمّ الشمل، وبدأ الحفل.

لترخ، الآن، ذراعيها على هواها، فهي وصلت، وهم وصلوا، كل شيء، إذن، حضر. أخرجت من حقيبة يدها الواسعة صرة وطفقت تفك بتؤدة الخيط المفتول حول عنقها. وفيما هي تفعل جاء سرب عصافير ليحط بعضه إلى جانبها في مساحة الكرسي الخشبي الفارغة، وبعضه الآخر حوله إلى الأسفل وبين قدميها، وراح قسم ثالث يتلاعب مقتربا مبتعدا كأنه لم يتخذ بعد قراره. سلت، هي، الخيط بأكمله، فأدخلت يدها اليمنى إلي جوف الصرة وخرجت بها ممتلئة بالزؤان ونثرتها على الأرض برفق فانتشرت العصافير تتقافز تلتقط بمناقيرها الصغيرة هنا، هنا، حول، قرب، هنا، وهي

تنثر لها، قربها، لتلتمّ ناقبة، ملتهمة بسرعة البرق، ومتفرقة من جديد، كأنما يعود إليها حذرها الغريزي من بني البشر. طغا الحبور على السيدة في فعلها، فقد انفرجت أساريرها وبدا جسمها يتململ بخفة متناوبة تظن أحدا يدغدغها من الخلف، بينما أصابعها لا تكف عن الالتواء، صنيع الراقصات بأصابعهن العاجية. هي وحدها من يقيس نبضها، ودرجة غليان مشاعرها، ويستطيع أن يعرف لماذا تنتابها حالة الحبور الكامل فيما ليس أكثر من نثر زؤان لعصافير عابرة، فيما لو تساءل بمكر أو سذاجة. وهو لن يعلم، بتاتا، وكيف له، أنها، بالضبط، ليست ما يتصور، وما هو بمشهد معتاد نرى فيه نساء خاليات البال من أي همّ، ينشغلن بإطعام الحمام أو تربية القطط. هذا وضع آخر كانت ستقول له، الوضع الذي يخصّها، ويميزها لا عن أولئك البلهاوات وحدهن فقط، بل والخلق الذي هي مضطرة لتتعايش معه، سواء جيران العمارة وفي قلبهم الفضولية الحدباء، أو زوار المنتزه السياح، أضف إليهم الشاردين، والمدمنين المقيمين، والجدات مربيات الأحفاد، والخادمات المغربيات المكلفات برعاية أطفال عائلات يعتبرنها مارقة عن الدين، وهن يتفانين في حراسة كلابها ولا يتوقفن عن اللغط في الهواتف النقالة يسألن عن leur bled ؛ وطبعا هي، من تبدو وحيدة، هي فعلا وحيدة، ولا تشتكي من وحدتها، كما لا تطلب سندا من أحد. حسبها هؤلاء الأصدقاء، العصافير المرفرفة إلى جانبها، فوقها، وتحتها، وفوق ركبتيها وعلى طرفي كتفيها، أيضا.

انتبهت، فجأة، أن عصفورين وليدين حاطان فوق ركبتيها. انتبهت أنهما يحدقان في عينيها ببؤبؤ دقيق، ولنظرتهما كلام، بل الكلام صدر يصدُر وقد انفتح منقارهما وقالا بصوت واحد : "ونحن، إننا لم نطعم، الكبار لقطوا الحَبّ كله ونحن جياع، أجل جياع !". لم يدهشها حضورهما ولا الاحتجاج بقدر أنها لم تنتبه إلى السرعة التي أفرغت بها محمول الصرة، من غير أن تميز، كعادتها، بين الكبار الأقوياء، والصغار ضعيفي البنية والحول. كان عليها أن تجيبهما. بالأحرى أن تطعمهما، أو سيبكيان تماما كالأطفال حين يجوعون. وما هي بالتي تغفل عن شيء كهذا رغم أن تجربتها من هذه الناحية قليلة، أووه، لتترك هذا الموضوع، أو إلى حين، فليس وقته، ولتنصرف إلى الصغيرين، قالت، قبل أن يرتفع زعيقهما، ومن حسن الحظ أنها لا تنسى المرور إلى المخبزة وهي في الطريق إلى المنتزه حيث تقتني يوميا نصف خبزة من الطحين الأبيض تضع في ذهنها سلفا لمن تخصصه. تدخل القرص في حقيبتها الواسعة وفي رأسها تدور أفكار متضاربة، لكنها، في النهاية، تعرف ما تريد. على الأقل أين تقصد وتحس بثقة مستحقة حين تتحسس قطعة الخبز داخل الحقيبة، تربت عليها كما على طفل، ولدٍ لها ليس موجودا الآن، على صدر حبيب ليس موجودا، أيضا، الآن، ثم تنظر واثقة إلى الصغيرين فوق ركبتيها وقد أخرجت الخبز الأبيض مثل الحليب، الخبز الرطب غاصت أصابعها في قلبه وهي تقتطع من فتيتات دقيقة، تأخذ تحمل فتَّة، فتّة، إلى منقار العصفور الذي يلتقط الفتَّة ويعيد، وإلى جانبه أخوه أو أخته يفعل الشيء ذاته وعنقهما يتلوى بخفة

ومرح، ورأساهما لا يني يصعد ويهبط تعبيرا عن الشكر والامتنان.

أرخت ذراعيها وساقيها مديدا وقد بلغت من الغبطة والارتياح غاية. كانت الشمس، شمس الضحى، تسخن أكثر وهي ذاهبة إلى الظهيرة، وأشعتها الدافئة تنعكس بعذوبة على وجه السيدة السعيدة وسائر جسمها المعروض الآن للفحها. فكرت أنها وقد أنهت نوبتها الصباحية في هذا الربيع المنعش لم يبق أمامها سوى أن تقفل عائدة إلى بيتها، لكنها أحجمت للتوّ عن الفكرة، فما عساها فاعلة في المأوى الذي تسميه جُحرها، ماذا ينتظرها غير عزلة خرساء، وتلصص جارة عجوز، يا لهذه الحدباء !. إنما الأصعب هنا، قبالتها، فالطائران الصغيران ما زالا فوق ركبتيها يحطان، إنهما يغطان، فكيف توقظهما من غفوتهما بعد الشبع.. لا، كيف تقاوم هي نفسها الخدر الذي يسري دبيبا متموجا في أطرافها، متعسلا على طرف اللسان مذاقا لم تعرفه من زمن بعيد.

سرى النوم فيها، أيضا، كالعسل، بعد أن ارتمى رأسها بالكامل إلى الوراء، وجفناها راحا ينغلقان، بينما راحت شفتاها، شيئا فشيئا، تنفتحان، وعن أنفها يصدر شخير خفيف كالصفير. انتبهت العصافير إلى الصوت فكفّت عن عبثها وقفزاتها لكي لا تزعج سيدتها، وانتقلت لتحط فوق كتفيها وصدرها وسائر أعضائها تدرأ عنها كل خطر محتمل. أما الصغيران فإنهما، وقد ضاق بهما الوضع، استيقظا من هجعتهما ورأيا فاها مفتوحا على وسعه فانزلقا داخله، وهبطا إلى جوفها ليناما عميقا في بطنها. سمعت بُعَيد وقت من غفوتها صُوَيْتاً كالغمغمة، كلثغة طفل وهو يرضع أو يلهو بسكّاتة. إن توقف هنيهة تلاه صُوَيْتٌ آخر هو والغمغمة السابقة سيان، وإن تميز بحدة محسوسة. لم تدرك للوهلة الأولى من أين يأتي الصويتان وإن لم تعدم وجود صلة ما بهما، أيّ صلة هذه، ما تكون ؟! أصاخت السمع ثانية لتعرف المصدر، لكنها لم تستطع بتاتا أن تصدق قدومه من بطنها، فهل ثمة أجِنّة في بطنها، وهل ترسل أصواتا، أم هي أضغاث أحلام ليس إلا ؟! توقفت الغمغمة لكن ليعوضها طرق خفيف تظنه ملامسة أصابع، ولم تحسّ إلا ويدها تتحسس بطنها، تستدير به أعلاه وأسفله فتجده متكورا ومن الجنبين منتفخا. تتنعّم به أولاً، لتعود ساحبة يدها إلى الخلف، تنتابها دهشة مما بها، فماذا دهاها يا ترى لتتلاعب بها الرؤى، أم هو الخرف أصابها ؟! وأيُّ عجب، أو ليس العمر يتقدم بها، ومن شأنه أن يفعل بها الفعائل نظير من تراهم يهلوسون أحيانا في المنتزه بأماني غابرة أو خائبة. يلقون على الدنيا السخط، ويحمِّلون كل عابر سبيل وِزر خيبتهم، وهي متأكدة أنها معافاة من توهمات هؤلاء وأولئك، وأي دليل من أنها.. ها هي تسحب يدها، فمن غير المعقول أن تكون امرأة في سنها حاملا، وعبثا أن تفكر بأنّ ما مضى يمكن أن يُستعاد الآن .. هكذا.. كلا، أبد، أبداً !!

بلى، من الجائز أن شيئا من هذا القبيل حدث في الماضي، عندما كانت متزوجة مثل نساء كثيرات، أي قبل أن تصبح أرملة مثل نساء كثيرات، أيضا. لم يكن يضيرها بقسوة أن لا تنجب، أو قليلا، بينما استمر هو يلح، لا شك لتجنيبها مزيد الألم، وإن لم يُخف هو حسرة في إثبات فحولة يحس أنها مفتقدة. ثم جاء كل شيء صدفة. أجل فما زال ذلك اليوم حاضرا بدقائقه كاللحظة، كهذه الغفوة اللذيذة، كغمغمات ومصمصات تتناوب التصويت في جوفها، تتلاعب بنومها وتزخرف سماء أحلامها. تعرفت على الأمر بالصدفة، حين اشتد الوجع ببطنها، ولم ينفع المسكّن، فانتقلا معا إلى المستعجلات، وأخذوا لها الصور، وهنيهات جاء الطبيب ليخبرها ـ من عجب، مستهزئا ـ ولكنك يا سيدتي حامل، وتقرعين رأسنا بوجع المعدة ! وزاد طينه بلة مضيفا : "Ce sont même des jumeaux, chère Madame !". وهي لا تنكر أنها فرحت، وأن حياتها تغيرت من لحظتها، وأن الشمس أصبحت تشرق من بطنها وفيها تغيب، وكذلك القمر، والزهور التي تتفتح داخلها أجمل من كل باقات الأرض. ولن تنكر تجوالها المحموم بين أروقة ملابس الأطفال في باريس طولا وعرضا كأنها ستنجب فيلقا، ولن تنسى تمنّعها عن الزوج المسكين الذي بات ينام فوق الأريكة مخافة أن يضغط بثقله على التوأمين، ولن تنسى مشيتها المتثاقلة باصطناع واضح، رغم أن حملها إنما في أوله، همها إغاظة شامتات معلومات في الحي، والثرثارات منهن خاصة بين المخبزة وصالون الحلاقة. وحتى لما ذهب كل شيء بالصدفة التي جاء بها، ولم تسع إلى معرفته إلى الآن، ظلت تواصل لأسابيع مشيتها المتعسرة. بينما كانت خطواتها المتعثرة حقيقية في الطريق، والغيمة المتلبدة صورة من الدم المكبّد الذي لطخ سريرها تلك الليلة، وليال توالت لم تعد ترى فيها غير مساحات دم تغطي أبدا وجه الليل وتطفئ ضوء المصابيح. ووجهه، أيضا، الذي اختفى لم يعد يتحمل أوجاعها، انفردت بها، ومعها عاشت، وستعيش إلى أن.. سمعت نقرات في جوفها، أم في بطنها، تهيأ لها معها أنها استيقظت في نومها، بينما جفناها ما زالا مغمضين، فنزلت إلى داخلها من شفتيها المفتوحتين، وانزلقت عميقا حيث وجدت فراشا وثيراً ينام عليه طفلان يتكئان على وسادة من ريش، عيونهما مفتوحة، وبين شفاههما مصاصة يتلهيان بها وهما يلثغان ويفركلان، فأخذتهما إليها بالحضن، وعندئذ فتحت عينيها مستيقظة من غفوتها فرأت عصفورين يقيمان الحراسة على كتفيها، واثنين بين قدميها، والصغيرين كالجنينين يحطان فوق ركبتيها. ولما أيقنا من استيقاظها بادراها : "أو ستبقين هنا، ألا ترين أن الشمس تحمى ؟!" فنظرت إليهما مبهوتة لا تحار جوابا، ومن تمّ تابعا : "أميييي قومي، لقد كنا دائما معك، ولذا لن نتركك، لا اليوم ولا غدا وحدك". وفيما هي تجمع أغراضها ملتقطة في آن أنفاس دهشتها جعلاها وسطهما وأعارها كل واحد من جناحه، أعطياها جناحين، وحلق السرب إلى أعلى عليين.

باريس في 2005/11/01

فرض المساء

ربيعة ريحان

كنت منفعلا من البرد والدهشة وأنا مكوم على نفسي، حين كان أبي لا يزال واقفا على رأسي، يجردني من الغطاء. أمسك بي من معصمي وجرني إليه ، على نحو ما يفعل الأصدقاء، حين يأتون مبكرين، حاملين البشرى إلى نظرائهم الكسالى، المعتادين على النوم إلى الأصيل.

لم أكن لأستجيب لجره. كنت مكتنزا ككيس مليء بالبذور. تجاهلته وأنا أفرك عيني وأرتخي. كانت تلك هي المرة الأولى التي لم ينزل فيهاعاليا زعيق أمي على سمعي كاللكمات، وهي تدعوني بفظاظة للاستيقاظ. كنت أجننها بلا تجاوبي ورغبتي الحرنة في مواصلة النوم.

ـ حسنا، ألا تريد التلفزيون ؟؟.

سمعت من خلف لذاذة الاستغراق أبي. كان لدي شعور بأنني أقشعر. بعد سماع اللفظة اصطكت بالفعل أسناني وغمرني أوار صاخب. تلفزيون ؟؟؟...

ـ احذر.. أنت من سيدفعني إلى العودة للنوم.

انفلت كدلفين من الفراش، حيث كان أخي لا يزال غارقا في سباته المعسول. هرعت إلى الحمام ثم عدت سريعا جاهزا، أقف أمام أبي بشعري المنتصب المبلول الشبيه بشوك قنفذ، تأخذني رعشة خفيفة وأنا أنظر إليه غير مصدق، مركزا عيني الطافحتين بالفرحة والاستحسان ويداي خلف

ظهري.

ـ ألن تفطر؟؟..

كان أبي قد سبقني ولاشك. فكرت في شاي أمي اللاهب ، لكنني خفت أن نتأخر بشكل أكبر، ثم أنني كنت أدري أن لن أهون على والدي، ولن يتركني لألم الجوع ونقمته.

عند أول منعطف ستهب مشتهاة رائحة زيت المقلى من دكان ميلود، بائع الفطائر الإسفنجية اللذيذة، وسيشتري لي منه فطيرتين أو أكثر، تلك التي لن أمنحها الوقت لتبترد، بل سأزدردها في هجوم ضار والزيت لا يزال يفور على سطحها الذهبي اللامع !!..

كان حدثا أن يحصل ذلك.

بعد كل الجور واللامبالاة يتم الرضى عنا. ننتقل من الإضاءة بالشمع ولمبة الغاز إلى الكهرباء.

حين ذبلت أعيننا أتى يوما رجال. نصبوا أعمدة ثم بعدها أتوا بأسلاك نحاسية في لفات كبيرة، كانت تلمع في القيظ ونحن نتحلق حولها. لم يكونوا حذرين وهم يتسلقون الأعمدة ببدلاتهم المتسخة الدكناء ويربطون الأسلاك، لكن بعد أن رحلوا تركوا رسما مخيفا على لافتة. كان تقاطع العظام بالجمجمة يفتح قلوبنا على أن البعد منها، يجنبنا إمكانية حدوث الخطر !!..

أنيرت دروبنا الطويلة المتربة دفعة واحدة، في كتامة ذلك المساء الصيفي، لكن أكثر البيوت كانت عاجزة عن دفع الرسوم، فظلت على عماها فرحة فقط بالإنارة المتوهجة، التي نابها منها نصيب، بحكم قربها من زاوية المصابيح في أعلى العواميد الخشبية المشققة.

في المساء الذي أعقب الفرح، جاءت البنات وقعدن أسفل عمود نور. شكلن حلقة ثم غنين على إيقاع التعارج أغنيات طويلة تائهة، وهن ينظرن مباشرة في عيون الأولاد. ربطت إحداهن وسطها وتلوت. تعالى الصفير فجاء أخوها وصوب نحوها صفعة، ثم شدها من شعرها نحو البيت.

سعيد، ابن الحي وطالب الفلسفة، حد كثيرا من نداوة فرحة الناس وهو يعبر جنبهم، حين أعلمهم واثقا أن اهتمام الحكومة لم يكن بهم، بقدر ما هو ضبط أمني. فهم بسبب جرائمهم الكثيرة وازدهار حيهم كوكر للدعارة والحشيش، فكروا في بريتهم عسى أن يصطادوا ظافرين رؤوس الشغب !!..

ـ أولاد الكاااااالب ؟؟..

علق التهامي المحشش دوما والمهلوس، والذي من ولعه كان مستعدا لتقديم حياته مقابل نفس طويل زائد من غليون الكيف. كان يدري أنه لا يستطيع العيش متآخيا مع عذابات حرمانه. آزره

بقلق بوجمعة الشاحب الملقب بكماي، مسلك المجاري والمواسير :

- أولاد الكلب وخلاص ؟؟.. أولاد ال....

- ما يجي من وراهم خير، ما ترى باس.

- فالحين غير في السرقة والرشوة.

فرح سعيد وهو يرى مفعول تدخله، فقال كلاما آخركبيرا للمزاليط جعلهم يدوخون. رمى جملا عن داروين وماركس ولينين والثورة والصراع الطبقي ثم غادرهم.

كان ثمن التلفزيون باهظا قياسا للمداخيل، لا يتوفر لسكان الحي من أصحاب العربات والباعة المتجولين والعمال البسطاء . لكن أبي الذي ترقى في عمله ككبران في معمل التصبير، كان عليه أن يرضخ لي ولرغباتي، أنا شبله الذي لم يلده إلا بعد أن فضض الشيب شعره، وطلق من أجلي خمس زيجات .

يوما بعد يوم، عرفت كيف أحد من جسامة مقاومته.

حين كنت وأبي في طريقنا إلى متجرالوزاني بشارع الرباط، كانت قد سبقتنا إلى الحي ثلاث تلفزات، اثنتان بمقهى الحاج مسعود ومقهى المويسية، والثالثة ببيت قدورالعدل المرتشي اللعين .

وعلى خلاف هؤلاء جميعا، سيصيراستواء باحة بيتنا الأرضي الطويل، بهندسته الساذجة، ملاذا للجيران، وستشكل قعدات الناس فيه ديكورا ثابتا في الأمسيات الحافلة.

بيت العدل ظل مغلقا. كان فاسقا يتقن ألوان الرياء. يقفل البيت على نسائه، بينما يمتد ظله المتطاول بخفة خلف مؤخرات المارات وعيناه ترصدان النوافذ. كان صوته يفقد الكثير من وضوحه وقوته.

- ماشاء الله.. ما شاء الله !!..

يهمس لهن بخبث ويداه تضيقان على بطنه داخل جبته.

لم تثر ثائرة أمي أبدا، وهي تستقبل في بيتها ذلك الحشد من الناس ولم تتذمر، مع أنها بشبابها الريان كانت سيدة البيت وحاكمته. ظلت مطيعة مرحة، تقدم الشاي لجاراتها القريبات اللائي يحضرن زمنا قبل الغير.

لحسن الحظ أن محطات ثلاث فقط هي ما كان يشد الناس، ويأتي بهم جماعات الى بيتنا، سهرة يوم السبت، ومسلسل le fujitif الذي كان يستقطب الشباب، ومباريات الفريق الوطني.

سهرة يوم السبت المبثوثة من عين الشق بالدار البيضاء، وحدها كان جمهورها مختلطا.

فرحة الحضور بالشيخات، والثنائي قشبال وزروال، واسكيتشات عبد الرؤوف ولقطات الكاتش للحاج فنان، كل ذلك كان يزرع نوعا من الاستهتار في الحلقة والاستعداد للهيجان. بيد أني كنت أضبط برنوة حاسمة مني، أي عنف جسدي مكتوم أو إساءة مدبرة تصدر بين الأطفال، لكنني كنت أعلم فيما بعد، أن أكثر من أصبع وسطى كانت تمتد نكاية إلى المؤخرات !!..

كنا نرتاح حين تأتي سيدة الطرب. كانت النساء يخلطن في الحساب ويقبلن. لكنهن كن يخلفن جوا آخر تآمريا وهن يسحبن أولادهن ويغادرن غاضبات على عجل، شاتمات بحقد وكراهية صورة أم كلثوم على الشاشة. لم يكن ذوق الناس على مزاج آهاتها وتلويها.

صبري الحصيف ورصانة أمي، عصف بهما فيما بعد ذلك الإفراط. ومدى البهجة التي كنا نستشعرها، بكوننا قبلة للامتاع ضعفت. لم أعد كما في السابق، متلونا بزهوي الخاص في أن كل البنات يكلمنني، أو يدفعنني الى نوازع السقوط في حبائلهن، لأن أكثريتهن كن على استعداد لاقتراف الحماقات والفعل الحرام.

بقي فيما بعد أصحاب الوالد وكذا أصحابي، الذين يأتون مشوشين بالقلق الذي يسببه لهم الجهازالدافع، في بيوتهم الواقعة بين مستشفى عقبة بن نافع، حتى باب الشعبة البعيد. كان جهاز البث ضعيفا لا يترك من الصورعلى شاشاتهم غير الطشاش. كنا نوزع عليهم كؤوس الكولا وكعك البيت الذي تصنعه أمي كالأساور، ونتفرج في صخب على المباريات.

بعد الفرجة، كانت مهمتي أن أخرج مع الأصحاب. أوصلهم إلى حدود مستشفى محمد الخامس عبر الأرض الرملية الخلاء، التي كانت تنشر عليها شباك البحرالمتهتكة، ليخيطها البحارة المتعبون. كنت بذلك أجنبهم بدقة إمكانية أي هجوم محتمل من أولاد حينا الشرسين، في الممرات المظلمة، حين يغيب طيفي وأطياف آخرين منا يعاضدونني.

ومع كل الحيطة والحذر، كانت تحصل أحيانا عركات. حساسياتنا الفكهة حيال كل شيء لامع ونظيف كانت تستفز السكارى والمحششين من أبناء حينا، فيلمسون بدعارة خدود الزوار، فتشتبك الأيدي والأقدام.

لم يكن من شيء يجعلهم ينهون على شبه خير ذلك الاقتتال الدائر، عدا سماعهم وعيد الأولاد.

- اعقل دين أمك. ستدفع الثمن غاليا أمام السينما.

فقط ساعتها يلين العراك، وينتهون إلى أن يبدوا الوسائط الشبيهة بالمداعبات. لكن بازديادالغضب كانت تحصل أحيانا مشادات.

أمام سينما الأطلس كان يعسكر أولاد حي رحاة الريح، وأمام رويال يصلب عود أولاد الصقالة وشارع الرباط. ونحن حين نصل إلى هناك بوجوهنا المبللة بالعرق، نكون بحاجة إلى من يدرأ عنا لسعات الأحزمة حين تتلوى حول الآذان !!..

كنا نتشنج خوفا ونحن نبحث بالأعين عن طرق تجنبنا شر ما اقترفناه. نسمع بغتة تلك الصرخات المفجعة، فنعض على أسناننا من القلق :

ـ ها هم جاو. ودابا حصلتوا دين أمكم ، صافي ؟؟. الحصلة تجيب البصلة.

ثم نسلك السبل الملتوية للاقتراب من الناس الطيبين بحثا عن التسامح، ونحن ندعي أننا أبرياء، أو نندس خلف النساء المختلفات، نمسك بطيات لحمهن، فندوخ من العطر المسكر الذي يمنحنا عسل الشهوة وشروط الانتصاب. لماذا كنا نغامر بالمجيء، رغم كل ما يلوح قريبا من سيرتنا المارقة ؟؟..

كانت حاجتنا حتمية للذهاب. من يقوى على مقاومة إغراء ملصق لفيلم هندي أو كاوبوي على ظهر جدار طاحونة الحي؟؟!!.. كنا نلقي عليه نظرات طويلة حالمة، ونحدق في الوجوه ثم نشتعل بالرغبة.

نتفارض للبعض، الذين يعيشون أعطاب الفقر، من أجل أن نكمل جمع وتحصيل درهمين، لكن الأسوأ أن نجد التذاكر في أيدي الصغارالأعداء، سماسرة سواد السوق. سكيريدا الصعلوك كان يعرف كيف يحررنا من الورطة بالنصب والوعود. أما نحن فطاقات مخيلاتنا كانت تبدو ساعتها ملجومة !!..

أتكلم بلسان حال أولاد حينا، أما أنا كنت مستثنى من هذا الضنك، لأنني مسالم بطبعي وعاقل. لم أكن أقطع الليل ممتطيا صهوات الجنون. لهذا كانت علاقتي بأولاد هذه الأحياء بعيدة عن تبعات الثأر الموجعة، إضافة الى زمالاتنا في الفصل، فنحن لا نأتي إلى سينماهم فقط، ولكن أيضا إلى الثانويات التي لا أحد يفكر في تشييدها قربنا.أسأل نفسي الآن : لو لم يعم النور، وقسيمات السلف المنهكة، ما الذي كان سيرفع كلفة الحرج، ويقينا عثرات القنوط ؟؟..

... لذا حين حل الفيديو، كان جزءا هاما منا كشباب، قد لاقى مصائره، بينما راحت الأمهات خلف ستائر غرف الجارات ، يكرعن كؤوس الشاي، ويطلعن الأفلام المخبوءة ليشتعلن بالفوضى والهرج، مبهورات من عري الأعضاء والممارسات الحرجة التي يرينها كما عند الحيوان، لكن بتنهيدة الوله، وكأنهن يتابعن درسا لفروض للمساء !!..

ملاحظات حول الأبواب

أنيس الرافعي

على الرغم من كَوْنِـ(ي) كنت موصدا بفصاحة على نفسـ(ي) مثل البلاغة القديمة داخل هذه الغرفة الباردة أكثر من جسر صوب البحر، فلم أكن ـ كما تقتضي اعتباطية السياق والوهم المرجعي المصاحب لها ـ لوحد(ي) تماما:

فقد كان ثمة جهاز (V.C.D) يكشر عن شهقة الجاز. وكان ثمة كرسي يمد أرجله الأربعة على طريقة "أبو حنيفة".

أيضا، كان ثمة نافذة بقياسات محبطة. وكان ثمة ستارة بلغت من البياض أرذله.

أما الساعة الحائطية المعطلة منذ ما لا يدري أحد والمروحة التي تذعن لإجازة مفتوحة، فقد كانتا مباشرة فوق دولاب مبقور البطن.

وبالإضافة إلى الصنبور الذي كان يحرز أرقاما باسقة في التنقيط (لأنك نسيت ـ بخلاف العادة ـ إحكام غلقه قبل ولوجك إلى الغرفة على ما يبدو !)، فقد كان ثمة شراشف وملاءات شيمتها الفوضى.. أصص جميلة كالمعاصي.. كتبٌ ومزق جرائد بعشوائية لا تغتفر.. مشجب أجرد على الإطلاق.. وملابس من مختلف الفصول كالزغب المقصوص.

هذا دون إغفال حقيبة السفر المنزوية بعيدا في أقصى مهنة الظلام من أجل ممارسة أفضل للعزلة.

وطبعا ـ وكما هو ضروري لديكور قصصي بالغ التجريب يدعي بوقاحة أنه يندرج ضمن خانة "ما بعد السرد" : فقد كان ثمة ـ أيضا ـ دخان كثيف وسعال جيد !

هنا، وعلى بعد أمتار وجيزة منـ(ي)، كنت تزاول السرير. النصف السفلي مضمر في سخونة البطانية. العمود الفقري ينعم بدعم لوجستيكي وافر من إحدى الوسائد. والرأس مثل كوبرا مقلنسة تجسيد عملي لفكرة الإطراقة. إطراقة عميقة لرجل عاد لتوه من الإيقاع الطاحن لآلة الحياة كي يجد الأرق (شخصيا !) جالسا في المقعد الأول لقاعة جسده.

هنا، في كنف هذا الفضاء المكاني المستعار مع تعديلات طفيفة للغاية من النمط الحقيقي لعيش المؤلف. عرضة لمصباح جانبي يقترح ضوءا متعافيا وتحت رحمة الأحابيل الغامضة مثل الهيرمنوطيقا لرواية مدهشة ("الحياة الجديدة" لأورهان باموف إذا لم تخنـ(ي) ذاكرة التلصص !)، كان من الممكن أن تسرف في القراءة إلى أن يغزو يقظتك كل نعاس العالم وتنام. عندئذ كان كل شيء سينتهي بحياد مطلق وعلى نحو موضوعي خالص، لكن تلك البرهة الضئيلة التي أخرست فيها القراءة، ووضعت الرواية جانبا :

هل لتحرق سيجارة إضافية عن طيب رئة، وتطير عاليا.. عاليا في اتجاه السقف دخانها بأجنحة لا مرئية ؟!

إذا كان الأمر كذلك، فشكرا للسجائر !

هل لتشغل ورشة يدك القاتلة، وتسدد ضربة دامغة.. دامغة للذبابة التي جنحت إلى أرنبة أنفك؟!

إذا كان الأمر كذلك، فشكرا للذباب !

هل لتبحث عن قرص أسبرين طائش، كي تطفىء حفنة من بلدوزرات رأسك الهادرة .. الهادرة؟!

إذا كان الأمر كذلك، فشكرا للأسبرين !

أم هل لتتيقن ـ كعادتك المرضية في الحرص ـ أنك وضعت فـ(يّ) المفتاح فعلا، وأغلقتنـ(ي) جيدا.. جيدا على نحو لا يقبل الدحض ؟!

إذا كان الأمر كذلك أو حتى إذا لم يكن كذلك، فشكرا.. شكرا جزيلا للأبواب !

المهم، أن تلك "البرهة الضئيلة" كانت كافية بالنسبة لـ(ي) للاسترسال في الحكي. وهي ذاتها التي

جعلتك ترفع عينيك على نحو عرضي صوب اللوحة المسندة إلى الجدار قبالتـ(ي) في مواجهة سريرك بالضبط. لوحة مستنسخة لـ"فرناندو بوتيرو" غرستها هنا بمسمار الرومانسية يد أنثوية عابرة، ثم مضت ذات خصام تاركة إياها في مهب الغرفة مثل جملة ناقصة. لوحة كثيرا ما مررنا عليها نحن ـ الاثنين ـ ببصرينا مرور البخلاء ككل الأشياء التي تنمو بالقرب منا دون أن نقرئها كسرة انتباه أو ننشب التخمين في حيواتها السرية.

لكن في هذه الليلة تحديدا وكما يجب أن يحدث فيما بعد حسب رسيمة الحبكة، كان ثمة وازع جمالي ملح وملتبس سوف يستدرجك تدريجيا وسيدفعك خلسة لتكرس لها نظرك وتعيث فيها تحديقا. مركزا ـ أولا ـ على المقاييس اللاموضوعية أو بالأحرى على ذلك التشويه الفيزيائي الذي عرض له هذا الفنان الكولومبي المهووس بالسمنة كلا من المرأة والرجل حتى أضحيا أشبه ببطاطتين عملاقتين، ثم ـ ثانيا ـ على التضاد اللوني الصارخ بين كل من الخلفية والمنزل الريفي الواقفين على بعد خطوات محترمة منه (المرأة والرجل أقصد !). المنزل أحمر / فاجر / وكاريكاتوري مثل حنجور مائع دعكته أصابع لا آدمية. أما الخلفية فليلكية / جادة / ومنارة بعين قمر يهرع في المشهد كجديلة شعر ناصع السواد عليه ندفة ثلج.

ودون أن تفارقك عيونـ(ي) الساهرة بسنتمتر سهو واحد. واصلت بدورك الاختلاء إلى اللوحة حتى أرداك السرير غافيا، لكن عندما أطبقت محجريك وجدت نفسك تنهض في مخيلتك وتلج بكامل جسدك اللوحة. ها أنت الآن في المستوى (أ). تمر من جانب المرأة والرجل بأقصى ما سمحت به قدماك، ثم تفتح باب المنزل الريفي وأنت ترسل تنهيدة غائرة كتنهيدة حطاب جز لتوه شجرة عتيدة. داخل الفناء، تتوقف عند المكتبة أطول مما يجب دونما اكتراث بالإبطاء الذي ألم بسرعة السرد. تصعد السلالم، وتلج إلى إحدى الغرف. وبالمصادفة تجدها شبيهة بغرفتك الأصلية عدا كون المحتويات التي كانت على اليمين أصبحت الآن على اليسار. فعلى ما يبدو أضحت العلاقة انعكاسية بين الغرفتين. تستغرق في سريرك الجديد الذي غادره "أورهان باموف" إلى وجهة مجهولة (وهو الأمر الذي نعني به غياب الرواية !)، وتبذل قصارى بصرك صوب اللوحة. تنام مجددا وتستيقظ في خيالات جمجمتك لتلج اللوحة مرة ثانية. ها أنت، إذن، قد وصلت إلى المستوى (ب).

من جانب المرأة والرجل، تفترس شياطين الإيقاع السريع في قدميك المسافة (هذه المرة كاد الرجل أن يلمحك !). تدرك الباب. تستدرك الفناء. تتدارك المكتبة وسرعة السرد. تصعد السلالم، وتلج غرفة أخرى شبيهة بغرفتك الأصلية. تلفي انسحاب السرير، فتنتصب وسط الغرفة، وتفتر عيونك عن المزيد من النظرات صوب اللوحة. لا تنام واقفا، لكنك تتجاسر على الارتماء من أعلى

نقطة في خيالك الرهيب وتغرق مجددا في اللوحة. من دون ريب، لقد وصلت الآن إلى المستوى (ج).

* * *

تمرق للمرة الثالثة من جانب المرأة والرجل خفيف كوبر غيمة. تعاود تباعا الباب والفناء والسلالم دون أن تبلغ من الدهشة شأوا بعيدا لاختفاء المكتبة. تلج نسخة كربونية من غرفتك الأصلية. ومن عرض السرير تتشبث باللوحة مجددا. تدخل إلى منطقة النوم في جسمك وتفتح عيون مخيلتك. لكنك قبل أن تدخل مرة رابعة إلى اللوحة في المستوى (د)، يسترعي انتباهك أسفلها الوجود المتقن لباب سري. تحاول فتحه بشتى الأصابع، لكن الباب يتفوق على يديك.

يقر عزمك على العودة من نفس طريق الذهاب، منحدرا عبر طرق ذهنك المبتكرة من المستوى (د) إلى (ج)، ثم من المستوى (ب) إلى (أ). تغادر اللوحة وها أنت من جديد تسقط صريع سريرك الأصلي. في هذه اللحظة، كنت أراقبك وقد استولت عليك تماما فكرة الباب السري.

وفيما بعد انشغلت بأمور أخرى، لكن(ي) كنت أعلم أنك لم تتب عن اللوحة أو تستغفر. كل ليلة كنت تواظب على جولاتك عبر المستويات الأربعة، وعندما ينالك الباب السري تبذل محاولات مضنية لفتحه لكنها تذهب برمتها أدراج الفشل، وفي غضون هذه الجولات، كنت ـ طبعا ـ تصادف بعض الطوارئ غير المتوقعة فتعود على عقبيك إلى قواعدك سالما : كأن تستفرد بالمرأة والرجل منهمكين في عري كامل داخل أحد الأسرة. كأن تولي الأدبار بعد أن يلمحك الرجل أو ترفع المرأة عقيرة الخوف. كأن لا تجد السلالم أو تكتشف أنها مختصرة كقصار السور. أو كأن تصطدم بالفناء غاصا عن بكرة أبيه بالضيوف... وهلم طوارئَ !

لكن في إحدى المرات، حملت معك مطرقة كبيرة الحجم. وعند وصولك إلى المستوى الرابع، أفلحت في تذليل أكرة الباب ودخلت. ينغلق الباب من خلفك كالصّفعة. تحاول.. وتحاول.. مرارا وتكرارا .. لكن الباب يصر على تجريدك من ذريعة الفرار. تجد هناك غرفة شبيهة بغرفتك الأصلية (هذه المرة كانت محتوياتها تقع في الجهة اليمنى وقد صارت متشحة بالذبول ومكتهلة الألوان !)، لكنها كانت غفلا من أية لوحة تمكنك من العودة أو بالانتقال إلى مستويات أعلى أو أدنى .. وبقيت هناك ـ يا عزيزي ـ محبوسا إلى الأبد .. وحد(ي) من يعرف ذلك !.

البيضاء، 2005

رقية

لطيفة لبصير

.... يصرخ. أفقت مذعورة جدا، الوجه العبوس القمحي الذي طالعني ثلاثة أشهر، بصقت على وجهه، فأمسك بشعري، ووجه لكمات إلى فمي... أنا هنا جثة من لون آخر، ركلني وهو يقذفني إلى المطبخ :

ـ سيري وجدي القهوة... ألحمارة...

خمنت أن أطير من النافذة... النافذة بعيدة ونحن نقطن في إحدى سطوح عمارات إسبانيا، والسطح بعيد جدا عن الأرض... لا أريد أن أموت، وهل ما زال في جثتي ما يعشق هذه الحياة مع هذا الرجل الذي لا أعرفه، والذي أشاطره الفراش ثلاثة أشهر كاملة، وأنا أتقزز من رائحته العطنة؟ بدت القنيطرة بعيدة جدا، والشوارع الزرقاء اكتست أبهى حللها الآن... ولكن كيف أعود إلى تلك المدينة التي بدت نائية، وكيف أكرر نفس الرحلة ؟ لا أعرف شيئا، بل إنني لا أعرف حتى لغة هذا البلد.

أمي بدت بئيسة جدا وهي تدس عشرة دراهم بمحفظتي، أخبرتني أنها لا تستطيع أن تمنحني كل يوم هذا المبلغ، فقد يحدث ثقبا في مصروفها اليومي ؛ وبشكل ما عانقتني كأنها تقول لي :

ـ أنا راضية عليك آبنتي... غير ديري اللي بغيتي...

كنت راغبة في شيء من هذا القبيل، المعامل في هذه المدينة لا تعمل إلا موسميا، والإجازة التي حصلت عليها رميتها في درج المكتب ومعها صور جميلة أخذتها أيام الجامعة وأنا أقدم عروضا نقدية في الحداثة والشعر... بجوارها صور عبد الكريم الذي جعلني أحلم كثيرا وتزوج بمجرد حصوله على عمل من فتاة أخرى... كل ذلك بدا حلما أحمق سأظل أتذكره فيما بعد.

محمد سعيد يتربص بي، تلقبه زميلاتي صديق الفتيات... كان يحوم عليّ كالفراشة، كنت أعتقد فيما قبل أنه يحبني وقد يرغب في... فبدأت أتزين له... هكذا أمسك بيدي ذات يوم وأخذني إلى منزل واسع عريض كان به رجل هرم... هذا الرجل الذاهب إلى القبر ما زالت لديه رغبة تحرك أصابعه... دغدغ بيديه المرتعدتين ثديي وهرني فيما بين الفخذين... وصار يدس كل مرة حزمة من المال في حافظتي ويرجوني أن أعود.

كان محمد سعيد يلتهم مني المقابل كلما خرجت من منزل ذلك الرجل... أي صديق هو محمد سعيد ؟! بدأ يستعطفني أن أعود مرة أخرى وثالثة ورابعة... وكنت أنا أحصد النقود وأرمي له بالبقايا وهو يقبل يدي ويقسم :

ـ كم أحبك أيتها المرأة المدورة... الحنونة... الدافئة..

كنت أصرخ في وجهه :

ـ أية امرأة تحب يا رجل القاذورات...

محمد سعيد لا يغضب أبدا، يحشو جيوبه ويعد بالحلم القادم. قال لي :

ـ أنت كنز... ينبغي أن ترحلي إلى إسبانيا... هناك تصبحين امرأة ثرية...
ـ وكيف سأرحل ؟
ـ سترين... سأهيء لك طريقا...

صرت أحلم كثيرا... ارتديت ملابس جميلة وركبت سيارة أنيقة وحتى أمي حجت إلى بيت الله...

وفي يوم ما جاء محمد سعيد بصحبة رجل قمحي، بشوارب غليظة وابتسامة داكنة، قال لي إنه يعيش في إسبانيا منذ مدة وهو مستعد للزواج الأبيض، وهناك تنفصلان وسيضعك في إمرة سيدة إسبانية ستدفع لك نقودا كثيرة... ستكونين خادمة...

ـ خادمة ؟

ـ الخادمة في إسبانيا مثل إطار بنكي هنا، صدقيني !

كان علي أن أدفع مبلغا كبيرا لقاء الزواج الأبيض. اشتغلت لأيام متوالية. أتذكر الآن أنني لعنت الزمن في سري... الرجل المنحوت من الوسخ يعيش في إسبانيا، البلد الساحر والعيون الجميلة الزرقاء والتنانير القصيرة..

أفقت على صوته من جديد :

ـ رقية، فين غبت آ... ديما تفكري... فين القهوة ؟

وضعت كأس القهوة قرب رأسه، منذ قدمنا إلى هنا وأنا أنتظر أن أنتقل من خادمة له إلى خادمة في البيوت ؛ أريد أجرة... هنا أخدم دون أجرة، ثم لا أدري لماذا يتمسك بي ولا يريد تطليقي هذا البشع.. أنا هنا في هذه البلاد الواسعة، لا أعرف أحدا، الفقر هنا له لون آخر، فقر بعيد عن الوطن، تشعر به يتما مضاعفا، وهذا المارد الأبله يزيد من حنقي.. جرني من قدمي وامتطاني مثل دابة مسعورة.. صرخت في وجهه :

ـ ابغيت نخدم ... طلقني...

يبتسم كعادته بأسنانه المسوسة ويغيب... سأركض إلى الخلاء، ولكن لا أعرف أحدا وقد أبيت في الشارع، ثم إنني ما زلت متزوجة من هذا المسوس.. هذا الرجل القمحي أحضر كائنات غريبة في المساء، بدأت توشوش في الغرفة المجاورة... قال لي : هيئي العشاء... بعد العشاء دخلوا تباعا وهو يقف في الباب، الزوج القمحي ينظر بعيون نهمة إلى النقود...

كدت أصعق من الحنق، رأيت نفسي بظفائري المتدلية والمعلمة تربت على كتفي حين قرأت النص دون ارتكاب أخطاء، قالت للتلاميذ :

ـ سيكون لها شأن كبير... سترون...

كنت أتنطط من الفرح :

ـ هل سأصبح معلمة ؟

تضحك المعلمة :

ـ ستصبحين أكثر.

لازمة الضمائر

محمد اشويكة

أنا :

أنا... أقُلت أنا ؟... نعم اللفظ والمعنى...

أنا يا سيدي الذي اتهمتني العشيرة بسرقة كتاب الحكي المقدس للجد الأول، وتغييره بكتاب الحكي المدنس للسارق الأول في العشيرة... أنا الذي ذبحت المعاني وشنقت الكلمات وطردت الملائكة من المتن المقدس... تُهْمتِي صعبة ولا ينفع معها الهروب أو الاستسلام...

أنت :

أنت... أقول أنت... نعم الحكم والخصم...

أعترف أمام الملإ في حلبة الحكي المقدس هاته بأنك جدي، لكنني لا أثق في أهليتك للحكم... أنت من أراد أن يدخلني عنوة إلى عالمك الذي لا يمت بأية صلة لعالمي... عالمك مقدس وفيه كتاب وخنجر... عالمي مدنس وفيه عقل وبنصر... أنا لا أريد قتلك أو صلبك، ولكن تعايش معي ولا تكن متعنتا. اتركني يا جدي ألبس لباسا بمقاسي، ولا تكن قاسيا، عساني أنهج سبيل السلام في التعايش معك، ولا أكرر أغلاط الميثولوجيات الأولى...

هو :

هو... أقول هو... نعم الشاطر المنشطر...

قال إنني تسللت إلى البيت المقدس ليلا، ودست على الزرابي المقدسة بحذائي الأمريكي الوسخ، وشربت نبيذ الجد المقدس الذي لا يسكر ؛ وهتكت إحدى جواريه المفضلات التي يحتجزها ويتمتع بجمالها، بعد أن تعطلت أجهزة الدفع البيولوجية عنده... هو الذي عاين وحكى... استطاع جدي أن يوظفه ليكون حارسه الشخصي، وحامي رأسماله، والقيِّم على نبيذه وجواريه...

أنتِ :

أنتِ... أقول أنتِ... نعم البطة البضة...

أنت التي اعترفت أمام الملإ، بدون سوط ولا استنطاق... قائلة إنني راودتك عن نفسك... واستسلمت لسحري... أنتِ التي اعترفت بأنني لم أستعمل العنف قط ضدك... لماذا تطالبين بإعدامي ؟!

أنتِ التي كانت رسائلك الممهورة بقبلاتك البنفسجية تصلني ملفوفة وسط نفايات قصر جدي... كنت تقولين إنك متحررة وماجنة... لا ينقصك سوى ماجن صعلوك مثلي...

الآن زال كل حجاب وأصبحت عارية... أنت زانية لغويا، وخائنة كما يقول جدي، وشعار نِسْوَانِي جريح أمام الجماهير الآن... إن تغيير السمت لا يعني تغيير مجرى الطمث...

هي :

هي... أقول هي... نعم القول والبول...

هي لا تضجر قط، ولا تمل من طلعة جدي البهية... قائمة دوما... واقفة أبدا... شاهدة على كل شيء... مستعدة للإدلاء بالشهادة ولو لم تحضر... حاضرة ناظرة... جاحظة العينين... حمراء الشفتين... لم أر قط في يوم من الأيام بأنها حاضت أو بالت أو تغوطت... بل لم تقل الشائعات بأنها باضت... هي الأنثى الأولى في قصر جدي... لا تخالفه... لم تألفه... لا تعاكسه... لم تسر معه... لا تحابيه... لم تضاجعه...

هي الآن حاضرة في الحلبة...

نحن :

نحن... أقول نحن... نعم المحنة واللحن...

هل العيب فينا أم في جدي ؟! إذا كان العيب فينا، فليسر جدي فوق جماجمنا منتعلا حذاءاً رياضيا برؤوس حديدية حادة، وإن كان العيب فيه، فليلازمها (هي) لأننا لا نقدر على قتله، وأكبادنا الرهيفة لا تتحمل كمده... نحن لا نستطيع القتل بهاته الطريقة الطريفة المتهتكة... نحن لا نقدر يا جدي على السكر من ريع مدخراتك... نريدك دائما حكاء بيننا لخرافات الزمن الغابر : زمنك... لماذا رأسك صلب وعنيد ؟! تجبرنا على الاستماع إليك، ولا تستمع لحكاياتنا المعاصرة، بطلتها "الطيارة" لا "الحمارة"... نحن يا جدي لا يجدي معنا الأمر أو النهي... نحن لا نأمر ولا ننهي... نحن أبناء اللحظة / الومضة... فلا تحاسبنا ولا تراقبنا، ولك منا أزكى السلام...

أنتم :

أنتم... أقول أنتم... نعم الشؤم واللؤم...

هل لكم بصيرة أم عجيزة ؟! تناصرون جدي وتقفون ضدي... هل أنتم رفاقي أم توحدتم لنفاقي ؟! لا شك أنكم مستعدون لتملك تراث جدي دون حرب، ولا نباح كلب... أنتم الآن تتوجسون للانقضاض على التراث فقط، ولا تهمكم النتيجة : إن انتصرت على جدي فأنتم معي، وإن خسرت فأنتم دوما مع جدي... ما رأيكم لو عقدت صفقة مع جدي : يزوجني جاريته، وأرفع عنه تعب مراقبتكم، وتكونون أنتم في نفس المقام وبنفس القوام ؟!

أنتم تختارون الآن : معي أو معه ؟!

هم :

هم... أقول هم... نعم الهم والغم...

جبناء هم... لم يحضروا... لا ضمير لهم وسط هذه الضمائر... قريبون منا، بعيدون عنا... ينتظرون شنقي. أعرف أنهم يراقبون كل شيء من مكان ما غير بعيدين عنا ؛ إن انتصرت سيعانقونني مهنئين متزلفين طمعا في الحظوة والجاه ؛ وإن لاقيت حتفي، سيحرقون أوراق الخلية والهوية، ويذوبون في السرية... هؤلاء هم الفوريون عندنا... دائما "مع الغالبة"... "امِّي يا امِّي"...

هن :

هن ... أقول هن... نعم الفتنة والهوان...

كن جاسوسات لي قبل أن يكشف أمري مع جارية جدي، وعشيقتي في الخفاء... ها هن الآن واقفات لإدانتي... إن مت، فسيحتفظن بجسمي محنطا في مقبرة عائلة جدي... سوف يغتصبنني ميتا، أو سيتطاحن من أجلي كما هي الحال الآن... لماذا لا يستطعن تدبير شأنهن بأنفسهن ؟! لماذا يتحركن متى يشاء جدي ؟! إني أرى تحررهن بمزاج رجالي مضبوط المقاس... إن انتصرت لا أثق في سريرتهن... سأعمل على تلبية حاجياتهن إلى أن يشبعن... الجائع لا يفكر...

ضمير من لا ضمير له :

ضمير من لا ضمير له... أقول من لا ضمير له... نعم الضمير الضامر...

من لم يجد نفسه في أي ضمير من هذه الضمائر : أنا، أنت، هو، أنتِ، هي، نحن، أنتم، هم، هن... فهو آمن حتى إشعار آخر.

هذا السبت.. ذلك الخميس

فاطمة بوزيان

خرجت من أيام العمل متخما بالتعب ورائحة العرق، ألح علي جسدي أن أمضي نهار السبت كله في حضن السرير، لكني شعرت بإحساس غامض جعلني على خط يقظة قصوى.. لعنت النفس الأمارة بالحزن وأغمضت بحزم عيني من جديد طامعا في أن ينام حزني وأنام، الإغماضة حولت فضاء بصري إلى قاعة سينمائية مظلمة، وحولتني إلى مشاهد كئيب.. في المطار لابد أن يشتد خفقان قلبك ان لم يكن من فرحة الوصول فمن حرقة الوداع والذاكرة اللعينة تعض بنواجدها فقط على الصور السابحة في الدمع.. حاولت أن ابتسم وقلت في استخفاف يا رجل ليست المرة الأولى ولن تكون الأخيرة روض نفسك على القبول ببساطة ودعك من حزن الأرمل هذا ! لكن الرجل القابع بداخلي رد علي ساخرا «النظرية تنحط حين تصبح واقعا» تذكرت اني قرأت الجملة في كتاب ما ولم أتأكد منها الا حين تحول مشروع الابتسامة إلى تنهيدة طويلة .. وجهها الذابل عمق الحزن من حدة تجاعيده، كنت قلت لها :

– الطريق إلى المطار متعبة وصحتك لا تحتمل

أصرت وقالت :

– على الأقل أحرس لك الحقائب وأسليك، ساعات الانتظار قد تطول.

طال الانتظار ..كانت تتأمل في صمت الحقائب والناس وكنت أتأمل وجهها فقط، ألم الوداع يحولنا إلى كائنات صامتة تستلذ التأمل، لو وجد ذلك العدد الهائل من الناس في فضاء آخر كان أغرق المكان في الضجيج والفوضى.. سمعتني أتحدث مع صديق طلبت منه انتظاري في محطة الوصول، تأملت هاتفي الصغير ثم قالت :

- سبحان الله، صحيح العالم قرية صغيرة !

شعرت انها تحاول تبديد وتسفيه الحزن الذي يغلف اللحظة، هذه لعبتها، حين مات أبي رفضت مجاراة النساء في نحيبهن قالت قبله مات الأنبياء والرسل وبالأحرى والدك الذي لا يحفظ من القرآن الا الفاتحة، عندما ينام الجميع كانت تنسل كلص خفيف إلى سطح الدار لتعلن لليل ما تخفيه عن عيون النهار .. كانت دائما تستنكر هشا شتي وتقول إنها لا تليق بالزغب النابت في وجهي.. عاندتها وقلت :

- لكن المسافات لا تتغير

- لكن الاتصال تيسر الآن، فيما مضى كنت لا أعرف أخبار والدك الا من خلال رسائل تصل متأخرة جدا..

ضحكت ثم تابعت..

- مرة قرأ علي أحدهم رسالة يتحدث فيها والدك عن رمضان وكنا نحن نحتفل بعيد الأضحى.. الحمد لله تيسرت الحياة الآن !

الحديث المتفائل والضحكة المفتعلة لم يكبحا جموح دموعي حين احتوتني بين ذراعيها مودعة.. شعرت كما لو أنه الوداع الأخير.. التفت إلى تلويحة يدها،كانت تبتسم وكأننا سنشرب قهوة المساء معا.. تدهشني أمي، رغم كل تلك السنوات العجاف لم ينضب خزان صبرها وقوتها.. اندمجت في المشهد وبكيت ثم طردني صهد زاحم من السرير فخرجت من الغرفة.. تطلعت في الساعة الحائطية وخمنت أنها في السوق.. ركبت أرقام هاتفها المحمول، انتظرت قليلا ثم جاءني صوتها ضعيفا، التقطت من خلال أنفاسها اللاهثة جملتها المعتادة، المختصرة :

- الحمد لله بخير.. كلنا بخير

أردت أن أعرف المزيد عن أخبارها سألتها :

- هل تحسنت صحتك ؟ خف ألم ظهرك ؟.. تتبعين تعليمات الطبيب ؟

- الحمد لله بخير .. كلنا بخير

انتهت المكالمة كما بدأت .. خرجت مخنوقا إلى الشرفة .. سماء ملبدة بالغيوم تمتد في شساعة غير محدودة، مغيظة، والكلمات القليلة لم تزدني إلا اشتعالا وانشغالا.. استعدت نبرات الصوت المتلاحق الأنفاس هل هو ألم الظهر ، ازدحام السوق، ثقل القفة ، أم تقتصد في الكلام من أجل فاتورة هاتفي ؟..تبا للبعد قلت و أغلقت باب الاحتمالات ثم خرجت من الشقة، وجدت الشوارع شبه فارغة إلا من سيارات تمرق بسرعة تصعق الإسفلت، قلت للسبت دائما رائحة الخمر وأنفاس الجنس، لماذا لجسدي اليوم رائحة العرق و أنفاس الحزن ؟.. تخطيت عتبة المقهى في شرود، اصطدمت بجسد مارية قرب الكونطوار .. قلت لها بعد الاعتذار :

– هل حقا تيسرت الحياة الآن ؟

– تيسرت ، تعقدت، المهم أن نستمتع بها !

ألصقت وجهها بوجهي وهمست في أذني :

– لنذهب ونستمتع ..

ارتبكت وقلت محاولا تغيير مجرى الحديث :

– هذه القهوة بدون طعم ،لا أحد يعد القهوة مثل أمي !

– مرايا الحنين كاذبة، قد تكون قهوة أمك أسوأ قهوة في العالم، ما رأيك أن تجرب قهوتي ؟

إصرارها الواضح قطع علي طريق المناورة، اختلقت مبررا وخرجت من المقهى.. في الطريق استغربت خمول شبقي رغم كل فتنتها الباذخة ! كأنها ليست مارية التي كان طيفها فقط، يلهبني!.. دعوتها مرة إلى البيت وعرفت أنها مثلي غادرت إلى هنا من أحد المطارات الجنوبية ولأن اسم مريم يذكرها بذلك الجنوب ولا يناسب صبغة شعرها الجديدة دبلجته، وهي تتكلم بدت حزينة مثل أميرات قصص الأطفال، يدهشني أن تغير البلد والاسم ولون الشعر وتتمسك بنفس الحرفة ! قبل أن تودعني أفرغت جيوبي من مبلغ يوازي راتب أسبوع من ذوباني في حرارة حقول الطماطم، حين غادرني سحرها شعرت أنها تشبه مصاص الدماء في أفلام الرعب، لكن انطباعا مثل هذا تلغيه الرغبة حين تتجدد، لتلك الرغبة منطقها الذي لا يهتم بخساراتك المادية .. في خضم هذا التفكير اكتشفت أن خطواتي أعادتني إلى المنزل دون أن أتمكن حتى من اقتناء لوازم الأسبوع .. فتحت الباب، داهمني هواء مخنوق بالرطوبة،كنت نسيت فتح النوافذ .. تجولت في البيت، كل الغرف بحاجة إلى ترتيب وتنظيف وجسمي كان بحاجة إلى نوم عميق .. فكرت في أمي، كانت تصر على ترتيب البيت وتنظيفه حتى في أقصى حالات مرضها وتعبها، يا لصبر أمي !.. رأيت في مرآة الحمام وجهي الكئيب يغطي جنوبه زغب حان آوان قطافه وإلا تحول إلى تهمة !!.. تذكرت

صديقا قال لي مرة :

–حين يسألونني عن معنى لحيتي أقول لهم أنا متعب، لا أستطيع الإمساك بالشفرة.. أشتهي مرة أن أصرخ فيهم : أنتم السبب يا أولاد الزنا، لا تقبلوننا إلا في الأعمال الشاقة التي تعافونها، لكن رغيف الخبز يكتم الصرخة دائما في قلبي.

قلت له :

– على الأقل أنت تعفيك زوجتك من الأشغال المنزلية.

– و تضيف لي أشغالا من نوع آخر (ضحك) أحيانا أتكوم تحت الأغطية السميكة وأفتعل الاستغراق في النوم مخافة أن تعتريها نزوتها ولاتكفي طاقتي حتى للمداعبة !

ضحكت حتى ابتلت أهدابي بالدمع ـ كانت هذه أول مرة أضحك فيها منذ صحوت ـ خرجت من الحمام.. انتبهت إلى أني خرجت من فضاءات كثيرة ولكن لم أخرج من أناي الحزين، مع أني أجد الحزن طقساً لاينا سب أبدا مزاج السبت، وفي المعتاد أمضي هذا اليوم ضاحكا ساخرا من الجنوبيين أمثالي .. دخلت المطبخ أعددت طعاما حشوت به معدتي على عجل وعدت إلى سريري طامعا في قيلولة تشبه الموت، لا، ليس ذلك الموت الأبدي البغيض، أقصد الموت الذي يجعلك تغيب عن نفسك وعن العالم لساعات.. استوقفني رنين الهاتف، ارتعش قلبي، تجاهلته، إلحاحه وصداه الحزين جعلاني أرفع السماعة ثم ألتصق بها كما لو كانت يد أمي .. كانت أختي تحاول جاهدة صياغة جملة مفيدة .. في نشيج بكائها رأيت أمي ممدة على فراش أبيض. مفتوحة العينين وباردة مثل قطعة ثلج، وأدركت أنها كانت هناك في المستشفى، تقاوم الموت بلا ازدحام ولاقوة .. بأصابع مرتعدة قذفت الهاتف اللعين .. تفتت وأنا أرتطم بأسوار الحقيقة القاتلة وفي دمعي الحارق غرقت آخر صورة التقطتها ذاكرتي لأمي في المطار .. حاولت استدراجها من جديد لم ينتج ذهني غير البياض...

انتحب محمد وانتحبت معه، روى لي تلك التفاصيل عدة مرات، كما لوكان يشك في تصديقي له، أو كما لوأنه يريد أن يؤكد حدسه لموت أمه.. رغم كل تلك المسافات يقول محمد تظل ثمة رسائل خفية تتنقل بيننا وبين من نحبهم، وهي الأصدق، لا تصدقي كلام الهاتف.. الهاتف مخادع ! أبدا لا تصدقيه، أصغي إليه باهتمام مبالغ فيه وأطرح عليه أسئلة أعرف أنها ستجعله يكرر ما حكاه لي مع إضافة جرعات زائدة من الحزن، حين يكون أحد أصدقائك حزينا ويلجأ إليك كي تواسيه ليس عليك إلا أن تتركه يتكلم، وترسم على وجهك الفضول والحزن بالقدر الذي يدفعه إلى مواصلة الكلام.. ذات خميس مات جدي وطوال أيام العزاء كنت أروي تفاصيل ذلك اليوم من

شروق شمسه ـ هذا إذا كانت الشمس فعلا أشرقت ذلك اليوم ـ إلى فجره، كنت أؤكد للجميع كم كنت حزينة مستشعرة أن مصيبة ستحل ببيتنا في ذلك الجنوب، ثم أخرج من حالة التعميم وأؤكد باكية أني شعرت كما لو أن أحدهم سيموت، وحين يصل حزني إلى ذروته وأشعر أنني وجدي كنا جسدا وروحا واحدة، أؤكد أني استشعرت بقوة تلك الرابطة أن جدي هو بالضبط من سيموت وبالضبط فجر ذلك الخميس، لأن طيفه وكلامه معي في آخر لقاءاتنا لازما كل تفاصيل يومي ذاك! حين تكون حزينا لاأحد يقاطعك أو يناقشك، الكل يصغي إليك باهتمام، وينظرون في وجهك مشجعين إياك على الكلام .. أذكر أني رويت قصصا جميلة عن جدي تتناقض مع ما كنت دونته عنه في سيرتي الذاتية، لكن من يستطيع أن يؤكد لي أن ما كتبته في سيرتي هو الحقيقة ؟! محمد نفسه الذي يروي لي الآن للمرة ال.. لا أعرف، تفاصيل تتشابه مع تفاصيل ذلك الخميس، أخبرني في وقت لاحق كم كنت مرحة ذلك اليوم بالذات، وفي تلك الليلة فعلت معه تلك الأمور، وفعلتها معه على نحو مميز جعله لا ينسى ذلك الخميس مع أن أيام الله تتشابه وفي كل أسبوع هناك خميس، وقال أني كنت سأتمم نومي كأي بقرة لامبالية حتى العاشرة لولا تلك الأسلاك اللعينة التي فجعتني، مع ذلك من يؤكد لي أن محمد لم يكن يحاول التشويش على عواطفي ليجعلني أصدق أنني مجرد بقرة لامبالية ؟! .. صعب علي أن أجزم، ربما كانت حقائق دامغة، ربما فقط أوهام حزن دامع، صعب عليه، أبدا لا يمكننا الجزم.

دُرَّنَـارُ

أحمد بلحاج آية وارهام

-1-

أَقْبَـلَتْ

فِي رَفَائِـفَ خُضْرٍ
يَدَاهَا مَنَائِـحُ بُهْرٍ
وَ بَسْمَتُهَا خَيْـلُ نَارْ،

مِنْ أَعَالِي اُلْمَوَاجِيدِ ذَاتَ مَسَاءْ

أَقْبَـلَتْ دُرَّنَارْ
بَسَطَتْ فِي اُلْفُؤَادِ طَنَافِسَ أُبَّهَةٍ
وَسَرِيرَ رُوَاءْ
قَالَتِ : اُلْآنَ سَمْعُكَ لِي
وَمَشَتْ فِي دَمِي نَغَمًا كَاُلْجَدَاوِلِ

حَتَّى اُخْضِرَارِ اُلْحَنَادِسِ،
كُنْتُ أُحَدِّقُ فِيهَا
وَأَدْنُو...اُلْبَصِيرَةُ كَفٌّ نَدًى
أَنْحَنِي أَلْفَ ضَوْءٍ لِأُصْغِي إِلَيْهَا
اُلسُّكُونُ أَصَابِعُ تَفْتَحُ لِي عَرَصَاتِ اُلْمَدَارْ

* * *

كَتَبَتْ يُتْمَهَا دُرَّنَارْ
وَاُسْتَقَلَّتْ حِجَابَ اُلنَّهَارْ
أَيُّ بَرْقٍ يَقُودُ إِلَيْهَا
اُلسَّمَاوَاتُ أُحْبُولَةٌ
وَاُلْمَسَالِكُ أُحْبُولَةٌ ؟

فِي اُلدَّوَاخِلِ دَقَّتْ دَسِيرَ اُشْتِهَاءٍ
تَحَسَّسْتُهُ حِينَ طَارَتْ،
سَأَرْفَعُ نَبْضِي إِلَيْهَا صَلَاةَ ضِيَاءْ.

–2–

وَرْطَتِي دُرَّنَارْ

لِتَفَاصِيلِهَا مَاءُ حَدْسٍ
يَقُولُ تَخَارِيمَ عُمْرِي
أَقُولُ اُلزَّمَانُ يَدٌ
يَتَفَقَّعُ مَشْرِقُهَا
وَاُلْفَرَاغُ خُطًا

يَتَغَيْهَبُ سُنْبُلُهَا،
لاَ شَبِيهِي يُلَمْلِمُ ظِلِّي

يَقُولُ رَذَاذَ غِيَابِي
إِذَا وَجْهُهَا تَلَّنِي
فَوْقَ جُودِيٍّ قَافٍ وَبَاءْ

–3–

كَمْ سَأَعْزِفُ مُزْنَ اُخْتِلاَفِي لَهَا
حِنْطَةُ اُلْحُلْمِ صَحْوِي
وَبُسْتَانُ تَسْمِيَّتِي
كَالرَّغِيفِ اُلْإِلَهِيِّ،
جِذْرُ اُلْأَقَاصِي سُهَادِيَ
تَتْبَعُنِي
فَخْفَخَاتُ اُلْقَنَادِسِ
عُبِّيَةٌ مِنْ صُنُوجِ اُلْجَدَاجِدِ،
مِزْوَلَةُ اُلْهَتْكِ حِسِّي

اُلَّذِي لاَ تُرِيدُهُ يَنْبُتُ فِيَّ
بِأَيِّ اُلْمَنَاجِلِ أَحْصُدُهُ
كَيْ تَرَانِي ؟
لَهَا ضِفَّةُ اُلنِّكْرُوفِلْيَا
وَلِي ضِفَّتَان
اُللَّيَالِي

وَغُرْبَةُ ذَاتِيَ عَنِّي
فَكَيْفَ أُرَاوِدُهَا عَنْ غَوَايَتِهَا ؟
لاَزَوَرْدُ تَرَائِبِهَا مُهْرَةٌ
تَتَطَوَّحُ بِي بَيْنَ أَحْرَاجِ هَذَا اُلْعَمَاءْ

–4–

يَا اُنْثِيَالَ تَلاَوِينِهَا فِي اُلْعَنَاصِرِ؛
بَابُ اُلظَّمَأْ
لِشُهُودِ فُيُوضَاتِهَا
جَسَدِي
وَاُلطُّقُوسُ اُلْأَرَقْ
أَتَنَشَّقُ أَنْفَاسَهَا
مِثْلَ رُوحٍ مُبَلَّلَةٍ بِاُلْأَلَقْ
وَأُسَمِّي اُلْكَوَائِنَ مِنْ نُقْطَةٍ
فَوْقَ كَاهِلِهَا،
هِيَ لاَ مُنْتَهًى
شَجَرُ اُلطَّبْعِ يَشْرَبُ مِنْهُ نَبِيذَ تَسَلْطُنِهِ
وَبُذُورُ اُلتَّآوِيلِ قِنْدِيلَ لَذَّتِهَا
فِي مَتَاهِ اُسْمِهَا أَتَدَكْدَكُ
تَسْلَخُنِي
بِدِمَقْسِ اُللُّغَاتِ
وَأَسْرَارِ سُرَّتِهَا

شَهْوَةً أَتَحَلَّلُ فِي مَائِهَا
مِثْلَمَا اُلْوَمْضُ تَشْفُطُنِي
كَرْكَرَاتُ أَنِينِي
وَهِيجُ اُنْتِسَابٍ إِلَيْهَا
وَعُنْقُودُ سُكْرِي غَدَائِرُهَا،
لاَ فَضَاءَ سِوَاهَا يُمَسِّدُنِي
إِنْ تَهَاوَتْ عَلَيَّ اُلْفَضَاءَاتُ
وَاُشْتَعَلَتْ فِي اُلْهَشَاشَةِ رِيحُ اُلدِّمَاءْ.

2005-7-20

بيَاضُ الحيَاة*

محمد الواكيرة

حَبيبتي
رغم أنَّكِ تُدفئينني
أحس أنَّك تثيرين تهوُّري بالمبالغة في
إخفاء الدواعي البديهية لهذه المغادرات الكاذبة
التي أمست متكرّرة جداً ؛
سِيَما حين تُغرينني بالتحديق مباشرةً في الشمس
أو عندما ترومين إمدادي بهذه الغريزة المزعومة
في البقاء فتُعنّفينني دون شِدَّة :
كُنْ وَقِحاً
كألَمِ الأسنان حين يُباغِتُ تائهاً في صحراء جليديّةٍ
فيدفعه إلى تحطيم رأسه على الحجارة،
كُنْ وَقِحاً مثل الدُّمَّل الذي يُشوِّه العروس الجميلة
مهما غطَّتْ وَجْهَها المساحيقُ ومركَّباتُ الأعشاب
السحريّة،
وقحاً كالرّيح إذْ تَنْثُر بقايا مطرٍ بعيد، فتمزِّق
نفسها، وتقتلعُ الجذور لفرط مُناوءتها للانفراج
النَّسِيّ.

---

* ترجمة محمد الشركي

LE BLANC DE LA VIE

Mohamed Loakira

Bien-aimée
Bien que tu me tiennes au chaud,
je sens que tu froisses mon imprudence, à vouloir trop taire les raisons évidentes de ces faux départs devenus très fréquents ;
surtout quand tu me donnes l'envie de regarder droit le soleil, ou quand, pour me donner ce soi-disant instinct de durer, sans adversité, tu m'apostrophes :
Sois insolent
telle la rage de dents qui surprend l'égaré dans un désert glacial, au point de se fracasser la tête contre la rocaille
Sois insolent tel le furoncle qui enlaidit la belle mariée, quand bien même les fards et le composé de plantes à vertu magique empâteraient son visage
Insolent tel le vent essaimant le reste d'une pluie lointaine, se démembre, s'arrache les racines à force de contrarier l'oublieuse embellie

فَلْتَمْنَحِينِي إذن رَغْبَةَ التَّحديقِ مُباشرةً في الشَّمس،
والمُضيّ بفرسي بعيداً، بعيداً، دون أن تُدْرِكَني
غشاوةُ النظر إلى الوراء.
... عندئذٍ ألطِّخُ هوامش البقاء، وأتسكّع عند طرف
الانخطاف البلّوري والقيء، وأرقِّع النجوم الجافّة
لفرط إبحارها عكس المجرَّة.
غير أنني أنا العربيد
أحتفل، أمْجُنُ، أنقلبُ، أرتقُ ثقوب الهواء ويَعْصِفُ
بي الفُواقُ قبل كلّ سقوط،
أتذوَّقُ المُتَعَ العُلْيا، وأستعذبُ الضَّياع في متاهات
العيش، أنا المسلوخ حيّاً، المُثْقل بالعياء، أسترشِدُ
دَوْماً بالوَجْد، مستنِداً إلى هشاشة الليل والحجارة
السهرانة.

أنا المبتهج حيناً، والمكفهِرُّ حيناً آخر.
عابراً نسيج المدينة ومجاريرها، أظْهِر أشدّ ميولي
حميمية، أطْلِقُ القِرَدة والثعابين والنَّمل والعناكب
بين أفخاذ مصّاصي الدّماء.
يلعقون دم المهزومين وينهشونَهُم دون أن يطرف لهم
جَفْن. وملاعق الذّهب في أفواههم. تَحَسُّباً لكلّ مقاومة.

وخلال نزهاتي الطُّقوسيّة أتَدخَّلُ في مُماحكات سائقي
العربات وجامعي الثياب البالية وبائعي التقسيط،
وأحشر نفسي بخبث في شجار جلاّسات الحمَّام.
أعُضُّ، أخْدِشُ، أدَمْدِمُ، أبصقُ مرارتي وأحلامي الأخيرة،
وأرْفَعُ قائمتي اليُسرى لأتبوَّلَ على الحيطان
المحروسة بعناية.

Donne-moi donc l'envie de regarder droit le soleil et chevaucher, chevaucher sans être rattrapé par la ternissure du regard en arrière

... alors j'éclabousse les marges de la survie, traîne à l'orée de l'extase cristalline et de la vomissure, rapièce les étoiles sèches d'avoir trop longtemps cheminé à contre-voie.

Néanmoins, noceur

Je festoie, m'éclate, culbute, rafistole les trous d'air et hoquète avant chaque chute,

goûte aux hautes jouissances, à me perdre dans les dédales du bien-vécu, écorché vif, couvert de fatigue, je suis toujours guidé par la passion, appuyé sur la fragilité de la nuit et les pierres en veillée d'armes.

Tantôt réjoui. Tantôt ténébreux.

Traversant tissu et égouts de la ville, j'exhibe mes attraits les plus intimes, lâche singes, serpents, fourmis, mygales le long des cuisses des buveurs de sang.

Ils lapent la liqueur des enfoncés et mordent sans frémir. Les cuillères en or entre les dents. Pour parer à toute résistance.

Et lors des randonnées rituelles, je me mêle aux disputes des charretiers, des chiffonniers, des vendeurs de détail et, avec malice, à celles des tenancières de bains.

Je mords, griffe, râle, crache les dents et mes derniers rêves, lève la patte gauche pour pisser sur les murs les mieux gardés.

وإذا تَعذَّر الأمْرُ أنقش عليها خُطوط ركودٍ عميق.

لأنّني على الرَّصيف
مربوطٌ إلى صدإِ الذاكرة
تحت سماءٍ يَرقانية بغير حقّ
أو لعلَّني
مشدود إلى المُدَّة
التي بَقِيَ لي
أن أعيشها
مُفْتَرِضاً تَسْويَاتٍ أخرى
حُروقاً جديدة
وكثيراً من حالات النّسيان
بينما الحُبّ يتعفَّنُ في القَعْر
قلتُ لكِ دون أن أصدّق نفسي
شُدّي على يدي يا حبيبتي
ولا تَدَعِي أيَّ اضطراب يبدو عليك
الْمسيني
فأنا لا أزالُ واقِفاً
رغم أنني مقطوعٌ
كحشَفِ فَصْلٍ وَفير
باحِثاً بضراوةٍ في فجوة ذاكرة ركينة
عن الألياف البليلة
لفُتُوَّةٍ ما
ومُراوِغاً لا مبالاة
بَعْضِ الأحْلام العنيدة.

الصَّلصَالُ نَسيبُ الصَّلصال
قلتُ لنفسي

A défaut, j'y grave les traits du profond marasme.

Car je suis à quai
Amarré à la rouille de la mémoire
Sous un ciel indûment larvaire
Peut-être
à l'attachement à la durée
                qui reste
                à vivre
Supposant d'autres compromis
Supposant d'autres brûlures
Supposant tant d'oublis
Pendant que l'amour en cale moisit
T'ai-je dit
Sans me croire
Bien-aimée
Serre ma main
Ne laisse apparaître aucun désarroi
Touche-moi
Je suis encore debout
Bien que coupé court
tel le chaume d'une saison d'abondance
Cherchant âprement dans l'interstice
d'une ferme souvenance
les fibres humectées
d'une certaine jouvence
Rusant avec la nonchalance
de quelques rêves entêtés

L'argile s'apparente à l'argile
Me suis-je dit

ألبُدُ، كُتْلة عديمة الأعصاب، مرتدعاً بأن جَلَبة الظّلال
المشبوهة الحائمة فوق رأسي ليست سوى تسلية نهّابين
لا شُغل لهم،
وأن اللّهاث، ورخاوة الأعضاء، والصفير الحادّ في
الأذنين مجرّد فجوة عابرة،
وأنه لا يزال أمامَنا، أنتِ وأنا، فتراتٌ طويلةٌ نعيشها،
ومُتَعٌ نتقاسمها، وأوهامٌ وخيباتٌ نَعْزُوها
إلى السذاجة أو الحماس ...

أحَقّاً هو وقتُ الإقلاع

لا يمكنني إذن فتح النافذة صباحاً والتباهي بغبطة
العيش بحيوية مفرطة ؛
بالحُبّ إلى حدّ الغَوْص عميقاً في الآخر أو مقاطعة كلّ
شيء والرجوع بعينين مفعمتين بالبراءة ؛
وألاّ أنتظر انقشاع الصُّداع النّصْفي، وتراجع القلب
عن رفرفات انهياره، وتوقُّف المضايقات اللزجة.
لم يعد بمقدوري تلطيخ الهوامش، الاستدارة حول نفسي بمهارة،
مقاومة تُجّار الإهانات، وخصوصاً رفع عقيرتي بالصُّراخ
تعبيراً عن تذمُّري.
مُتَعَقِّلاً،
أسْنِدُ ظهري إلى قُبَّة السّماء، أقتسم طعامي البسيط
ونبيذي الربّاني مع التلقائيين والمندفعين.
أغوصُ مباشرة في الصمت
أستمع إلى نفسي
ضِمْنَ شراهة الحياة الثّمِلَة التي تجتهد، من زَرَدَة لأخْرى،
في الحياكة والتفصيل والانبساط بمحاذاة اللامبالاة،
عابرة من اليقظة إلى الإغفاء، فيما أرْكُضُ على غير هُدىً

Je me tapis, boule sans nerfs, dissuadé que l'agitation des ombres douteuses qui rôdent au-dessus de ma tête n'est que divertissement de prédateurs désœuvrés,
que l'essoufflement, la mollesse des membres, les sifflements stridents dans les oreilles ne sont que léger passage à vide,
que toi et moi, avons encore, devant nous, de longues durées à vivre, de plaisirs à partager, d'illusions et d'échecs à mettre sur le compte de la crédulité ou de la fougue ...

Est-ce vraiment la partance

Je ne peux donc pas ouvrir la fenêtre, le matin, et faire parade de ma joie de vivre, avec exubérance ;
aimer à couler dans l'autre ou bouder et revenir les yeux pleins d'innocence ;
ne pas attendre que la migraine passe, que le cœur arrête ses envolées dépressives et que le harcèlement gluant s'épuise.
Je ne peux plus éclabousser les marges, cabrioler juste, tenir tête aux négociants de couleuvres à avaler et, surtout, crier haut et fort ma grogne
Assagi,
je m'adosse au firmament, partage mon repas frugal, le cru divin avec les sans-gêne et les impulsifs.
J'immerge droit dans le silence
M'écoute
dans l'intempérance de la vie éméchée qui, de maille en maille, s'évertue à tisser, tailler, s'étirer en regard de l'insouciance, allant de l'éveil à la somnolence pendant que je cavalcade le

في طريق محصب مستعملاً كتِفَيّ.
أحْلُم.
لم يعد بإمكاني أن أحْلُم بالعصفور الجنوبيّ الفرحان، بَشيرِ اليُمْن، حين يطير حثيثاً باتجاه الشمس ويَفْرِك جناحيه
كيْ تقطر الأشعّةُ من إيقاع الطيران ثم يَمْضِي ناقِراً الحبوب المتشظّية إلى أنوارٍ مبهجة،
ولا بالدّعسوقة المترجِّحة عَبْر بَحْرِ الظُّلمات والبُحَيْرة البيضاء للما بَيْن بَيْن، وعَيْنها على الجزيرة ذات الأطراف المِضْيافة وجسمها عُرْضة لارتداد الأمواج
فيما تجدِّفُ وتُجدِّف باستمرار،
ولا بِخُشَيْباتِ التلميذ، والسُّماق، واللّوح الَّذي خططتُ فيه كلماتي المتعثرة الأولى، مُحاطة بالزَّبَد والنَّقاء. كلماتي التي تمّ الاحتفاء بها لاحقاً على صهوة جواد جامح،
ولا بامتطاء طائر هائلٍ ناصع البياض، مُطلق العِنان،
يخترقُ بِي المسافات بسرعة الضوء ويُدْخلني عالماً غير مسبوق.
وها هي النَّشْوَةُ تغمرني.
أنا الآخَرُ دَوْماً.
من الفَجْرِ إلى الفَجْر.
لم يَعُدْ بِوُسْعي أن أتَلذَّذَ باستنشاق الطُّيوب، وذَوبان الثلوج، والعَرَق المُتَضوِّع مِنَ المُطارَحات البهيجة.
شَدِيدٌ هو إرهاقي.
تلاشٍ، كلُّ شيءٍ مجرَّد تَلاشٍ.

غَيْر مُتوَهِّمٍ
أمضي. بلُطف.

long d'une piste caillouteuse en usant des épaules.

Je rêve.
Je ne peux plus rêver du joyeux oiselet sudiste, dont la visite est de bon augure lorsqu'il s'acharne sur le soleil, s'y frotte les ailes pour que l'insolation s'égoutte de la cadence de l'envol et va picotant les graines éclatées en feux de réjouissances,
ni de la coccinelle tanguant à travers mer des ténèbres et lac blanc du juste milieu, les yeux posés sur l'île aux contours hospitaliers, la carcasse à la merci du ressac
et rame, rame, rame sans discontinuer,
ni des bûchettes d'écolier, l'encre de toison, de la tablette où j'ai maladroitement apposé mes premiers mots, entourés d'écume et de virginité. Plus tard célébrés, le pied de grue sur un cheval fougueux,
ni d'être sur le dos d'un gigantesque oiseau immaculé, sans rênes, qui perce la distance aussi vite que la lumière et m'introduit dans l'inédit.
J'y trouve l'enivrement.
Toujours autre.
De l'aube à l'aube.
Je ne peux plus humer les arômes, la fonte des neiges ni la sueur fragrante des ébats.
Je ne peux plus.
Evanescence, tout n'est qu'évanescence.

Sans illusion
Je pars. En douceur.

عَلامَ عساني أندم إذَنْ
لقاءاتنا من جديد، ثَغْرَتكِ الملتئمة
شعركَ الطويل المنفوش بتموّجاته الصفراء المائلة
إلى الاخضرار حيث ينعكس خبثك المتحالف مع تهرُّباتي،
وشامة الحُسن على وجنتك اليُمنى
تُغَيِّرُ مسار الأبجدية
ماذا عساني أخلّف من أشيائي الزهيدة المُبدَّدة
حتّى قبل أن تعمل زِينَةُ فتنتك
على سَبْيِ رَزانة تَقرُّبي
وحتّى قبل أن تَجِدَ كبريائي السابقة
ملاذاً في رقّتكِ العنيدة
حين يتأخّر تَفتُّح الزُّهور في تضليل فصل الشتاء.

فَلْتَحفِرْ أيُّها المَوْتُ كما تشاء
غَيْرَ حافِلٍ بتشقُّقِ الحجارة
... إلى أن تَلْقاني
مثلما يَلْقَى المرءُ في أحد المنعطفات
حُبّاً قديماً مفقوداً
مُنْذ زمنٍ طويل
لأنّ الأمر ينتهي حتْماً
تحت أكوام التُّراب.
بالتمدُّد في الفراغ التامّ

وعند أقلّ اضطرابٍ تَضُمُّني كالسِّر، تَغْسِلُ كَفَنِي
المُترب وتُهَدّئُ من رَوْعي فينكتِمُ صُراخي.

Alors qu'ai-je à regretter
Les retrouvailles, la béance suturée
Ta longue chevelure sauvage aux vibrations jaune-verdâtre où se reflète ta malice composant avec mes dérobades
Et le grain de beauté sur le front droit
qui change le cours de l'alphabet
Qu'ai-je à laisser de mes riens dilapidés
avant même que les atours de ton charme
n'aient ensorcelé la pudeur de mes avances
avant même que mon arrogance d'autrefois
n'ait trouvé refuge dans ta douceur entêtée
quand l'éclosion tarde à fourvoyer l'hiver

Mort, creuse à ta guise
Et n'aie cure de la caillasse qui craquèle
... jusqu'à me trouver
comme on retrouve au tournant d'une rue
un vieil amour perdu
de longue date
puisque ça se termine inéluctablement
sous les pelletées de terre
allongé dans l'excès du vide.

Ainsi, au moindre émoi, elle me serre comme un secret, rince mon linceul terreux et adoucis mon cri qui va de l'éclat à l'étouffement

تقودني إلى أقاصي أرضٍ طالما خبّأتُها في
قُرَّة عيني، تُسْكِنني قرب حدود النَّفَس ونار الجَمْر،
تُهَدْهِدُني وتدعوني إلى الشروع في الرحلة الطويلة
باتّجاه نفسي.

تُدلِّلُني

تُدَفِّئُ رأسي المُستريح على ركبتيها، تطرد القَلَقَ
عنّي وتَهْمِسُ لي بصوتٍ خفضه البُعْد :

تعالَ الآن
لتكتشف أسرار مملكتي
التي تشرئبُّ إليها الأطماع
حيث الغبطةُ مُنْجِبَةُ اللانهاية.

تَغَنَّ بما هو أساسيٌّ في الصمت

ولْتَحْكِ لي
احْكِ لي ميلادك.

elle me conduit sur le bout d'une terre que j'ai trop serrée dans mes prunelles, m'installe à l'orée du souffle et du brasier, me berce, m'invite à entamer la longue marche vers moi-même.

Elle me câline

Réchauffe ma tête posée sur ses genoux, repousse le désarroi et me susurre à voix courbée par l'éloignement :

Maintenant
Viens découvrir les mystères de mon domaine
Domaine si convoité
Où la félicité génère l'infini

Chante l'essentiel du silence

Et raconte
Raconte-moi ta naissance.

سِلاَلُ الضَّوْء

الزهرة المنصوري

"مَن يُذَكِّرني باسمي ؟ وَطَني كان هنا، لكِنَّهُ في القلبِ
يستريحُ الآن.
مَن يُذكرني باسمي ؟
يا عِراقُ،
يا نجمة تنتظر ضوءها كي تغسل الحُلم... وتَلمعْ".

على دِجلة تمشي الريحُ،
وظِلاَلُ القصبِ،
والناس.
بغدادُ نجمةٌ جريحةٌ تُعانِدُ الرِّيحَ كَيْ
تَحفَظَ غيمَها
مِن أنْ يسقُطَ عَلَى تُرابٍ سَاخن.
طائراتٌ، وسماءٌ، وعصافيرُ، وشمسٌ

مِن وَرق،
وأطفالٌ بأجنحةٍ يُمسكُونَ الرِّيحَ
وفي عُيونهم حُلْمٌ ينتظر
في ظلالِ الماءِ ظَلُّوا يكبُرون
عَلَّهم يُضيئُونَ وَجه بغدادَ
والنَّخيلَ الذي انكَسَرْ.
وهذي العِراقُ تَنْتَظِر
القلبُ على الطاوِلة
والنَّخيلُ على دِجلة نام
تُلمْلِمُ التَّاريخَ الهارِبَ بحُلْمِه المُرّ
وضوْءُ نجمات غريبةٍ أزْهرتْ على القلبِ،
أضاءت شكل بابل.

على الجِدار أجسادٌ دَفينةٌ،
تُرمِّمُ الوَجْه المُوزَّع بالتَّقْسيط
والقَمرُ في سماءٍ حزينة،
يَحْتمي بِنباتٍ واهنٍ.
لِيَسَعَ وَطَناً ينْكَسِر.
بغدادُ فراشةٌ بلَّلَها الأسْرُ، تُرخي الجَناحَ
للتَّاريخِ العائمِ
على ماءِ دِجلة
بِكبرياءٍ تَرُفُّ
فتحترقُ على خُطوطِ الصَّمتِ،
تَبكي بَغْدادُ،
في كفِّها وَرْدةٌ

وَوَرَقُ سِنْدِيان
وأسَاطيرُ مِن ماءٍ حَبِيسٍ
يَنْفلتُ لِيَطيرَ نَحْوَ بُيُوتَاتٍ بَيْضاءَ.

وبغدادُ مَلِكةٌ مُعتَّقةٌ تَسْمُو مِن مَعْبَدِها،
تَخْرُجُ من جرارِ التَّاريخِ
تُغَنِّي لنخيلٍ في نَزيفهِ خبَّأ الشَّمْسَ ثُمَّ
بِظلِّها
ارْتوى،
لأطْفَالٍ تلُفُّهُم سماءٌ أخْرى
تُشرعُ وَطَناً، تغسِلُه الرِّيحُ
والحِبْرُ من بابلَ يصحو
يُحْيي شُعراء، مِنْ هُنَا مَرُّوا
نَسَوْا قراطيسَ الشِّعرِ على النَّخيلِ الذي
سَمَا،
ثم مَال على سنابلِ الرُّوحِ
والحروفُ التي سقطتْ من المعرِّي
لترشُفَ ماءً يَنضحُ على
وَجْهِ بَغْدَادَ، كُلَّما شكا مَحار نَهْرها
الظَّامِىءِ.
تشربُ الحِبرَ من الكُتُبِ،
لِتُضيىءَ عُنفوان الشُّموسِ
والزَّهرُ الأحْمَرُ يتسَلَّقُ جفُونَ الضَّوْءِ في
زُرْقَةٍ ما
بغدادُ قِطعةُ تاريخٍ مُلْقىً على صَحارِيها،

مِرْآةٌ بِقَليلٍ مِن الزَّمن
وَخُطُوطٌ تُعانِدْ.
بغدادُ قمرٌ سَقط منْ يديْ طفْلٍ فابْتَلَّ
بَكى الطِّفْلُ،
والقمرُ داكِناً صَارَ
يَصيرُ رغيفاً
يأكُلُهُ الطِّفْلُ
ثُمَّ تَصيرُ العَتَمة.
لِتَكْتُبِي اسْمكِ بالبياضِ ثانيةً على بابِلَ،
ودِجْلَةَ،
وعلى السَّماءِ القَريبَةِ مِنْكِ.

ثَمِلَ المحالُ

لطيفة المسكيني

-1-

جَاءتْهُ،
والعرش متشزرٌ، في خُلدِهِ
استفحَلَ الترحالُ ،،،
"نوماً جميلاً" قال لها ،،،
منْ سَخَّرَ الجانَ لشأنه،
وبنى المبكَى لشأنها ...
ألفُ عروسٍ له،
والقدحُ قبل الألف، للصادية..
ألف ليلة لها،
والليلةُ بعد الألفِ، مَجْدُ الرَّاوية ...

-2-

جَاءَتْهُ،
والعرشُ متشزِّرٌ، في خُلدِهِ

ثَملِ المُحال ...
ومواسم الجنْي المكرورة ...
آذنتْ بميقات العصر كرومُها ..
بَعيدةٌ مَهْوى القرطِ عناقيدُها،
رَاجِفة في حضرة الماءِ فرائصُها ..
عَجْفاء من دونِها موائدُه ...

-3-

على القَبْر حوَّمتِ الغربان ...
وحوَّمت بنات الكروم
بالدِّنان ...
طاولتْ أعناق النخيل
لما رَوَتْ عنها الجِنان ...
"مَا ارْتَوى من لم يَبْك
على دَنِّه وقدْ فرَغْ !!"
طُوبَى لَها من شاهدةٍ ...
أرَّخَت للعُمر المُنتهي، برَاحٍ مَارِدة ...
ما رَمتْ عنها، جُحود النَّدَامى
نُواحَ المعاني،
ولا الكلمات ...

-4-

ليعْذرْه الخليلُ في خُلَّتِه
إن أنْطقَته الكرومُ،
بلِسانها ...
واشتهى صفوَ بَنَاتِها.
غزَا الدَّهْر بكأسِه ...
لا ذَنْبُه حرَّره من حَيْرتِه ..
وَلاَ حيْرتُه حرَّرَتْه من ذَنْبِه ..

عِلَّتُهُ سماؤها السابعة ...
أمْطَرَتْ أرضاً سابعة ...

-5-

ضَحِكَت النبوءات يا صاحبي،
واهتز جذع الكُروم ...
عَصَرتْها في فِيكَ عذبةً،
فَاجْهَرْ بما رَأى الرَّائي ...
"صُلبَتْ يدٌ ما عَانقَتْ
كَأسَها،
تَبَّتْ هذي الرَّبابُ الباردَة
ما استَسْلَمتْ لسلطان
الجنون".

-6-

اِنْفَطَر فؤادُ الكُروم ...
فأمَّمتْ للأرض وَجْهَها ...
أخْلدَتْها سِلالُها ...
كَمَا أخلدَتْكَ فيها سُلالاتُها ...

-7-

أبناءُ إبرَاهيم،
الطَّالعون من البوَّابات الحجَريَّة
جَادُوا بالأنْباءِ قَدَّسوا اسْمها ...
وعَرَائسُ الورَقِ، مجَّدتْ وحيها ...

-8-

فدَتْكَ الكأسُ يا صاحبي،
فَاربَع بِربْع نديمتِكَ،

عُذْرٌ يدُك البَيْضاءُ عِندها،
شَجيَّةُ الصَّوتِ كَاسَاتُكَ ...
سَماؤُك، سَماؤُها ... اِنْفَهَقَ سحَابُها ...
ادْعُها بأسْمائِها، تُجِبْ ...
فعَّالٌ رِيحُها لِما يُريد ...
مَوْطن الأفقِ ضَوعُها ...
جرَّدها مِن الوصْفِ فألبستْهُ وصْفَها ...
مَعَانِيه أسْرارُها بَدَتْ من بعيدْ ...

-9-

اِعذِرْها إن عَّصَرتْ خمرَها من مُقْلتيك .
أوْ مزجتْها بزُلاَل دُمَيعاتِك النَّاسِكة ...
اِعْذِرها إنْ نثَرتْ في الدِّير أريجَها...
اِعذِرهَا، ولا تَعْذِل عن لَوْمِها ...
مَألوفٌ فيهَا رِضاكَ ورفضُها
"ضادُ" تعْلَقُ بالرنين،
بالصَّدى ...
اِمتدادٌ يرتوي من ظِلِّها ...
الكافُ كأس تُسْقى ...
والهَمْزُ مَاردٌ عِرْبيد ...
والسِّين، شَمْعَدان عيد ...

-10-

في جنَان العَدَم، تنَاثَرَتِ الكُروم ...
بُرجٌ تَليد هيَ الرَّاحُ
كَاسَاتُهَا مملوءَةٌ بالأشْعَار ...
والجنِّي، حَارِس الدِّنَان ...
بالشُّهبِ، يرمي جَواريه
الحِسَان ...

-11-

ملائكةُ الربِّ ما رَقَدتْ،
بأي لُغة سُجِّلتِ السَّيئات ؟؟
أيُّ شاعرٍ، صاغَها ؟؟
لِيْتَهُ الآمديُّ، تَوَلَّى أمرَها ؟؟
خانَك الحُسْنُ يا صَاحبي،
وما خُنْتَ حسناتِك !؟

-12-

تعدَّدَتْ أسماء الخَنْدَرِيس،،،
اِستوى،
في الرُّوح سرُّكَ، سِرُّ هذي
المُدَام ...
فحدِّثْ عن بَناتِ الكُروم،
عَن حُور الدِّنان تجلَّتْ لَكَ،
وغابتْ عَنِ العَوامِّ ...
"ليلتُكَ خيرٌ من ألفِ عامٍ" ...

-13-

سَمَلْتَ عيونَ الدِّنان
لَمَّا طالَعَكَ الدَّهْرُ بالصَّلَف ...
وجاءَكَ الآتي بما سَلف ...
عزَّ على الكأس إن تَصِفَ
والقَلبْ منكَ ما ارتَجَف ...
شَرِبْتَها عاشقاً يا صاحبي،
والعشق ألا تكُفَّ !!؟

يونيو 2005

إلى التوابيت المائية .. !!

محمد بودويك

(فلأصْنَع شِعراً من العذاب الجديد، وأجعل منه
مادة للأنشودة العشرين من أغنيتي الأولى... أغنية الغارقين)
دانتي أليجيري

1. الموت عن كثب :

نَسْرٌ على مسافة ذراع..
الموتُ الأصفر يَدِبُّ
بشراسة الفاتح
مَوتُ طفلِ أسودَ مَنْبُوذٍ
بين أدغال السَّافَانا الباكية.
لن يكتشف أبداً تُهْمَتَهُ
البئرُ
هَذا الذي أوْسَعُوهُ حَكايا وَتَعِلاَّتٍ.
شمسٌ سوداءُ
في عُرْوَتِه وَئيدةٌ
وأمعاءٌ على جَزْمَةٍ مُهْملة !

تحيّةً للضمير الأبيض
جوادِ المرحلة
هذا يليق بالفلسفة..
هذا ... أفضل للثرثرة.

2. ليل الفراشة :
مَا الَّذَي يجعل الحياةَ مُسْتَحَقَّةً
ضَفْدَعٌ أم سنبلة ؟
مَا الذي يُزَرْكِشُها بالأحمرِ القاني
قُبْلَةٌ
أمْ
قُنْبُلَة ؟
خَوَاءُ السؤال
سُؤَالُ الخواء
حُوَاءُ الرَّغَائِب والكَتَائب
مُوَاءُ المرحلة !
لَحْظَانِ في
لَحْظَتَيْنِ اشتبكا
على آخِرَةِ الكأس
العشق غَلاَّبٌ وَتَهْلُكَة..
هذا ... أفضل للثرثرة.

3. أغنية ما ... :
وَحدي
في الليلة الواحدة
مع ساعة الحائط
أتَرَجَّى بَنْدُولَ النذر
أن يَكُفَّ عن تكوير الأيام
لِئَلاَّ يَجِيءُ وَعْدي

حَيْثُ لاَ تُقَاسُ الحياةُ بالموت
ولا النجوم بالموسيقى.
ولا الماءُ بطبول الغناء
التي تَرْفَعُ العِصِي
تَحِيَّةً للغَرْقى ...!!
أوَّاهُ لو كُنْتُ جَلْداً
لتكوني صَدَايْ
في مَقْبَرَةِ فَالِيرِي البحرية.
لَوْ كُنْتِ فَاكِهتي الأخرى
لألوذَ ببندق سِنْجَابِكْ
مُبَلَّلاً بطيفِ الرُّعُودِ الآتية
وَأصْوَاتِ غَابِكْ :

مِنْ أرْضِ الحُدُود

محمد الشركي

I. صَوْتُهُ :

–1–

هَلْ يَقْتَرِبُ مِنْكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ دَمُهُ
مُهَجَّجاً بِالمَسافَاتِ والرُّعُودْ ؟
أحَاوِلُ عُبورَ الأجْرافِ وزِحَامِ الخلائِقِ،
وأغَالِبُ أمْراً عالِياً : أسْهُرُ
في أرْضٍ قُصْوَى
تَتَحَيَّرُ فيها المَعَاني والضَّماناتُ
وَيُدْرِكُ طارِقُ أنْدَلُسِهَا
أنَّ المُتَوَغِّلَ بَيْنَ حُلْمِها وشِعَابِها
لا يَعُودْ.

– 2 –

هَلْ يُنادِمكِ مَنْ لَمْ يَخْتَرِقْ جِدارَ الزَّمَنِ
سَعيداً بِشِفائِه مِنْ مَحْدُودِيَةِ أَناهْ ؟
ناداني وَعْدٌ مِنْ إقْليم فاذِحٍ أَخْبَرَني
أنَّ الوُصولَ إلى الحَبيب فِراقٌ
لِسُطوحِ الواقع والمَعْنَى
وأنّ الجُرْحَ بِنَظْرَتِهِ صَدْعٌ
يَنْفَلِتُ مِنْهُ عِطْرُ الماوراءِ ونِداهْ

–3–

أقْتَرِبُ فَتَتَخطَّفُنِي تَضاريسُكِ :
ضِفافٌ مُقْمِرَةٌ، أَوْدِيَةٌ يُزْهِرُ فيها
العَسَلُ البَرِّيُّ،
شِعَابٌ مُسْكِرَةٌ في غَوْرِ الظَّلامْ.
نَظْرَةٌ هي ساحِلٌ قَديمٌ
تَبْدَأ عِنْدَهُ مِيَاهُ الخَليقَةِ الأولَى
وتَهالِيلُ خَضْراءُ
تُورِقُ أَسْفَلَ دَرَجِ المَنامْ.

–4–

مُبارَكٌ مَنْ يَدْخُلُ المدينةَ العَظيمَةَ
الّتي تُؤْوي جُرْحَكِ : سَمِعْتُ غِناءً
يَتصاعَدُ مِنْ وادي الأمَّهاتِ في أعماقِكْ.
رأيتُ الخَطاطيفَ الجَذْلَى
تَطيرُ بَيْنَ المآذِنِ وحافاتِ دَمِكِ،
والشُّموعَ مُوقَدَةً تَحْتَ سُورِكِ الرَّبّانِيّ.
أفي هذه اللَّيْلَةِ الّتي لا قَرارَ لَها
تَنْبَعِثِين مِنْ رمادِكِ القَديم
وتُشَكِّلِينَ الآتِي في ظُلْمَةِ أَحْشائِكْ ؟

–5–

كَثيرٌ وَجْهُكِ وشاسِعٌ لَيْلُكِ العَالِي
مُتَجاوِبٌ رَجْعُ نِدائِكِ في سُلَّمِ العُصُورْ
رَأيْتُ بَيْنَ هَجيرِكِ وظِلالِكِ كُلَّ شَيْءٍ :
تاريخَ الحُبِّ وشَفيرَ المَوْتِ الّذي يَشْتَهيه،
سَطْوَةَ السَّاحِراتِ اللاّعباتِ بالظَّاهِرِ والبَاطِنِ،
طَيْشَكِ الّذي مِنْ طَيْشِ أرْضٍ أخْرَى،
وزِفافَكِ المُتَجَدِّدَ في زَمَنِ الجُذُورْ.

–6–

يا رُوحَ الأرْضِ وعَرْشَ البَحْرِ، أيّتُها المَرْأةُ البِلاَدُ،
هُنا، في عُمْقِ وَادِي اللَّيْلِ حَيْثُ تَلْمَعُ شُعْلَتُكِ،
أفَاوِضُ شَعْبَ المَوْتَى السَّاهِرِينَ
بَيْنَ مَرَارة الدِّفْلَى وشَهْوَةِ دَمِكِ البَعِيدْ.
بِنُورِهم أسْتَرْشِدُ في ظُلْمَةِ الكَلِمات
وأخَادِيدِهَا، وبِعَطَشِهم أهْتَدِي
إلى المَاءِ المَحْرُوسِ في نَبْعِكِ السَّعيدْ.

–7–

في أرْضِ الحُدودِ كَاشَفَنِي وَجْهُكِ العاهِلُ
بِأسْرارٍ مَخْبُوءَةٍ مُنْذُ تأسِيس العالَم :
قالَتْ لِي الرِّياحُ : أنَا هَديرُ الأشْواقِ والأغْوارِ،
وقالَتْ لِي العُرُوشُ : أنَا
جُنونُ السِّيادَةِ وجُرُفُ الدِّماءْ.
عَلَّمْتِني في كَهْفِكِ السَّحيقِ أنَّ بَعْضَ الكلامِ وَطَنٌ،
وأنَّ الحُبَّ مَسْكَنُ النُّور العَميق،
وَأنَّ الزَّمَنَ حَفْلٌ عَظِيمٌ نُنادِمُ فِيهِ العالَمَ وَمَا وراءَهُ،
وأنَّ الزَّهْرَةَ نَارٌ وغِنَاءْ.

II. صَوْتُهَا :

-1-

لَسْتُ قَوْلاً، بَلْ دَمٌ مَرْفُوعٌ إلى ما يَخْتَطِفُنا.
أنا الرَّغْبَةُ ونَارُها، القَلْبُ ولَيْلُهُ،
هربْتُ وَجْهِي مِنْ عُنْفِ العُروشِ والمُدَوَّناتْ.
رَأَيْتُ في الأسْوارِ إغراءً بِدُخُولِ مَا تَحْرُسُهُ،
وفي المَخَاطِرِ زِفافَ الأعْماقِ الغَضْبَى،
فَقُلْتُ هَذا أوانُ نُضْجي وسُقُوطي
مِنْ أغْصانِ الزَّمَنِ إلى غَوْرِ ما هُوَ آتْ.

-2-

أَنَا الوَجْدُ المُحْتَدِمُ في الحَافاتِ القُصْوى،
أهْلَكَني العَطَشُ في أوْدِيَةِ الشَّوْقِ العَظِيمْ.
لَمْ تُسْعِفْني خَرائِطُ الحُبِّ سِوَى بِمَسالِكِ جُرْحي،
فَطَوَّفْتُ بَيْنَ الصَّحَارَى وأعْيادِ البَحْرِ البَهِيمْ.

-3-

لا تَطْرُقْ بَابِي، فهو مَفْتوحٌ لكَ مُنْذُ القِدَم.
بَيْنَنا شَراكةُ عُصُورٍ وأنْهَارٍ مُقَدَّسَةٍ،
مَمالِكُ لَمْ نَرِثْها بَلْ بَنَيْناهَا في دَمِنا،
أراضٍ وأغَانٍ مَضْفُورَةٌ بِلَوْعَةٍ سَحِيقَةٍ،
وَرَبَّاتٌ مُتَهَتِّكاتٌ أو مَفْجوعَاتٌ
لا يَزالُ عَوِيلُهُنَّ مُتَرَدِّداً
فِي سَراديب الأزْمنَة.

-4-

بَيْنَنا مَواثيقُ بَرِّيَّةٌ وبَحْرِيَّةٌ ولَنَا
هذا اللَّيْلُ الشَّاسِعُ الّذي أنَا زَهْرَةُ سِرِّه :

هذا اللَّيْلُ الصَّعْبُ العُبُورِ، الشَّرِسُ كأحْراشِ
المَفَاوزِ، المُسْكِرُ كزَهْرِ النَّبيذِ،
المُزْدَحِمُ بِشُعُوبٍ تَسُوقُها قِياداتُها الرَّشِيدَةُ
إلى وَهْدَةِ السَّديمْ.
مَرْحباً بنَا في هَذا اللَّيْلِ المُرْتَاعِ بِجَسَامةِ الهَوْلِ
ومَرْحَباً بأَوْدِيَتِه السَّبْعَةِ في رُوحِنا
وبالضَّوْءِ السَّحيقِ الصَّاعِدِ إلَيْنا مِنْ ظَلامِه البَهِيمْ.

-5-

أهلاً بِكَ في عَميقِ فَرَحي وغَائِرِ جُرْحي.
تَرَجَّلْ مِنْ صَهْوَةِ الأَلَمِ وادْنُ مِنْ أقاليمي،
تَفَيَّأْ في هَذِه الهاجِرَةِ ظِلَّ أَوْدِيَتي،
ادْخُلْ غَابَتي وتَهَجَّدْ في هَيْكَلي،
هَجِّجْ قَمراً مَنْسِيّاً في أخَاديدي،
ارْفَعْ وَجْهي قُرْباناً إلى اللَّيْلِ،
تَذَوَّقْ خَمْرَ دَمي واقْتَفِ الآثَارَ
المَدْفُونَةَ في أَرْضِي مُنْذُ آلافِ السِّنين،
سَافِرْ عَبْري إلى المُنْقَلَبِ الآخَرِ
لِهَذِه اللُّعْبَةِ الغَامِضَةِ المُسَمَّاةِ حَيَاةً،
اصْعَدِ المَجْرَى المُظْلِمَ إلى بِداياتِ نَبْعِي
واقْتَرِبْ مَعِي مِنَ الغُصْنِ الذَّهَبِيِّ في أعْمَاقِي،
اجْعَلْنِي أرْكُض لاهِثَةً في صَحَارى المِلْحِ،
وأقْطفُ العَسَلَ البَرِّيَّ في حافاتِ الجُنُونِ،
وأفْهَمُ سِرَّ البَراكينِ،
فآرتِمِيسَا تَصْرُخُ في عُمْقِ الغَابَة.

مارس 2003

أكـره الحب

طه عدنان

لا أحبّ الرثاء
لأنه محضُ مجاملاتٍ متأخرةٍ
وملاطفاتٍ
نلوكها بعد فوات الأوان،
وأكره المديح
لأنه كذبٌ صريح.

لا أحبّ الشعر القديم
لأنه يحتاج إلى كتب الشَّرح
وكتائب الشُرّاح،
وأكره النقد المعاصر
لأنه عُملة سهلة.

لا أحبّ المسوّدات
تذكّرني بقصائد
لم تكتمل بعد،

أكره القصائد منشورة
يؤلمني أن لن تكتمل أبداً.

لا أحبّ الشهرة
الأضواء تقتل
وأنا لست معتوهاً كالفَراش،
وأكره العيش في الظلّ
تماماً كأيّ ثمرة انطوائية
لن تنضج أبداً.

لا أحبّ أن يكون لي أنفٌ
- أنفٌ ناتئٌ كجملة اعتراضية -
وأكره أن يكون لي ساقان
متساويان كسلّم لا يصلح لشيء
لأنه بدون درجات.

لا أحبّ السيارة
فهي عربة رعناء
يلزمها أربع عجلات
لكي تبقى على قيد التوازن،
وأكره الدرّاجة
لأنها تجري
كأي عصفور معدني جبان
لا يقوى على الطيران.

لا أحبّ أن أدعى طاهر المراكشي،
ومثلما أكره أن يُشار إليَّ
بالبَنان، أكره الابتسامات الشقراء
تنكّل باسمي في مصالح البلدية
عند كلِّ نداء :
"موسيو تاغا أدنان".

لا أحبّ الكره
لأنه غالباً ما يكون مجانياً
وبلا أسباب وجيهة
وأكره الحبّ
لأنه مكلّف للغاية.

لا أحبّ الأحد
لأنه يوم كسول
يذكّرني بأنَّ : غداً أمرٌ،
وأكره الاثنين
(أنظُر الأحد).

لا أحبّ العيش وحيداً
فالوحدة باردة
كلَيلةٍ ديسمبرية
حالفها عطبٌ في جهاز التدفئة،
وأكره العيش مع الآخرين :
إنه الجحيم.

لا أحبّ أن يكون عندي
دمٌ يجري
ولا سبيل إلى اللحاق به،
وأكره ألاّ يكون عندي دم.

لا أحبّ ساعة الحائط
لأنها تذكرني بالعمر الضائع،
وأكره ساعة اليد
لأنها تسابق دقات القلب.

لا أحبّ السلم
لأن الحياة تصير رتيبةً معها

وبلا طعم
وأكره الحرب
لأنها عكس السلم.

لا أحبّ الحياة
لأنها بنت كلب،
وأكره الموتَ :
نباحَها الأخير.

بودابست / مارس 2005

تلك مخلوقات آيتها الانحدار

محمد حجي محمد

ثمة
دائما
من يستدرجك
إلى معارك لا نظافة فيها
يلصق بالعالم
أوصافا
لا تليق بكائناته
ويراهن كمقامر سيء الحظ
على ورقة خاسرة.

ثمة
دائما
من يلتذ بتوريط الياسمين
من غير استئذان
في ليلات بلا شموس
يحتمي من صدئه

ببذلة
المناسبات
ويرمي أسماء النجوم
في المياه العكرة.

ثمة
دائما
من يرسلك إلى كابوس
أو مصحة
لا بسبب... خطإ
طائش
أو قصة حب يائسة
بل بسبب قناص صربي
كان يترصد دمك
مبتهجا
خلف باب القصيدة.

ثمة
دائما
مخلوقات عجائبية يفسدن هواءك
نهارك يداهمنه بلا موعد
يعبرن حيواتك
مسرفات
في الغيوم

هي الآن
ذاهبة بأحلامنا إلى الغسق
لا تلتفتي إليها
يا ظلالي
تلك مخلوقات آيتها الانحدار
فطوبى للمتمسحين بالأظلاف.

"الجـرح"

مراد القادري

1. جرحك
تشبت بهْ
عانقو ... واسمع لِيهْ
ايْلا شاورْ لَكْ، تبعُو
كُنْ ظلو

وخاويهْ

2. الجرح ... الساكن فِيك
يداويكْ
بالصمت والحكمهْ
الجرح ... الحافر بعيدْ
يْجيك
مْعَ شي حلمهْ
ومع شي ريحة ... يجيكْ
ويجيك مع شي كلمه
تقالتْ

يمكن ... ما زال غارقة ف الكاسْ
ف البال
حاصلة ... أوف الراسْ

3. جرحكْ
خذ منوُ الصمت، ايْلا دْوَا
خذ منو الحرفْ... ايلا رْوَا
وايلا هْوَا
كُنْ له سَاسْ ...

4. الحرج :
واليه ... يواليكْ
اديها فيه ... يغنيكْ
الجرح ... بحال شي كُونْطْ
عَامَرْ
خْصُّو ... يْكُونْ عامرْ
بالشوكْ ... إيْبارِي ... ومسامر
فكَّر فيه
ف الزحامْ
ف السكاتْ ... وف لكلامْ
دِيرُو رايَهْ
هَزُّو علامْ

5. الجرح دكَّه
الجرح سكَّة
وطريق ... سِيْر فيه
فوتْ الكودرونْ ... لهيهْ
فوتْ الزفت ... لهيهْ
حتى لّْبِّيسْتْ
ثمَّ، تلقى راسكْ
ثمَّ، خاطرك ... وناسكْ

6. الجرح كنزْ
فتش عليهْ ... فْ ذاتكْ
ف اللِّي جاي، واللِّي فاتكْ
كِ تلقاه فرحْ
حِيثْ مَاشِي غ آجي، وقُلْ عندي جَرحْ
راه الجرح فيه ... وفيهْ
الجرح البرَّاني
تحت الفَاصْمَا تخبيهْ
والجرح الدخلاني
الجرح الدخلاني
آش تدير ليهْ ... ؟

7. الجرح لَحْلُو
مَامفهومشْ ... أصلو
باين ... مَا بايَنْ
كَايَنْ فيكْ ... وْمَاكَاينْ
مزرُوعْ ف أرضكْ
هُوَ كُلَّكْ
وْبعضَكْ
جَرحك ... هُوَ انتَ
وانتَ، بْلاَ بيهْ
بلا مَعْنَى
وبحال الوالِدْ ... هُوَ
بُسْ يدِّيهْ
غْسَلْهَا لِيهْ ... فْ الطَّاسْ
دِيرْ ليه حبَّهْ ف الكاسْ
كِ يكونْ ... رَاسُو ضارُّو
جيبْ لُو من الصَّاكَهْ الكارُّو
وتسخرْ ليهْ
ومرة ... مره، طَلْ عليه

ايلا دَّاه النعاس
اغطيهْ ... يْدفيكْ
قربْ لِيهْ، يعاديكْ
خُدْ اللازم مَنُّو
غ ِشْوِيًّا منُّو
يَكفيكْ
الاكحلْ ... والابيض
اكتبْ الليفْ
اكتبْ الْبَا
قُلْ للجرحْ مْرَحْبَا
واكتبْ ع اللوحة
وحدها.. الذات المجروحة
وحدو ... الاكحل والابيض
يستاهْلُو ... هادْ الارضْ

8. جرحك
هو اللي خالقك ... م العَدَمْ
م الجرحْ
كان الكُون ... كان آدَمْ
وحَوَّا
وآدم ... حتَّى هُوَ
بحال الوالدْ
يفرحْ، كان بالجُرْحْ
كـِ يتوضَّا، يصلي الصبْحْ
يهز كفوفُو ... يعقد رجاهْ
وجرحُو
ف ضلُوعُو
ف قلبو خبَّاهْ
جرحُو ... عمرنا ما شفناه !

ARCHIVE
http://ArchiveBeta.Sakhr.com

9. جَرحَكْ طبخُو
نقِّيهْ منك
ومنْ وَسْخُو
خُدْ نَصْ يَتْرُو ... من دمَّكْ
خُدْ الزْغَارِيدْ، دامَكْ
وفرحتها بيكْ ... بالبكالُورِيَّا
خُدْ الأكحلْ والابيضْ، اللِّي دْوينَا عليه ... غ ِدابَا شْوِيَّا
خُدْ نَصْ مْنَامهْ
كُبْ ... كَاسْ بْلاَ مَا
نَقِّي كَمْشَهْ
من وَرْدْ ... أوْ عطرشَهْ
زرعتيها على قبر ابَّاكْ
وزيدْ
نَصْ معلقة ... دالصْدِيدْ
كافيهْ
رد كلشي ع العافيَهْ
واتْسَنَّى جرحك ... يطيبْ
10. جَرْحَكْ
هُوَ بْرِيتَكْ ... قُدَّام اللّٰه
دِيرُو بين يديكْ بزوجْ
بحالْ
شِي مَشْمُومْ دْ الوَرْدْ
ودوز
مع الأنبيَا
الفقرا ... والأوليَا
الشعرا ... دْيَالْ بَصَّحْ
وكَاعْ اللِّي عَنْدُو ... جَرْح
دُوز
غادي تسمعْ :

"اللي عندو جرح ... هْنَا
اللي ما عندو جرح ... يرجعْ
للأرضْ
حتى يْدِيرْ شي جَرحْ، عاد يطْلَعْ ..."
11. وأنا جرحي
كِ شَفْت فيه ... وشافْ فيَّا
هز عينيهْ
قال ليَّا :
أنا عنوانكْ
أنا بريتك وميزانَكْ
عْيِيت منكْ
عْيِيت فيكْ
هَا العالم، قُل ليه : عَنْدِي شِي حاجة باغي نْقُولْهَا
قَبل ما نمشي
كلمة أولى،
والكلمة الأولى ... هي كل شي
والكلمة الأولى ... كانت كُنْ
كانت الكاف، وكانت النونْ
الكلمة الأولى، هي العربونْ
وانت كلمتك ... فايَنْ هِيَ ... !؟

سلا، يونيو 2005

رباعيات

محمد مستاوي

1- سألت القمر

سألت القمر لما بكى لم البكاء ؟
دلني بأشعته على رجل جائع عار
ودلني على ثان نام فوق كومة من الأفرشة
والتحف بأخرى محاطا بجميع المتطلبات

2- رأيت نملة

رأيت نملة باكية ضاحكة
قلت لها : لم البكاء والضحك في نفس الآن ؟
قالت : رأيت جملا يحمل تمرا جيدا (بويطوب)
ويأكل تبنا ومشوكات زرع (طيزا)

1- ساقساغ ءايور

ساقساغ ءايٚور داغار يالٚا ماف ءالٚان ؟
ئملين يان ءورئكَن ف ـ يات ءورئشٚي يات
ئملين ويسٚين ئكَن ف ـ تيرشت ن ـ ووسان
ئدل س ـ طاياض ـ ئبرماس كراكاران

2- زريغ ءاوٚطيف

زريغ ءاوطيف ءاريالٚا ءارضٚان
نيغاس ما توفيت ءاورنسوگت ءاوال
نٚاني ءارعم ءوسين كاتا عديلين
ءوسين بويٚطوب ئش طيزٚا د ـ واليم

3- الهندية

أشجار الصبار جادت غلة
ثمارها الناضجة والغير الناضجة تخلت عن أشواكها
الغربان امتصت لبها تاركة قشورها

4- هجم البحر

هجم البحر على البيدر وحمل ما بداخله من تين وشعير
بكت الفئران لفقدانها لقوتها
اختنقت الأسماك فور ابتلاعها لحبات زرع مسننة
أمواج البحر أعلى من قمم الجبال وهي محملة بتبن محمل بموتى الأسماك
أين ستقذف الأمواج الهادرة بحمولتها من تبن وأسماك ؟

5- نيران في البحر

اندلعت نيران متأججة وسط البحر
لا نشاهد بعد إلا أمواج من الدماء
في ظلما المياه تلتهم الأسماك موتى البشر
وفي اليابسة الشجرة تتعرض لرياح هوجاء ولمقدمة
نهر جارف مما سيؤدي لا محالة إلى اقتلاعها.

3- ئكزارن

ءاميت د ـ ئكزارن غ – ئبا لاٚحن
ءاواد ئنوان ءاواد ءور ئنوين
ءاسنٚان دالان ئضر لاحت
ئعاقاين سٚومن ءاكنس نسن

4- يوكيد لبحر

يوكيد لبحر ئكشم د ـ ءونرارءاسين ءاليم
ءولاطو مزين ئغرد اين ءاراسنت ءالاٚن
ئسلمان سٚومن طيزٚا رفوفن ءورنكرن
ءانيني خسين كٚودين ف ـ ءوفلاٚ واليم
تاضا نكَيوين وكَرنت ءافانو جاريف
مانيغ ران سٚوكَونت ءاليم ءولا ءاسلم ؟

5- تاكات غ – لبحر

طوزٚومت ن ـ لبحر ءاغاغ تيولت ءاتاكات
تاضاتكَيوين ن ـ ئدامن ءاسٚول نتٚاناي
ئشا ءوسلم بنادم خ ـ تيلاٚس ـ ن ـ وامان
تبيٚ شجرت ءور ئديل سول ءومالويان
ئساركا تسمود ءوسفان ئمٚا تاكوف

6- البومـة

دليني أيتها البومة على الظلام في نهارنا ؟
ودليني على النهار الذي وجدته في ليلنا
أيتها البومة ما أكثر تجهمك وقلقـك
ألا يكون السبب بؤساء ليسوا أولادا لك ؟
ورفضت الظهور نهارا مفضلة البكاء ؟
عبست جبهتك وفمك ويديك ...

7- المقبـرة

سألت المقبـرة لما بكت لما البكـاء ؟
أجابتني قائلة :
آتـوني بدوي الأفكار المضيئـة
الذين يقومون بسقي حيث يكثر الجفاف
وتركوا السحب الكثيفة والكـذب.

8- سانتيـم

أخبرنـي عن الذي قالـه سانتيم، للأفعـى ؟
نفخت أوداجها وعلـى لسانهـا الترـيـاق
كلمها السانتيم، وصارت حبلا سقط على الأرض
حملته الديكة وأخـذت تجره فـي الزريبـة
أخبرني عن الذي قـالـه "سانتيم" للأفعـى ؟

6- تاووكت

تاوٚوكَت ملي غ - ءوزال نغ تيـلاٚس
تملتي غ - تيلاٚيـس ءازال ءان توفيـت
تاووكَـت ئريـز ئكَٚوتـام توحلـت
ياك ءورد ئمزلاض ءان ءور تـوروت
ءافـا غ توكَيـــت ءازال ءارتـــالاٚت
تكرست ئكَنزي د - ئمي ءولا ءافـوس

7- ساقساغ ءاسمضل

ساقسا غ ءاسمضل داغاريالا ماف ءالان ؟
ءينٚـا ءيوينيـد ويـدا غ لولنت تيفاوين
ويلي سوانيـن ءيـدا غ حاولن ءيرافان
فلنن ءامدلو كَٚوتـن ءولا تيكـر كاس

8- سانتيم

ملـي مـاس ئناسـانتيـم ئوبـنـكـال
ئسوفن ءامكَرض ئلس نـس ئربـاسـم
ئساول ئس ئكَـ ئزيكَر ئضرغ - واكال
ياسيتن ءوفولوٚس ءارسـرس ئتـبرام ؟
ملـي مـاس ئناٚسانتيـــم ئوبنكـال ؟

2006-2-15

تعريب محمد مستاوي

خلقنا لنعيش الحياة

نص مسرحي في مشهد واحد

بوسلهام الضعيف

الشخصيات :

- ممثلة في الخامسة والعشرين من عمرها
- حارس مسرح

(مرتفع خشبي مستطيل يشكل خشبة، في الوسط مرآة ضخمة، في العمق جوقة من المتفرجين هرمين وقد علاهم الغبار، ألبستهم رثة وملامح باهتة كأنهم خرجوا للتو من قبورهم، حركاتهم بطيئة، حين يضحكون يبدون وكأنهم يبكون، وحين يرفعون أياديهم للتصفيق تسمع رجات عنيفة مزعجة لا حياة فيها. تدخل ممثلة شابة عمرها خمسة وعشرون عاما، تلبس لباسا أسودا تصعد فوق الخشبة، تواجه الجمهور بتردد).

الممثلة : ... كان من المفروض أن أكون الآن مندمجة في جلد الشخصية التي سأعيشها، ... أن أكون في غرفة الماكياج أرسم تفاصيل أخرى لهذا الوجه، لكن ما وقع هو أنني بكل بساطة لن... نعم، لن أمثل أمامكم هذه الليلة (صمت) اسمحوا لي، إنني أعتذر أمامكم الآن، (بتردد كأنها تتذكر شيئا مؤلما) لأن... لأن هناك شيئا حطم حياتي، جعلني أتيه في متاهة هذا العالم أصبحت عمياء، لا أعرف أين أسير ؟ فقدت الأشياء الجميلة... أسألُ نفسي لماذا ؟

والسؤال مثل إبر تنغرز في ذاتي، ولكن لا أعرف ماذا وقع، هل لأنني أخطأت في اختياري ؟ أم أن الآخرون هم المخطئون ؟ أصبحت حائرة.. منشطرة... ممزقة... بين الفن والحياة، ولكن لماذا هذه الحيرة ؟ إن اختياري جاء كقناعة وليس بالصدفة، أنا التي كنت أنتقد الأخريات.. هاته تمارس المسرح لمجرد الظهور.. والأخرى كنزوة عابرة... وثالثة كانت في الجامعة محبطة من جو المدرج، قانطة من دفاترها ورأت في الحي طلبة المسرح فمثلوا لها الانطلاق والانشراح... وصاحبة الحجاب كانت تبحث عن رجل... ووو (بانفعال وصراخ)، أما أنا فلا، أنا لا، لست منهن (بهدوء) ولكن رغم اقتناعي بهذا الاختيار... أصبحت منتزعة بين الفن والحياة، بين المسرح والعائلة.

(تجلس مستكينة كطفلة)

أذكر بداياتي الأولى ...

أول لحظة صعدت الخشبة، الدور الأول، الإحساس الأول، الجملة الأولى... نسيت كل شيء... عشت عشق المسرح لأجل المسرح، فهل كنت أعيش الوهم عندما هجرت الحياة ؟

كنت كراهبة في محراب الفن، كل شيء يهون في سبيله ولا يضاهي وجوده أي شيء، وحين اخترت معهد التمثيل فقد كنت أصفي حساباتي مع كل الأشياء الأخرى، لم أكن أعرف أن المرأة حين تمارس الفن تفقد قيمتها، كنت أسمع كلام الناس ولم أكن أعيره أي اهتمام، كانوا يقولون إن الممثلة بطبعها عاهرة والفن عهر والممثلين منحلين خلقيا.. نوع من البشر متهتك بلا قيم ولا مبادئ... يعيشون المسرح حتى في حياتهم، ويكذبون على أنفسهم، وعلى الناس... ورغم كل هذه الأقاويل وغيرها واصلت، تحديت كل شيء... كانت الخشبة كل حياتي.. ليلي ونهاري... حين كنت أصعد فوقها أحس وكأن العالم يدور حولي وأن الحياة خارج جسدي عدم فارغ... وكان الناس ينظرون إليّ نظرة غريبة، فيها الخوف والغيرة ومن أجل المداراة يقولون : براڤوا... والبعض يقول (تتخذ هيئة رجل) العري تهتك، والشيطان يسكن جسد المرأة... فهي بلحمها العاري تثير الفتنة.. تزرع الشوك في مشاعر المواطنين، هذا مسرح فاسد وحماية لمشاعر المؤمنين وجب علينا محاكمة هذه الممثلة محاكمة علنية.

والبعض الآخر في المقاهي يقول :

ـ هل رأيت كيف عرت فخذها ؟؟

ـ وماذا تريد ؟ هؤلاء الممثلات تعرف قيمتهن...

ـ ولكنها جميلة آه آه آه

المشكل فيهم لا في ... هم المكبوتون، مجتمع مقموع حين يرى طرفا من جسد المرأة فوق الخشبة يتهيج كالكلب المسعور، حين يسمعون كلمة الجسد يفهمون فقط الجنس... لا يعرفون أن العري فوق الخشبة ليس دوره الإثارة كما تعودوا.. نوع من العواطف الرخيصة ألفوها، وإنما فيه سمو بالجسد.. تقديس له، ورغم ذلك واصلت، تحديت كل شيء ورغم معاناة الأقاويل ومعاناة المرضى من ناس المسرح.. مخرج يفكر في الفراش قبل الإخراج... وصاحب وكالة إشهارية يتاجر في الصور العارية وممثل يستحلم بالمداعبات البريئة، كنت أعيش عالمي، المسرح...

عالم الوهم الجميل... كوة النور الوحيدة في عالم يسكنه المتحجرون، الميتون واقفين بقيمهم البالية (وكأنها تستعرض دروسا نظرية أمام طلبة المسرح).

إن الذي لا يتمتع بالقدرة على التخيل ولا يتذوق الفن ليس إنسانا... الجسد لوحة المخرج الألوان فيها مشاعر الممثل... الممثل ينتحر أمام أعين الناس، يصبح آخرا، يهب الآخر دمه... انفعالاته شرايين عصبه وإلى الناس يقدم عذابه في صحن من ذهب.. لهذه الجماهير التي تصفق... آه التصفيق (يسمح تصفيق الجمهور) لم أقل لكم صفقوا... أصبحت أكره التصفيق، لأن مثل هذه المشاعر سطحية بسيطة تشلني تزرع الشوك في جلدي... رشات جلدية تحرق الممثل.. يتوهم نفسه نجما يصعد في العلياء إلى أن يكتشف أنه يغوص في قاع الجحيم مصدوع الهيكل، آه التصفيق... أن تصفق لإنسان معناه أن يأتي إليك ليعبر عن مشاعر صادقة فتصفق... دناءة، عاشق يقول لمحبوبته كلاما منتزعا من الأعماق.. وهي تصفق.. رد فعل بسيط.. مفارقة مبكية، ثم إن نفس الناس الذين يصفقون هم أنفسهم الذين يُلَوِّحُون بالكلمات المكهربة في مقهى "المربع الأبيض" المسرح الذي يصفق فيه الناس مسرح بسيط للضحك الرخيص... أذكر أنني كنت أحلم بمسرح فيه المشاعر متوهجة، مسرح الخيط الرفيع من الانفعالات، تحسها وأنت تعيش شخصيتك رغم عزلتك فوق الخشبة... مسرح لا يطهر العواطف فقط.. بل الأفكار.. تطهير مزدوج للقلب والدماغ... هذا المسرح لم يوجد بعد.. أعطاني الأمل في وجوده شخص مَثَّلَ لي حلما آمنت به كقصيدة شعر، كشمس في ليل حالك.. كان يدرس معي في المعهد... محملا بالكثير من الأسئلة بحب جارف لحلم المسرح الذي لم يخلق بعد... كان يتماهى مع "تريبليف" ويقول (تقلد واصل) إن المسرح الذي نسعى إليه لم يخلق بعد... نصوصه لم تكتب، خشباته لم تبن (تعود لطبيعتها، تبدو متأثرة بشكل كبير) وفي وحدته يردد دائما (تعيد تقليده وهو يتحدث عن تشيكوف) مطلوب أشكال جديدة.. فإنْ لم تكن موجودة فالأفضل لا شيء... "واصل" كان عاشقا للعزف على الجيتارة، يدخن سجائره في صمت، يحب العزلة والسباحة في الخيال حتى ذَهَبْ... ذَهَبَ في صمت (صمت) نعم انتحر.. ذَهَبَ بعيدا نحو النهر الذي كان يحب الجلوس قربه وهناك علق نفسه في جدع شجرة.. شنق جسده المعذب. وترك جيتارته يحملها الماء بعد أن أحرق كل ما كتب.. هو الذي كان يعطيني الإحساس الوَهَّاجْ... بأنه علينا أن نخلق مسرحا مغايرا وحين ذَهب انغلقت أمامي كل الأبواب...

وغطى الظلام كوة الحلم، فوجدتني عندما تخرجت من المعهد.. أقبل الواقع كما هو.. وأعمل في هذا المسرح الميت الجاف وأشارك في مسلسلات للتفزة... بلا عواطف.. مسرحا يكرر أسئلته ومضامينه.. فنا يكرس ما هو سائد ولا يقدم متخيلا جديدا... عكس ما كنت أدرس وما كنت أحلم به... آه كم حلمت بصدق.. بِحُبٍّ وإحساس مرهف.

(تنظر ساهية في المرآة تتأمل جسدها بإمعان)

أيها الجسد.. كم حلمت ؟ كم من شخصية ارتسمت عليك ؟ منها من ضاع ومن يزال يرزح تحت أعصابك... شفافا كنت أرى فيك عدة أرواح، عِشْتَ معها وعاشت معك.. تحاورك .. آه.. يدي أم يد من ؟ ساعدي.. إنني أرى ثقوبا دقيقة.. إنها ليست ثقوبي أنا.. إنها ثقوب إبر الهيروين لـ"ماري تايرون".

(تجلس على الكرسي تضيف بصوت هادئ ومنفصل)

آخذُ هذا الدواء لأنه ليس هناك شيء يستطيع أن يوقف الألم كل الألم، أقصد في يدي (ترفع يدها وتنظر إليها بتعاطف كئيب) لا رعشة بهما الآن... يدايا المسكينتان ولكن منذ زمن طويل كانا أجمل ما في.. هما وشعري وعيناي وكان لي قوام رشيق أيضا (نبرتها تبتعد أكثر في شبه حلم) كانت يدا موسيقي، كنت أعشق البيانو، اجتهدت كثيرا في دروس الموسيقى في الدير كانت الأم إليزابيث ومُدَرِّسة الموسيقى يقولان لي إن موهبتي أكثر من أي تلميذة أخرى... وكان أبي يدفع لدروسي الخاصة، لقد دللني كثيرا، يفعل أي شيء أطلبه، كان سيرسلني إلى أوربا لأدرس بعد تخرجي من الدير.. وربما ذهبت لولا أنني وقعت في حب السيد "تايرون"... أو لربما أصبحت راهبة، كان عندي حلمان الأول أن أصبح راهبة وهذا كان الأجمل، والثاني أن أصبح موسيقية (تصمت لوهلة ناظرة إلى يدها بثبات) لم أمسك البيانو لسنوات طويلة، حتى لو رغبت في العزف فلن أستطيع بهذه الأصابع المشوهة، بعد زواجي حاولت أن أستمر في التدريب ولكن كانت محاولة فاشلة، الفنادق الرخيصة والقطارات القذرة ... تَرْكُ الأولاد وعدم وجود بيت (تحدق في يديها باشمئزار) كم تبدو يدي قبيحة ومشوهة كما لو كانت قد قاست من حادث رهيب (تطلق ضحكة صغيرة غريبة) أظن أنهما قد قاسا فعلا من حادث لو فكرت جيدا.

(فجأة تدفع يديها خلف ظهرها) لن أنظر إليهما (ثم بتحد وتأكيد لنفسها) ولكن حتى يدايا لن يستطيعا لمسي الآن (تجلب يديها أمامها متعمدة، تحدق فيهما بهدوء) إنهما بعيدتان ... يمكنني رؤيتهما ولكن الألم قد زال ذَهَبَ به الدواء... هذا الدواء.. إنه يقتل الألم... يُرْجِعك إلى الوراء.. حتى تبتعد عن متناول يده، يجعل الماضي هو الحقيقة الوحيدة.

(تنتهي من تشخيص ماري تايرون في مسرحية "رحلة النهار الطويلة خلال الليل" **ليوجين أونيل**، تتكوم وكأنها تحس بالبرد، تنتحب وتبكي بكاءا حارا).

آه آه إنني أبكي.. دموعا أحسها ساخنة.. دافئة تنزل على وجنتي.. آه إنها دموعا حقيقية.. كل هذا العشق وكل هذا الحلم.. وهذه الجمرات الملتهبة بداخلي.. فماذا وقع لي ؟ أي جرف هذا ابتلعني ؟ أي طريق أختار ؟ لا أعرف ما أقول... لقد وجدت نفسي وقد أَحَبَّتْ من غير أن أتوقع أَحْبَبْتُ رجلا وأحبني فأصبحت أقول مع نفسي.. إنَّ هذا المسرح مجرد فراغ.. الكل فيه وهم.. مجرد كذب على العواطف... وَهْمٌ نُمَوِّهُ به على ذواتنا، على فشلنا في الحياة، على خيباتنا خذلاننا في المعيش واليومي هو الذي يجعلنا نتعاطى الفن.. لكي نخبئ فشلنا في الحياة. أقول هذا لأنني وجدت نفسي أعيش لحظة حب حقيقية... لقد أحببت رجلا.. لماذا أعيد هذا الكلام ؟

هل أحبه فعلا ؟ لا أعرف.. رغم أنه يكره مهنتي... فهل يحبني ؟.. هو رجل لا يحب شيئا اسمه المسرح.. أنا محلقة في السماء وهو لا يؤمن إلا بمنطق الواقع.. أنا ممثلة.. أخلق الحياة في الفراغ، هذا الكرسي مثلا.. أبعث فيه الانفعالات يصبح بين يدي كائنا، يتنفس، يحس ،يبكي.. أما هو فلا يرى الواقع إلا من جانبه المادي.. ورغم ذلك أحبه، يختلف عني وأستمر في العيش معه.. هل هو حب أو رغبة في التدمير ؟ لا أدري ؟.. ولكن شَلَّنِي حبه.. حطمني ورغم ذلك أنا منتشية.. هو يكره فني.. وأنا مندفعة نحوه، هل هو حب أم لا ؟.. لا أعرف، ربما أجدني في حاجة إلى جسد من لحم ودم بعدما مللت الفراغ.. هل فقدت إيماني في الخيال فاكتشفت بأن هذا الكرسي الذي زحركه وأخلق منه غير ما هو، يبقى في النهاية غير كرسي من خشب جامد... تعبت إنني منهكة (تترك جسدها يسقط على الكرسي).

أطياف "نينا" تحاصرني.. توقظ في الجمرات المدفونة تحت الرماد.. أحِنُّ لنينا التي ترقد في مكان ما (تقف متهالكة وهي تشخص "نينا" من "النورس" "لتشيخوف")

كم تعبت لو أستريح، لو أستريح، أنا نورس.. ليس هكذا... أنا ممثلة.. نعم حقا، لكنه هو ... لم يكن يؤمن بالمسرح كان يسخر من أحلامي... وشيئا فشيئا فقدت أنا أيضا إيماني.. وخار عزمي ثم فوق ذلك هموم الحب.. والغيرة والخوف الدائم على الطفل.. أصبحت تافهة.. مَثَّلْتُ بلا معنى.. لم أكن أعرف ماذا أفعل بيدي.. ولا أجيد الوقوف على الخشبة ولا أتحكم في صوتي.. أنا نورس... كلا ليس هكذا، عم أتحدث؟ أتحدث عن المسرح... الآن لم أعد كذلك.. أنا الآن ممثلة حقيقية أمثل باستمتاع وبإعجاب... أنتشي على الخشبة، أسير وأفكر وأشعر بقواي الروحية تنمو يوما بعد يوم، لقد فهمت أنَّ المهم في عملنا سواء نلعب على المسرح أم نكتب.. ليست الشهرة... ليس البريق، ليس ما كنت أحلم به... بل القدرة على الصبر.. فلتعرف كيف تحمل صليبك ولتؤمن، إنني أومن ولذلك لا أتألم بتلك الدرجة، وعندما أفكر بدوري في الحياة لا أعود أخشاها (تنتهي من أداء "نينا"، صمت وتفكير عميق) ولكن أين الايمان ؟ وأين هو الصليب ؟ إنني منخورة الداخل، فارغة، بلا هدف أسير.. وهن عزمي وتلاشى إيماني، ربما لأنه يعذبني أتمسك به لأنه ربما من خلال تعذيبه وضربه أحس بوجوده... (تخرج من صندوق في الجانب دمية ضخمة عارية، ترسم شاربا

بقلم أسود على وجهها، تضع قبعة وتلبس حذاءا أسودا وبذلة عسكرية، تتمشى بخطوات عسكرية، بسوط جلدي في يدها وهي تخاطب الدمية)

آه عزيزتي ... كنت نائمة... ما زلت أحبك.. لكنك تخفين عني أشياء عديدة آه عزيزتي.. صراخك يجعلني أتمتع بوجودي وأقول مع نفسي إنني موجود (صمت) أين تنظرين ؟ هنا أم هناك... ؟ آه في السقف (صمت) يبدو ضخما وواسعا.. أين سرحت عيناك ؟.. إيه .. في تلك الحشرة الضخمة اللاصقة في السقف (صمت) تريدين أن أقتلها.. ؟ حاضر... أنظري إليَّ سأقضي عليها هكذا، سأضغط على أمعائها الصفراء والخضراء.. إنها صلبة ولكنها لن تقهرني سأحولها إلى نقطة دم صغيرة تحت حذائي (صمت) لم يبق لك حشرة أخرى تعلقين عليها عيونك الجميلة.. حدقي هنا.. الآن... (صمت) لم يبق لك حشرة أخرى تعلقين عليها عيونك الجميلة.. حدقي هنا.. الآن... (صمت) كأنني أقرأ ما تقوله عيناك، حدقي جيدا (صمت) العالم من غيرك أكذوبة، هل تريدين أن أحكي لك قصة المرأة التي شنقت نفسها لأن زوجها لم يرد أن يمارس معها الجنس ؟ هل تعرفين أين كان ؟ (صمت) كان يقضي حاجته... آه حكيتها لك... سأحكي لك قصة الفتاة التي انتحرت، لأنها خبأت خطأ رسالة عشيقها في سروال زوجها... هذه أيضا تعرفينها (صمت) وماذا سنفعل الآن ؟.. لا أريد أن نبقي هكذا.. لابد أن نفعل شيئا... لا أتحمل الفراغ، يذكرني بالموت.. يجب أن نملأ وقتنا بأي شيء، آه... الضرب.. هل أضربك ؟.. نعم سأضربك.. أين هذه المرة ؟ في دماغك.. سأضربك بقوة أكثر ... اصرخي أكثر حتى أسمع توجعاتك... اصرخي.. (تأخذ في ضرب الدمية، تنفجر ادمية، ترتخي فوقها متهالكة، ثم تنهض، تمسح عنها الأصباغ، تغير ملابسها وتضعها في الصندوق).

لقد أصبحت لا أومن بهذا الفن الذي يسمونه عظيما، لماذا ؟ أقولها معكم.. ربما لأنه مهنة الوهم وبقدر ما رغبت في العيش مع شخصيات الخيال، بقدر ما أحس الآن بخوف مريع من العزلة في الحياة. إنه خوف امرأة عندما ترى وجهها في المرآة تحس وكأنها ذبلت، تضع يدها على بطنها وتتمنى لو تحرك جنين فيها... إنه خوف امرأة، امرأة بكل بساطة... تحن إلى زوج، تفكر في بيت وأطفال... أظنني مارست المسرح ربما لأنه لم يكن هناك رجل في حياتي وحين جاء الرجل ذهب الفن... لا أعرف ما أقوله لكم، أفعل هذه الأشياء وأنا أخاف من زوجي أعني مَنْ أحِب، لأنني جئت لأعتذر لكم، لأودع هذا المسرح فوجدتني أتحدث كثيرا ربما لأبحث عن مبرر مع ذاتي... ربما الممثلة فِيَّ جعلتني أتعرى أمامكم... تلك الممثلة التي كانت... والتي أرى من خلالها خطأي واضحا... إنني لم أختر بقناعة كنت أعَوِّضُ ما لم أعشه في الواقع... كنت أعيش الفراغ في الخشبة في حين أن الفن يعاش بالامتلاء، يجب أن تكون الرغبة مشبعة.. والروح ناضجة روح الفنان وروح الجمهور، حتى نختار بقناعة وحرية... مشيت في طريق وألفت العادة، كمن يفعل شيئا ويخاف تركه لأنه أصبح مألوفا لديه (تحس بحركة جهة الكواليس، تلتفت فتجد حارس المسرح

وهو يتلصص عليها، حين يرى أنها أحسَّت بوجوده يدخل الخشبة، تشتعل الأضواء فيظهر أن الجمهور الذي كان، مجرد دمى بأقنعة آدمية).

الممثلة : ماذا هناك ؟

الحارس : فلتسمحي لي... هناك سيد بالخارج يسأل عنك

الممثلة : قل له إنني آتية

الحارس : (يهم بالخروج) ولكن اسمحي لي بملاحظة

الممثلة : بخصوص ماذا ؟

الحارس : بخصوص ما شاهدت الآن، أظنها المسرحية الجديدة ؟؟

الممثلة : (ساهية) تفضل

الحارس : لأول مرة أحس أنك لا تبالغين في تمثيلك، بل عشت شخصيتك بعمق مما أكسبك صدقا وحرارة

الممثلة : شكرا، ولكن هذه ليست المسرحية الجديدة وليست مسرحية أصلا..

الحارس : على أية حال، لا أعرف لماذا تسمون ما ليس بمسرح مسرحا فتكذبون بذلك على أنفسكم وعلى الناس.

الممثلة : وما أدراك أنتَ بالمسرح ؟

الحارس : أنا، أعذريني على فضولي الزائد ولكنني عشت داخل هذا المسرح أربعين سنة، رأيت جميع الممثلين، الكتاب، المخرجين، رأيتهم في جميع حالاتهم.. كما شاهدت جميع المسرحيات التي قدمت فوق هذه الخشبة وما خرجت به هو أن المسرح كلما اقترب من الحياة والطبيعة كان صادقا وأصبح بذلك فنا عظيما، وكلما ابتعد عنهما وحاول صُنَّاعُه أن يهرجوا تحول إلى مضيعة وقتل للوقت.

الممثلة : ملاحظة ذكية..

الحارس : أقول هذا لأنني أنا الذي يتحمل مصائبكم

الممثلة : مصائبنا ؟

الحارس : نعم، عندما تخرجون في منتصف الليل وتذهبون للسهر أو للنوم تتركون لي وحدي هاته العلبة السوداء المأهولة بالكائنات، فتخرج لي شخصياتكم منها، يصبح هذا الفضاء كمستشفى للشخصيات المعذبة، تناديني.. تستغيث، تصرخ واحدة تقول بأنها لم تقدم بالصورة المطلوبة وأخرى تشتكي من ممثل استغل عاهتها الجسدية لإضحاك الجمهور وثالثة توضح أن المخرج لم يفهمها... شخصيات عديدة تربطني بها صداقة قديمة.. وقد قضيت عمري أنفس عنها وأصلح ما

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

اعوجَّ فيها.

الممثلة : غريب.. لم يخطر ببالي

الحارس : (يقاطعها) ولن يخطر ببالك لأن لا أحد فَكَّرَ في وكأني لست من هذه الدنيا، هذا عيبي فلا أنا من ناس المسرح ولا من ناس الواقع، عتبة للدخول والخروج ولكن ولا مرة في حياتي أعطيت لي فرصة التكلم

الممثلة : ها أنت تكلمت الآن

الحارس : نعم تكلمت لأني أعرف أنك ستذهبين

الممثلة : الآخرون سيبقون، تكلم معهم.

الحارس: يكفيني أن أربط صداقة حقيقية مع الشخصيات المريضة التي يتركونها

الممثلة: المريضة ...؟

الحارس : نعم، خطأك أنت أنك دخلت هذا المسرح لأنه مريض، أنا الذي أعرفه، فيه جرثومة عفنة تكبر يوما عن يوم.. انظري إنها تفسخت في الستائر وسكنت الجدران، والسقف قد يسقط فوق رؤوسنا.. (تنظر جهة الستائر) لا تهتمي لذلك هناك ما هو أخطر.

الممثلة : ماذا ؟

الحارس : إنهم يمارسون المسرح وعيونهم مغلقة وآذانهم لا تسمع شيئا، لا يتنفسون هواء الحارات التي يسكنونها ولا يصغون لقلق الناس البسطاء الذين يشاهدونهم، خذيني أنا مثلا لا أحد فيهم فكر أن يسألني عن إحساسي تجاه هذا المشهد أو ذاك.. مجرد بالونات هواء منتفخة بالكذب والرياء... هؤلاء هم ناس هذا المسرح، ولهذا فعندما ستذهبين... لا تتأسفي على المسرح فهناك الحياة فهي كبيرة وواسعة، تستحق أن تعاش... فحاولي أن تعيشها بكل قوة..

(يسمع الحارس وقع أقدام فيخرج دون أن يلتفت إليها، تبقى الممثلة واقفة في مكانها ثم تخرج مهرولة، يسمع ضجيج الجمهور، صوت جرس مسترسل يعلن عن قرب بداية العرض، أصوات الممثلين في الكواليس، يَعْبُر بعض التقنيين الخشبة، تنخفض الإضاءة تدريجيا، ظلام، صمت شامل، تسمع الدقات الثلاث، صمت، نهاية).

مكناس - الرباط 1996

التعدُّد اللغوي يجب أن يكون مغنيا لا مفقراً*

عبد القادر الفاسي الفهري

الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، أستاذ اللسانيات بجامعة محمد الخامس. مدير سابق لمعهد الدراسات والأبحاث للتعريب، وهو خبير دولي في مجال اللسانيات. نال جائزة الاستحقاق الكبرى للثقافة والعلوم بالمغرب، وجائزة الملك فيصل للعلوم الإنسانية والدراسات اللسانية، دورة 2005 ؛ رئيس ومؤسس لجمعية اللسانيات بالمغرب منذ سنة 1986 ؛ مدير مؤسس لمجلة "**أبحاث لسانية**" من سنة (1986 حتى الآن)؛ عضو اللجنة الخاصة للتربية والتكوين، بهدف إصلاح منظومة التعليم والبحث والتكوين ؛ عضو منتخب في اللجنة التنفيذية للمنظمة العربية للترجمة ـ بيروت من عام (2001 حتى الآن) ؛ عضو اللجنة الدائمة العليا لإصلاح البرامج، بوزارة التربية الوطنية والتعليم العالي والبحث العلمي وتكوين الأطر، ورئيس لجنة اللغات بها من عام (2004 حتى الآن)؛ من بين إصداراته : "**اللسانيات واللغة العربية**"، "**المعجم العربي**"،"**البناء الموازي** "، "**اللغة والبيئة**"، فضلا عن مؤلفاته بالإنجليزية والفرنسية.

---

* حاوره عبد الجليل ناظم ـ الطيب حذيفة ـ مصطفى النحال.

– **آفاق** : الأستاذ عبد القادر الفاسي الفهري، يسعدنا، في اتحاد كتاب المغرب، أن نحاوركم لحساب مجلة "**آفاق**" بصدد موضوع نعتبره راهنا وذا أهمية، يتعلق ب "السياسة اللغوية بالمغرب ورهاناتها حاضرا ومستقبلا"، وهو الملف الذي يحركه سؤال أساسي : "هل يتعلق الأمر، في مغربنا المعاصر، بوجود سياسة أم سياسات لغوية ؟". إنه السؤال الذي يمكن أن نصوغه كما يلي : انطلاقا من الخيارات اللغوية المعتمدة في المغرب، من حيث النصوص المنظمة والمرجعيات المؤطرة والأهداف المبتغاة في كل المجالات والمستويات، هل يمكن القول إن هناك سياسة لغوية واضحة المعالم، أم أن الأمر يتعلق بسياسات لغوية ؟

– **ذ. عبد القادر الفاسي الفهري** : شكرا، لا بد من القول إن الجواب على مشكل السياسة اللغوية، وتحديد معالمها، تدخل فيه عدة ظواهر يمكن تحديدها كما يلي : هناك، أولا، ما يسمى **بالسياسة الصريحة**، أو السياسة على مستوى **التشريع** (une politique de jure)؛ وهناك السياسة على مستوى **الواقع**، أي كما تمارس (de facto). في دولتنا، وعموما في دول العالم الثالث، نجد فجوة كبيرة بين ما هو مشرّع وما يمارس، لا نجدها في الدول المتقدمة. لا يمكن أن تكون هناك لغة رسمية منصوص عليها في الدستور، وعندما تخرج إلى الشارع تجد أن جميع اللافتات واللوحات الإشهارية باللغة الأجنبية، مطعمة مؤخراً بلوحات بالدارجة!.

هذا هو الفرق بين ما هو في مستوى التشريع وما هو في مستوى الممارسة. ثم إن هذه الممارسة، وحتى النصوص التشريعية ذاتها، تخضع لعدة تقلبات. مثلا إذا استقرينا تاريخ المغرب، من بداية الاستقلال إلى اليوم، نلاحظ وجود تقلبات. فكل وزير في التربية كان يأتي بمشروع لغوي جديد، أو على الأقل باختيارات على مستوى الخطاب مخالفة للوزير السابق، وكذلك على مستوى الممارسة. وفي الوظيفة العمومية نفس الشيء، وكذا في قطاعات مختلفة هناك تقلبات على مستوى الأفراد. ثم إنه على مستوى التقلبات كذلك تتحكم الظرفية السياسية في مجال اللغة.

– **آفاق** : ما هي أسباب ذلك في نظركم ؟

– **ذ. عبد القادر الفاسي الفهري** : السبب هو أننا مرتبطون بقوى أجنبية لابد أن نتعامل معها، ولها مواقف مختلفة من اللغة بحسب ثقافتها. مثلا الثقافة الجاكوبينية، أو البونابارتية، في مجال اللغة، ليست هي الثقافة الأنجلوساكسونية، أو الثقافة التركية. الأمر يتغير بحسب الاستعمار الإنجليزي أو الاستعمار الفرنسي أو استعمار قوى أخرى. في الأوقات التي كانت تستعمر فيه البلدان، تمثل الثقافة المهيمنة ثقافة القوى التي تبيع منتوجها أو تقدم الخدمات، وبالتالي تحدث تقلبات. وهذه التقلبات لها تأثيرات إيجابية أو سلبية بحسب قراءتنا لها. إذن لا يمكن أن تقول إن هناك **سياسات لغوية**، بقدر ما هناك **اختيارات لغوية غير مستقرة**. وعدم الاستقرار هذا له نتائج، بطبيعة الحال، سلبية

في التربية والتعليم على الخصوص، وفي مجالات أخرى. إذن بالنسبة لسياسة أم سياسات، أقول: ليست هناك سياسة واضحة المعالم، مقرونة بتخطيط مواكب للتوجهات المتفق عليها.

هناك بعض الخطوط وبعض الاختيارات، وهي تظهر وكأنها ثوابت. وهذه الاختيارات التي تظهر وكأنها ثوابت، على الأقل من الناحية التشريعية، كانت شبه مستقرة في اختيار لغة رسمية واحدة هي لغة وطنية، أي اللغة العربية، والتعامل مع لغة أجنبية واحدة، التي أصبحت وكأنها لغة شبه رسمية، إن لم تكن هي اللغة الرسمية على مستوى الممارسة. هذه من الثوابت تقريبا. وبطبيعة الحال، ابتداء من خطاب المرحوم الحسن الثاني في غشت 1994، وبعد ذلك مع الميثاق، ثم مع خطاب أجدير، وإنشاء المعهد الملكي للغة والثقافة الأمازيغية، بدأ يظهر كذلك اختيار عنصر ثالث فيه ضرب من الاستقرار، ولكن التوازنات بين هذه المكونات ليست قارة بطبيعة الحال. هناك بعض الأشياء التي ربما سنعود إليها في إطار الحديث عن التعدد، الذي قرأته عليّ عبر الهاتف، ربما سنعمق الحديث في مشكل التعدد ومضامينه كذلك، إن لم تكن هناك أسئلة إضافية بالنسبة لهذه النقطة.

– **آفاق :** نعم، هل يمكن الحديث، في هذا الصدد، عن وجود سوق لغوية في المغرب، بما يعني ذلك تبادل قيم رمزية، تماما كما يتبادل الناس القيم الاقتصادية ؟

– **ذ. عبد القادر الفاسي الفهري :** في المغرب، عندما نتحدث عن منطق السوق اللغوية، ينصرف الذهن إلى السوق التجارية أوّلا، وما أعتقد أن السوق الرمزية لها في الوقت الحاضر ما يريده لها البعض. أفضِّل إذن أن أتحدث عن السوق حين يتعلق الأمر بالاقتصاد، أي حين تطرح علاقة اللغة بالاقتصاد الخ. إن اللغات المتواجدة قد تطورت عبر التاريخ. ولابد من الإشارة إلى أن المغرب قد عرف طيلة تاريخه حركة ذهاب وإياب بين عدد من الثقافات واللغات. لكن المهم، هنا، هو ردّ فعل المغاربة ومواقفهم تجاه هذا التعدد. ينبغي القول بأن التعدد اللغوي والثقافي ظاهرة كونية، وليس شيئا خاصا بالمغرب أو إسبانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية. وأكرر أن المهم هي ردود أفعال الناس وسلوكهم الفعلي. أو بعبارة : هل هناك رفض أو قبول أو انطواء ؟ الخ.

فما طبع المغرب، عبر تاريخه، هي مواقف كانت دائما تعددية، على مستوى الأفراد والجماعات. ولكن، ما هو مهم، بالنسبة لي، هو قبول المغربي للتعامل مع الآخر، والاعتراف به باعتباره آخر، وأيضا قبوله أن يتعلم لغة الآخر، و أن ينهل من ثقافات الآخر. وقد وقعت تفاعلات عبر التاريخ، سواء منها تفاعلات في اللغات، أو في الأديان، أو في الثقافات بالمعنى الواسع، في لملبس أو المأكل أو المشرب الخ. وكان هناك، إجمالا، هذا القبول. غير أن هناك جماعات انطوائية كانت ترفض هذا الانفتاح، وُصفتْ بكونها بربرية أو همجية أو دونية أو ما إلى ذلك. وبالطبع، كانت هناك دائما مواقف انطوائية أو محافظة تجاه ما يسمى بالدخيل، أي أن كل ما يأتي من الخارج

كان يثير ردود أفعال محافظة وحمائية.

ولكن هناك أشياء أخرى كانت تتم على **مستوى الدولة**. ذلك أنه عندما انطلقت الدول القوية، كانت لهذه الدول اختيارات أساسية وحاسمة. وأهم ما يطبع هذه الاختيارات هو أن الدولة في إدارتها، إن صحّ التعبير، في ذلك الوقت، كانت تستعمل أساسا العربية فيما هو مكتوب، وتستعمل أيضا اللغات المحلية فيما هو شفوي، سواء في المحاكم أم في التداول أم في التواصل، وتستعمل كذلك لغة الأجنبي عندما تحتاج إلى ذلك. لكن، لم تكن هناك سياسة لغوية تخطط تاريخيا، فيما أعلم، للتعريب اللغوي.

التعريب بصفة عامة ارتبط بالإسلام. والإسلام هو الذي جعل الناس، بحكم عنايتهم بالقرآن، وبحكم عنايتهم بالأحكام الشرعية وغيرها، يُقبلون على تعلم اللغة العربية. واللغة العربية كانت، أولا، هي مصدر المعرفة، على اعتبار أنه خلال القرون الوسطى كانت اللغة العربية منتشرة بشكل كبير. وقد ظهر العلم بها، وترجمت النصوص العلمية إليها من مختلف اللغات الإسلامية أوّلا، من الفارسية والهندية والتركية والإغريقية وغيرها. ومن المعلوم أن الناس دخلوا في الإسلام بموروثهم وبحمولاتهم الثقافية. وهم الذين نقلوا علومهم إلى العربية، فصارت اللغة العربية هي **اللغة العلمية**. هذه قضية أساسية لا ينبغي أن تغيب عنا، لأن اللغة العربية لم تكن، تاريخيا، لغة علمية. فهي لم تصبح لغة علمية إلا عندما جاء الإسلام. لم تكن، تاريخيا، سوى لغة بعض القبائل المشتتة تقول بها بعض الأشعار. هذا كل ما وصلنا، ولكن لم يصلنا أي شيء يتعلق بالعلم أو بالطب أو بعلم الفلك. كل هذه الأشياء، التي هي في الحقيقة ذات حمولة إسلامية، جاءت كتشقّف أو كتثاقف، عن طريق الإسلام. الإسلام هو الذي ارتبط باللغة وليس العكس. لم تكن هناك، في التاريخ الإسلامي، خطة تعريبية واضحة ومتكاملة. وحينما قامت الخطة التعريبية، في بعض الدول، وهذه مفارقة، قامت لأن الناس شعروا بأن اللغة العربية أصبحت مهددة. والخطة التعريبية هي نفسها كانت ضعيفة. إن **التعريب نفسه مؤشر على الضعف**، إنه تدخّل للضعيف.

وللمقارنة كذلك، لا نجد في الثقافة الانجلوساكسونية، على الخصوص، كثرة التشريعات على مستوى تدبير الشأن اللساني. فما يحمي اللغة هو المجتمع وليس الدولة المشرّعة. إذن هذه أشياء تحتاج إلى دراسات معمقة، وإلى تعميق لا إلى الأحكام السطحية والمنفعلة والمتسرعة حول هذا العنصر أو ذاك. يعني أن تقرر أنك ستعرّب مثلا أو ستمغرب أو ستمزّغ الخ. فهذا يبقى كلاما، ويمكن أن يظل كلاما وشعارات، ولكن التعريب الحقيقي هو الذي جاء عن طريق العلم، وعن طريق الممارسة العلمية للمسلمين أكثر من العرب. وحتى في شأن العناية باللغة العربية، لم تكن عناية العرب بها، تاريخيا، هي الأبرز. إن الذين عنوا بالعربية أكثر، وهو أمر معروف إذا ذكرنا الأسماء،

هي الشعوب الإسلامية، حتى بين المغاربة. لقد اعتنى الأمازيغيون باللغة العربية وشغفوا بها أكثر مما اعتنى بها "العروبيون". هناك مساهمة للعرب والعروبيين، ولكن عن طريق الأندلس. وربما حتى التطرف في الدفاع عن اللغة العربية، وعن الإسلام نفسه، جاء من عناصر غير عربية. وينبغي أن نوضح بعض الأشياء، لأن هناك كلاما كثيرا يقال، ولكن بدون أساس تاريخي. نحن لا نريد أن ندخل مجتمعنا في الجاهلية، نريد، بالعكس، أن نخرجه من الجاهلية إلى المعرفة، لأن خطاب الجاهلية هو الخطاب الغوغائي، والخطاب الخَطابي وجد دائما سندا سياسياً، ولم يجد سندا علمياً. لكن علميا وتاريخيا، الأسماء معروفة في العلم، وهي أسماء من مختلف الأجناس ومن مختلف الأديان. كذلك الشأن بالنسبة لليهود، فقد كانت مساهمتهم في الترجمة معروفة ؛ كم من الكتب العلمية التي نقلوها! والنصارى، كذلك، هم من الذين نقلوا المعرفة إلى العرب. من اشتهر من المترجمين كان نصرانيا أو يهوديا، وكان محط ثقة، بحيث كان لدى المأمون حنين بن إسحاق وإسحاق بن حنين وغيرهما. إن الأسماء التي كانت حاضرة وموجودة، في العلم والترجمة وشرح كتب القدامى، كانت دائما من ديانات مختلفة، وكانت هناك ثقة متبادلة ما بين المسلمين والنصارى واليهود على أساس أنهم حينما يكونون في حقل العلم وفي خدمة المعرفة، لا يكون هناك أي مشكل من هذه الناحية. فهذا أيضا يشهد به التاريخ.

– **آفاق** : من المعلوم أن مشكل الوضع اللغوي داخل أي مجتمع، بما فيه الوضع اللغوي التعددي، يقتضي تدبيرا عقلانيا ومعقلنا ومحكما للتعدد، ينسجم مع المشروع المجتمعي المتوخى، بما يعني ذلك التوزيع المتوازن التكاملي لوظائف اللغات المتعايشة. ما رأيكم ؟

– **ذ. عبد القادر الفاسي الفهري** : اسمح لي، أولا، أن أعود إلى موضوع السوق، يجب أن نعمّق الكلام فيه أكثر، وما يهمني هو السوق التجاري، مادام الناس الآن مشتغلين بالجانب الاقتصادي، أركز على الاقتصادي. اليوم في مجال السوق الاقتصادي، بطبيعة الحال، هناك الفرص وهناك خلق الفرص. أنت حينما، مثلا، تدخل لبنان الذي هو بلد متعدد، بل الفرنسية فيه لغة رسمية إلى جانب العربية، ويمارس الإنجليزية كلغة الأعمال و"البيزنس" والمبادلات وغيرها، هذا البلد يتكلم باللغة العربية. فأنت حين تصل إلى المطار، ترى أن الناس يحملون لافتات الانتظار لأسماء مكتوبة باللغة العربية، ثم تعبّىء جذاذة الدخول باللغة العربية فقط، إذا كنت عربيا، مع أن لبنان متفتح وليس له أي مشكل. مشكلنا نحن في المغرب يجب أن نتعمق فيه. ومن ثم، فإن السؤال أو الأسئلة التي ينبغي أن تُطرح هي : لماذا نريد أن نكتب بلغة أخرى ؟ لماذا نريد أن نهاجر ؟ لماذا نريد أن نغادر الذات والهوية والمكان ؟ لهذه الأمور أسباب أعمق من مسألة: هل اخترنا هذه اللغة أم تلك ؟ هناك مشكل أعم، هو مشكل الاتجار في لغة الهوية. وهذا يترجم باللغة الفرنسية أو بلغة أخرى. يعني أن المشكل ليس هو مشكل لغة معينة في حد ذاتها، بل كافة لغات الهوية. الذي يريد

أن يتكلم حتى مع أبنائه في منزله يتكلم بالفرنسية، لا يتكلم لا بأمازيغية ولا بدارجة ولا بفصيحة. وهذا مشكل بالنسبة إليّ يتعلق بمشكل الهوية، فلماذا لا نريد أن تكون لنا هوية لغوية ؟ مع أن المغاربة، كما هو معلوم، متشبثون عموما بهويتهم، ودافعوا عنها في الحروب وماتوا وقتلوا من أجلها، وكذلك عندما يهاجرون، فإنهم يحنون إلى بلدهم للعودة إليه. هناك مشكل ما في تدبير قضية الهوية.

– **آفاق** : أعتقد أن المشكل الحقيقي هو مشكل تدبير التعدد، لكننا نعرف أن مسالة التدبير تتضمن تراتبيات وتصنيفات رمزية وإيديولوجية. فبعد استقلال المغرب، مثلا، كان الاتجاه يسير نحو سيادة قيمة الوحدة الوطنية والدينية بصرف النظر عن أبعاد أخرى. فهل لمسألة التعدد اللغوي علاقة بظهور قيم الاختلاف في المجتمع الحديث، وحقوق الأفراد والجماعات ؟

– **ذ. عبد القادر الفاسي الفهري** : بطبيعة الحال، يجب أن نراعي الظروف التاريخية للمفاهيم. حينما طرحت مثلا قضية الوحدة في الوقت الذي طرحتْ فيه، جاءت في سياق تاريخي معين. ومع ذلك فإن قضية التوحد، اليوم، مازالت مطروحة، لكن السياق مختلف، يعني سياق العولمة. المفارقة أن العولمة، من جهة، دفعت إلى تقوية الكيانات الصغيرة، ما يسمى بالأقليات، ومن جهة أخرى دفعت إلى تكوين ذوات ضخمة سواء اقتصادية أو غيرها، بحيث أن القويّ يبتلع الضعيف. بطبيعة الحال على المستوى الاقتصادي، الأقلية لم تعد موجودة، ونظرا إلى الارتباط بين الاختيارات على المستوى الثقافي والسياسي وغيره، وبين الاختيارات الاقتصادية. هناك مشكل في تدبير هذه الاختيارات. ولكن دعني أعود إلى مفهوم التعدد. أولا، التعدد هو شيء طبيعي في الأفراد، في ثقافاتهم، في اختياراتهم، وهذا ليس جديدا. بل ربما الحديث عن ثقافة الاختلاف وغيرها جاء متأخرا، ولكن هذه الثقافة كانت موجودة دائما، إنما وقع عليها التركيز في هذه الفترة الأخيرة عند بعض الفلاسفة خصوصا.

الذي أريد أن أقوله، وسبق أن قلته في بعض المناسبات، هو أن مفهوم التعدد، على مستوى الممارسة، يجب أن نلاحظ أنه وهمي. فحينما نتحدث عن التدبير، يجب أن نلاحظ، من حيث الواقع، أن التعدد وهميّ في المغرب. أعطيك بعض الأمثلة في الدول المتقدمة، والدول السائرة في طريق النمو. فبالنسبة للدول المتقدمة، إذا ذهبنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، نجد أن هناك تعددا على مستوى الجماعات الصغيرة، ذلك أنه في التعدد يجب أن نفرق بين التعدد على مستوى الأفراد والتعدد على مستوى الجماعات، وحينما نتحدث عن الجماعة، هناك الجماعة الصغيرة والجماعة الكبيرة. بالنسبة للجماعة الصغيرة، هناك تعددات ثقافية ولغوية وإثنية بحكم أن الولايات المتحدة هي مزيج من الثقافات، على مستوى الممارسة التي يحميها المجتمع، هناك عدم وجود للتعدد.

وعلى مستوى اللغة، هناك لغة واحدة، مع أنه ليست هناك قوانين تقول بأنه يجب أن تكون هناك لغة واحدة، وبعض الولايات التي كانت فيها الألمانية قوية وحاولت أن ترسمها، وقع إقبار هذه المحاولات فيها. ونفس الشيء بالنسبة إلى الإسبانية، إلى حد الآن تمارس بصفة شبه رسمية في بعض المناطق، ولكن ليس هناك ترسيم فعلي. وبالنسبة لفرنسا، هناك أيضا لغة واحدة وقانون اللغات الجهوية ولغات الأقليات لم تصادق عليه فرنسا، مثل ما فعلت جل دول الاتحاد الأوربي. وهناك في بعض الدول مثل ألمانيا وغيرها، هناك عناية أكثر باللغات الجهوية أو لغات الأقليات. بالطبع هناك تفاوت، ولكن مع ذلك هناك لغة واحدة. ليست هناك دولة في أوروبا لها أكثر من لغة، باستثناء بعض الدول التي اختارت الثنائية والتعددية، مثل بلجيكا وسويسرا، لأسباب معروفة. وهناك شعوب مختلفة بالنسبة لكثير من الدول، ومعها أحادية لغوية سائدة. ثم على مستوى الأنظمة التعليمية، فغالبا ما تكون هناك أحادية لغوية، وليس هناك تعدد، إلا ما شذ لأسباب معروفة.

– **آفاق :** هل الأمر ينطبق على بلد مثل المغرب كذلك ؟ وما هو الشكل الحقيقي الذي يتخذه التعدد ؟

– **ذ. عبد القادر الفاسي الفهري :** بالنسبة للمغرب، وبالنسبة لبعض الدول الأخرى، يمكن القول إن هناك تقدما لأن الناس أصبحوا يتحدثون عن التعدد، وعن حاجتنا إلى التعدد. لكن أحيانا في المشهد السياسي وفي الأفكار، يبدو أنه رغم الاختلافات الصغيرة بين الخطابات، نجد أن هناك خطابا واحدا مليئا بالتوافقات، بحيث أن بلورة الرأي المتعدد غير واضحة، ومعنى ذلك أنه حينما يبرز رأي مختلف بصفة واضحة وجذرية، غالبا ما تتم محاربته. ولذلك نجد هذا الإيهام بأن هناك تعددا بتعددية الأحزاب. حقيقة هذه خطوة هامة بالنسبة لمنع سيادة الحزب الواحد، هذا شيء لا ننكره، لكن بالنسبة لنظام التفكير العام، قد يكون هناك اختلاف على مستوى الأفراد، ولكن على مستوى القوى المنظمة، لا يبرز الرأي والاختلاف بصفة واضحة. مثلا، في قضية الصحراء، كانت هناك بعض الآراء المختلفة في تدبير قضية الصحراء، وبعض أصحاب هذه الآراء إما سجنوا أو وقع لهم ما وقع، ثم لم يعد الرأي المخالف حاضرا بما يكفي. أما على مستوى اللغة، فقد وقع تقدم في تدبير القضية اللغوية، ابتداء من 1999 مع الميثاق إلى الآن، بدأ مع المرحوم الحسن الثاني ثم استمر مع الملك محمد السادس. هذا النزوع إلى التعدد، بالنسبة إليّ وكما أتصوره، يجب إيجاد تدبيرله سأذكره فيما بعد.

غير أنه تدبير يبدو وكأنه تدبير تعددي، وفي الحقيقة ليس تدبيرا تعدديا. على مستوى الممارسة، ما نطمح إليه هو **تدبير ثلاثي** للاستعمال اللغوي. نتحدث عن ثلاثية، وهذه الثلاثية أنا حاولت أن أعطيها تأويلا خاصا ابتداء من تأويلي للميثاق الوطني للتربية والتكوين، وانتهاء بما

اقترحته فيما بعد، هناك ثلاثية. وهذه الثلاثية دافعت عنها قبل أن يبرز الميثاق، في مقال نشر عام 1995. تدبير القضية اللغوية في مستويات ثلاثة : أولا، هناك **اللغة الرسمية الوطنية** وهي اللغة العربية، وهناك **لغة كونية** تفتح الأفق على العالم، وهناك الأمازيغية كعنصر أساسي في تدبير قضية **اللغة الأم**، باعتبارها اللغة المختلفة عن اللغة الوطنية الأولى، وهي اللغة العربية. إذن الثلاثية اللغوية التي أقترحها تأخذ بعين الاعتبار العنصر الكوني والعنصر الرسمي الوطني والعنصر الوطني المرتبط باللغة الأم المغايرة. وهذا الاقتراح برز، ليس بهذا الوضوح، ولكنه برز إلى حدّ في الميثاق الوطني للتربية والتكوين. إذن هذه الثلاثية يمكن أن تعتمد في التدبير على أساس أن هذه اللغات ليس لها نفس الوظائف، ولا ينبغي أن تكرر نفس الوظائف، أو تتنافس على الوظائف التي تقوم بها. لا يمكن أن تتنافس على الوظائف التي تقوم بها، لأن التعدد فيه ما هو مغْنٍ وفيه ما هو مفقر. فإذا تحول إلى التكرار مثلا، فإنه يصبح مفقرا. بمعنى أننا لا نُدْخِل اللغة الكونية لنعطيها نفس الوظائف التي نعطيها للغتنا الوطنية الرسمية، ولا ندخل الأمازيغية لنعطيها نفس الوظائف التي نعطيها للغة العربية الرسمية. فالتعدد يجب أن يكون مغنيا لا مفقرا، يجب أن يكون تراكميا بتراكم الوظائف، لا تكراريا حشويا. يجب أن يكون في خدمة المواطن إذا كان متعلما أو إذا كان مستمعا للتلفزة أو غيرها، إذا كان يبحث عن فرص للشغل الخ. التعدد يجب أن يكون في خدمة المواطن. في إطار هذا، بطبيعة الحال، حينما نتحدث عن هذه الثلاثية نتحدث عنها بصفة أنها محورة حول ثلاث لغات لها امتياز على اللغات الأخرى. حينما نتحدث عن اللغات الكونية أو اللغات الأجنبية، هناك تدبير داخلي في اللغة الأجنبية. هناك اللغة الفرنسية التي لنا معها بحكم الثقافة والسياسة علاقات تاريخية وسياسية واستراتيجية واقتصادية وغيرها، وهناك اللغة الإنجليزية التي ينبغي أن ندبر أمرنا معها لأنها هي لغة أقوى دولة في العالم، وهناك الإسبانية التي لنا كذلك معها تاريخ وأضعناها وأضعنا ربما حتى العلاقات المغربية الإسبانية بحكم أن اللغة كذلك تحمل روابط وعلائق، وهناك اللغات الأخرى كالألمانية والإيطالية إلى غير ذلك. في هذا الغلاف الثلاثي يجب أن نحكم التدبير. في قضية اللغة العربية، بطبيعة الحال اللغة العربية، هناك الفصيحة وهناك الوسطى، وهناك العربية القديمة وهناك الدوارج بمختلف تنوعاتها إلى غير ذلك. هذا غلاف ينبغي تدبيره التدبير الحسن، تدبير على أساس الإغناء لا على أساس النزاع أو المنافسة. ونكون دائما في خدمة المواطن اقتصاديا ومعرفيا وسياسيا. في قضية الأمازيغية، بطبيعة الحال، الأمازيغيات ليست موحدة، رغم ما يقال عنها. من الخطأ أن تقول إن الأمازيغية موحدة. الأمازيغيات فيها تنوع ينبغي تدبيره تدبيرا محكما، ولم نفعل ذلك إلى حد الآن. ينبغي أن نعي أن كل لغة فيها مستويات، كل لغة، كما كنت أقول دائما، داخلها لغات، نفس اللغة داخلها لغات. اللغة التي أتحدث بها ليست لغة واحدة. ولكن، كيف نتفاهم ؟ وكيف نصل إلى التواصل (communication) ؟. يجب أن نعلم بأن التواصل، كما

درّست عدة سنوات لطلبتي، مبنيّ أولا على التنازل والتعاون، يعني أنه إذا لم يكن لديك استعداد، إذا لم تكن مهيئا للاستماع لكلامي، فإنك ستخرج كلامي على غير مخرجه. في مسائل الاختلاف والتعدد والتوحد، تطرح قضية الاختلاف غالبا على أساس أنها ضدّ التوحد أو العكس، وهذا منطق مغلوط أيضا. فاللغة بحسب ما تريد، هل تريد أن تتصل أو تنفرد ؟. فإنْ كنت تريد أن تكون متفردا مبدعا ينبغي أن تكتب بلغة خاصة بك، لا يكتب بها أحد. وإن أردت أن يفهم غيرك، فهذا شيء آخر، لا بد أن تتوحد. لا بد من الإشارة هنا إلى أنه دائما في سياق الحديث عن اللغة، كانت اللغة التي يسميها فيرجسون اللغة العادية أو "السافلة"، واللغة "العالمة"، وهناك ما بينهما. لا يمكن للعالم المدقق أن يتكلم لغة الإنسان الشعبي، كلغة الخراز، وهذا ليس تنقيصا من الخراز، ذلك أن العالم حين يتكلم مع الخراز لن يعرف ماذا سيقول له.

لذلك، فاللغة لغات، ودائما داخل نفس اللغة هناك لغات في داخل اللغة الواحدة. والذين يتكلمون عن لغة الملحون، فالملحون له لغة أخرى، ليست هي اللغة التي نتكلمها الآن، والعديد من الناس الذين يعرفون الدارجة لا يفهمون كثيرا من لغة الملحون، بل الكثير من ألفاظ الملحون هي ألفاظ عربية فصيحة قديمة درّجت، وأحيانا نسيت حتى من العربية الفصيحة. هذه كلها أشياء يجب أن تكون معروفة. يعني أن التواصل بالضرورة يقتضي التوحد، والتنازل للآخر. وحينما نعقد اجتماعات ونختلف في الآراء، يكون الرئيس مضطرا للخروج برأي واحد، فيقول : الآن يجب أن تكون هناك أغلبية وأقلية. فلنبسط، إذن، ونجزئ الجماعة إلى فريقين. وكذلك الأمر في اللغة، لا يمكن أن ندبر مسألة اللغة دون تنازلات ودون توافقات. فإذا عددنا اللغة إلى ما لا نهاية، فإننا لن نتفاهم، بحيث يبقى لكل واحد له برج بابل خاص به.

– **آفاق** : هل تتحكم في الاختيارات اللغوية، على مستوى الدولة بالخصوص، اختيارات موضوعية ؟

– **ذ. عبد القادر الفاسي الفهري** : كتبت في مجلة "أبحاث لسانية" التي أسستها في المعهد، مقالا أتحدث فيه عما قاله بصدد العبرية أحد المستشرقين الهولنديين، وبعض المراجع الأخرى، التي كانت تقول إن اليهود يحلمون بقيام لغة لن تكون أبدا لغة، بل ليست لديها أية فرصة للبقاء، ويجب أن يتم التعامل مع هذا الحلم بحذر. فبالنسبة للعبرية، لم تنته إلى هذا، بل تريد أن تصبح أقوى من العربية، على عكس ما ظنه صاحبنا. لقد استفادت العبرية من فرصة تاريخية، والعربية استفادت كذلك من فرصة تاريخية، وأصبح 1 على 5 من سكان العالم يريد تعلم العربية. وتعزز هذا مؤخراً بعدد الأمريكيين الذين يرغبون في تعلمها، ويمولون الأبحاث حول اللغة العربية. بالنسبة لي، ينبغي أن تكون اختيارات اللغة اختيارات موضوعية. وبالرغم من أن هناك الكثير من الذاتية في اللغة،

ويجب أن نقبل ذلك، هناك الكثير من السياسة في اللغة، وينبغي انتهاز الفرص.

الناس يقولون إن اللغة مجرد أداة للتواصل، وهؤلاء في نظري لا يفهمون كثيراً ما تعنيه لغة ما، فاللغة ليست مجرد أداة للتواصل، بل هي الكثير من الانفعالات الوجدانية والكثير من الذاتية ومن السياسة ومن الاقتصاد وأشياء أخرى. وإذن يبدو لي أنه من غير الممكن القيام باختيارت إلا عبر التوافق أولا، وقد اقترحت نموذج اللغات الثلاثي عبر تدبير يضم لغة كونية ولغة رسمية وطنية ولغة وطنية أمّ هي الأمازيغية، ونقف هنا لأنه لا يمكن أن نتسلى بالتجوّل في كل أنواع التنوع، وإلا سننتهي إلى : «كل بليّد فيه كويطن، وكل كويطن فيه سليطن».

– **آفاق** : المهمّ، بالنسبة لكم، أن هناك مكونات لغوية، هي المكونات الحقيقية للهوية المغربية، فقط ينبغي أن تنظم بكيفية معينة ؟

– **ذ. عبد القادر الفاسي الفهري** : مكونات الهوية المغربية هي الإسلام والعروبة والأمازيغية بالأساس والتفاعل مع عناصر أخرى إقليمية وكونية. وهذه الهوية ثقافية ولغوية ودينية، وليست دينية فقط، وإذا أردنا إعادة التاريخ إلى الوراء فعلى الأمريكيين أن يعودوا إلى ديارهم لأنهم أكثر حداثة في الولايات المتحدة مقارنة معنا. وما دمتم أثرتم مشكل الهوية، هناك ناس يريدون أن يكون المغاربة مسلمين أولا، والباقِي محكوم بهذا، وأنا أعطيت محتوى أكثر تنوعا لمفهوم الهوية، وليس الإسلام فقط. هناك محتوى ثقافي فعلي، ولكن هناك أناس ليسوا بالضرورة مسلمين، بل هم يهود ومسيحيون رغم قلتهم، وعلى المستوى الثقافي، هناك الثقافة العربية، والعربية الإسلامية، وهناك الثقافة الأمازيغية، وهناك مكونات أخرى للهوية المغربية. ما حدث في الماضي هو أن بعض الفرنسيين المستعمرين تحدثوا عن "العربية الكلاسيكية"، وعن "العربية المغربية"، يقصدون الفصيحة والدارجة بهدف زرع الشقاق في الازدواجية العربية بالمغرب. وقد كان هناك رد فعل لدى الفرنسيين أنفسهم. وهكذا نجد "شارل بيلا" Charles Pellat يتحدث عن عربية حية، و"مونتاي" Monteil عن العربية الحديثة الخ. وهناك فرنسيون واجهوا الفرنسيين، داخل فرنسا نفسها في هذا التصور ودحضوه. الحديث عن العربية الكلاسيكية موجود في نصوص "ليوطي" و"بول مارتيني"، فينبغي أن نحيد هذا التصور الاستعماري. كبار العلماء مثل Ferguson وغيره كتبوا عن الازدواجية العربية بين الفصيحة والدارجة كظاهرة طبيعية، وينبغي أن نستفيد من الدراسات السوسيواجتماعية في هذا الصدد.

نتمنى أن نكون مع المغرب المستقل قد تجاوزنا هذا الطرح الكولونيالي. وأستغرب أن يطرح المغاربة نفس الأشياء، فربما طرحوها ثانية ليتجاوزوها بطريقة عقلانية أكثر. في البداية كان تجاوزها بطريقة وجدانية، والآن نتمنى قيام كتلة أو إحداث كتلة ثقافية لا بأس بها بإمكانها تجاوز المشاكل،

كتلة فكرية وثقافية نتمنى أن توظفها الدولة لتجاوز المشاكل بصفة عقلانية وليس بتدجين هذه الكتلة. وهنا يدخل دور التعدد. التعدد المغني بهذا المعنى هو قيام مفكرين بإعطاء بدائل تجعل الناس يتقدمون، وليس أن يكون هناك شعار التعدد من جهة وممارسة أحادية وتدجين للفكر المغاير. فلحد الآن هناك أحادية وتوافقات قاتلة. لا يمكن للمثقف أن يدخل في التوافقات، لأن ذلك من شأن السياسي، إلا في ما يتعلق بما يتهدد البلاد، أحيانا يلعب المثقف دور أن يمهد الطريق للسياسي في بعض التوافقات. إن الإشكال المهم بالنسبة إلينا كمثقفين وجامعيين هو الحفاظ والدفاع على أن تقوم سياسة الدولة والخواص على تشجيع تعدد الرأي. فلحد الآن ليس هناك تدبير تعددي، رغم الشعارات. والميثاق لا ينص إطلاقا على التعددية، خلافا لبعض التأويلات، حيث نجد في الميثاق فقط إرهاصات للاختيارت الثلاثية التي تحدثت عنها. وهذا هو التدبير المعقول، ولا يمكن أن نوسع أكثر مجال التنوع بل يجب أن نشتغل. بالطبع هناك تدبير داخلي في قلب كل مكوّن من هذه المكونات وفي هذه الوظائف المذكورة، يمكن أن نجتهد في كيفية تدبير الأشياء. داخل اللغة الكونية بخصوص العلاقة بين الفرنسية والأنجليزية والإسبانية وغيرها، وهذا يحتاج إلى نقاش علمي وموضوعي.

– **آفاق** : في إطار التدبير الثلاثي، كيف يمكن التوفيق بين ما ينطلق من العلم، كما قلتم، وبين ما يصدر عن الاختيارات السياسية والإيديولوجية ؟

– **ذ. عبد القادر الفاسي الفهري** : في إطار هذا التدبير على أرض الواقع، سأعطيك أمثلة بسيطة. كانت تأتينا في "معهد الدراسات والبحث للتعريب" حواسيب بلوحات لا تحتوي على حروف عربية، مع أن هذه اللوحات موجودة في السوق، وكذلك برمجيات بدون اللغة العربية، فلا يمكننا رقن نصوص عربية. مع أن هذه البرمجيات موجودة في كل مكان بالمغرب وعربيا ودوليا. وتقوم ميكروسوفت بتطوير عدة برامج عربية، والولايات المتحدة تطور برمجيات عربية أكثر مما يطوره العلم العربي. هذه ملاحظة أولى. لماذا نحرم الناس من التوفر على حاسوب بالعربية والإنجليزية، إلى جانب الفرنسية!. الملاحظة الثانية في ما يتعلق بالاختيارات في التعريب، اقترحنا حلولا، وحين نريد التحدث في موضوع ما، يجب أن ننطلق من مرجعياتنا. فحين نتحدث عن التدبير، هناك مرجعيات موجودة. فنحن لا نتحدث من فراغ. هناك قانون "أكاديمية محمد السادس للغة" صدر بإجماع الأمة ومصادقة جلالة الملك. هناك الظهير الذي حدد مهام المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، وهناك الاختيارات المتعلقة باللغات الموجودة في الميثاق، وهناك أيضاً في الميثاق اقتراحات بالنسبة للتعريب، خاصة بالنسبة للتخصص. وهذا التخصص صار، كما كان ديغول يقول : un Problème d'intendance. والآن هناك حديث عن حكامة أو ما إلى ذلك وإن شئت إدارة. فحينما يتم تحديد التوجهات بشكل واضح، ونخرج من التردد، أي من أننا نصوّت اليوم على

قانون، وغدا نريد التصويت على آخر، فإن الميثاق صودق عليه، وهو وثيقة مرجعية مهمة وتاريخية، ولكن عندما نريد تطبيقه نطبق ما نريد ونترك ما نريد. فقد ركزنا على أنه شمولي ووقعت عليه توافقات. فهو وثيقة تاريخية ووثيقة التوافقات السياسية والنقابية والخبراء أيضاً، ووضعنا هذه الوثيقة وفيه اختيارات لغوية، بالنسبة لعلاقة لغة الثانوي بالتعليم العالي،اقترحنا في الميثاق بالواضح أن هناك تعليماً أساسياً موحداً، وما فوق الأساسي يعطى للتلميذ الاختيار بحسب التوجيه، على أن تكون له القدرة على ذلك، أي الاختيار بين أن يدرس باللغة العربية أو اللغة الأجنبية. الميثاق يتحدث عن لغتين أجنبيتين، وليس عن لغة واحدة. هذا بالنسبة للتخصص، ثم يدرس في نفس الوقت لغة أخرى، إذ أنّ اختيار لغة هي اللغة الأساس لتعليمه مع لغتين أخريين، حيث يكون التلميذ بالضرورة ثلاثي اللغة. وابتداء من الثانوي، ثم العالي لن يكون هناك طالب يدرس بلغة واحدة، بل بثلاث لغات. وهذه اللغات ستكون حسب اختياره، فإذا كان جيدا في العربية، واختار أن يدرس بها، فإنه اختيار متاح له، ذلك أن الميثاق ينص على أن هذه الشعب اختيارية، وهذا تقدم كبير. فإذا اختار التلميذ الدراسة بالعربية، فليس لأحد الحق في حرمانه من ذلك بدعوى أنها غير صالحة، أو شيء من هذا القبيل. وكذلك إذا أراد أن تتاح له الفرص بلغة أخرى، يجب أن نترك له هذا الاختيار، ولكن نقول له مثلا إنما نريد أن يدرس التلميذ ابتداء من الثانوي فما فوق باللغة الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والعربية، وهذه الحلول موجودة ولكن لم نطبقها. إذن إذا دخلنا في نقاش آخر ووصلنا إلى نتيجة جديدة ثم لم نطبقها فلماذا يصلح النقاش. أنا لا أريد أن أدخل في نقاشات مستمرة لا فائدة من ورائها. هناك بعض الأمور التي قد تكون فيها هفوات يمكن نقاشها، وهناك بعض الأمور التي وقع عليها إجماع وأصبحت مرجعية يجب أن تطبق أويجب أن تنتقل إلى مرحلة التطبيق. فنحن الآن لسنا في عهد بدون توجهات، بحيث نفتح هذا الموضوع من جديد. فهناك من يريد فتح موضوع الدارجة، وآخرون يريدون موضوع الحسانية، وكأننا لم نجتمع قبل ست سنوات. وقد كتبنا وثيقة مع الأحزاب ومع غيرها ومع الخبراء والنقابات، ومن الواجب احترام هذه الإدارة التي وافق عليها جلالة الملك وانتهى الموضوع. وكذلك إذا كان هناك قانون للأكاديمية أو غيرها يجب تطبيقه. يجب أن نحترم هذه الاختيارات ولو لمدة معينة، ثم إذا ثبت أنها تحتاج إلى مراجعة، فيمكن فتح ما نشاء من نقاش في وقته. فوثيقة مثل الميثاق لا يمكن أن تكتب كل عام. يجب احترام القوانين حتى يتم تغييرها، فلا يمكن أن أقول إنني أرفض الدستور، لأن العلاقة بيننا ينظمها الدستور وينظمها القوانين، وإذا أراد أحد أن يناضل من أجل تغيير القوانين، فيمكنه ذلك، ولكن في انتظار صدور القوانين الجديدة عليه أن يحترم القوانين الموجودة، وهذا يدخل في الثقافة الحديثة والمتقدمة، أي ثقافة القانون وثقافة الحق. حين ندافع عن حق الأقلية يجب أن ندافع في نفس الوقت عن حق الأغلبية، وهذه الثقافة الحقوقية

الجديدة التي ظهرت، أي احترام حقوق الأقليات وحقوق الأغلبية، كل هذا تعاقدات اجتماعية وثقافية وغيرها. إذا أخذنا منه ما نريد وتركنا ما لا نريد، فهذا ليس عملا سياسيا، وإن كنت شخصياً لا أنشغل كثيراً بالسياسة.

– **آفاق** : تتحدثون، في كتابكم "اللغة والبيئة" عن مفهوم التلوث البيئي اللغوي، الناتج عن تصور مغلوط للتعدد اللغوي واللهجي. ما سبل تنقية هذا التلوث في نظركم ؟

– **ذ. عبد القادر الفاسي الفهري** : فعلا، ركزت على فكرة البيئة، لأن البيئة أساسية حتى في حيزها الضيق المتمثل في الأسرة، فالطفل يتعلم أولا داخل الأسرة، فإذا كان هناك شجار بين الوالدين أو غير ذلك، فإنه يؤثر سلبيا على الطفل، ويؤثر على تعلمه واكتسابه للقدرات المعرفية. والبيئة السليمة هي بيئة الرأي وإبراز الرأي والقبول بمفهوم التعدد وكما كان يقول Voltaire "قد أخالفك الرأي ولكنني مستعد للتضحية من أجل حقك في الدفاع عن رأيك". وإذا قبلنا بمفهوم التعدد كشيء أساسي بالنسبة للرأي على الأقل، فيجب ألا نستصغر الرأي الآخر بوسائل غير حضارية. وإذا كان هناك نضج حضاري وثقافي فيجب أن نقبل بالآراء المتعددة. ولكن هذا مع الأسف لا يمارس لحد الآن سواء في الصحافة أو في غيرها. بعض الصحافة المفرنسة تتناول بعض الجوانب السلبية للعربية أو غيرها في حملة شعواء على العربية. وهذا بالنسبة لي مشكل أساسي لأن المشروع هو أن ننقل المغربي من الجهل إلى العلم، والعلم ليس هو الكذب على الناس، أو لأنني مقتنع بفكرة أسعى لفرضها على الناس. فيمكنني أن أدافع على فكرتي دون أن أكذب على الآخر. بعض الناس كانوا يدافعون على العربية ويقذفون في الفرنسية بأشياء غير معقولة، والآن هناك من يدافعون عن الأمازيغية ويقذفون في العربية. لماذا نريد الدفاع عن شيء ما بالأكاذيب. من هذا الجانب أو ذاك ومع الوقت ستفتضح الأمور ونعود إلى التاريخ والحقيقة. فالأساسي هو نقل المغربي من الجهل إلى المعرفة، فالطفل الصغير يجب أن يكون متوازنا منذ البداية في بيئة سليمة، بدءا من الأسرة، تعطيه إمكانيات وأدوات الحوار والرأي الآخر. الطفل الأمريكي يطلب منه رأيه وهو في السنتين الأوليين من عمره أو أقل في الأمور التي تهمه، وعندنا لا يسمع الطفل إلا "اسكت"، "أنت لا تفهم شيئا" ؛ وأحيانا هنا أشخاص في الستين من عمرهم ونعدهم أطفالا دائما لا يفهمون. وهذا يجب أن يتغير، ويجب نشر الثقافة الجديدة عن طريق التربية أولا. إذن هناك البيئة داخل البيت وداخل المدرسة وداخل المحيط العام الثقافي. وهذه البيئة يجب ألا تكون ملوثة بالنزاعات الجانبية، بالأكاذيب وبطمس الحقائق، فهذا كله يساهم في تلويث البيئة. البيئة التي تبقى عنصرا أساسيا لنقل الناس من مجتمع الجهل إلى مجتمع المعرفة ومجتمع المعلومات. هناك معلومات خاطئة نروجها وأشياء يجب أن تطرح في نسبية. مثلا اطلعت على تقييم المغادرة الطوعية. فعندما قدمت في البداية قُدمت على أساس أن الذين سيغادرون سيحركون الاقتصاد، وسيأتون بأفكار جديدة وستدعمهم الأبناك،

ولكن عندما نقرأ التقييم حاليا، نجد أن 38٪ منهم من المعطوبين والمعوقين، بل الموتى، ولم يكن هناك أي شيء إيجابي في هذه المغادرة، مما يدل على أن الناس ينسون بسرعة. أنا لا يهمني أن تكون في هذا البلد الصينية أو غيرها، ولكن ما يهمني هو هذا النقاش بيني وبينك وبين الزملاء، وكيف ندفع بهذا المجتمع إلى الرقي والرفاه، ولا يهمني أن أتنازل عن العربية أو لا أتنازل، ولكن يجب أن تكون هناك أشياء موضوعية حتى لا نعود إلى الوراء. فإذا نظرت إلى التعليم، مثلا، حين نستقرىء تاريخ تغير لغة التعليم، نجد أننا بدأنا ب"عرِّب" والسنة التالية "فَرْنِسْ"، والسنة التي بعدها "عرّب"، وهكذا. لقد كان أساس التعريب الذي شمل الثانوي هو ما ورد في خطة الوزير السابق عز الدين العراقي، وأذكر له استجوابا في مجلة "جون أفريك" سنة 1981 أو 1982 يقول فيه "نحن محكوم علينا بالتعريب". أولا لأنه ليس لدينا أطر مفرنسة كافية للتدرس بالفرنسية، ثانيا كثرة الرسوب وقلة المردود، وقام بعد ذلك كلام الآن يدافع عن الفرنسية لنفس الأسباب التي عربنا من أجلها ؟ أنا لا أفهم. فبالنسبة للمغربي، ليس المهم هو أن تعرب أو تفرنس، بل المهم هو أن يفكر، ماذا يريد هل يريد أن يدرس هذه اللغة أم لا يريد، وكيف إلى غير ذلك. لأن هناك حقوقا لغوية للمواطن. بطبيعة الحال له الحق في لغة رسمية، وله الحق في لغة كونية، وله حق في لغته الأم، ولكن بأي طريق تبلور هذه الحقوق وفي أي اتجاه ؟

– **آفاق** : ما هو السبيل، إذن، للخروج من هذا الوضع الملتبس ؟

– **ذ. عبد القادر الفاسي الفهري** : إن السبيل الأول للخروج، حتى يكون هذا التعلم في صالح البيئة وأن يخرج من بيئة النزاعات ومن بيئة الحروب اللغوية التي تشوش على التعلم باستمرار هو خلق بيئة أجود لتعلم اللغات. مثلا يريد المغربي أن يتعلم الفرنسية فتقول له : الفرنسية لغة متخلفة وتجاوزها الدهر ويجب أن تتعلم الإنجليزية، يريد أن يتعلم العربية لأن لديه فرصا أو قناعات فنقول له نفس الشيء. يجب أن تكون هناك بيئة أجود من البيئة التي نمارس فيها الآن التعليم، تعليم اللغات بصفة خاصة والتعليم بصفة عامة، هناك بخس لكل شيء، حتى ما حققه التعليم المغربي. هناك أيضا بخس لما حققه التعريب رغم مشاكله، وأنا ذكرت في وثيقة أن هناك شيئين حققهما التعريب على الأقل، وإن كنت غبر متفق مع الطريقة التي طبق بها التعريب والارتجالية التي تم بها ولكنه حقق استقلالية تجاه الشرق وتجاه فرنسا كذلك، استقلالية نسْبية. هناك بعض المغاربة يتعلمون الإنجليزية ويتعلمون الألمانية أو غيرهما. وعلى كل حال، فإن الدفاع عن هوية يجب ألا يكون انطوائيا، ولكن، في نفس الوقت، يجب أن نعترف أن الهوية لها دور. حين تذهب إلى شركة، تقول لك : هذه هويتي. فكيف للمواطن أن يقول ليس لي هوية، لي هوية كونية، أولا ليس له هوية كونية ؛ هذا كذب، لأن الهوية الكونية الثقافية فيها عدة قيم، وهذه القيم لا نحترمها، كما ذكرت، من جملتها احترام القانون، وهذا أساسي في بعض الدول ولا نناقشه عندنا إلا هامشيا، وليس فيه نسْبية أو

خصوصية، وبالنسبة للذي يخرق القانون يعاقب فورا. نحن لم ندخل في هذه الثقافة "الكونية" لاحترام القانون، احترام الحقوق وأشياء أخرى. انظروا إلى مؤشر الرشوة، مؤشر الأمية، الخ. لا أريد الدخول في السياسة، ولكن مؤشرات كثيرة تدل على أننا لا نحترم الكثير من الأشياء. لقد قطعنا خطوات، ويجب ألا نرى فقط السواد، لكن هناك أيضا، للأسف، وأقولها، خطاب "العام زين"، الذي لم يعد بعض المسؤولين بسببه يقبلون أي نسبية، يريدون أن تقول لهم "كل شيء على ما يرام". وهذا لا يمكن، فالنقد الموضوعي لابد منه لكي نتقدم، فلابد أن نرصد ما قطعناه، وأن نشير إلى ما يمكن أن نفعله ونحسن المؤشرات الموضوعية في ميدان الأمية أو البحث العلمي أو غيره. نجد أن الكلام عن البحث العلمي في المغرب في واد والمؤشرات الموضوعية والواقع في واد آخر. فيجب أن تكون هناك على الأقل نسبية في الأحكام سواء على العربية أو على الأمازيغية أو غيرهما. فما يهمني، كمواطن ومغربي وباحث، هو ألا أسمع بعض الجهالات، بل الكثير من الجهالات. هناك مختصون في اللغة وفي الاجتماعيات وفي علم النفس وفي الاقتصاد. ويجب ألا تحاول الجهات ذات النفوذ أن تدجن رأيهم، لأن رأيهم مكسب لهذه الأمة وللدولة أيضا. والملاحظ الموضوعي هو الذي يمكن أن يثير التقدم من شيء إلى شيء أجود.

– **آفاق** : الأستاذ الفاسي لا شك أن لديكم كلمة أخيرة في نهاية هذا الحوار ؟

– **ذ. عبد القادر الفاسي الفهري** : أول ما أريده، باعتباري مربيا، هو إصلاح التعليم والتربية، إصلاحا حقيقيا، وسينتج عن هذا مجتمع آخر. أريد قيام بحث علمي حقيقي، أن يكون التلميذ متعلما في بيئة ملائمة منذ صغره، وأن يكون أيضا باحثا لهذه الأفكار التي ذكرت. لماذا في مدارس النخبة يحول التلميذ إلى باحث وفي المدارس العمومية التي كونت جل الأطر الموجودة الآن والتي سيرت المغرب وناضلت من أجل استقلال المغرب والتي لم تكن في مدارس البعثات، ولكن مع ذلك كانت لها مقدرة. الكثير من طلبتنا وأنا أيضا لم أدرس الإنجليزية إلا بشكل فردي، وليس في المدرسة ومع ذلك ألفت بها وأحاضر بها، ليس هناك مشكل اسمه مشكل اللغة الأجنبية، بل المشكل أننا لا نحسن التدبير، والمشكل أننا لسنا جادين في ما نرفعه من شعارات.

المغربي لديه تطلع إلى التفاهم وإلى تعلم اللغات، وحتى إذا لم يتعلمها في المدرسة يمكن أن يتعلمها في المقاهي وفي أي مكان. وعندما نصل إلى إصلاح معقول للمدرسة من جهة، وللبحث العلمي في بلادنا، فسنكون قد حققنا أغلى أمنية بالنسبة لي وبالنسبة للمغاربة ؛ وبدون هذا لن يقوم مجتمع، سواء بهذه اللغة أو بتلك. الجاهل لا يمكن أن يصوت في الانتخابات، والجهل درجات، ينتشر الجهل في مجتمعنا أحيانا في أوساط يظن أنها تفهم وهي لا تفهم. ومن جملة ضعف الثقافة العامة الضعف في الثقافة اللغوية، وهذا لاحظته لدى المسؤولين الذين ليست لهم ثقافة لغوية. ففي

فرنسا، مثلا، تجد وزير المالية له ثقافة لغوية، وقس على هذا. وهناك أشياء ذكرتها في كتابي بشأن تصريحات لوزراء الخارجية والاقتصاد الخارجي حيث كانوا يضعون دائما اللغة الفرنسية كمدخل للاقتصاد، وعندنا هناك من يستكثر على العربية أن تكون رأسمالا للمغربي. فهناك مشاريع عربية، ولكن حينما يأتي مستثمر عربي إلى المغرب نقول له في المغرب :

Monsieur vous voulez du café ou du thé ?

وكأن لساننا لا يمكن أن ينطق بلسان عربي مبين.

لا سياسة لغوية دون تخطيط لغوي

عبد الغني أبو العزم

لا تقف اللغة باعتبارها عنصراً حيوياً للذات والفكر عند حدود التعبير عن العواطف والمشاعر والإحساسات الداخلية، لأن كل ما ينتج عن ذلك ينحو منحى تحديد العلاقات الأسروية والاجتماعية والاقتصادية والرؤية الفنية للأشياء، مما يجعل اللغة مكوناً لكل أبعاد شخصية الفرد منذ طفولته، وخلال مشواره الطويل في كل الوظائف التي سيشتغل فيها، كيفما كانت أشكالها وسلاليمها الإدارية وقيمتها الاجتماعية.

لقد انتهى علماء اللغة في ضوء أبحاثهم اللسانية المتفرعة التخصصات إلى شبه ما يعتبر خلاصة مشتركة بينهم، مفادها أن اللغة توجد في قلب البنى الاجتماعية والاقتصادية، حيث لم يعد خلاف في مكانتها وأهميتها في مجال التنمية الوطنية، وتطوير كل عناصر الحضارة والتحديث والحداثة. لقد حدث هذا التصور في مفهوم دور اللغة خلال النصف الثاني من القرن الماضي، انطلاقاً من الدراسات اللسانية الرائدة، على عكس ما كان سائداً من مفاهيم عنصرية شوفينية في مراحل الهيمنة الاستعمارية على بلدان العالم الثالث، ولم تكن السياسة اللغوية أنذاك منفصلة عن جوهر استراتيجياتها العامة في مجال الاقتصاد والاجتماع لارتباطها بمعيار التفوق الأوروبي، ومن منظور أن اللغات المحلية والوطنية للبلدان المستعمرة لا مكان لها في عصر التقدم الصناعي، وأنها غير قادرة على مواكبة مفاهيم الحداثة والمعاصرة، وبدعوى أن عصر الحضارة يستلزم لغات حضارية لولوج عالم المعرفة والتكوين العلمي.

لقد أدى هذا التفكير إلى إلغاء أي سياسة من شأنها اعتماد الازدواجية اللغوية على قدم المساواة، وهذا ما كان على سبيل المثال يدافع عنه وليام مرسي أحد عتاة الفكر اللغوي العنصري الذي ظل متشبثاً بمقولة "إنه لمن العسير والمتعذر أن تتعايش لغتا حضارة لفترة طويلة في بلد واحد، وليس من المنطق أن يستمر هذا الوضع". بالإضافة إلى هذا الإقرار كان ينظر إلى أن اللغة العربية تقف حاجزاً يجب هدمه لبنيان لغة الحضارة، أي الفرنسية.

وعلى الرغم من كل زخم التطورات التي عرفها الفكر اللغوي المعاصر، مازالت بقايا الممارسات القديمة راسخة في عقلية من يوجه السياسة اللغوية، عقلية تأبى التنازل عن الإرث القديم، وترفض بدورها حتى مبدأ الازدواجية اللغوية، بالأحرى التعددية اللغوية، وتشكل التجربة المغربية نموذجاً للعصيان والتمرد على متطلبات العصر، وحاجيات التنمية الوطنية التي تظل دون أفق إذا لم تعتمد سياسة لغوية واضحة في مبناها ومعناها.

لم يعرف المغرب منذ استقلاله أي تخطيط لغوي لبلورة سياسة لغوية، ولم يكن ذلك الغياب نتيجة التخبط والتردد والعشوائية التي عرفتها سنوات الاستقلال في مجال التربية والتكوين، بل نابعاً من وجهة نظر أحادية، فاقدة للرشد اللغوي، وبذلك وقفت حاجزاً أمام أي إمكانية لإيجاد مقاربة علمية تقف ولو عند حدود التوازنات.

يقال ويتردد باستمرار أن الإرث اللغوي الاستعماري ترك بصماته على الواقع المغربي شمالا وجنوباً، وقد شكل معه معالم الإدارة المغربية، وقسطاً كبيراً من ثقافة النخبة المغربية التي أضحت مسؤولة في أجهزة الدولة ومتحكمة في آلياتها، معتبرة أن التراجع عن عدم اعتماد الفرنسية مكلف، ولم تعدم الذرائع في هذا الصدد على الرغم من وضوح البند الدستوري الذي حدد مقولة "إن اللغة العربية لغة وطنية ورسمية"، وقد ظل هذا البند مجرداً من معانيه الدلالية والموضوعية والقانونية، ولم يكن إقراره إلا لكونه محدداً بمنطلقات تراثية ودينية وتاريخية وسوسيو ثقافية، وهذا التحديد هو ما كان يفرض على الدولة من حيث الشكل الإقرار بوطنيتها ورسميتها والإبقاء عليها ضمن مواد التربية والتعليم والإعلام والتواصل إلى حد ما.

لم يكن البند الدستوري قادراً على تغيير البنية الذهنية وسلوكات النخبة السياسية والإدارية، وبذلك ظلت تطرح أسئلة معادة ومكررة منذ السنوات الأولى للاستقلال إلى الآن حول الإشكالية اللغوية، ودون أن تجد لها حلولا ملائمة لواقع المجتمع.

ومن بين القضايا التي تم اللجوء إليها لإغراق رسمية اللغة، تجلت في قضية التعريب، ولم يكن هذا التوجه في نهاية المطاف إلا مشجباً لا لتأجيل استعمال اللغة في الإدارة وتداولها في المدرسة والجامعة، بل لتعليقها لأجل غير مسمى، مما كان يعني وضوحاً ترسيخ استعمال اللغة الأجنبية وتعميق ثقافتها وحضارتها وتقنياتها في أجهزة الدولة والمدارس والجامعات. وهذا ما يقودنا إلى

الوقوف حول ما يعتبر معوقاً لإيضاح الدلالات والأهداف.

لا إشكال في أن كل لغات العالم بحاجة ماسة وعلى الدوام لتطوير أدوات معارفها وإحداث مصطلحات لمسايرة العصر وفق مقتضياته، وهذه العملية لا تتم إلا في خضم تداول اللغة الوطنية في الإدارة والمدرسة، وليست عملية تقنية فوقية، إذ تخضع إلى استيعاب كل الأبعاد السوسيو ثقافية والانثروبولوجية والحضارية، ناهيك ما له علاقة بالسياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والتربية.

لقد أدى غياب هذا التصور المقصود في أهدافه ومراميه إلى خلق بلبلة في مفهوم التعريب وتطبيقاته؛ فأحياناً يتم التعريب في المدارس العمومية سواء في التعليم الابتدائي والثانوي دون التعليم العالي، ودون سابق إنذار يحدث تراجع مخيف ينسف سير العملية التعليمية برمتها، وفي الوقت الذي تنتشر فيه مدارس التعليم الخاص ببرامجها المستقاة من مدارس البعثات الأجنبية، مما قاد بالضرورة إلى التهافت على الالتحاق بهذه الأخيرة.

وما كان يلاحظ من خلل على عملية التعريب في التجربة المغربية، وجود تفاوت مقصود بين الدعوة إلى تعريب التعليم وترسيخ استعمال وتداول اللغة الفرنسية في الإدارة، ولم يحصل أي ربط بين التعريب والسير الإداري لأجهزة الدولة، ناهيك عن تدعيم كل ما له علاقة باللغة الفرنسية في الإعلام ووسائل الاتصال والبحث العلمي.

وظل نقد هذه التوجهات محصوراً في نعتها بالخضوع إلى فكر الهيمنة الأجنبية وثقافتها وحضارتها، والارتباط العضوي بها، إلا أن هذا النقد لم يقدم بديلا، واكتفى بالشعارات دون إنتاج أدبي أو لغوي، وخضع إلى كون المدافعين عن اللغة الأجنبية استطاعوا من خلال الممارسة العملية إلى ترسيخها من منطلق أنها تصب في تحديث المجتمع دون تكاليف، وبذلك تباينت مواقف النقد في اتجاهين :

أ. اتجاه محافظ مرتبط بمرجعية تراثية وبالأصول، ومتشبث بمقوماته الذاتية والتاريخية، ورفض لأي نوع من الاستيلاب الفكري أو اللغوي ؛

ب. اتجاه ذو صبغة توفيقية، وملامح تنويرية، قائم على التلاؤم بين ضرورة تحديث اللغة والمجتمع والحفاظ على الهوية الوطنية ؛

ولم ينتج عن الاتجاهين أي بديل بحكم مواقعهما، وطبيعة خطابهما، ولم يخرج أي منهما عن إطار التبشير، وهذا ما تم استثماره لاستمرار غلبة شيوع ثقافة التغريب باعتبارها الحل الأمثل بالنسبة للمدافعين عنها، وتحت ذريعة أن الواقع السائد يفرض وجوده مادياً في الممارسة، إلا أن استمرار هذا الواقع من شأنه في غياب تخطيط لغوي أن يؤجج صراعاً اجتماعياً ويؤدي إلى الفتنة اللغوية ما

دامت كل شعارات التعريب والتوحيد والمغربة لم تصل خلال خمسين سنة إلى إقامة نظام تعليمي وطني ذي هوية واضحة المعالم.

لقد أضحت الحاجة ماسة إلى إعادة النظر في كل المقولات المطروحة، في ضوء مجمل التجارب التي عرفتها بلادنا، ولم يعد بالإمكان قبول الحلول المرتجلة، مما يستدعي وضع استراتيجية مستقبلية للسياسة اللغوية، وهذا ما عبرت عنه كل الفعاليات التي أنجزت الميثاق الوطني للتربية والتكوين، حيث تم التأكيد مجدداً على أن اللغة العربية بمقتضى دستور المملكة المغربية هي اللغة الرسمية للبلاد، وحيث أن تعزيزها واستعمالها في مختلف مجالات العلم والحياة كان ولا يزال وسيبقى طموحاً وطنياً، إلا أن هذا الطموح الوطني كيف يمكن بلورته على قواعد التخطيط اللغوي ؟

لقد كان الميثاق الوطني للتربية والتكوين واضحاً من حيث المنطلقات المحددة في :

- تجديد تعليم اللغة العربية وتقويته وجعله إلزامياً لكل الأطفال المغاربة في كل المؤسسات التربوية العاملة بالمغرب.

- الاستعداد لفتح شعب للبحث العلمي المتطور والتعليم العالي باللغة العربية، وذلك بإدراج هذا المجهود في إطار مشروع مستقبلي طموح ذي أبعاد ثقافية وعلمية معاصرة.

تدعو هذه المنطلقات الواضحة إلى تخطيط لغوي، وهذا ما أكده الميثاق وربطه بإحداث أكاديمية اللغة العربية باعتبارها مؤسسة وطنية ذات مستوى عال تلقى عليها مسؤولية بلورة المبادئ العامة المرتبطة بالتعزيز والتجديد والتطوير لآليات استعمال اللغة وتداولها.

يفرض هذا التوجه الذي لم تكتمل بعد حلقاته إلى إيضاح مفهوم التخطيط اللغوي باعتباره القاعدة لأي استراتيجية للسياسة اللغوية، ولكونه ينطلق من إشكالية الوجود برمتها، أي ما يتعلق بالنشاط الإنساني في مجال التاريخ والتراث والثقافة والاجتماع والاقتصاد والسياسة، ولأن المسألة اللغوية ذات ارتباط حيوي بمرافق الحياة، مما يستدعي استقصاء كل الجوانب المذكورة دراسة وتحليلا ووصفاً، وكلها مفاتيح لمعرفة الأنساق المتحكمة في وضع اللغة لتحديد مكامن القوة أو الضعف فيها، ولأنها أداة التعبير خاضعة للتغيير وقابلة للتطور، وفوق هذا وذاك معبرة عن الإرهاصات التي تحدث في المجتمع بكل مكوناته.

إذا كان التخطيط اللغوي يهتم من بين أولوياته بجرد حقائق ووقائع المجتمع لوضع استراتيجية للسياسة اللغوية، ومن منطلق الوعي المبني على تصور بقيمة لغة أو لغات أفراده، فإن ذلك يتطلب بداية وضع أطلس لغوي شامل يحدد التداول اللغوي على الساحة الوطنية وفي جميع الجهات، وقائم على أساس الإحصاء لتحديد نسب متكلميها.

لا شك أن الأطلس اللغوي سيشكل مرجعاً للهوية الوطنية، وسيكشف عن تعدد لغوي محصور في العربية الفصحى واللغة الدارجة والحسانية والأمازيغية بلهجاتها تاشلحيت، وتاريفت وتامازيغت، واللغة العبرية التي تتكلمها الطائفة اليهودية، وتدرس في الجامعات المغربية، هذا بالإضافة إلى وجود ثلاث لغات رئيسية الفرنسية والإسبانية والأنجليزية، وثلاث لغات ثانوية الألمانية والروسية والإيطالية والبرتغالية.

يضعنا الأطلس اللغوي وجهاً لوجه أمام تعدد وتنوع لغويين، إلا أنه يصعب فصله عن العدد الكمي أو الكيفي لمتكلمي كل لغة على حدة، سواء على المستوى الشعبي، أو التعليمي، أو الإداري، أو الإنتاج العلمي، أو الإبداعي، وسيبدو كتحصيل حاصل أن اللغة السائدة والعامة بين أغلب الأوساط هي اللغة المغربية الدارجة، تليها خمس لغات : العربية والأمازيغية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية بنسبة محصورة.

كان هذا الواقع اللغوي حاضراً بتفاوت بين أغلب الفعاليات التي أشرفت على إنجاز الميثاق الوطني للتربية والتكوين، حيث دعت إلى "مراعاة الاتفاقيات الثنائية المنظمة لمؤسسات البعثات الأجنبية" و"تنويع لغات تعليم العلوم والتكنولوجية" والتأكيد على "تيسير استئناس المتعلمين باللغات الأجنبية في سن مبكرة وملائمة، وامتلاك ناصيتها في ما بعد". وتم تحديد توجيهات واضحة في ما يلي :

- يدرج تعليم اللغة الأجنبية الأولى في السنة الثانية من السلك الأول للمدرسة الابتدائية".
- يدرج تعليم اللغة الأجنبية الثانية ابتداء من السنة الخامسة من المدرسة الابتدائية".

كما تم التأكيد أيضاً على التفتح على الأمازيغية، بترك "الاختيار للسلطات التربوية استعمال الأمازيغية أو أي لهجة محلية للاستئناس، وتسهيل الشروع في تعلم اللغة الرسمية في التعليم الأولي في السلك الأول من التعليم الابتدائي".

على الرغم من أن هذه التوجهات كانت خاضعة لواقع التداول اللغوي على الساحة الوطنية إلا أنها لم تلغ العنصر الحيوي للهوية المغربية، ومع ذلك فإن مفهومي التعدد والتنوع اللغويين يحتاجان إلى المزيد من الإيضاح والتدقيق في ماهية كل منهما وفي علاقتهما بالتخطيط اللغوي.

التعدد اللغوي الوطني : يوجد في المغرب بحكم تاريخه الطويل وموقعه الجغرافي، تعدد لغوي (plurilinguisme) مشترك على المستوى الوطني، وهذه من مميزاته، ويعد قيمة مضافة في الحياة الوطنية إذا ما تمت سيادته على أسس من التفاهم والاحترام والاعتراف المتبادل بين أفراد المجتمع الذين يتكلمون عدة لغات، في مسعى تقوية العلاقات الاجتماعية القائمة على قواسم مشتركة من الحضارة والتاريخ والدين ووشائج الارتباط بالهوية المشتركة، أي كل ما يوحد توجهاتها.

حالات التعدد اللغوي الوطني : تعد اللغة المغربية الدارجة قاعدة لغوية مشتركة، لكونها متداولة بين جميع أفراد المجتمع المغربي، وتحكمها بنية لها قواعدها نشأت من رحم اللغة العربية بألفاظها وتراكيبها، وخضعت بذلك لتطور حثيث، بغض النظر عن العنصر الصوتي الخاضع للمناطق الجغرافية، يضاف إلى اللغة المغربية الدارجة اللهجة الحسانية المتداولة في الأقاليم الصحراوية، وثلاث لهجات : تاريفت وتاشلحيت وتمازيغت، تحكمها قواسم مشتركة مرتبطة ببنيتها الرئيسية المتجلية في اللغة الأمازيغية، بالإضافة إلى الاستعمال المحدود للغة العبرية بين الطائفة اليهودية.

ارتبط هذا التعدد اللغوي باللغة العربية الفصحى ارتباطاً تاريخياً منذ دخول الإسلام، إذ صارت مادة من مواد التعليم والتربية والعلم والمعرفة، بها تكتب القوانين والمراسلات والتقارير والخطب والتآليف نثراً وشعراً، وأضحت جزءاً من الكيان الوطني، وهذا ما جعلها بامتياز لغة وطنية رسمية، كما أنها ارتبطت بتاريخ الشعوب الإسلامية والعربية التي تتكلمها مما عمق وجودها ومكانتها.

نشأ عن هذا النوع من التعدد اللغوي الوطني، ثنائية لغوية أحادية الجانب (Bilinguisme)، بمعنى أن متكلم إحدى اللهجات الوطنية، تاريفت أو تاشلحيت أو تمازيغت أو الحسانية باعتبارها لغة الأم يجد نفسه يتكلم بتلقائية اللغة المغربية الدارجة بحكم سيادتها في الشارع، وفي مرحلة التعليم يضيف إلى محصوله اللغوي اللغة العربية الفصحى باعتبارها لغة وطنية رسمية، وفي هذه الحالة يتحول من ثنائي اللغة إلى ثلاثي اللغة (trilinguisme). على عكس الذي لا يتكلم اللغة الأمازيغية، فإنه يكتفي في مرحلته الأولى باللغة العامية إلى حين انتقاله إلى تعلم اللغة العربية الفصحى، ثم يضاف في الحالتين معاً تنوع لغوي.

يعد هذا التعدد عند جماعة لغوية واحدة ما يعرف بـ(diglossie)، أي استعمال لغة الأم أو لغة عامية، بالإضافة إلى لغة فصيحة، وكل منها له وظيفة اجتماعية وأدبية لا تؤديها الأخرى.

ينساق هذا التعدد اللغوي في سياق مكونات الهوية الوطنية المغربية، وهذا ما يدعو إلى تدبير معقلن للسياسة اللغوية، تدبير قائم على إعطاء أهمية قصوى لتداول اللغات الوطنية من منطلق أن أي نوع من التنمية الوطنية والبشرية للبلاد يصعب إرساؤها ما لم ترتبط بلغات متكلميها، ولقد أضحت هذه المقولة تفكيراً مشتركاً بين علماء اللغة وعلماء الاقتصاد والتنمية، في ضوء ما أنجز من أبحاث ودراسات في هذا الصدد.

التنوع اللغوي الأجنبي : يوجد بجانب التعدد اللغوي بالمغرب، تنوع لغوي (multilinguisme) جاء تحت ضغط عوامل خارجية ناشئة، وظل ذلك الضغط يشكل نشازاً، إلا أنه ترسخ في الممارسة، منذ فرض الحماية على المغرب سنة 1912، حيث بدأت اللغة الفرنسية تنتشر في مدارس التعليم إلى أن استقرت في الإدارة، وتسرب العديد من ألفاظها إلى الحياة اليومية. وبجانب اللغة الفرنسية انتشر استعمال اللغة الإسبانية في شمال المغرب وفي الصحراء المغربية ولو في حدود ضيقة،

وبجانب انتشار هاتين اللغتين بدأ شيوع اللغة الإنجليزية في السنوات الأخيرة، بالإضافة إلى اللغة الألمانية والروسية والإيطالية وأخيراً اللغة البرتغالية، وكل هذه اللغات الأخيرة ينحصر بعضها في التعليم الثانوي، وبعضها في التعليم الجامعي.

لقد نشأ عن هذه الوضعية تعدد الازدواجيات اللغوية لغزارتها، أي الانتقال، من ثنائية إلى ثلاثية سواء على صعيدي التعدد أو التنوع، نتيجة لما بين هاذين المصطلحين من تمايز وتباين، وما ينتج عنهما من مضامين، فبينما المصطلح الأول يعني تعددية لغوية لها طابع وطني تتعايش منذ قرون، ولها صبغة الديمومة والاستمرارية، فإن المصطلح الثاني يتسم بتنوعية لغوية مكتسبة بالتعلم، ولا تخلو من صراع بينها وبين التعددية اللغوية الوطنية.

يخلق التعدد والتنوع وضعاً لغوياً شديد التعقيد، إلا أنه لا يشكل خطورة إذا ما تم تدبيره بموضوعية وعقلانية مرتبطتين بأسس وقواعد التخطيط اللغوي القائم على معرفة بالحاجيات الوطنية ومتطلباتها من جهة، ورصد التطورات التي يعرفها المجتمع الدولي الخاضع لعصر وتقنيات المعلوماتية لتسهيل الاتصال والإدماج في عالم الاقتصاد والتبادل الحضاري والتكنولوجي من جهة أخرى.

يعد إنجاز الأطلس اللغوي بكل مواصفاته العلمية أرضية لفهم الإشكاليات الكامنة وراء تداول كل لغة على حدة، ويعطي للتخطيط اللغوي وجاهته، حيث يسمح بتعامل موضوعي مع كل المستجدات، كما يحيلنا إلى البحث والدراسة والتحليل على الموضوعات التالية :

– تحليل ودراسة نتائج التجارب اللغوية التي عرفها المغرب منذ الحماية، وبعد الاستقلال، لإبراز عوامل القوة أو الضعف، والأسباب المتعلقة بكل عامل ؛

– دراسة أولية بخصوص متى يبدأ اكتساب اللغة الثانية، وعلاقة ذلك بالوضعية الاجتماعية وبالسياسة اللغوية ذات الارتباط بالأطر النظرية ؛

– ربط التخطيط اللغوي بالوقائع الاجتماعية والتوجهات السياسية على قاعدة الاختيار الإيديولوجي والثقافة الوطنية ؛

– بحث متطلبات المرحلة وما تستدعيه من أهمية خاصة وآنية لتعلم لغات جديدة في أفق الاندماج في محيط عالم المعلوميات ؛

– تجديد الدرس اللغوي سواء تعلق الأمر باللغة الوطنية أو باللغات الأخرى في ضوء معطيات البيئة القروية أو الحضرية، وبالنظر إلى عوامل التحفيز على اكتساب اللغات، وتهيىء أدواتها العلمية بما فيها إنجاز معاجم وطنية.

– التركيز على أن تبقى اللغات الوطنية قاعدة للتفاهم والتلاؤم، ولكي لا تفقد سلطتها فيما يتعلق بتحديد الهوية الوطنية، أي إعطاء الصبغة القانونية والدستورية للغات الوطنية.تهدف هذه المنطلقات إلى إيضاح الرؤية اللغوية، سواء على صعيدي التعدد أو التنوع بهدف وضع تصور واضح الأهداف لما يتطلبه تطور حياة المجتمع، رؤية تنحو منحى إلى أن تكتسب الشخصية الوطنية تميزها وفرادتها، ولأن أي مقاربة في مجال التخطيط اللغوي تستدعي بالضرورة فهم الإشكالية التاريخية لوضع اللغات الوطنية من جهة، وأوضاع اللغات التي يرغب في اكتسابها من جهة أخرى، حيث يرتبط وضع التخطيط اللغوي.بمؤسسات التخطيط، أي أكاديمية اللغة العربية، والمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية كما جاء في الميثاق الوطني للتربية والتكوين باعتبارهما مصنعا القرار، وعلاقاتهما الحميمة بكل التوجهات الإيديولوجية والسياسية والاجتماعية، وهذا ما سيكفل تحقيق جملة من الأهداف منها :

- الحفاظ على اللغات الوطنية في إطارها التاريخي والاجتماعي والعلمي ؛
- تحديثها وتطويرها واستيعابها للعلوم والتكنولوجية ؛
- تكوين الأطر اللغوية بكفاءة عالية بهدف :

إيضاح الأسباب المعرفية التي تقود إلى تعلم لغة أو لغات أخرى، وعدم تعارضها مع اللغات الوطنية، وذلك بالحرص على دمجها بالبرمجيات المزدوجة اللغة أو المتعددة اللغات، أي عدم الاقتصار على لغة واحدة، ودعماً لمفهوم التعدد اللغوي في سياق متطلبات العصر، وهذا الإقرار الرامي إلى الابتعاد عن أحادية اللغة والتشبث بثنائية أو ثلاثية لغوية وظيفية لا يعني الاستسلام إلى الهيمنة، إذ ينبغي أن تتم على أسس من المساواة والتوازن، ودون انحياز أو اختزال إلى ممارسة أحادية كما هو الشأن حالياً في الإدارات المغربية، حفاظاً على الهوية الوطنية، وارتكازاً على كل النتائج التي سيسفر عنها التخطيط اللغوي في أفق الاستقرار، وما يعرف بالأمن اللغوي الذي يكفل التكافؤ في فرص العمل ووظائف الدولة.

الخيارات اللغوية في المغرب

العربية نموذجا

عبد العزيز حليلي

الموضوع الأساسي في هذه المقالة هو واقع اللغة العربية الحالي في المغرب والخيارات اللغوية المتبناة فيه. وهو موضوع يقتضي التذكير بما يميز واقع هذا البلد على المستوى الجغرافي - البشري وعلى مستوى التعدد اللساني، فالمغرب يقع وسطا بين إفريقيا (التي هو منها) جنوبا، والعالم العربي (الذي هو منه) شرقا، وأوروبا (التي تربطه بها، منذ قرون طويلة، روابط شتى) شمالا، مما جعله عبر تاريخه الطويل ملتقى أجناس مختلفة، انضمت إلى الأمازيغ السكان الأصليين، وحضارات متنوعة تفاعلت مع الحضارة المغربية الأولي وتأثرت بها وأثرت فيها، مما أغنى مكونات هذا البلد المسلم وأعطاه مميزاته الخاصة، اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وبيئيا وبشريا، التي يتفرد بها وتجعل منه شعبا واحدا يطبعه التنوع والتعدد الموحدان المحفزان على التكامل والتلاحم بغاية تقوية بناء دولة الحق والعدل والمساواة على جميع الأصعدة ضمانا لتحقيق التنمية المستدامة.

ولفهم خيارات المغرب اللغوية لابد من استحضار هذا التنوع الحضاري البشري الذي يكون أصول سكان المغرب الحاليين، فأصل هؤلاء في الجملة هي عناصر الأمازيغ، الغالبية الكبرى، والعرب والأفارقة الزنوج والأوروبيون (جوار البحر الأبيض المتوسط خاصة الأندلسيون منهم) بدرجة أقل. وقد وقع من الاختلاط والاندماج والتناكح عبر مر القرون ما يجعل التمييز بين هذه العناصر مستحيلا فلا يوجد في المغرب الحالي سوى مغاربة أمازيغيي اللسان أو عربييه أو مزدوجي

اللغة أو متعدديها، كما تؤكد ذلك خريطة المغرب اللسانية التي سنحاول عرض ملامحها الكبرى. وما يجب التنبيه عليه في البداية هو أن الدارسين المحدثين المهتمين برسم الخريطة اللسانية المغربية يكتفون باعتبار أن التقديرات التي قيل بها في بداية القرن 20 ما زالت صالحة حتى نهاية هذا القرن. فهذا أندري باسي (A. Basset) يقول سنة 1952 : «... يمثل الأمازيغيون بالمغرب النصف الصغير من مجموع السكان»(1) ويعتبر أحد الدارسين المغاربة المعاصرين أن هذه النسبة لم تتغير، رغم مرور حوالي ربع قرن على القول بها، متجاهلا ما تميز به النصف الثاني من القرن العشرني من انتشار للتعليم ومن ارتفاع لنسبة المدنيين على حساب البدويين بسرعة لم يسبق لها نظير في تاريخ هذا البلد، مما يؤدي بالضرورة إلى ارتفاع عدد المعربين(2). وهكذا نجد أن بعض الدارسين نقلوا حرفيا في كتاباتهم التي صدرت إلى غاية نهاية القرن العشرين الخريطة اللسانية التي وضعها أندري باسي (A. Basset) للعالم الأمازيغي، والتي تتطابق وتلك التي نجدها في الكتاب المشهور "لغات العالم" الذي صدر في بداية القرن العشرين في فرنسا. في حين أن المغرب دخل منذ بداية ذلك القرن مرحلة تعريب جديدة تتميز بعناصر حاسمة أولها الهجرة الداخلية ونزوح سكان البوادي إلى المدن، وثانيها انتشار التعليم بشكل لم تعرف هذه البلاد نظيرا له من قبل. وثالثها انتشار وسائل الإعلام السمعية ثم السمعية البصرية، وازدهار الصحافة المكتوبة وتعريب كثير من مرافق الحياة العامة. وقد فصلنا الحديث عن هذه العناصر في دراسة سابقة(2).

ونظرا لطبيعة الحقائق المتنوعة للعناصر المؤثرة في هذه المرحلة الأخيرة لتعريب المغرب ولما قلناه عن كيفية تطورها ولما لهذه الحقائق من آثار مختلفة على الواقع اللساني الحالي لهذا البلد، فإن من البديهي أن يتميز هذا الواقع بالتعقيد والتشعب. وعليه فلا يمكن أن تكون خريطة المغرب اللسانية التي نريد رسمها في حدود إمكاناتنا الخاصة إلا تقريبية نظرا لضعف هذه الإمكانات، ونظرا لغلبة الاختلاط والتداخل اللغوي على الانسجام، ونظرا كذلك لسرعة انتشار العربية في مختلف الجهات. لذا نكتفي باستخلاص الوقائع العامة التالية تمهيدا للحديث عن خيارات المغرب اللغوية.

1. يمكن التمييز في المغرب المعاصر بين ثلاثة أقسام كبيرة على المستوى الجغرافي ـ اللساني :

* قسم أمازيغي يتكون من جبال الريف وجبال الأطلس وجزء من سهل سوس. وتُستثْنَى المراكز الحضرية، الموجودة في مختلف جهات هذا القسم.

* قسم مزدوج اللغة (عربية ـ أمازيغية) تكونه المراكز الحضرية الموجودة داخل الجهات الأمازيغية وجزء من الصحراء الشرقية.

* قسم معرب تكونه السهول الأطلسية في المغرب والهضاب الشرقية والشواطئ المتوسطية (باستثناء أكدير وورززات والحسيمة والناظور مثلا والجهات المجاورة التي تنتمي إلى القسم

المزدوج) والصحراء الغربية وقسم من الصحراء الشرقية.

2. لقد دخلت العربية (والفرنسية والإسبانية بدرجة أقل) إلى كل مناطق القسم الأمازيغي تقريبا عن طريق المدرسة والإدارة ووسائل الإعلام وهكذا أخذت المناطق المزدوجة تتسع ويزداد عدد أفرادها باستمرار. وتقوى هذا الواقع بدخول الأمازيغية إلى المناطق التي لم تكن تعرفها بكثافة من قبل بفضل كثرة تنقل السكان بين مختلف جهات المغرب.

ونورد أولا الأرقام التي ذكرها جون لوي مييج في تقديره لعدد المعربين والأمازغيين بالمغرب في كتابه "المغرب"(3)، على سبيل المثال، قبل أن نتساءل عن الواقع اللساني الحالي للمغرب. يقول مييج "في سنة 1947 كان المعربون يمثلون حوالي 64٪ من مجموع السكان ويمثل المزدوجون 14٪ والأمازيغ 22٪"(3). وهي أرقام بينت نتائج الإحصاء الأخير للسكان والسكنى أنها غير صحيحة إذ تشير نتائج هذا الإحصاء الذي أجري في شتنبر 2004 إلى أن 43٪ من السكان لم يتلقوا أي تعليم لغاية تاريخ إجراء الإحصاء (لكن بعضهم معنيون حاليا ببرامج محاربة الأمية في المناطق الحضرية على وجه الخصوص وتتم هذه المحاربة باللغة العربية) وترتفع هذه النسبة في العالم القروي إلى 62٪ وتنزل إلى 29٪ في الوسط الحضري. كما أن 27٪ من سكان المغرب لهم مستوى التعليم الابتدائي و22,7٪ لهم مستوى الإعدادي على الأقل في حين لا تتجاوز نسبة أصحاب التعليم العالي 5٪.

وتتوزع نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة حسب الملامح التالية :

17٪ يقرؤون ويكتبون بالعربية فقط.

30٪ يقرؤون ويكتبون بالعربية وبالفرنسية.

9,2٪ يقرؤون ويكتبون بالعربية وبالفرنسية وبلغات أخرى. أما عن اللغة الأمازيغية فإن 21٪ يستعملونها بالوسط الحضري (بتعبير المندوبية السامية للتخطيط) ويستعملها 34٪ في الوسط القروي مما يجعل المعدل العام لمستعملي الأمازيغية يصل عندنا إلى نسبة 28٪ من ساكنة المغرب بدل ما ادعاء مييج. حاولنا أن نلامس في هذه الإشارات المعالم الكبرى للتوزيع اللساني العربي والأمازيغي عبر تراب المملكة المغربية، مع مقاربة وصف الوضعية الحالية لهذا التوزيع، ورصد ما تعرفه من تحولات لسانية وجغرافية ـ بشرية وختمناه بأرقام الإحصاء العام الأخير للسكان في الموضوع.

ولابد هنا من التذكير مرة أخرى بأن موضوع الخريطة اللسانية مهم وأساسي في معرفة الواقع اللغوي الحالي عندنا لفهم الخيارات اللغوية المتبناة وتقويمها ونقدها عند الحاجة، كما أنه من اللازم استحضار ماهية اللغة الإنسانية عامة ؛ لأن اللغة نظام ترميزي شفوي خاص بمجموعة إنسانية معينة

قد يكبر عدد أفرادها وقد يصغر حسب ما هو متداول بين المختصين، وهي بهذا المعنى أهم المؤسسات الترميزية وأكثرها تعقيدا وارتباطا بمتكلميها، فهي أداة تواصلهم الأولى، ثم إن اللغة تنظيم للواقع وللتجارب، وهي وعاء الفكر وضمير المجتمع. واللغة بهذا المعنى مؤسسة ترميزية اجتماعية تساير تطور الحاجات وتغير ظروف العيش وتنوع الاتصال والاحتكاك بالآخر.

وإذا كنا لا نقول بالتفاضل بين اللغات الإنسانية على مستوى البنيات الداخلية وعلى مستوى القدرات والطاقات، فاللغة الإنسانية الحية مكتفية كل واحدة منها بذاتها من حيث اشتغال نظامها وقدرته على الوفاء بحاجات متكلميها، فإننا لا يمكن أن ننكر حقيقة وجود مستويات متعددة في اللغات من حيث حجم الرصيد المعجمي.

فهناك اللغات الفقيرة وهناك المتوسطة الحال وهناك الغنية والتي تشكو من التخمة. ولهذه الحال أو تلك ارتباط قوي بالمجموعة أو المجموعات البشرية التي تتكلم هذه اللغة أو تلك. فلغة المجتمع المتطور علميا وصناعيا وتجاريا وفنيا وأدبيا... أو المجتمع ذي الحضارة العريقة والتاريخ الطويل المجيد... ستكون ولا شك معاجمها أكثر غنى من معاجم لغات المجتمعات التي ما زالت في بداية الطريقة. وكما أن الفقير إذا يسرت له الوسائل وحطمت الحواجز التي توضع في طريقه، وجد واجتهد وثابر تحسنت حالته المادية وتحولت إلى اليسر والغنى، فكذلك حال المجتمع مع لغته.

من هنا تتضح أهمية ومتانة العلاقة الموجودة بين اللغة والمجموعة التي تتكلمها، أنها في حقيقة الأمر علاقات متشابكة ومعقدة. فاللغة تصور وتنظيم للواقع من جهة، وهي وعاء للفكر وضمير للمجتمع ومؤشر لدرجة تطوره من جهة أخرى.

وبعبارة أخرى فإن أي لغة إنسانية مهما كانت درجة تطور المجتمع المتكلم بها تملك من الإمكانات الذاتية الطبيعية ما يمكنها من التعبير عن كل ماجد أو سيجد في هذا العالم. والحركات المشهورة للترجمة ونقل المعارف من حضارة إلى أخرى خير برهان على صحة قاعدة تساوي إمكانات اللغات، فقد نقلت إلى العربية كثيرا من علوم ومعارف اليونان والسوريان والفرس والهنود وغيرهم، في عصر ازدهار الأمة العربية المسلمة إبان العصر العباسي وبعده، دون مشقة تذكر. كما أن الأوروبيين نقلوا، ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي على الخصوص، إلى اللاتينية ثم إلى غيرها من اللغات الأوروبية فيما بعد كثيرا من العلوم العربية.

ولم تواجه المترجمين في هاتين المرحلتين وفي غيرهما من مراحل نقل العلوم من لغة إلى أخرى صعوبات أثنتهم عن عملهم أو عرقلته، وحركات الترجمات المعاصرة تؤكد ذلك أيضا ؛ لا سبيل إذن لتفضيل لغة على أخرى من هذه الناحية. فقدرات الانجليزية والأمازيغية والعربية مثلا واحدة، ولكن اللغة العربية لا تعيش داخل برج عاجي مستقلة منعزلة، وإن كانت قد دخلت في مرحلة

تطور إيجابي فصلنا الحديث عنه في مقال سابق(4)، بل يوجد إلى جانبها عدد كبير من اللغات الحية الأخرى التي ينفق عليها أصحابها الغالي والنفيس لكي تتطور وتزدهر وتنتشر خارج حدود بلادها الأصلية. فاللغة العربية تعاني من مزاحمة "بل محاربة" لغات الدول العظمى، ومن تأثير هذه اللغات عليها. فإن ترك هذا التطور ـ الذي تحدثت عنه وفسرت ظروفه سابقا(4) ـ يتم بطريقة تلقائية ودون توجيه وتدخل محكمين، يتم بكيفية عشوائية فوضوية يصعب التكهن بنتيجتها. يقول حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية

فلا تكلوني للزمان فإنني   أخاف عليكم أن تحين وفاتي

لذلك يجب أن يخطط متكلمو العربية لهذا التطور وأن يوفروا له الوسائل الضرورية الكفيلة بضمان خصوصية وتميز اللغة العربية ووحدتها. وأول تلك الوسائل في نظرنا الإغناء، ولن يتوفر ذلك إلا بتنشيط حركة التعريب بجميع مظاهرها أولا، من تعريب الإدارة ووسائل الإعلام والتعليم إلى تعريب العلوم الحديثة والتقنيات والمعارف المستحدثة وكذا تشجيع حركة الإبداع الأدبي والبحث العلمي بهذه اللغة ... ثاني تلك الوسائل التوحيد على متسوى جميع الدول العربية، أي توحيد تعريب المصطلحات العلمية والتقنية وتوحيد المضامين الملقنة وتوحيد اللغة المدرسة عن طريق حصر العربية الأساسية وتعميمها ونشرها. وباختصار يجب خلق هيئة عليا يكون همها الوحيد حماية العربية وترويجها وتشجيع الإنتاج بها والترجمة إليها والتنسيق بين مجامعها اللغوية، ومراقبة وتوجيه تطورها، يكون لهذه الهيئة سلطة القرار وإمكانات تنفيذه.

هذا عن اللغة العربية في مجالها الواسع باختصار شديد، أما عنها عندنا في المغرب على وجه الخصوص، فقد جعلتها كل الدساتير المغربية التي تعاقبت منذ 1962 وحتى 1996 اللغة الرسمية للبلاد(5)، لذا وجب أن تحظى في كل المجالات بالسبق وبالحماية الضرورية. وهذا ما نص عليه الميثاق الوطني للتربية والتكوين الذي صادق عليه البرلمان بعد أن قرر صاحب الجلالة الملك محمد السادس إحالته عليه «اعتبارا للتوجه الإجابي الذي صار عليه ... واستجابته الملموسة لمستلزمات الإصلاح الذي نتطلع إليه ورغبة منا في بلورة خلاصته ونتائجه داخل إطار مسطري يراعي المقتضيات الدستورية والإجراءات التشريعية...»(6)، والذي بدأ المغرب في تنفيذ مقتضياته في شتنبر 2000. هذا الميثاق الذي جعل من بين دعاماته الأساسية تحسين تدريس اللغة العربية واستعمالها، «حيث إن تعزيزها واستعمالها في مختلف مجالات العلم والحياة كان ولا يزال وسيبقى طموحا وطنيا»(7). ونص هذا الميثاق على ضرورة «تجديد تعليم اللغة العربية وتقويته مع جعله إلزاميا لكل الأطفال المغاربة في كل المؤسسات التربوية العاملة بالمغرب»(7)، مما يتطلب تعميم التعليم الذي ما زال يراوح نسبة حوالي 95٪ من الذين هم في سن التمدرس، والقضاء على الهذر المدرسي الذي يعاني منه أطفال

البادية على وجه الخصوص، ويرفع من عدد الأميين عندنا. كما يتطلب ذلك إتمام تعريب الإدارة المغربية والحياة العامة وسن القوانين الضامنة لنجاح هذا التعريب ودوامه.

وألح الميثاق على ضرورة "الاستعداد" لفتح شعب للبحث العلمي المتطور والتعليم العالي باللغة العربية»(7). وهذا ما ننتظر أن تقوم به أكاديمية محمد السادس للعلوم بتنسيق تام مع أكاديمية اللغة العربية ووزارة التعليم، كما جعل الميثاق من بين أهدافه «التنمية المتواصلة للنسق اللساني العربي على مستويات التركيب والتوليد والمعجم»(7) مما يستدعي انفتاح مراجع اللغة العربية الفصحى على اللسانيات البنيوية المعاصرة وعلى اللسانيات الحاسوبية وتطبيقاتها المختلفة على مناهج ومضامين تدريس اللغة ووضع المعاجم. والانطلاق كذلك في إعداد كتب تعليم الفصحى (والأمازيغية واللغات الأخرى) من المقارنة بين هذه الأخيرة واللهجات المحلية العربية والأمازيغية بغاية تجنب التداخل بين القواعد والخلط بينها. كما يجب الحرص على التحيين المستمر لمناهج ومضامين كتب وأقراص تعليم اللغة العربية ضمانا لمواكبتها للحداثة والتطور الدائمين اللذين يعرفهما العالم حاليا.

ومن بين ما ينص عليه الميثاق الوطني للتربية والتكوين خدمة للعربية الفصحى «تشجيع حركة رفيعة المستوى للإنتاج والترجمة بهدف استيعاب مكتسبات التطور العلمي والتكنولوجي والثقافي بلغة عربية واضحة مع تشجيع التأليف والنشر وتصدير الإنتاج الوطني الجيد»(7). وهذا ما يجب أن تنخرط فيه كل المؤسسات المعنية من وزارات وجامعات ومعاهد عليا ومؤسسات خاصة ومجتمع مدني، وتخلق من أجله جوائز عدة إضافة إلى ما هو موجود حاليا عندنا.

وينص الميثاق في نفس الدعامة على ضرورة "التفتح على الأمازيغية" نظرا لقوة حضور هذه اللغة في مختلف جهات المغرب ولكونها من المكونات الثقافية والحضارية الأساسية لهذا البلد. ويجب أن يكون هذا التفتح عاما على مختلف جهات المغرب بدون استثناء ضمانا للتنوع اللغوي الموحِّد وتقوية له خصوصا وقد حَسَم المعهد الملكي للأمازيغية في موضوع اختيار الخط الذي تكتب به هذه اللغة وهو تيفناغ أداة رسمها الأصلية كما اختار التوحيد لجعل اللغة المكتوبة ولغة التعليم والبحث العلمي هي الأمازيغية الفصحى اللغة الأم الأولى بدَل اللهجات المحلية المتفرعة عنها والتي لابد أن تتطور في اتجاه التقارب فيما بينها وبين الأمازيغية الفصحى كما هو الشأن بالنسبة لأختها العربية(8).

ويجب كذلك تحسين أساليب ومناهج تدريس اللغات الأجنبية وتقويتها بهدف «اندماج البلاد في مد الانفتاح والتواصل على الصعيد العالمي»(7). ويجب أن لا تشكل هذه التقوية عقدة نقص عند المغاربة لأن العربية ستتقوى أكثر بالاستعمال في كل الميادين وبالاحتكاك كذلك بهذه اللغات الأجنبية التي لن تُضعِف من فعاليتها وتأثيرها ما دامت أهداف تدريس كل لغة على حدة محددة

بكيفية واضحة وجيدة، وما دامت حدود مجالات استعمال كل واحدة منها معروفة يحترمها الجميع وفي مقدمتهم أصحاب القرار، وما دام تدريس اللغة الأجنبية لا يتم على حساب اللغة الرسمية. فلا خوف إذن على العربية الفصحى عندنا إذا نُفِذت كل مقتضيات الميثاق الوطني للتربية والتكوين. مما يتطلب الإسراع بتدارك ما لم يطبق حتى الآن منه وبإصدار التشريعات المكمِّلة لمقتضياته فيما يخص اللغة العربية على وجه الخصوص في أقرب وقت لأن نصف المدة المحددة لتنفيذ الميثاق الوطني للتربية والتكوين قد انقضت. وما لم يخرج بَعْد إلى مجال التنفيذ كثير ومنه ما هو أساسي وضروري لبلوغ مرامي هذا الميثاق الذي يرهن حاضر ومستقبل التربية والتكوين ببلادنا لمدة عشر سنوات على الأقل.

هوامش :

1. A. Basset : La langue berbère, London, Oxford U. 1952.
2. انظر عبد العزيز حليلي : "خريطة المغرب اللسانية" في كتاب : قضايا لسانية، 1999 مطبعة أنفوبرانت، فاس.
3. J. L. Miège : Le Maroc "Que Sais-Je" P.U.F. Paris 1962, p : 49.
4. عبد العزيز حليلي : "اللغة العربية الواقع والآفاق" في كتاب قضايا لسانية، مطبعة أنفوبرانت، فاس، 1999.
5. انظر تصدير الدستور المغربي الصادر سنة 1996.
6. من خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس يوم 8 أكتوبر 1999.
7. الميثاق الوطني للتربية والتكوين، الدعامة التاسعة.
8. تتطور اللغة العربية في اتجاهين :

1ـ اتجاه التقارب بين لهجاتها تحت تأثير لغة وسائل الإعلام التي أصبحت في متناول كل من يملك جهاز تلفاز لأنه يستطيع التفرج على برامج كل القنوات العربية تقريبا ولأن منشطي هذه القنوات يتجنبون استعمال الحوشي والغربي في لهجاتهم المحلية ويميلون إلى استعمال العربية الوسطى القريبة من الفصحى لغة الكتابة عند جميع العرب والتي تؤثر في اتجاه تقريب الشقة بين هذه اللهجات.

2ـ اتجاه تيسير الفصحى متأخرة بالعربية الوسطى وباللهجات العربية نتيجة التداخل في الاستعمال بين هذه المستويات العربية الثلاثة، وقد بدأت الأمازيغية تدخل نفس هذا التطور نتيجة نفس العوامل على مستوى المغرب.

ملاحظات أولية
حول الوضع اللغوي بالمغرب

عبد اللطيف شوطا

1. تقديم

تسعى كل دول العالم إلى حماية لغتها إن كانت لا تستعمل إلا لغة واحدة، أو لغاتها إن كانت لها أكثر من لغة واحدة. والهدف من ذلك هو رغبتها في الحفاظ على هويتها الثقافية، وتوطيد الأواصر القائمة بين مكونات المجتمع، وضمان استمراره، وتحقيق أعلى مستويات الاتصال بين أفراده.

وتعيش أغلب اللغات وضعا يكاد يكون متشابها ؛ يتجلى في كونها لها علاقة اتصال دائم بلغات أخرى، وهو اتصال غالبا ما ينتج عنه نوع من الصراع قد يكون حادا أحيانا، وقد تخف حدته في أحيان أخرى، وهو ما ينعكس سلبا أو إيجابا عليها، سواء على المستوى الداخلي لهذه اللغة أو على مستواها الخارجي(1).

وكون اللغات يتصل بعضها ببعض، وكون الاتصال بينها غالبا ما يؤدي بها إلى الصراع سواء أكان هذا الصراع ظاهرا أم خفيا، فإن هذا يفرض على الدول أن تنتهج سياسة لغوية تستطيع بها تدبير هذا الصراع بطرق عقلانية وواقعية تمكنها من الوصول إلى نتائج تكون لها انعكاسات إيجابية على لغتها/لغاتها، وتكون كُلفة هذه السياسة اللغوية غير ثقيلة، ولا تؤدي إلى مخاطر كبيرة تَخسر فيها البلاد لغتها/لغاتها، وتفقد بذلك وحدتها الاجتماعية وهويتها الثقافية.

بيد أن وضع سياسة لغوية ليس بالأمر السهل، وليس في مقدور جهة معينة أو هيئة بمفردها أن تقوم به، بل يتطلب ذلك عددا من المتدخلين العاملين في القطاعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وضمن هؤلاء المتدخلين العلماء والخبراء والمتخصصون في مختلف ميادين المعرفة، وذلك من أجل وضع التوجهات العامة لسياسة لغوية واضحة المعالم، شريطة أن ترتكز هذه السياسة على مشروع مجتمعي شامل يستجيب لطموحات كل مكونات المجتمع، ويرسم بدقة أهدافه الآنية والمستقبلية، ويقدم الحلول الملائمة للمشاكل التي يواجهها.

يتطلب وضع سياسة لغوية، بالإضافة إلى ما ذُكر، القيام بدراسة للوضعية اللغوية في المجتمع، على أن يتم القيام بهذه الدراسة قبل الشروع في وضع أسس ومنطلقات هذه السياسة اللغوية، وقبل رسم توجهاتها وتحديد أهدافها.

2. الوضعية اللغوية في المغرب(2)

يعرف المغرب ستة تنويعات لسانية هي : اللغة العربية الفصيحة، والعربية المغربية (الدارجة)، والأمازيغيات الثلاث : تشلحيت، وتمازيغت، وتريفيت، ثم اللغة الفرنسية. ويمكن إضافة اللغة الإسبانية في شمال المغرب، إلا أنها أقل استعمالا وانتشارا من اللغات الوطنية واللغة الفرنسية.

1.2. الأمازيغية

تعتبر الأمازيغية بتنويعاتها الثلاثة لغة الأمازيغيين سكان المغرب الأولين، وهي لغة الاتصال والتخاطب اليومي، ويغلب عليها الطابع الشفوي. ورغم ذلك فهي تختزن تراثا ثقافيا هائلا له امتداد في التاريخ. ويكشف معجمها ونصوصها الشفوية المتوارثة جيلا بعد جيل عن تجارب حضارية رفيعة عاشتها وتفاعلت معها المجموعة الثقافية الأمازيغية على امتداد تاريخها الطويل.

وتنتمي اللغة الأمازيغية إلى عائلة اللغات السامية ـ الحامية التي تنتمي إليها اللغة العربية. ولا ينحصر استعمال اللغة الأمازيغية في المناطق التي يعيش فيها الأمازيغيون، أي جنوب المغرب ووسطه وشماله، بل نجد هذا الاستعمال منتشرا في كل مناطق المغرب بفعل انتقال كثير من الأمازيغيين نحو مختلف المناطق المغربية لممارسة التجارة أو لمزاولة العمل. وهذا ما مَكَّنَ هذه اللغة من أن تحتك وتتفاعل مع العربية المغربية، وهو ما جعل الغالبية العظمى من الأمازيغيين، إن لم نقل جُلَّهم، يجيدون التكلم بالعربية المغربية، ويقترضون منها الكثير من الكلمات وبعض ما تتميز به العربية المغربية على المستوى الصوتي والصرف ـ تركيبي.

2.2. العربية المغربية (الدارجة)

تعتبر العربية المغربية، التي تشترك مع العربية الفصيحة في كثير من الخصائص، لغة التخاطب بين كل المغاربة ؛ يستعملها السكان ذوو الأصول العربية وكذلك السكان ذوو الأصول الأمازيغية

للتخاطب والتواصل فيما بينهم. وهي مثل الأمازيغية لغة شفوية تختزن تراثا ثقافيا ضخما ومتنوعا أغلبه شفوي. وبحكم احتكاكها الدائم والطويل مع الأمازيغية فقد انتقل إليها عدد من الكلمات الأمازيغية بالإضافة إلى بعض الخصائص الصوتية والصرفية.

3.2. العربية الفصيحة

ينص الدستور المغربي على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد، وهذا ما جعل من هذه اللغة التي أدخلها العرب المسلمون إلى المغرب حين كانوا ينشرون الإسلام لغة التعليم والصحافة والأدب والفن. والعربية الفصيحة عكس اللغات الوطنية الأخرى لغة مكتوبة وليست شفوية تُستعمل في التخاطب اليومي بين أفراد المجتمع.

وتحظى العربية الفصيحة بمرتبة رفيعة في المجتمع المغربي لأنها لغة القرآن الكريم والدين الإسلامي، بالإضافة إلى أنها وعاء يختزن الثقافة والحضارة العربيتين والتراث الإسلامي الغني بإبداعاته الفكرية الفقهية والفلسفية والعلمية والأدبية. أضف إلى ذلك أنها اللغة الرسمية في كل البلدان العربية مما يجعل المتكلمين بها يحسون بالانتماء إلى الوطن العربي الكبير.

4.2. الفرنسية

دخلت اللغة الفرنسية إلى المغرب منذ أن فَرَضَ عليه الاستعمارُ الفرنسيُّ الحمايةَ ابتداء من سنة 1912. ومنذ ذلك التاريخ بدأت اللغة الفرنسية تفرض نفسها على المغاربة، وصارت لغةَ القطاعات الحديثة كالإدارة والتعليم والاقتصاد، وانحصر، نتيجة ذلك، دورُ اللغة العربية في التعليم الأصيل والشؤون الدينية، وتم بذلك إبعادها عن الحياة العامة والقطاعات النشيطة.

3. مواقف متعارضة

أمام هذه الوضعية اللغوية التي عرفها المغرب منذ سنوات، ولا زال يعرفها، ظهرت مواقف متعارضة من المسألة اللغوية يمكن حصرها في أربعة مواقف :

- موقف الداعين إلى الاقتصار على استعمال اللغة الفرنسية.
- موقف الداعين إلى الاقتصار على استعمال اللغة العربية.
- موقف الداعين إلى إحلال العربية العامية محل العربية الفصيحة باعتبار العامية المغربية لغة الوجدان الوطني والأقدر على التعبير عن الواقع الاجتماعي ومتغيراته.
- موقف الداعين إلى فسح المجال أمام الأمازيغية لتأخذ مكانها داخل المجتمع باعتبارها لغة التواصل بين الأمازيغيين، ومعبرة عن هويتهم الثقافية.
- موقف الداعين إلى ازدواجية لغوية بين العربية والفرنسية، وضمن هؤلاء نجد الداعين إلى أن

تكون الفرنسية هي اللغة المهيمنة، والداعين إلى أن تكون العربية هي اللغة المهيمنة.

1.3. موقف الداعين إلى الاقتصار على اللغة الفرنسية

الداعون إلى الاقتصار على استعمال اللغة الفرنسية يرون أن "يكون استعمالها شبه معمم في بعض القطاعات العلمية أو الاقتصادية لاعتبارات وظيفية أو انتقالية"(3) لأن اللغة العربية ليست لغة وظيفية، ولا يمكن استعمالها في الميادين العلمية والاقتصادية والتطبيقية، ولا يمكن التواصل بها على المستوى العالمي، وبالتالي فهي ليست لغة العلم والحداثة، ولا تُمَكِّنُ مستعمليها من الانفتاح على العالم، ومواكبة مستجداته.

2.3. موقف الداعين إلى الاقتصار على اللغة العربية

الداعون إلى الاقتصار على اللغة العربية ينادون بإحلال هذه اللغة محل اللغة الفرنسية في جميع الميادين والقطاعات باعتبارها لغة تتحقق بها الوحدة الوطنية، وتضمن ارتباط المغرب بالعالم العربي، وباعتبارها أيضا وعاء للهوية الوطنية، دون إغفال كونها حاملة لحضارة إنسانية عريقة متجذرة في التاريخ، بالإضافة إلى أنها تملك طاقة تعبيرية هائلة تُمَكِّنُ المتكلم بها من توظيفها بفعالية في كل مجالات المعرفة والمجتمع، زد على ذلك أنها اللغة التي نزل بها القرآن الكريم وهو ما يجعل منها، بالإضافة إلى كل ما ذُكِرَ، لغة مقدسة.

هؤلاء الداعون إلى موقف أحادي غالبا ما ينطلقون من اعتبارات إيديولوجية ضيقة ؛ فالمدافعون عن استعمال اللغة الفرنسية فقط ينظرون إلى اللغة العربية على أنها لغة ميتة ومحنطة، ولا تصلح لأن تكون لغة العلم والحضارة الحديثة، وأنها هي السبب في تدهور المستوى التعليمي في بلادنا وفي كل البلدان العربية، وأنها لغة لا تصلح - في أحسن الأحوال - إلا للمسائل الدينية. وعموما فإن استعمال اللغة العربية، عند هؤلاء، لن يساعد المغرب على الخروج من التخلف، ودخول عالم الحداثة، والالتحاق بالمجتمعات المتقدمة.

أما المدافعون عن الاقتصار على استعمال اللغة العربية فيعتبرون اللغة الفرنسية لغة مستعمر جاء يريد احتلال الأرض ونهب ثروات البلاد وتسخير سكانها في خدمته والقضاء على ثقافتهم وطمس هويتهم وضمنها اللغة العربية. ويعتبرون اللغة العربية وحدها القادرة على التعبير عن هوية الإنسان المغربي، والقادرة على نقل وترويج "الثقافة الدينية والإعلام والفكر والعلم وأشياء أخرى كثيرة لا تصل لا بالعامية ولا بالأجنبية في المحيط العربي الإسلامي، وإنما تصل باللغة العربية الفصيحة، لأنها لغة الدين والحضارة والإبداع الأدبي، وما إلى ذلك من مجالات كثيرة لا يتمكن نمو العربي المعرفي والديني والمجتمعي إلا بالنمو فيها، لأن هذه المعارف نشأت باللغة الفصيحة، وتمكنت بها، وتفتقت طاقة العربي فيها"(4).

3.3. موقف الداعين إلى العربية العامية

بين المدافعين عن أحادية اللغة سواء الفرنسية أو العربية الفصيحة نجد عددا لا بأس به من الدعاة إلى الاستغناء عن العربية الفصيحة لصالح العربية العامية (الدارجة)، وهؤلاء يذكروننا بدعاة مماثلين ظهروا في عصر النهضة العربية وروجوا لخطاب مُعَادٍ للعربية الفصيحة، وهؤلاء مجتمعين يرون في العربية الفصيحة لغة لا تساعد على تمثل الحضارة الحديثة واكتساب علوم وتقنيات العصر الحديث، كما أنها عاجزة عن التعبير عن وجدان الإنسان العربي الحديث، بالإضافة إلى أنها لا تصلح للتعليم بسبب تعقد نظامها الصرفي واعتمادها على الإعراب.

4.3. موقف الداعين إلى اللغة الأمازيغية

بجانب هؤلاء ظهر عدد من المدافعين عن اللغة الأمازيغية بهدف الاعتراف بهذه اللغة كلغة تحمل ثقافة الأمازيغيين وتعبر عن هوية إقليمية ذات ارتباط متجذر ببقية الهويات الإقليمية، وتشكل معها هوية وطنية واحدة. بيد أننا لا ندعم ضمن هؤلاء مغالين في الدفاع عن اللغة الأمازيغية يرون في اللغة العربية لغة معادية تمنع الأمازيغية من أن تصبح لغة الحياة العامة بالإضافة إلى كونها لغة اتصال.

5.3. موقف الداعين إلى الازدواجية اللغوية

ينقسم الداعون إلى الازدواجية اللغوية إلى فئتين :

– فئة تدعو إلى استعمال اللغة الفرنسية في الميادين الحديثة والاقتصار على استعمال اللغة العربية في الميادين التقليدية. أصحاب هذا الموقف ينظرون إلى اللغة نظرة نفعية ؛ فكلما كانت اللغة أقدر على التعبير عن العصر ومجاراته فهي اللغة التي يجب استعمالها للانفتاح على مستجدات التقدم العلمي والتواصل مع المجتمعات المتقدمة.

– فئة ترى عكس ما تراه الفئة الأولى ؛ فهي تنادي بإحلال اللغة العربية محل اللغة الفرنسية، والتعامل مع الفرنسية باعتبارها لغة تساعد على إغناء العربية والانفتاح على العالم المتقدم، وهو نفس التعامل الذي يجب أن تُعامل به اللغات الأجنبية الأخرى وخاصة منها الإنجليزية.

4. نحو سياسة لغوية متوازنة

تكشف أغلب هذه المواقف المتعارضة عن تصور معين للوضع اللغوي بالمغرب يشترك فيه كل المتبنين لهذه المواقف. مضمون هذا التصور، بصفة عامة، أن هناك صراعا بين العربية الفصيحة والفرنسية من جهة، وبين العربية الفصيحة والعاميات الوطنية من جهة أخرى، وأن لغة واحدة يجب أن تسود في المجتمع، وأن يتم إقصاء اللغات الأخرى، أو تهميشها وفسح المجال أمام لغة معينة لتصبح هي اللغة المهيمنة.

مثل هذا التصور ينطلق من أرضية نظرية تفتقر إلى الموضوعية العلمية، ولا تسعى إلى إقامة توازنات تضبط العلاقة بين العربية الفصيحة وبقية اللغات الوطنية من جهة، وبين العربية الفصيحة واللغة الفرنسية باعتبارها لغة أجنبية، وتحدد وظيفة كل لغة على حدة، وتؤسس لإقامة سِلم لغوي يعزز الوحدة الوطنية، ويحترم الخصوصيات الثقافية، ويخلق تواصلا حقيقيا بين كل مكونات المجتمع المغربي، ويفتح مجالات التواصل مع العالم الخارجي. لهذا فإن الاعتماد على هذا التصور لا يساعد على وضع سياسة لغوية تستطيع مواجهة التعدد اللغوي، وتحافظ على الهوية الوطنية بكل تنويعاتها الثقافية، وتحول دون الانغلاق على الذات.

وإذا كان من المعقول والمنطقي أن نحافظ لمجتمعنا على هويته الثقافية التي هي مزيج من الثقافة العربية الإسلامية والثقافات الإثنية المحلية، فإن من واجبنا أن نضع سياسة لغوية تحتل فيها اللغات الوطنية الحاملة والمعبرة عن هذه الهوية مركز الصدارة، ونوليها كامل العناية والاهتمام، ونعمل على تمكينها في محيطها السوسيو ـ اقتصادي، وذلك من خلال تخطيط لغوي يراعي الوضع الخارجي والوضع الداخلي لهذه اللغات. والمقصود بالوضع الخارجي "معالجة اللغة إزاء اللغات الأخرى الموظفة في البلاد"(5)، والمقصود بالوضع الداخلي "التخطيط للتحولات التي تطرأ على اللغة ذاتها"(6)، ويحدد موقع كل لغة ووظيفتها، والدور أو الأدوار المنوطة بها.

ورغم أن كل دول العالم تسعى للحفاظ على لغتها لتتلافى بذلك ضياع هويتها فإنها، في الوقت نفسه، لا تمنع التعدد اللسني الذي يضمن لها إقامة توازنات سلمية مع ثقافاتها في الداخل، ولا تمنع أيضا التعدد اللغوي الذي يحقق لها التواصل مع الثقافات الأجنبية. فالدول الأوروبية، بعد أن توحدت في إطار الاتحاد الأوروبي وضعت لغاتها الرسمية في الصدارة، لكنها، في الوقت نفسه، أقرت التعدد اللسني للحفاظ على لغاتها وثقافاتها الوطنية، كما أقرت التعدد اللغوي للانفتاح على العالم الذي أصبح، بفعل التقدم التكنولوجي، عبارة عن قرية صغيرة تضج بالمعلومات، وتتقاطع فيها المصالح الاقتصادية، وتفرض على الدول الصغيرة والكبيرة على السواء أن تدخل هذه القرية وإلا تضررت مصالحها، وأدخلت نفسها في عزلة قاتلة.

والمغرب الذي عرف على امتداد تاريخه الطويل تعددا لسنيا وتعددا لغويا ملزم هو الآخر بنهج نفس السياسة اللغوية التي تنتهجها الدول الأوروبية، على أن تكون لغته العربية، وسط هذا التعدد، في مركز الصدارة، بحيث تكون لغة وظيفية "في التعليم والإدارة والاقتصاد والإعلام، فتكون لغة الإيصال والاتصال، ويقع إنضاج وظائف التعدد اللغوي، ووظائف التعدد اللسني، في اتجاه الإيجاب وإتمام الوظيفية، لا في اتجاه الصراع"(7). هذا الكلام لا يعني إقصاء أو تهميش اللغات الوطنية الأخرى لأنها روافد ثقافية لا تتوقف عن إغناء اللغة العربية بحكم انصهارها مع هذه اللغات الوطنية في بيئة ثقافية تشكلت على امتداد عدة قرون. ثم إن أي إقصاء أو تهميش للغات الوطنية لن يؤدي إلا إلى إفقار اللغة العربية من جهة، وانعدام السلم اللغوي الضروري لبناء السلم

الاجتماعي من جهة ثانية.

لقد تعايشت اللغة العربية في المغرب مع بقية اللغات الوطنية منذ زمن طويل في تناغم قَلَّ نظيره، وتبادلت معها مجموعة من الخصائص التي قلصت عددا من جوانب الاختلاف بينها، خصوصا أن هذه اللغات كلها تنتمي إلى فصيلة واحدة هي فصيلة اللغات السامية ـ الحامية.

تشترك العربية الفصيحة والعربية المغربية في عدد كبير من الخصائص تجعل منهما تنويعين أو مستويين لغويين للغة واحدة. وهذا ما سهل باستمرار نقل خصائص العربية المغربية إلى العربية الفصيحة والعكس. ونقلت الأمازيغية عن طريق الاقتراض عددا مهما من الكلمات من العربية ـ الفصيحة والعامية ـ أغنت بها معجمها، وتسرب عبر هذا الاقتراض عدد من الخصائص اللغوية الأخرى لأن الكلمة حين تنتقل من لغة إلى أخرى تنقل معها عددا من الخصائص الصرفية والصوتية والدلالية والتركيبية(8).

يعرف المشتغلون باللسانيات أن التجاور الجغرافي بين اللغات يساهم بشكل كبير في تبادل هذه اللغات لعدد من الخصائص اللغوية، وهذا ما حدث بالفعل بين العربية وبقية اللغات المغربية. وإذا أضفنا إلى هذا التجاور اشتراك المغاربة في ثقافة واحدة سهل علينا استنتاج أن المرجعيات والإحالات التي تعتمدها الأنساق المعجمية لهذه اللغات مرجعيات وإحالات موحدة تجعل دلالة الكلمات تكاد تكون متطابقة، وهذا ما يزيد من تقوية الأواصر بين هذه اللغات من جهة، ويساهم في القضاء على أي صراع محتمل بينها تكون نتيجته هيمنة إحدى هذه اللغات وتدهور اللغات الأخرى. "ومعلوم أن البيئة الملائمة للتدهور بيئة متعددة اللغات (multilingual)، وتصبح ملوثة عندما تطغى فيها لغة أجنبية دخيلة على اللغة المحلية المبوأة عبر الثقافة والمعرفة والسلوكات اللغوية المحلية"(9) أما "بيئة التعدد اللسني (multiglossia)، بين لغة معيار رسمية ولهجات من نفس النسق اللغوي العام، أو من نفس المنظومة الثقافية، فعادة ما تكون أقل خطرا على الألسن المتعايشة"(10).

كل هذا يسمح لنا بالقول إن المغرب عرف على الدوام تعددا لسنيا خلق وضعا لغويا سليما ومتوازنا عاشت فيه لغاته الوطنية جنبا إلى جنب في انسجام تام، وفي تفاعل استفادت منه جميعها، وتقاسمت فيه، بطريقة سلمية، الوظائف التي تقوم بها اللغة/اللغات عادة داخل المجتمع.

وحين دخلت اللغة الفرنسية إلى المغرب تغير الوضع اللغوي فيه من تعدد لسني إلى تعدد لغوي، وأصبحت اللغة الفرنسية لغة أجنبية تهدد الاستقرار اللغوي فيه، وبدأ الصراع بين لغات وطنية تعكس الهوية والثقافة الوطنيتين ولغة تنتمي إلى ثقافة أجنبية وافدة، وتنتمي إلى فصيلة مختلفة جذريا عن تلك التي تنتمي إليها اللغات الوطنية المغربية، وصار البحث عن توازن لغوي مسألة ضرورية وملحة، خصوصا بعد أن اتضح أن اللغة الفرنسية، منذ دخولها المغرب، بدأت تنافس اللغات الوطنية، وخاصة اللغة العربية، واستطاعت في وقت وجيز أن تبعدها عن مواقعها التي كانت

تتبوؤها، وأجبرتها على التخلي عن الوظائف التي أوكل المغاربة إليها القيام بها.

أمام هذا التهديد الذي بدأت تواجهه اللغة العربية شُرع في انتهاج سياسة التعريب منذ حصول المغرب على استقلاله، إلا أن هذه السياسة لم تؤت أكلها بسبب القبول بالازدواجية ـ بين العربية والفرنسية ـ باعتبارها استراتيجية مؤقتة يتم التخلي عنها بمجرد تمكين اللغة العربية في محيطها الجديد الذي خلقه دخول المستعمر وتغييره للبنيات التقليدية للمجتمع المغربي. وأمام صعوبة تمكين اللغة العربية بوتيرة تساير وتيرة التحولات الاقتصادية والحضارية المتسارعة بدأت اللغة الفرنسية تأخذ الصدارة باعتبارها لغة العلوم والتقنيات الحديثة والاقتصاد، ولغة الفرص والارتقاء الاجتماعي، وتحولت اللغة العربية إلى لغة للآداب وبعض العلوم الإنسانية والعلوم الدينية.

سياسة التعريب التي تم انتهاجها في بداية استقلال المغرب كانت سياسة انطلقت من تصور مفاده أن "تمكين اللغة العربية لا يتأتى إلا باتخاذ القرار السياسي الذي يجعل اللغة العربية اللغة الوحيدة أو الأساسية في المحيط التعليمي والإعلامي والاقتصادي، إلخ، وأن هذا التمكين سينتج عنه ضرورة تطور وتنمية اللغة داخليا"(11).

من نقائص هذا التصور أنه تصور أحادي يرفض التعدد اللغوي من منطلق أنه يؤدي بالضرورة إلى الصراع الذي ينتهي حتما بهيمنة لغة على أخرى. ولا يؤمن هذا التصور بأن في التعدد اللغوي إغناء للغة الرسمية وللثقافة الوطنية، شريطة التحكم فيه بحيث لا يؤدي إلى تهميش اللغة/اللغات الوطنية وخاصة الرسمية منها التي تحقق الإجماع الوطني.

من نقائص هذا التصور أيضا أنه يرى أن تمكين اللغة العربية الذي يتم بقرار سياسي سيجعل هذه اللغة تتطور وتنمو داخليا. وهذا غير كاف لأن تطوير اللغة من الداخل يتطلب تطوير قواعدها، واستعمال الوسائل البيداغوجية التقليدية والتكنولوجية الحديثة لنشرها وجعل تعلمها سهلا وميسرا، ووضع المعاجم العامة والمعاجم القطاعية لإغناء رصيدها اللغوي، وجعلها أقدر على التعبير عن مختلف المستجدات التي تعرفها مختلف الميادين.

5. خاتمة

وعموما فإن وضع سياسة لغوية ناجحة يجب أن يكون الهدف منه هو تطوير اللغة الوطنية الرسمية، وتمكينها في أهم القطاعات الحيوية في المجتمع دون تهميش للغات المحلية التي يجب أن توكل إليها وظائف اجتماعية تساهم في الرفع من المستوى الثقافي والحضاري لمستعمليها. هذا بالإضافة إلى الاهتمام باللغات الأجنبية التي تسمح للمجتمع المغربي بالانفتاح على الثقافات الأجنبية، والاستفادة من العلوم والتقنيات التي أبدعتها. على أن الإقبال على اللغات الأجنبية يجب ألا يؤدي بأي حال من الأحوال إلى إقصاء اللغة العربية.

هوامش :

1- نقصد بالمستوى الداخلي للغة مجموع الخصائص التي تميز نسقها وقواعد اشتغالها. ونقصد بالمستوى الخارجي لها مجالات توظيفها في المجتمع وطبيعة العلاقات التي تقيمها مع اللغات التي توجد معها في نفس المحيط الاجتماعي.

2- انظر لمزيد من التفصيل : Pour une politique linguistique : Hassan Esmili

3- عبد القادر الفاسي الفهري 2003، ص : 11.

4- عبد القادر الفاسي الفهري 1998، ص : 152.

5- آمينة إبراهيمي 2002.

6- نفسه.

7- عبد القادر الفاسي الفهري 2003، ص : 29.

8- عبد المجيد جحفة وعبد اللطيف شوطا 1992، ص : 29.

9- عبد القادر الفاسي الفهري 2003، ص : 25.

10- نفسه، ص : 25.

11- عبد القادر الفاسي الفهري 1998، ص : 159.

المراجع :

- آمينة إبراهيمي، 2003، **التخطيط اللغوي ووضع اللغة العربية بالمغرب**، بحث لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب من شعبة اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.
- صبحي الصالح، **دراسات في فقه اللغة**، دار العلم للملايين، ط، 9. 1981.
- عبد القادر الفاسي الفهري، 1998، **المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي**، دار توبقال للنشر.
- عبد القادر الفاسي الفهري، 2003، **اللغة والبيئة**، منشورات الزمن.
- عبد المجيد جحفة وعبد اللطيف شوطا، 1992، **"تحويل القدرة من المغربية إلى العربية"**، قضايا في اللسانيات العربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسيك، الدار البيضاء.

* Hassan Esmili, Pour une politique linguistique (Manuscrit)

* Lyons, J., 1968, Linguistique générale, Larousse, Paris.

* Lyons, J. 1978, Sémantique linguistique, Larousse, Paris.

* Jackendoff, R., 1975,"Régularités morphologiques et sémantiques dans le lexique", inm Langue: Théorie Générative Etendue. mis en oeuvre par Mitsou Ronat. Collection savoir, Hermann, Paris 1977.

مقومات السياسة اللغوية بالمغرب

جمال بندحمان

1. تحديد المفاهيم

تتعدد تعاريف الثقافة تبعا لتعدد التصورات والخلفيات النظرية، فعلماء الأنتربولوجيا يعرفونها باعتبارها بناء مركبا يضم المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والتقاليد، وكل العادات المكتسبة من طرف الإنسان بوصفه فردا في المجتمع. ولأن هذه المكونات تتميز فيما بينها بالاختلاف، فإن ذلك ينعكس عليها، بحيث لا يمكن تصورها إلا في إطار التعدد والاختلاف.

وهذا الوضع هو ما نجده ماثلا في الكثير من المجتمعات مثل المغرب المتميز بتنوعه الثقافي واللغوي، حيث نلاحظ تجاورا بين لغات متعددة، فإلى جانب اللغة العربية الفصحى نجد لغات أخرى تضطلع بمهام التواصل اليومي كالحسانية، والريفية، وتمازيغت، وتاشلحيت، إضافة إلى الدوارج المغربية. بينما ثقافيا نجد أنفسنا أمام ثقافة عربية إسلامية، وأخرى ذات عناصر زنجية، وثالثة أندلسية، إضافة إلى الثقافات الأمازيغية المرتبطة بجهات المغرب المختلفة، مما يتطلب تحديدا لمفهوم التعدد والبحث في علاقته بالوحدة.

تاريخيا، ظهر مفهوم التعدد بشكل رسمي في برنامج سياسي في كندا سنة 1965، ثم انتشر في الدول الأنجلوساكسونية في سنوات الثمانينيات، وعرف انتشارا واسعا في الجرائد والصحف

الأمريكية في التسعينيات، وفي هذه الفترة ظهرت كتب حوله، وأدرج في المعاجم. لكن ما يجب الوعي به هو أن التعدد ليس وصفا للواقع، بل هو كذلك تعبير عن مجموعة من الفلسفات الحاملة لمضامين فكرية ارتبطت أول الأمر ببيئات بعينها، وجاءت استجابة لمشاكل عرفتها مجتمعات معينة في بعض مراحل نموها التاريخي. فما الذي يجب فعله كي لا نقوم بنقل حلول ظهرت لتجيب عن أسئلة مجتمعات يختلف مسار تكوينها ونموها عن مجتمعات أخرى ؟ ذلك أن تيارات التعدد الثقافي، حسب التصور الأمريكي في صيغتها الأولى، تقوم على أساس الوحدة داخل التنوع. فما هي العناصر التي تضمن الوحدة مع الحفاظ على التنوع ؟ هل ترتبط بالمجال اللغوي أم بعناصر أخرى يحددها المجتمع ؟

إن هناك تساؤلات كثيرة تترتب عن الأخذ بالمفهوم من قبيل : ما العناصر التي ينبغي منحها الأولوية، هل عناصر الاختلاف أم عناصر الائتلاف ؟ وما النتائج المترتبة عن كل اختيار ؟ وما الطريقة التي يجب اعتمادها لحل الإشكالات السياسية التي يطرحها التعدد ؟ ومن يحسم فيها، السلطة أم المؤسسات أم المجتمع ؟ وهل تعد المعالجة في نطاق جهوي ناجعة ؟ وكيف تعاملت دول أخرى مع الموضوع ؟ وكيف حافظت على عناصر الشخصية الأساس؟

إن هذه الأسئلة وغيرها هي التي تمثل واحدة من القضايا التي ستحدد مستقبل المغرب، وبلدانا مغاربية وعربية وإسلامية أخرى، ولذلك فإن معالجتها تتطلب جهدا نظريا، وجرأة في الطرح والتناول، وتعميما للتصورات والاقتراحات بما يسمح للمواطن بالانخراط في معالجة الأسئلة الجوهرية استنادا إلى آلية التفاعل الثقافي مع آراء الآخرين ومواقفهم.

ضمن هذا التصور يمكننا تناول واقع السياسة اللغوية المتبع بالمغرب، والذي ينبغي إدماجه ضمن تصور أعم يتعلق باختيارات الهوية المرادة، ونوعها. ولاشك أن التعرف على خلفيات الواقع الممارس، تتطلب التعرف على جوانب تاريخية وتربوية وإعلامية ودستورية. لأجل ذلك ستعتمد مقاربتنا للموضوع على هذه المداخل مجتمعة، إذ في غيابها تصبح المقاربة وصفية خالية من أبعادها المركزية.

2. مظاهر التعدد اللغوي بالمغرب

تتميز السوق اللغوية المغربية بالتعدد والانفتاح. فهي متعددة لوجود لغات تعيش في الفضاء نفسه، فهناك اللغة العربية الفصحى، وهناك الدوارج المغربية المختلفة صوتيا ومعجميا وتركيبيا بحسب المناطق والجهات، وهنالك الأمازيغيات الثلاث (تمازيغت، وتريفت، وتشلحيت). وهنالك الحسانية التي تمثل لغة لها مميزاتها وصفاتها، والعبرية التي تتكلمها فئة من المغاربة ظلت متشبثة بهويتها وانتمائها، ولها إنتاجات فكرية، وحضور اجتماعي واقتصادي. أما الانفتاح

فيتجلى في الحضور الوازن اقتصاديا للغات مثل الإنجليزية والفرنسية والإسبانية. غير أن التعدد والانفتاح يحتاجان إلى تدبير عقلاني تتحكم فيه غايات معلومة، وأهداف منتجة، وتتحكم في مساره سياسة لغوية قائمة على رؤية تشريعية منسجمة مع اختيارات الأمة، تسندها خلفيات علمية. فهل يعرف المغرب سياسة لغوية تحدد الاختيارات اللغوية وتعللها ؟ هل تقوم هذه الاختيارات على أسس العدالة اللغوية ؟ هل تساهم في ضمان التناغم الاجتماعي ؟ وكيف يتم تطبيقها ؟ وما مصادرها التشريعية ؟.

3. مقومات السياسة اللغوية بالمغرب

يقتضي الحديث عن السياسة اللغوية بالمغرب الانتباه إلى موقفين، موقف السياسة الرسمية الذي تتبناها الدولة، ومواقف الأطراف المشاركة في المشهد السياسي والاجتماعي والثقافي من منظمات وأحزاب وجمعيات. لذلك فإننا سنعمد إلى تقديم وصف عام لمعظم هذه المواقف. علما بأن قضايا السياسة اللغوية ينبغي أن ينظر لها الأنتربولوجيون، وعلماء الاجتماع والنفس والاقتصاد وعلماء اللغة، وأن يكون التنصيص القانوني والتدبير السياسي لها نتيجة لمجهوداتهم، لأن ما يوجه السياسة اللغوية في بلد ما هو الاختيارات الكبرى المتعلقة بالمجتمع، والمستندة إلى مرجعية معرفية ذات كفاية وصفية وإجرائية عالية.

تشريعيا، نجد مجموعة من النصوص التي تعمل على تحديد التصور القانوني للسياسة اللغوية بالمغرب ؛ فقد نص الدستور المغربي في ديباجته على رسمية اللغة العربية، وهو ما يؤهلها، نظريا، للقيام بمختلف الوظائف التعليمية والرسمية والإعلامية. غير أن هذا التنصيص يبدو متناقضا مع نصوص أخرى لها قوة إجرائية وعملية. يتعلق الأمر بالميثاق الوطني للتربية والتكوين[1] الذي خص الوضع اللغوي في المغرب بدعامة قائمة الذات، فاعتبر استعمال اللغة العربية، بوصفها لغة رسمية، في مختلف مجالات العلم والحياة مطمحا وطنيا. وأقر إحداث أكاديمية للغة العربية (ابتداء من السنة الأكاديمية 2000–2001) لتقوم بوظائف النهوض باللغة العربية وتأهيلها. كما أقر تدابير التفتح على اللغة الأمازيغية، أو أي لهجة جهوية أخرى، وذلك باتخاذ إجراءات ملموسة على صعيد وزارة التربية الوطنية، وعلى صعيد الجامعات التي صارت ملزمة بإحداث مراكز للبحث العلمي والتطوير اللغوي والثقافي الأمازيغي، وتكوين المكونين، وإعداد البرامج والمناهج الدراسية المرتبطة بهذه اللغة. كما أقر الميثاق ضرورة الانفتاح على اللغات الأجنبية، وتعلمها منذ سن مبكرة.

إن المقارنة البسيطة بين النص الدستوري، وميثاق التربية والتكوين يقود إلى الخروج بالاستنتاجات التالية :

– يؤكد الميثاق على التعددية التي يجعلها منفتحة، فهي تضم الأمازيغيات وأية لهجة جهوية أخرى، وهذا ما يسمح بتأويل يرى في هذا التحديد مرونة كبرى تفتح المجال أمام إمكان اعتماد اللغات الوطنية الأخرى، مثل الحسانية والدوارج المغربية، إضافة إلى الأمازيغيات الثلاث، مع ما يطرحه ذلك من مشاكل تربوية، وتبعات اجتماعية وسياسية ونفسية في ظل تساؤل عريض حول الإمكانات المادية التي ينبغي رصدها لمشروع مثل هذا، وفي ظل البحث عما يسمح للمجتمع بضمان انسجامه وتواصله الثقافي واليومي.

– تركت السياسة اللغوية، التي يتناولها الميثاق الوطني، الباب مفتوحا أمام كل اللغات الأجنبية ولم يتم الحسم في الاختيارات، إذ تم التنصيص على لغة أجنبية أولى ولغة أجنبية ثانية وهو ما يعني إمكان جعل المؤسسة التعليمية مشتلا لجميع لغات الدنيا، حيث تخضع الاختيارات لمنطق غير واضح المعالم.

هذا التشريع العام، والملتبس أحيانا، تعززه مؤسسات ومعاهد تمتلك استقلالية ذاتية، وتشتغل بمنطق قانونها الأساسي وأهدافها التي قد لا تتوافق مع محتوى الدستور في صورته الحالية. ابتدأت بتشكيل معهد الدراسات والأبحاث للتعريب أواخر الخمسينيات من طرف الراحل محمد الخامس، وإحداث المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية من لدن الملك محمد السادس، والإقرار بتأسيس أكاديمية محمد السادس للغة العربية باعتبارها مؤسسات بحث علمي يعزز السياسة الوطنية في المجال اللغوي. وهو أمر مشروع إذا كانت مهام هذه المعاهد علمية وتأطيرية، لكنه يصبح موضع تساؤل إذا ما أصبحت لها قوة تشريعية ملزمة تضاد ما ترسمه القوانين المنظمة للسياسة اللغوية في البلاد.

يحتاج الأمر إلى فحص الأدوار التي تقوم بها مثل هذه المؤسسات، ومقارنة التشريعات مع المنجز، إذ يعيش المجتمع شرخا لغويا وتعارضا بين النص والواقع، فإذا كانت الوثائق تتحدث عن التعريب وضرورته، فإن ما تقدمه وقائع المجالات الاقتصادية والإدارية والحكومية والتربوية، يجعل النصوص مجازات ممتدة.

لم تنج السياسة اللغوية المتبعة من الانتقاد الذي وصفها بالمتحيزة والخادمة للغة على حساب أخرى. فقد هيمن الخطاب الذي يعتبر الفرنسية صاحبة سيادة وحظوة خلال عقود من الزمن، وكانت ثنائية العربية والفرنسية موضع تحليل وتداول، غير أن هذا النقاش توارى لحساب ثنائيات جديدة تجعل العربية صاحبة حظوة على حساب الأمازيغية. ليصبح وضع الفرنسية طبيعيا، بل وحلا وسطا يمكن أن يرتضيه المختلفون، إن لم يكن بالرغبة فبقوة الوقائع.

قد يكون مفيدا لنا العودة إلى التاريخ لفهم المسار العام الذي قطعته السياسات اللغوية بالمغرب، وقد يكون مفيدا بشكل أكبر التعرض للمواقف التي عبر عنها باحثون آخرون، أوتلك التي عبرت

عنها إطارات جمعوية وسياسية، والتي كانت لها تأثيرا ت على المواقف الرسمية التي تبنت جزءا منها، مما يؤشر على تحولات مهمة ستطال النسيج اللغوي المغربي، ومعه هوية المغرب وانتماؤه الحضاري واختياراته الثقافية.

4. التاريخ : شاهد أمثل

تمكن قراءة كتاب ذ. محمد شفيق (لمحة من 33 قرنا من تاريخ الأمازيغيين)(2) من فهم الأسس التي يقوم عليها خطاب نما في أحضان المقاربة السياسية، واعتمد التاريخ أداة مؤولة لتقديم مقاربته للمسار الذي قطعته السياسة اللغوية بالمغرب منذ بداية دخول الإسلام إلى اليوم، والتي تعتبر أن النوايا هي التي حكمت الممارسات، وأن الممارسات لم تكن سليمة لأنها استهدفت الأمازيغية. ولتعليل هذا الحكم يتم الاستناد إلى مرجعيات غربية اعتمدت بدورها على تأويلات عامة لم تسندها القرائن.. هكذا، أصبح شارل دوفوكو ومارسي وباسي وغيرهم حجة، وليسوا مجرد قراء ارتبطوا بمشروع لا تخفى مقاصده.

وفق هذا المنظور، يصبح تعريب المغرب استعرابا، ويصبح ما قام به الأمازيغيون عملا غير مقصود لذاته، إذ يذكر المرابطون والموحدون والمرينيون باعتبارهم نماذج تعكس العبقرية الأمازيغية، لكن الحديث عن دورهم في تعريب المغرب يصبح خافتا ومغيبا، أو مؤولا تأويلا مغرضا وضبابيا. فلقد قسم ذ. شفيق مراحل (الاستعراب) إلى أربع مراحل هي(3) :

– المرحلة الأولى التي استغرقت عهد الأدارسة والمرابطين، والعقود الأولى من عهد الموحدين.

– المرحلة الثانية تبتدئ بعهد عبد المومن الموحدي، وتنتهي بمطلع القرن 20.

– المرحلة الثالثة تبتدئ مع مطلع القرن 20، حيث اتخذ الاستعراب وسيلة ثقافية لمقاومة الاستعمار.

– المرحلة الرابعة، مرحلة الاستقلال حيث تسارع الاستعراب وأصبح التعريب مقصودا في نطاق إيديولوجيا يكتنفها اللبس.

لا يخضع هذا التحقيب لأساس منهجي مضبوط، إذ مسوغاته غير معللة، فهو يدمج عصورا وأزمنة في حقبة واحدة. لذلك نجده مر فوقا بصيغ احتمالية مثل (ربما)، أو استدلالية مثل (فبما أن التمدن كان بطيئا...) وقد انتقد عبد الله العروي(4)، منذ زمن، هذه المنهجية التي تبناها مؤرخون استعماريون، فقدموا ما اعتقدوه حقائق.

إذا تجاوزنا الأساس المنهجي، وبحثنا في مضمون الخطاب، وجدنا أحكاما تحمل عدة دلالات. فالمرحلة الثانية من (استعراب المغرب) تقدم هكذا. «دشن هذه المرحلة، عن غير قصد، عبد المومن

الموحدي باستقدامه إلى المغرب (الأقصى) القبائل العربية التي كان الفاطميون، من قبل قد أباحوا لها غزو إفريقيا انطلاقا من الصعيد المصري»(5). وتوصف المرحلة الرابعة بكونها كانت تهدف إلى «طمس المعالم الأمازيغية في النسق الحضاري المغربي»(6). وهكذا «أصبح الأمازيغيون، لأول مرة في تاريخهم الإسلامي، يشعرون بأن هناك إرادة غير إرادتهم الذاتية تدعوهم إلى الاستعراب بالحجة العرقية الملفوفة في لفائف الحجة الدينية»(7). لقد كان لهذه التصورات أشباه ونظائر، بل إن ما شابهها كان أكثر غلوا في تأويلاته. «وقد برهنت العقود الأربعة المنصرمة على أن التعريب لا يرمي إلى مواجهة اللغة الفرنسية ذات الهيمنة في الإدارة ومجالات الاقتصاد والتعليم التقني. ذلك لأن تعريب أسماء الأماكن والساحات العمومية التي تحمل في الأصل أسماء أمازيغية، ومنع أسماء المواليد الأمازيغية في مكاتب الحالة المدنية، ورفض شهادة المواطنين بالأمازيغية... كل هذا لا يمكن أن يمس في شيء لغة فولتير وينال من حظوتها لدى المغاربة بمن فيهم دعاة التعريب الأكثر تطرفا»(8).

تتحول العربية في مثل هذه التصورات إلى موجه للسياسة اللغوية بالمغرب، عن قصد وسبق إصرار من قبل الوطنيين ومن والاهم، وعن غير قصد من قبل عبد المومن.

5.المقارنة أداة استدلال

عاشت عدة لغات في المجال نفسه، الدوارج المغربية، والعربية الفصحى، والأمازيغية (الأمازيغيات) والعبرية، فكيف تم هذا التعايش ؟ هل فرضت العربية نفسها بالإكراه أم كانت اختيارا استراتيجيا ؟

تخبرنا كتب التاريخ أن العربية كانت دوما لغة الدولة المعتمدة، بل لغة التواصل التي اختارها الناس عن طواعية واختيار دون أن يتخلوا عن لهجاتهم التي تقوم بأدوار التواصل اليومي، فما التعليلات التي اعتمدتها الدول التي حكمت المغرب في سياساتها اللغوية ؟ وهل تساعدنا هذه التعليلات في فهم الاختيارات التي قامت عليها السياسة اللغوية بالمغرب منذ الاستقلال إلى اليوم ؟ وهل يمكن جعلها أداة لاستشراف المستقبل ؟

تجعلنا مثل هذه التساؤلات في قلب قضايا الهوية، وما يترتب عنها، لكننا سنرجئ الحديث عنها إلى حين، جاعلين من القراءة التاريخية مدخلا للفهم، وآلية تشارحية تقرأ الحاضر بالماضي، وتقرأ المستقبل بهما، إذ يعدو من الطبيعي فهم علاقات الصراع والتنافس بين اللغات المتعايشة في المجال نفسه، حيث تصبح الفاعلية أداة للحسم والترجيح. وإن كانت أمم أخرى قد جعلتها أداة للإخضاع والإكراه. فلقد نسب شارل أندري جوليان للقديس أوغسطين قوله «إن الدولة الرومانية التي تعرف كيف تحكم الشعوب لم تفرض على المغلوبة منها سيطرتها السياسية فحسب، بل لغتها أيضا»(9). فهل ينطبق هذا الحكم على علاقة العربية بمحيطها ؟ وهل اختارت الدولة المغربية منذ

بدايتها سياسة اللغة المفروضة بالإكراه ؟

سنترك النصوص تتحدث، وسنستحضر موقفين، أولها لمؤرخ مغربي يهودي عرف بموضوعيته (حاييم الزعفراني)، والثاني لمؤرخ مبدئي في مواقفه، وجريء في أطروحاته (علي صدقي أزايكو)

يقول حاييم الزعفراني، معللا انتشار العربية واعتمادها من طرف الأعاجم : «أصبحت العربية تدريجيا لغة تواصل الإمبراطورية الجديدة، كما أصبحت الوسيلة الوحيدة لتبادل الثقافات بين مراكز حضارات الشرق والغرب الإسلاميين، وأبدت النخبة المثقفة المسلمة رغبتها الجامحة في الإطلاع على المعارف المسطورة، معارف أهل الكتاب. داعيهم في ذلك الفضول العلمي، وهاجس حماية الدين الجديد. وشعر أهل الذمة أنفسهم بالحاجة الملحة تدعوهم إلى ترجمان نصهم الديني المقدس إلى لغتهم الجديدة العربية التي أصبحت عندهم بمثابة اللغة الأم»(10). إن هذا الوضع التاريخي يزكى بدراسات ميدانية، تنتهي إلى الاستنتاج التالي «لقد أظهرت أبحاثنا الميدانية، في أوساط اليهود الناطقين بالأمازيغية في المغرب، في" ملاحات" الجنوب ووديان الأطلس، بما لا يدع مجالا للشك ،أن هذه المجموعات كانت تستعمل في تعليمها التقليدي اللغة الأمازيغية أداة للتفسير، وترجمة النصوص المقدسة، كما كانت المجموعات اليهودية، في باقي البلاد تستعمل لهجة اليهود العربية أو لهجتهم الأسبانية لنفس الأهداف»(11). ولاشك أن دواعي ما سبق تكمن في الوعي بالقيمة الحضارية للغة العربية، لذلك فإن «يهودية أرض المغرب كانت قد تبنت منذ القرن التاسع اللغة العربية أداة ثقافة وحضارة»(12).

معنى ذلك أن ما ظل يحكم السياسات اللغوية بالمغرب هي الاختيارات الاستراتيجية المرتبطة بالفائدة والفعالية، وأن التحيز لم يتم للغة على حساب أخرى. ولعل ما يؤكد ذلك، وينفي صفة التعريب عن غير قصد، التي نسبها (شفيق) لعبد المومن، هو ما أنجزه (المهدي بن تومرت). يقول (علي صدقي أزايكو) متحدثا عن (أبي بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيدق) في محاولة لتعليل هذه التسمية (فأبو بكر الصنهاجي كان، إذن، دليلا في السفر. وماشيا راجلا أمام بغلة الإمام المهدي ابن تومرت، غير أن استعمال كلمة (بيدق) لا يمكن أن يتأتى إلا لمن كان متمكنا من المعجم العربي تمكنا كبيرا، وليس في الجماعة الموحدية الأولى من يتوفر فيه هذا الشرط إلا محمد بن تومرت. وبالتالي فهو الذي يكون قد أطلق هذه الكنية على صاحبه. ولا يستبعد أن تكون الكنية الحقيقية لأبي بكر الصنهاجي هي (أفدد) التي تعني بالأمازيغية : الدليل والرائد، فعربها ابن تومرت وأصبحت بيدق وهذا شيء محتمل جدا لأننا نعرف أن ابن تومرت عرب أسماء كثير من أعضاء جماعة الموحدين، وأعطاهم كنى لم تكن لديهم من قبل)(13).

بل إن الأمر يمتد إلى ماقبل عبد المومن، فقد كان «من النتائج البارزة لانتشار الإسلام في شمال إفريقيا تبني جزء كبير من الأمازيغيين للغة القرآن. وتخليهم جزئيا مع مرور الحقب عن لغتهم الأمازيغية. وهذا دليل على حسن إسلامهم وعمق إيمانهم بمبادئ الإسلام.

ويلاحظ أن ذلك كله تم في فترات لم تكن فيها للعرب أي سلطة سياسية فعلية. ولم يكن لهم في شمال أفريقيا إلا وجود عددي ضئيل بالنسبة إلى السكان الذين ينتشرون على رقعة جغرافية واسعة جدا. ولكن عملية تعريب قسم من الأمازيغيين لم تكن نتيجة لعمليات الفتح بقدر ما كانت ثمرة مجهودات الأمازيغيين أنفسهم والتي امتدت على قرون طويلة»(14).

لا يقدم التاريخ، إذن، وقائع تحيز لغوي، ولا تؤكد معطياته قيام سياسة لغوية مبيتة. لتبطل بذلك حجة الماضي التي تدعي مناصرة لغة على حساب أخريات. فما الوضع الذي يسري اليوم ؟

هل تمتلك الجهات المسؤولة تصورا شموليا للسياسة اللغوية ؟ هل تربطها بعيون الوقائع المستمدة من دروس التاريخ ؟ هل تعي مخاطر الاختيارات وتكلفتها الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والثقافية ؟ هل يستطيع تدبيرها أن يحول الأزمة إلى دينامية ؟

سنعمل على تناول بعض هذه القضايا من خلال التركيز على ميدانين مركزيين هما السياسة اللغوية في المجال التعليمي، والسياسة اللغوية في المجال الإعلامي، لنختم بالحديث عن التهيئة القانونية في ارتباطها بقضايا الهوية.

6.السياسة اللغوية في المجال التعليمي

هل يمتلك المغرب فعلا سياسة لغوية في المجال التعليمي ؟ ما مظاهرها ؟ما أدوارها ؟ ما تشريعاتها؟ هل يحمي النص القانوني وضع اللغات ؟ وهل يقننها ؟ يمثل التعليم المجال الخصب لاختبار طبيعة السياسة اللغوية في بلد ما، إذ هو الذي يسمح بتشكيل الذهنيات وتكوينها. ولعل ذلك ما يفسر طبيعة الانتقادات التي وجهت للسياسات التعليمية بالمغرب منذ الاستقلال إلى اليوم، واعتبارها مسؤولة عن (الميز اللغوي)(15) الذي يمنح العربية فرصا أوسع من غيرها، وهو افتراض نظري لا تؤكده الوقائع والمعطيات، ويدحضه التضارب الذي طبع التوجهات العامة، فإذا كان المخطط الخماسي 1960-1964 قد طرح الارتباط العضوي بين التعريب وتوحيد التعليم كاستراتيجية تحد من اللاتجانس بين التعليم الأصيل والحديث والأجنبي، فإنه كان يهدف ضمنيا إلى جعل (التوجه العام للمدرسة سياسة وثقافة وفكرا... مغربيا عربيا وليس فرنسيا)(16)، لأن السياق التاريخي كان يقتضي ذلك. غير أن هذه الحقيقة لم تنل الرضا من طرف العديد من الباحثين والدارسين والسياسيين الذين اعتبروا مبدأ التعريب سياسة لغوية قائمة على القهر والإقصاء، وأن

المقصود منها كان أساسا الأمازيغية. لأن (هذا الشعار كان يستهدف فقط التعليم الأمازيغي الذي بوشر في عهد الحماية)(17) لكن صاحب الحكم يعود ليتناقض مؤكدا أنه (إذا كان الظهير الفرنسي يستهدف القضاء على العربية والأمازيغية معا، فإنه قد كان له بديل وهو اللفظ والفكر الفرنسيان)(18).

تطرد هذه الأحكام، وأمثالها، في خطابات كثيرة، وتجعل النضال سابقا على الحقيقة العلمية والتاريخية، ولذلك نجدها مطبوعة بالتناقضات فيما بينها، رغم اعتمادها على المعطيات ذاتها. فعبد الله بونفور، مثلا، يؤكد (يجب ألا ننسى أنه بإنشائها للمدرسة، فقد اختارت فرنسا في المغرب أن تلقن لغتين : العربية والفرنسية، أي أن مدرسة الجمهورية الفرنسية قد شاركت في تعريب هذا البلد بشكل أكبر مما قامت به دول أخرى في الماضي... من هذا المنطلق يعد الاتجاه العروبي تقليدا محضا للإيديولوجيا اليعقوبية، أي أن الدولة الوطنية ليست وريثة دولة الخلافة كما يدعي البعض، ولكنها وريثة الدولة الكولونيالية)(19). هكذا تصبح سياسة التعريب اختيارا مقصودا بحكم التوجهات العامة للسياسة اللغوية المغربية، حيث (تعتبر دول بلاد المغرب نفسها دستوريا دولا عربية وإسلامية. والسياسة اللغوية والثقافية المنتهجة والمتبعة فيها منذ حصولها على الاستقلال السياسي هي سياسة التعريب. فلا تملك الأمازيغية أية مكانة لا في الخطاب، ولا على مستوى التطبيق في المؤسسة الرسمية. وحينما يكون الخطاب الرسمي (أو السائد) صريحا، يبرز جليا بأن أحد الأهداف الرئيسية للسياسة اللغوية هو استئصال المنطقة الناطقة بالأمازيغية. ففي نظرهم تشكل التعددية اللغوية خطرا على الوحدة الوطنية وتعتبر حاملة لبذور التفرقة)(20).

يتم طرح هذه التصورات دون العودة إلى التطورات اللاحقة التي مست سياسة التوحيد والتعريب التي بقيت مجرد سياسات معلنة، وإن نفذت فبارتجال كبير يفرغها من مضامينها ويحولها إلى حجة ضد نفسها بهدف فتح المجال أمام اختيارات أخرى. يمكن تأكيد ذلك بالعودة إلى المخططات(21) التي تلت مخطط 60-64، مثل مشروع بنهيمة (1966) الذي أعاد الاعتبار للغة الفرنسية بتعليلات تقنية، أو الكيفية التي تم بها اعتماد تعريب المواد العلمية في التعليمين الإعدادي والثانوي، حيث تحولت الحصص إلى دروس تتداخل فيها الدوارج المغربية إلى جانب شذرات من العربية الفصحى ممزوجة بفرنسية متبقية من التكوين الأصلي للمدرسين، فإذا أضفنا إلى ذلك استمرار التدريس في التعليم العالي باللغة الفرنسية، والزيادة في حصصها، والرفع من معاملها في التعليم الثانوي، قدرنا طبيعة التعريب المتحدث عنه، والذي يتحول إلى كلفة زائدة في نظر الأسر والطلبة ليتحقق الاستعداء المجتمعي للغة يمنحها الدستور صفة الرسمية. لن نقف طويلا عند المسار التاريخي للسياسات اللغوية بالمغرب في المجال التعليمي، وسنركز على الميثاق الوطني للتربية والتكوين، وعلى وضع اللغات فيه. وهو شيء تحدثنا عن جزء منه في الفقرات السابقة، وسنعمل

الآن على تخصيصه من خلال الحديث عن وضع الأمازيغيات والدوارج المغربية والحسانية. حيث ينص الميثاق الوطني على أنه (يمكن للسلطات التربوية الجهوية اختيار استعمال الأمازيغية أو أية لهجة محلية للاستئناس وتسهيل الشروع في تعلم اللغة الرسمية في التعليم الأولي وفي السلك الابتدائي).(22)

يسمح هذا النص باجتهاد قانوني يرى أن الجهوية مدخل لاختيار إحدى اللغات للاستئناس، غير أن مفهوم الجهوية عام وفضفاض، لأنه يقترن بالسلطات التربوية الجهوية أكثر مما يقترن بواقع الخريطة اللغوية بالمغرب التي تحتاج إلى الأخذ بنتائج الدراسات السوسيولوجية واللغوية. فكيف تم تطبيق هذا المبدأ ؟ وهل تمت الاختيارات وفق شروط علمية وديمقراطية ؟

لنتأمل واقع المدرس المغربية في علاقتها بالسياسة اللغوية، فهي تعاني من تخمة الحروف، ومن إنهاك اقتصادي، وشرخ تواصلي، إذ تعتمد ثلاثة أنظمة إشارية (عربية ـ لاتينية ـ تيفناغ) يتلقاها المتعلم في سنوات تمدرسه الأولى، مما يخلق لديه قياسات مشوهة، ويجعل تواصله مع محيطه ملتبسا. ليتحول التعدد الإيجابي إلى تعدد متوحش. فإذا كان تدريس اللغة العربية جزءا من الالتزام ببنود الدستور، وإذا كان الانفتاح على اللغات الأجنبية ضرورة حضارية ومعرفية وتقنية، وإذا كان تدريس اللغات الوطنية تأكيدا لخصوصيات مميزة، فإن السياسة اللغوية، في عمومها، لم تستطع جعل مطلب الوطن فوق كل الاعتبارات الأخرى. ولم تستطع السياسة الرسمية تدبير الموضوع وفق استراتيجية شمولية ومشروع مجتمعي متكامل.

لنركز في هذا الباب على المواقف التي أدت إلى هذه الاختيارات، ثم نفحص مدى فعاليتها وفائدتها وديمقراطيتها. ولنخصص الحديث عن الأمازيغيات التي ولجت المؤسسة التعليمية، والتي كان مطلب تدريسها ملحا، وتحول إلى مطلب نضالي، لكنه لم يكن مقترنا بتصور شامل، لأن أهمية تحقق المطلب في نظر أصحابه سابق على الإجراء وأهم منه، لذلك كان الإسراع بتبني (تيفناغ) حرفا للكتابة كي تتوفر الأمازيغية على نظام إشاري يسمح لها بولوج المؤسسة التعليمية، وفي سبيل ذلك تم قطع الطريق أمام النقاش العمومي الذي كان يعمل على إنضاج الشروط العلمية لتبني الحرف الأكثر انسجاما مع تاريخ المجتمع، والأقل كلفة من الناحيتين التربوية والنفسية. ونحن نعرف أن الهدف من هذا الاختيار كان هو قطع الصلة مع الحرف العربي مما سيعيدنا لنقاش الهوية الذي ذكرناه سابقا.

تم إقرار حرف تيفناغ(23) ليتركز النقاش على المعيرة، أي تنميط لغة أمازيغية واحدة وموحدة لتكون لغة التدريس. وما أن تحقق مطلب التدريس حتى ارتفعت أصوات الاستنكار على شيء ينتقده من ساهم في وضعه. فقد تركزت المآخذ على تدريس الأمازيغيات بحسب جهويتها، وتمت

الدعوة إلى تدريسها في صورتها النمطية الموحدة. والحال أن هذه اللغة المعيارية لم تصنع بعد، إذ لا توجد الأمازيغة الموحدة، لحد الآن، إلا في ذهن الداعين إليها، علما بأن مشروعها ليس جديدا، فقد دافع عنه من يسميهم سالم شاكر (الرواد القبائل) منذ نهاية القرن التاسع عشر، حيث اعتبروا أن الأمازيغية موحدة وكل لهجة ما هي إلا متغيرة جهوية. لكن هذا الطموح لم يتحقق لاعتبارات علمية وحضارية ونفسية.

نعتقد أن هذه المعطيات تكشف عن ارتباك في التعامل مع الموضوع، ذلك أن المطالب لا تتماشى مع النتائج العلمية المتوصل إليها لحد الآن، فما دامت هذه اللغة المعيارية لم تنجز بعد، فما من سبيل إلا تدريس لغات الأم، حسب توزيعها المعروف، لأن ذلك أكثر توافقا مع مفهوم الوحدة في التنوع الذي جعلته الحركات الأمازيغية شعارا لها، كما أنه منسجم مع الميثاق الوطني للتربية والتكوين. وهنا تكمن إحدى مفارقات السياسة اللغوية بالمغرب، فإذا كان الميثاق قد خضع للتوافقات السياسية، ومر عبر القنوات القانونية والتشريعية، فإن قرارات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية أصبحت ملزمة دون أن تقطع المسار نفسه. ودون أن تبنى على مسوغات (المشروع المجتمعي المتكامل).

يبدو المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية إطارا تشريعيا للسياسة اللغوية الأمازيغية، وهذا الاختيار يجعل السياسة اللغوية تقرر خارج إطار المسؤولية الحكومية، كما أن تعدد المعاهد يجعلنا أمام كلفة مادية باهظة، إذ تتطلب العدالة اللغوية إنشاء معهد خاص بالحسانية، وآخر باللغات المغربية الأخرى. ثم التفكير في إطار موحد يقوم بدور التنسيق بين هذه المؤسسات المختلفة كي لا تتعارض اختياراتها فنصبح أمام تدبير لغوي مختل. ولعل ما يؤكد التعارضات، التي يمكن أن تقع بين اختيارات الدولة وهذه المعاهد، الانتقادات التي تعرض لها الكتاب المدرسي (تيفاوين أتمازيغت) بفروعه الثلاثة والذي اتهم الوزارة الوصية بلهجنة الأمازيغية، رغم أن الكتاب كان إصدارا للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية الذي يعد المسؤول الأول عن كل الاختيارات، ومعنى ذلك، أن المعهد شريك مثالي للوزارة، فهو يتوفر على سبعة مراكز للبحث والدراسة ضمنها مركز للبحث الديداكتيكي والبرامج التربوية، وآخر للتهيئة اللغوية، وهما المركزان اللذان ينبغي أن يساءلا عن كل ما يتعلق بالتدريس ولغته. وهذه المساءلة مشروعة لأن المعهد مؤسسة تمول من أجل إنجاز خدمات عمومية، والتخطيط لجزء من أجزاء الخريطة اللغوية بالمغرب.

هكذا تبدو هذه المفارقة دالة. فمن جهة، هناك تشريع متوافق عليه وطنيا. ومن جهة ثانية، هناك معاهد تشرع وتنفذ وفق اختياراتها وقوانينها المنظمة، مما يجعل التعارض ضرورة حتمية، فالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية هو من اختار حرف تيفناغ، ومنح الحرف العربي صفرا، وهو الذي

يشرف على إنجاز الكتب المدرسية، كما أنه يتوفر على الحماية القانونية والمؤسساتية، وتخصص له المنح المالية الكافية، ويخضع لهيكلة شاملة تضم : مركز التهيئة اللغوية، ومركز البحث الديداكتيكي والبرامج التربوية، ومركز الدراسات الأدبية والفنية والإنتاج السمعي البصري، ومركز الدراسات الأنتربولوجية والسوسيولوجية، ومركز الدراسات التاريخية والبيئة، ومركز الدراسات المعلوماتية وأنظمة الإعلام والاتصال، ومركز الترجمة والتوثيق والنشر والتواصل. ومركز بهذه الصفة يكاد يكون مشروع دولة داخل الدولة. حيث قدمت له الضمانات القانونية في صيغة ظهير، ومنح التسهيلات المالية التي تفتقر إليها الكثير من المؤسسات، مما سمح له باستقطابات متعددة في شكل تعاقدات فردية أو جماعية. وتبدو المقارنة صارخة عندما يتم التذكير بالتأخير الحاصل في تأسيس أكاديمية اللغة العربية التي أقرها الميثاق الوطني للتربية والتكوين منذ السنة الأكاديمية 2000، 2001.

7. الإعلام المغربي والسياسة اللغوية

يعكس الإعلام المغربي طابع التعدد اللغوي الذي يتميز به المغرب، جرائد مكتوبة بالعربية وأخرى بالأمازيغية، وثالثة بالفرنسية، وقنوات تلفزية متعددة اللغات تحتضن العربية والأمازيغية والفرنسية والإسبانية، وهيئة عليا للقطاع السمعي البصري تشرف وتهيكل وتقنن. وإذا كانت الصحف تعكس اختيارات لغوية يقتنع بها أصحابها، وتدخل في باب حرياتهم الشخصية، فإن لغة الإعلام العمومي تعكس الموقف الرسمي الذي يعكس الاختيارات الكبرى في مجال التدبير اللغوي، حيث تحضر الانتقادات ذاتها التي وجهت للسياسة التعليمية، غير أننا نعتقد أن هذا المجال بدوره لم يخضع لتقنينات محددة، وسياسة تدبيرية واضحة، وأنه يساير الأمزجة أكثر مما يساير القوانين. غير أن حكمنا هذا يحتاج إلى استدلالات وبيانات كي ينتقل من الملاحظة إلى البرهنة، وهو شيء لا ندعي التوفر عليه، إذ يحتاج إلى تراكم دراسات وأبحاث. لذلك ستقتصر ملاحظاتنا على وضع اللغة الأمازيغية في الإعلام العمومي. فقد مر التعامل معها بمرحلتين، مرحلة تم فيها إدخالها وفق صيغة تراعي الاختلافات الجهوية. ومرحلة ثانية سعت إلى تنميط هجين لما كان من قبل، حيث تقدم نشرة الأخبار، مثلا، بإحدى اللهجات، ويتم التعليق بأخرى، وهي صيغة تهدف إلى خلق الصلة النفسية بين الأمازيغي في الحسيمة (تريفت)، وفي خنيفرة (تمزيغت)، وفي تيزنيت (تشلحيت)، من أجل تجاوز معوق التعدد، وتعويضه بالوحدة. لكن الجانب الذي ينبغي التنبه إليه، هو ذلك المتعلق بالتمييز الإيجابي الذي يعطي الأولوية للهجة على حساب الأخريات، وهو ما يفسر تلك الخلافات العلنية التي برزت بين أعضاء من المعهد ينتمون إلى جهات مختلفة. وما يؤكد أن المعيرة ليست قرارا علميا فقط، بل هي قرار سياسي واجتماعي، يدخل في إطار الاستراتيجية العامة للدولة، ويحتاج إلى تصديق المواطن عليه بالوسائل الديمقراطية كي لا يقع له ما وقع لاختيار الحرف.

يحتاج وضع اللغات المغربية في الإعلام إلى استحضار زاويتين :

* الزاوية الأولى تشريعية تستند على ما تقره الهيئة العليا للاتصال السمعي البصري، وصيغة تحرير القطاع ستلقي بثقل المسؤولية على المطالبين بإعلام يعدل بين لغات المغرب، والإجابة عن تساؤلات تركز على وضع الأمازيغيات، من قبيل : ما اللغة التي سيخاطب بها المواطن ؟ هل سندخل نقاشا جديدا حول جهوية إعلامية أم ستقدم البرامج باللغة المعيارية التي سيصنعها المعهد ؟ وإذا تحقق ذلك فكيف سيتم التعامل مع الأمازيغي الأمي الذي سيفطم عن لغته الأم، مادام لم يتعلم هذه اللغة المعيارية ؟ وفي الإطار نفسه ينبغي التفكير في وضع اللغات الوطنية الأخرى (الدوارج المغربية والحسا نية)، بل والتفكير في وضع اللغات الأجنبية التي تحظى ببرامج ثقافية واقتصادية ونشرات أخبار وتوفر لها إمكانات تضمن جودتها التقنية والمضمونية.

* الزاوية الثانية مؤسساتية، تقع مهمتها على المعهد الذي يضم مركزا للدراسات الأدبية والفنية والإنتاج السمعي البصري، ومركزا للدراسات المعلوماتية وأنظمة الإعلام والاتصال، إذ عليه أن يوفر مواد الإنتاج الأدبي والفني والدرامي، والمساهمة في التأطير، والإشراف على الإنجاز، وهذا ما يحمله مسؤوليات أخرى، ينبغي الحرص على تتبعها، وتقويمها.

8. الدستور المغربي والسياسة اللغوية

بينا في الفقرات السابقة طبيعة السياسة اللغوية المتبعة في ميدان التعليم والإعلام، وربطنا ذلك كله بتصور يرى أن قضايا الهوية تقع في صلب هذا النقاش وتوجهه، وأنها محدد أساسي في الاختيارات التشريعية كذلك، والتي يجسدها الدستور باعتباره أسمى وثيقة قانونية. فما الكيفية التي طرح به الدستور المغربي هذا الجانب ؟ وهل يمكن فعلا تحقيق عدالة لغوية بترسيم لغات متعددة في دستور واحد ؟ وما العمل مع اللغات المغربية المتعددة ؟ هل يتم ترسيم الأمازيغيات الثلاث والحسا نية والدوارج المغربية والعبرية ؟ وما وضع اللغة العربية الفصحى ؟.

اختار الدستور المغربي اللغة العربية لغة رسمية للبلاد، ونص على ذلك في ديباجته. لكن الدساتير وضعت لتتوافق مع ما يرتئيه المواطنون، ولذلك وجدت آليات لتعديل فصولها أو لطرح بدائل، وهو شيء عرفه المغرب الذي مرَ بدساتير 1962 و1992 و1996. وما يمكن أن يحدث مستقبلا من تعديلات أو تغييرات جوهرية تستجيب لمطالب وضرورات سياسية واجتماعية، أو لغوية. هكذا يتعرض الدستور المغربي لانتقادات متعددة تركز على الاختيار اللغوي الذي نصت عليه الديباجة، والذي اعتبر إخلالا بالعدالة الغوية والديمقراطية اللسانية، وهو ما نجده بارزا في الكثير من الخطابات التي تدعو إلى دسترة الأمازيغية باعتبارها لغة رسمية ووطنية. غير أن هذا المطلب ليس جديدا، فنحن نجده مسطرا في ميثاق أكاد ير (5 غشت 1991) بصيغة المطلب الوطني،

الذي يدعو إلى اعتبار الأمازيغية لغة وطنية إلى جانب العربية، والمطلب نفسه نجده في النص الرسمي لرسالة الجمعيات الثقافية الأمازيغية الموجهة إلى الديوان الملكي في يونيو 1992 (24). والتي تحدثت عن المساواة مع اللغة العربية في الدستور، واعتبرت الهوية المغربية ثلاثية الأبعاد، (إسلامية، أمازيغية، وعربية). إضافة إلى ذلك، تحفل الكثير من الأدبيات الأمازيغية بهذا المطلب الذي يأخذ اتجاهات أخرى، إذ يرى البعض أن (اللغة الأمازيغية... هي المواطنة الأولى في أرضنا، وهي الكائن الوحيد غير المشكوك في انتمائه لوطننا وارتباطه الدقيق به)(25)، بل إنها (لغتنا الوطنية الأزلية)(26). هكذا نصبح أمام ثنائية جديدة هي (اللغة الوطنية الطبيعية واللغة الوطنية المكتسبة(27). غير أن قانونيا أمازيغيا يقدم قراءة خاصة لوضع اللغة دستوريا، فهي تكون رسمية (كما هو شأن العربية في الدستور المغربي) عندما يتم الإقرار بأجنبيتها، لأن المصطلح يستعمل في (دساتير الدول التي تحكمها حكومات استعمارية، فمثلا اللغة الفرنسية في السنغال هي لغة رسمية، فأغلبية الدول الإفريقية التي تستعمل الفرنسية أو الإنجليزية أو الأسبانية يوضع في دساتيرها لغة رسمية، والمغرب استعمل بالنسبة للغة العربية لغة رسمية ولم يستعمل مفهوم اللغة الوطنية، لأن اللغة الوطنية تفرض فعلا أن تكون منبثقة من الوطن، ومن ثم كان مطلب الجمعيات الثقافية الأمازيغية اعتبار الأمازيغية لغة رسمية ووطنية... لأن اللغة الوطنية ترتبط بالشعب الذي يستعملها فلا تكون لغة رسمية فقط حتى لا تشبه الفرنسية في دول أخرى، ولغة وطنية لأنها ترتبط بالشعب ولأنها لغة أصلية في البلاد)(28)

يدافع ظاهر الكلام عن الأمازيغية التي لم يتم تعييرها بعد، ويكشف باطنه عن ضرب العربية الرسمية التي تصبح (أجنبية واستعمارية)، والتي اقترن التقنين لها، حسب الخطاب الأمازيغي، بفترة الاستقلال، لأن التعريب كان يهدف ضرب الأمازيغية. وهو حكم قاد إلى تقديم تحليلات تغيب تاريخ القانون بالدفاع عن طرح يرى في دستور 1962 المدخل إلى التعريب، وتجاهل مشروع دستور 1980 الصادر في عهد المولى عبد الحفيظ، والذي نص في مواده المختلفة على المعرفة بالعربية قراءة وكتابة، كي يتسنى للإنسان التوظيف أو ولوج مجلس الأمة، وضرورة التدريس بالعربية. ومعنى ذلك أن هذا المشروع، الذي لم ينفذ، كان مسايرا لروح الأمة وتاريخها، ولم يكن اغترابا أوإحساسا بالدونية، مثلما أن وضع اللغات الرسمية في الدساتير الكونية لا يتعلق بموقف سلبي من حقوق الإنسان، وإلاكيف نفسر اعتماد الأمم المتحدة على ست لغات رسمية من بينها العربية، وهي المنظمة التي تضم 192 دولة ؟. إن التفسير العملي لذلك هو أن هذه اللغات وظيفية، إنها لغات العمل والفاعلية الجهوية والدولية.

صحيح أن بعض الدول تعتمد رأسين لغويين رسميين، لكن ذلك خضع لمسار طويل، ونقاش مجتمعي مسهب جعل الاختيار مرتبطا برهانات اقتصادية واجتماعية، إذ التعدد في ذاته ليس هدفا،

بل وسيلة لخدمة غايات أكبر. فهل توجه هذه الخلفيات المطالبين برسمية الأمازيغية ؟

يرتبط الجواب عن هذا السؤال من خلال ملاحظة عدم ربط المطالب بتصور شمولي تنموي واجتماعي، حيث تصبح الدعوة إلى الترسيم هدفا في ذاتها، لذلك نفهم أسباب الإسراع باتخاذ قرار الحرف، والإسراع في تدريس الأمازيغية، والإسراع في تهييئ كتب التعلم. وهذه الهرولة جعلت المعالجات غير حقيقية لمشاكل حقيقية. لهذا كله ينبغي أن يخضع مطلب الدسترة لنقاش عميق مقيد بالمصالح العليا للوطن، متجنب للهرولة الهالكة. ذلك أن مبدأ المطالبة والانتقاد للسياسة اللغوية مبدأ سليم، لأنه حق من حقوق المواطن، لكن الإجراءات المطلوبة غير موضوعية وليست إجرائية.

لذلك نعتقد أن الاعتراف بالأمازيغيات كلغات وطنية أمر واجب، لكنه ينبغي أن يتم إلى جانب الدوارج المغربية والحسانية، وأن تكون العربية الفصحى اللغة الرسمية للبلاد، وذلك للاعتبارات التالية :

* اعتبار لغوي واجتماعي، فالعربية ليست لغة لفئة محددة، إنها ليست لغة الأم، لذلك فهي متعالية على صراع الورثة. بينما اللغات الأخرى تخضع لاعتبارات جهوية ومحلية، وهي لغات الأم التي ينبغي ألا تخضع لتمييز ايجابي لبعضها دون بعض. وهذه الاعتبارات لا تهدد النسيج الاجتماعي، بل تقويه.

* اعتبار اقتصادي، ذلك أن اعتماد لغتين رسميتين يكون مكلفا ماديا واجتماعيا، ويكفي أن يطلع الإنسان على التجربة الكندية ليقف على مقدار الصعوبات المالية التي تستنزفها.

* اعتبار حضاري، فقد كانت العربية الفصحى دوما لغة رسمية، ولم يحس المواطن تجاهها بأي اغتراب، ولم تحصل بسببها حروب لغوية مثلما حدث لدى أمم أخرى، ولم تقف حاجزا أمام الأمازيغية أو الحسانية أو العبرية بدليل استمرارها حية إلى الآن.

* اعتبار قانوني، يضمن للأمازيغية الحماية الضرورية عن طريق الاعتراف بوطنيتها التي لا يجادل أحد فيها، كما ينبغي ضمان الحماية القانونية للدوارج المغربية والحسا نية كي لا تنمو غدا مطا لب أخرى خارج دائرة المجال الوطني، وكي تتحقق العدالة اللغوية الضامنة لسلم لغوي مستدام.

9.الهوية المغلقة والهوية المركبة (29)

تندرج الجوانب السابقة ضمن مفهوم أعم ؛ هو الهوية باعتبارها الأساس الذي تُبنى عليه الاختيارات السياسية والبيداغوجية واللغوية. لكن هذا المفهوم لا يخضع لتصور أحادي، بل يتنوع

بتنوع خلفيته المرجعية، إذ يمكن اختزاله في إطارين واسعين. يجد الإطار الأول مرجعيته في الأنساق المغلقة التي تعتبر الهوية كيانا ثابتا، أُغلق دخله وخرجه، لأنه تشكل عبر سيرورة الزمن، وأصبح جوهرا لا يتغير ولا يرتفع. لا يقبل النقائض، ولا يحتويها. وقد عبرت الفلسفة الألمانية عن ذلك خير تعبير من خلال نموذجها الرومانسي الممثل تاريخيا في الرايخ الثاني، والرايخ الثالث. بينما يجد الإطار الثاني مرجعيته في الأنساق المفتوحة التي تعتبر الهوية مسارا دائما، يغتني بانفتاحه على الأنساق الأخرى، حيث تكون الأمة مستعدة لتعديل مكونات هويتها، وإعادة تجديد تعاقداتها، بما يضمن لها التفاعل والتناغم. بين هذين الطرفين تقع الوسائط التي نؤمن بها، ونعتبرها الأساس الذي ينبغي أن تُدمج فيه الأمازيغية وغيرها، إذ ليست الأمازيغية وحدها صاحبة مطلب الإضافة، فهناك تعدد لغوي يحتاج إلى تدبير عقلاني وديمقراطي، فنسيجنا الاجتماعي مشكل من لغات وطنية متعددة. فإذا كانت الهوية الثقافية سابقة على الهوية السياسية ومؤسسة لها، فإن مراعاة مكوناتها هو المدخل الأسلم لضمان مسار قويم. وعليه، فما الإطار الأنسب لهوية مغربية متوازنة ؟. إن الإطار الأنسب هو ذلك الذي يجعلها هوية مركبة، منفتحة باعتدال، إذ تقبل الاغتناء والإضافة عن طريق التكييف والتمثل، لا القطائع التي تكون نتائجها وخيمة على المجتمعات. ومعنى ذلك أن هذه الهوية ليست مغلقة، لكنها ليست منفتحة انفتاحا متسيبا، لأن ذلك سيعرضها للتلاشي والزوال لعدم توفرها على مناطق جذب وثوابت بنيوية تضمن لها الاستقرار والحيوية في الوقت نفسه.

انطلاقا مما سبق، يمكن إعادة معالجة مطلب الدسترة الذي يفسر الإصرار على معيرة الأمازيغية، ومهاجمة العربية، والمطالبة بجعل الأمازيغية لغة رسمية ووطنية، وهي مطالب يعني الأخذ بها فتح الباب أمام اللغات الأخرى أيضا. فما الذي سيمنع عن الحسانية والدوارج المغربية رسميتها ووطنيتها ؟. وما اللغة الموحدة المتعالية على الانتماءات بمختلف أشكالها ؟. لاشك أن العربية الفصحى تمتلك هذه الصفة، لأنها ليست لغة لمنطقة أو لفئة أو عشيرة. إنها ليست لغة الأم، لذلك فهي متعالية على صراع الورثة. وهي الثابت البنيوي، ومنطقة الجذب القادرة على ضمان استمرار النسق الشامل، المتفاعل مع غيره من الأنساق الأخرى، حيث تكون الهوية تاريخية وتعاقدية، أي أنها أنساق شبه مفتوحة تصهر الأطراف الحادة وتضمن تفاعلها وتناغمها، لأن المجتمع يقبل بها في حدود الوظائف التي تنجزها، ذلك أن اختلاف الأسس الأنطلوجية يعوض بالجامع الوظيفي الذي يستجيب لحاجات الإنسان والأوطان.

هوامش :

1- الميثاق الوطني للتربية والتكوين (1999).

2- شفيق، محمد (2000)، لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين. منشورات الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي. ط. 2.

3- المرجع نفسه، ص. 88-97.

4- العروي، عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي.

5- شفيق، محمد، (2000)، ص. 90.

6- المرجع نفسه، ص. 94.

7- المرجع نفسه، قارن هذا الحكم بالحديث عن عبد المومن الذي عرب عن غير قصد، كي تلاحظ وجه التناقض..

8- عصيد أحمد، (1998)، الأمازيغية في خطاب الإسلام السياسي، منشورات الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي، ط. 1، ص. 105.

9- شارل أندري جوليان، 1969، تاريخ إفريقيا الشمالية. تعريب محمد مزالي والبشير سلامة. الدار التونسية للنشر. ص. 248.

10- حاييم الزعفراني، 2000، يهود الأندلس والمغرب، ترجمة أحمد شحلان. مرسم الرباط. ط. 1. ج. 1. ص. 85.

11- المرجع نفسه.ص. 28.

12- المرجع نفسه.ص. 59.

13- علي صدقي أزايكو، 2004، نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. الرباط. ص 92.

14- علي صدقي أزايكو، 2002، الإسلام والأمازيغ، دار أبي رقراق. الرباط. ص.ص 18-19.

15- أصدرت الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي سنة 2000 كتابا بعنوان (الأمازيغية في ميثاق التربية والتكوين أو سياسة الميز اللغوي) يتضمن رسائل مرفوعة إلى عدة جهات رسمية، وبيانات منتقدة لمواقف حزبية ومستنكرة لعمل الحكومة، ثم قراءات في الميثاق الوطني للتربية والتكوين.

16- محمد عابد الجابري، مجلة عالم التربية، العدد 4 (1996). ص. 17.

17- الشامي، (1998) في الأمازيغية الآن، ص. 68.

18- نفسه.

19- عبد الله بونفور، 1997، عقدة اللغة، مجلة الهوية، العدد 10. ص 16.

20- سالم شاكر، الأمازيغ وقضيتهم في بلاد المغرب المعاصر، 2003 ترجمة حبيب الله منصوري، دار القصبة. الجزائر. ص.ص 20-21.

21- يراجع كتاب المكي المروني، الإصلاح التعليمي بالمغرب (1965-1994)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط (1996) فهو يتضمن معطيات ضافية حول الموضوع.

22- الميثاق الوطني للتربية والتكوين،البند 115، ص 52.

23- تم إقرار حرف تيفناغ في شهر فبراير 2003 من طرف المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية حرفا لكتابة الأمازيغية.

24- انظر رسالة الجمعيات الثقافية الأمازيغية إلى الديوان الملكي بتاريخ 22 يونيو 1996 المنشورة ب "أمزدي" ع. 3 غشت 1996.

25- الصافي مومن علي (1998)، الأمازيغية تحاور الوزير الأول. منشورات الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي. ط. 1. ص. 73.

26- المرجع نفسه، ص. 75.

27- المرجع نفسه، ص. 74.

28- الدغرني، أحمد (1997)، مجلة الفرقان. ع. 38. ص.ص. 81-82.

29- تناولنا هذا الموضوع بتفصيل في مقال بعنوان : أنساق الهوية المغربية : البنيات والوظائف. مجلة الآداب البيروتية، ع 3-4-5، السنة 53. 2005. ص.ص 68.

ARCHIVE

الوضع اللغوي بالمغرب بين الطابع الوطني والرسمي والجهوي

محمد غنايم

يستعمل الأشخاص اللغة للتعبير وتبادل المعنى وإظهار استقلالية مجموعتهم السياسية، والترميز لعشيرتهم القومية أو الاثنية...)، ويتميز الواقع اللغوي المغربي بالتعدد الذي يفرض وجود لغة تقوم بدور الجسر بين اللغات المختلفة، واللغة المؤهلة موضوعيا وذاتيا للاضطلاع بهذه المهمة هي **اللغة العربية الفصيحة**.

إن الافتراض الذي نود طرحه، هو أن هناك **مسوغات نظرية وتجريبية** لاعتبار اللغة العربية لغة وطنية ورسمية، وأن ظلال هذا الطرح هو وجود **لغات جهوية ومحلية ومساعدة**.

سنفترض أن هناك ثلاثة مسوغات لاعتبار العربية لغة وطنية ورسمية، والمسوغات هذه هي : **المسوغ القانوني**، و**المسوغ السوسيولساني**، و**المسوغ السوسيوثقافي**، وقبل روزها، سنعمل في الفقرة الموالية على الحديث عن المقصود باللغة الرسمية ـ والوطنية، واللغة المحلية ـ الجهوية، ثم اللغات المساعدة.

1. اللغة الوطنية والرسمية.

إن اللغة الوطنية لغة يتم تبنيها بوصفها لغة رسمية من لدن دولة ما، ويتم تلقينها للساكنة على المستوى الوطني برمته. والمعطى التجريبي الذي يزكي ذلك هو العربية، وذلك بمقتضى سمات محايثة لها سنعرض لها لاحقا.

أما اللغة الرسمية، فهي لغة السلطة، ولغة وظيفة الدولة، ولغة المدرسة، والإعلام...، واللغة القائمة بربط وبنسج العلاقات مع مختلف الجهات، ولغة الدستور.

2. اللغة المحلية والجهوية.

إن اللغة الجهوية لغة مستعملة من لدن جزء من السكان في جزء ترابي معين في دولة ما. وتتميز اللغة الجهوية عن اللغات الأخرى المستعملة من لدن سكان البلاد، وهي لغة تتحدث بها مجموعة ما في تراب معين من التراب الوطني لدولة ما. ويحيل التراب الذي تستعمل فيه هذه اللغة إلى منطقة جغرافية التي يتم التعبير في إطارها عدديا وكميا بواسطة هذه اللغة الجهوية، والمعطى التجريبي الذي يمثل هذا الوضع هو الأمازيغيات المغربية والعربيات المغربية.

3. اللغات المساعدة.

اللغات المساعدة هي اللغات الأجنبية المتمثلة في : الفرنسية التي ما زالت تستعمل في بعض المصالح الإدارية، والمرافق التجارية، والقطاع الخاص...، واللغة الإنجليزية التي تعتبر لغة التبادل العالمي، ويتم الاعتماد على هذه اللغات بوصفها لغات تستطيع سد حاجيات اللغة الرسمية في القضايا المتعلقة بالمجالات التقانية والمعرفية.

4. السياسة اللغوية.

يتم النظر إلى السياسة اللغوية من منظور تحديد الاختيارات الكبرى بخصوص العلاقات بين اللغات والمجتمع، وتصريفها عمليا ضمن تخطيط لغوي، وتشير عبارة السياسة اللغوية إلى اختيارات وأهداف دولة ما بخصوص تدبير وضعها اللغوي.

1.4. التجليات القانونية للوضع اللغوي في بعض الدول :

ينخرط الوضع الدستوري للغة الوطنية ـ الرسمية في هيكلة المجتمع بواسطة القانون. وبالمعنى الدستوري فإن "اللغة الوطنية" هي لغة الأمة أو الشعب. واللغة الرسمية هي لغة الدولة المستعملة من لدن إدارتها، ولغة المرافق العمومية.

ويشير **كي هيرو** Guy Hraud إلى أن أول ظهور دستوري للتمييز بين اللغة الوطنية واللغة الرسمية قد ورد في الدستور الإرلندي (1937) الذي أشار الفصل الثامن منه إلى أن "اللغة الإرلندية بوصفها لغة وطنية، فإنها اللغة الرسمية الأولى، وأن الإنجليزية تعد اللغة الرسمية الثانية".

وفي نفس الفترة، قامت **سويسرا** بمراجعة دستورية بغية إقحام أربع لغات وطنية (الألمانية، والفرنسية، والإيطالية، والرومانش)، وثلاث لغات رسمية. وفي سنة (1999) تمت مراجعة الدستور، حيث اعتبرت الرومانش لغة رسمية كذلك.

ويقر الدستور **الفنلندي** (1999) بأن الفنلندية والسويدية بمثابة لغتين وطنيتين، مع ترك حرية الاستعمال العام لكل من اللغتين، ويكرس هذا ضمنيا ازدواجا لغويا رسميا.

وتحاول الدول حماية وضع لغتها الرسمية أو الوطنية عبر مأسستها تشريعيا، وتأطيرها بواسطة مجموعة من القوانين : ففرنسا مثلا أقرت سنة (1992) بأن **الفرنسية** لغة الجمهورية الفرنسية، ويعكس هذا الموقف الطبيعة الرمزية للغة، وضرورة موقعتها في نفس مستوى الرموز الثقافية الأخرى.

ولقد أقر وزير الثقافة جاك توبون سنة (1994) بضرورة استعمال الفرنسية في المجالات الستة التالية : (التربية، والتجارة، والإعلام، والأماكن العامة، والمصالح العمومية، والندوات الصناعية) على الرغم من الألسن العديدة المستعملة من طرف المواطنين في التراب الفرنسي، من قبيل : (اللهجة الألمانية بالألزاس، والباسكية، والبروطون، والكطلانية، والكورسية، والفلامية الغربية، والأوكسيطونية، والعربية الدارجة، والبربرية، والإيديش، والأرمينية الغربية...).

ويشير الدستور **البلجيكي** إلى أربع لغات جهوية (الفرنسية، والجرمانية، والفلامية ، وجهة الازدواج اللغوي بالنسبة للعاصمة بروكسيل)، وثلاث مجموعات لسانية (الفرنسية، والجرمانية، والفلامية).

وفي نفس السياق، يمكن الإشارة إلى أن **لكندا** ثلاث لغات رسمية (الإنجليزية، والفرنسية، والإنكتكوت)، ولليكسمبورغ لغة وطنية (الليكسمبورغية)، ولغة التشريع (الفرنسية)، وثلاث لغات إدارية وقانونية (الألمانية، والفرنسية، والليكسمبورجية).

ويقر دستور **إسبانيا** بأن الكاسطيان هي اللغة الرسمية للدولة، وأن الألسن الإسبانية الأخرى رسمية في المجموعات الترابية المستقلة، بمعنى ترسيم الألسن جهويا.

ويمكن الإشارة كذلك، إلى ترسيم بعض الدول **الإفريقية** للغة قانونيا، **فبنين** مثلا تقر بأن اللغة الرسمية هي الفرنسية، وتتمتع كل الطوائف والجماعات المكونة لأمة بنين بحرية استعمال لغاتها

وبتطوير ثقافتها مع احترام ثقافات الآخرين، كما يجب على الدولة تطوير تنمية اللغات الوطنية. وتقر **بوركينا فاصو** بأن اللغة الرسمية هي الفرنسية، ويحدد القانون طرق نشر وإنعاش وترسيم اللغات الوطنية. وتذهب غينيا إلى أن اللغة الرسمية هي الفرنسية، وتضمن الدولة إنعاش ثقافات الشعب الغيني ولغاته. وتقر **السينيغال** أن اللغة الرسمية للجهورية هي الفرنسية، وأن اللغات الوطنية هي : ديولا، وملينكي، وبلار، وسيرير، وسونيكي، والولوف.

بعد هذا العرض للتجليات القانونية للوضع اللغوي في بعض الدول الأوروبية والإفريقية، سنذهب في الفقرة الفرعية الموالية إلى أن مسوغات اعتبار العربية لغة وطنية ورسمية هي :

- مسوغات قانونية،
- مسوغات لسانية ـ سوسيولسانية،
- مسوغات سوسيوثقافية.

2.4ـ المسوغات القانونية

تتجلى قرائن المسوغات القانونية في الإطار الدستوري لترسيم اللغة، وفي الإطار المؤسساتي للوضع اللغوي.

1.2.4ـ الإطار الدستوري لترسيم اللغة

تؤكد كل تصديرات الدساتير المغربية (1962، 1970، 1972، 1992، 1996) على أن اللغة الرسمية للمملكة المغربية هي اللغة العربية، حيث جاء في تصدير آخر دستور صادر بتاريخ 1996/10/07 ما يلي : "المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيادة كاملة لغتها الرسمية هي اللغة العربية وهي جزء من المغرب العربي الكبير".

2.2.4ـ الإطار المؤسساتي للوضع اللغوي

سنقوم بالتطرق إلى أبرز الأحداث خلال عقد من الزمن بخصوص الوضع اللغوي، وأبرز حدث يمكن تسجيله خلال هذه الفترة ما يلي :

– خطاب المرحوم صاحب الجلالة الحسن الثاني 20 غشت 1994 الذي جاء فيه ذكر لفظ اللهجات التي تعد من مقومات أصالتنا، وإيجاد حصص لدراسة لهجتنا على الأقل في التعليم الابتدائي، وإدخال تعليم اللهجات، واعتبار المغرب ملكية دستورية دينها الإسلام ولغتها اللغة العربية.

– خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس (2001/08/30) جاء فيه : احترام تنوع الخصوصيات الثقافية الجهوية، واعتبار التعددية التي بنيت على روافد متنوعة (أمازيغية، وعربية، وصحراوية إفريقية، وأندلسية)، والإشارة إلى أن **الميثاق الوطني للتربية والتكوين** قد رسم الإطار العام لسياسة لغوية واضحة...، والإشارة إلى إحداث المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية...

– خطاب أجدير القاضي بإنشاء المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، حيث أشار صاحب الجلالة الملك محمد السادس إلى إحداث وتنظيم المعهد عبر إشراف ممثلي مختلف المكونات، وأن الأمازيغية ملك لكل المغاربة بدون استثناء، وأنها مكون أساسي للثقافة الوطنية، وأن النهوض بها مسؤولية وطنية...

– الظهير الشريف المحدث للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية (2002).

– الميثاق الوطني للتربية والتكوين (1999).

– قانون إنشاء أكاديمية محمد السادس للغة العربية (2003) والتي ستمثل "... السلطة المرجعية العالية التي تتسم بجودة متميزة في أعمالها وقراراتها. وهي في نفس الوقت الأداة الفاعلة الساهرة على التخطيط والتنفيذ والتقويم والتعاون من أجل تجاوز الاختلالات، وتحقيق المشروع التربوي والعلمي والثقافي الوارد في الميثاق الوطني للتربية والتكوين، وأداة للنهوض باللغة العربية بصفة عامة، والمعرفة والثقافة التي تروج بها" الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري (89.2003) **اللغة والبيئة،** منشورات الزمن، الدار البيضاء.

3.4ـ المسوغات السوسيولسانية

إن المسوغات السوسيولسانية لاعتبار العربية لغة وطنية ورسمية هو ما يعكسه الوضع اللغوي بالمغرب، حيث إن تأثيث البيت اللغوي المغربي بكل فضاءاته يستوجب القيام بدراسة للخريطة اللسانية بالمغرب أفقيا وعموديا، والتي ستثبت أن هذا الحقل منمط تقريبيا من الناحية السوسيولسانية على الشكل التالي :

ـ **اللغة العربية الفصيحة،**

ـ **العربية الوسيطة** : عربية الصحافة والمثقفين،

ـ **العربيات المغربية** : عربية الحاضرة، وعربية البادية، وعربية سهول المحيط، والحسانية، وعربية الواحات...

ـ **اللهجات البربرية المغربية** : التمزيغت، والتريفيت، والتشلحيت،

ـ **اللغات الأجنبية** : الفرنسية، والإسبانية، والانجليزية...

وانطلاقا من هذا الوضع اللغوي التقريبي، فإن الاحتمالات الممكنة لتدبير هذا التعدد هو :

* تنمية لغة جهوية : نموذج السواحلية في طانزانيا،

* إعطاء الأولوية للغة أجنبية : نموذج بعض الدول الإفريقية،

* تبني سياسة مختلطة عبر تبني لغة محلية وأجنبية : الهند،

* البحث عن لغة وطنية للقرب والتقريب بين اللغات المختلفة، مع تبني لسياسة التعدد اللساني على أن تتبوأ لغة ما مكانة لغة الفدرلة، وصنع التوازن اللسان، وخلق الأمن اللغوي.

إن ما يمكن استخلاصه، هو أن الوضع الراهن (ق 21) يعكس أن الخريطة اللغوية والبشرية بالمغرب قد تغيرت عن مثيلتها في القرون الأولى قبل مجيء الإسلام أو بعده إذا ما استحضرنا الحس التاريخي. ويمكن مقارنة تغير الوضع الجيولساني في المغرب بالوضع الجيو لساني في فرنسا، والقارة الأمريكية، وأستراليا... الذي عرف تغيرا جذريا.

لذا، فالوضع اللساني يوضح أن اللهجات العربية المغربية (الدوارج) واللهجات البربرية (بمكوناتها الثلاثة) لغات الاكتساب الأولى بالنسبة لمجموعة من مستعمليها المغاربة والمغربيات، أي لغة ـ لغات الأم.

أما العربية الفصيحة، فتشكل لغة الاكتساب الثانية للعديد من المغاربة والمغربيات الذين تلقوا تعليمهم في المدارس العمومية، ويعني ذلك أنها ليست لغة أي فئة أو مجموعة ثقافية أو إثنية أو عرقية لمواطني ومواطنات جهات المغرب، وهذا ما يؤهلها لكي تكون **اللغة الوطنية والرسمية نظرا لوظيفة التوازن السياسي والديني والاجتماعي والثقافي** الذي توفره في محيط مطبوع بالتعدد والتنوع، وأن تكون **العربيات المغربية** (عربية سهول المحيط الأطلسي ـ الغرب، والشاوية، ودكالة، وعبدة، ووورديغة...ـ، وعربية الحاضرة، وعربية البادية، وعربية الواحات، والعربية الحسانية...)، **والبربريات المغربية** (تريفيت، وتشلحيت، وتمزيغت) **ألسن جهوية، بحكم وسائطية وخصوصية تداولها،** مع النظر إليها بوصفها تعبيرا عن الغنى والثراء الثقافي للمغرب، ومكونا من مكونات التراث الثقافي الوطني.

ويمكن في هذا السياق، توظيف رائز الكلية والخصوصية في ضبط الوضع اللغوي بالمغرب أو اللغات المغربية، فرائز **الكلية** يؤهل **العربية الفصيحة** للاضطلاع بهذا الدور، بمقتضى سمات محايثة لها، وهي أنها ليست لغة (طائفة أو جهة أو فئة أو عرق)، على اعتبار أن الخاصية السالبة لهذه السمات تؤهل **العربية** للقيام بدور لغة التداول الشامل، وهذا ما يسوغه رائز السمات الموجبة

التالية:

لغة [+ وطنية]،
لغة [+ ثقافة/دين]،
لغة [+ رسمية/الدولة/دستور]،
لغة [+ اكتساب ثانية].

أما رائز **الخصوصية** ، فيحدد السمات التالية **للألسن المغربية** (العربيات المغربية والبربريات) :

لغة [+ جهة]،
لغة [+ محلية]،
لغة [+ فئة]،
لغة [+ أم/اكتساب أولى]،
لغة [– وطنية]،
لغة [– دين]،
لغة [– رسمية].

وهكذا، فإن ما يمكن استنتاجه انطلاقا من هذه الروائز، هو أن اللغة المؤهلة لضبط إيقاع التوازنات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية بين الألسن المغربية هي : **اللغة العربية الفصيحة**، وذلك بمقتضى توفرها على سمة سالبة بخصوص (المحلية والجهوية والعرقية)، وتضمنها لسمة موجبة فيما يتعلق بخاصية (الوطنية والدينية والرسمية)، **مما يؤهلها للعب وظيفة التواصل الأفقي والعمودي، وضبط الإيقاع السوسيوثقافي للتوازنات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية بين اللغات المغربية، وتدبير أبعاد الهوية المغربية المركبة.**

4.4. المسوغات السوسيوثقافية

سنعالج الوضع اللغوي بالمغرب عبر روز المتغيرة اللسانية ذات الوضع الأمثل لإرضاء المبادئ التي سنتطرق إليها، وذلك في سياق إيكولوجية لغوية تدرس العلاقات بين الألسن ومحيطها، ثم بين هذه الألسن والمجتمع. ويتعلق الأمر إذن بإدماج الألسن في محيطها الاجتماعي عبر التمفصل بين الحالات والممارسات والتمثلات.

إن الطرح الذي نقترحه هو أن العربية الفصيحة تساعد على فحص سمات المبادئ التالية المراد اقتراحها :

- مبدأ الفدرلة وصنع التوازن الاستراتيجي،

- مبدأ الأمن اللغوي،
- مبدأ المخيال اللساني،
- مبدأ الاقتصاد.

1.4.4- مبدأ الفدرلة وصنع التوازن الاستراتيجي

إن التعريف الذي نقترحه **للغة الفَدرلة** هو : أن يقوم مستعملو مجموعة من اللغات واللهجات المتباينة والمختلفة من حيث الاستعمال، بطريقة إرادية أو غير إرادية في محيط لغوي معين، بالتنازل عن بعض المهام والوظائف والمجالات للغة تقرب بين المتكلمين، وتستطيع أن تنسج علاقة تواصلية بينهم، وتقوم بالتعبير عن الفكر لديهم، وتضبط إيقاع التوازنات الاستراتيجية (الاجتماعية، والروحية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية)، وتضطلع بدور التبادل اللغوي عندهم من زاوية أفقية وعمودية ضمن حقل أو فضاء لغوي مطبوع بالتعدد اللساني، وذلك لأسباب وظيفية وإجرائية وعملية وبراغماتية. وبناء على هذا التعريف، نفترض أن المتغيرة اللسانية المؤهلة في سوق الاستعمال اللغوي للاضطلاع بذلك هي العربية بوصفها لغة السلم الثقافي في محيط مطبوع بالتعدد اللغوي والتنوع الثقافي، ومسوغات ذلك، تتجلى في كونها ليست لغة فئة خاصة أو جماعة لغوية معينة أو عرقية خاصة أو اثنية ما، وليست لغة الأم لأي مكون اثنوثقافي معين، بل لغة الأمة بأجمعها، وملك للجميع بحكم إرث التاريخ ورهان الحاضر، وأداة التقريب بين ما هو مختلف ومتعدد ومتنوع.

2.4.4- الأمن اللغوي

إن غياب **الأمن اللغوي** بمثابة وضع هوياتي يدرك من خلاله متكلمو لغة معينة أن صيغة الأداة المعطاة لا توحدهم ولا تجنبهم الإخلال بالأمن اللغوي، كما لا تستطيع خلق التوازن.

لذا، نقول إن العربية توحد على مستوى المخيال اللساني، ومن خلال استعمالها يمكن التأصيل للاختلاف والتعدد اللغويين ضمن الاستراتيجية المتفاعلة للوحدة ضمن التعدد، والتعدد في سياق الوحدة ، وذلك اجتنابا للتمزيق والعنف الرمزي داخل النسيج الثقافي المركب نفسه، ويستند هذا الدور إلى مبدأ الاستقرار المستغني عن العنف، ومبدأ الحوار المستند إلى العلاقة الأفقية، والمبتعد عن العلاقة العمودية، والقائم بمأسسة ثقافة الحوار ضد الصراع.

3.4.4- المخيال اللساني

تقتضي المعرفة العميقة للاستعمالات والسلوكات السوسيولسانية الأخذ بعين الاعتبار التمثلات لدى الناس عن استعمال اللغة ووظائفها، ثم موقفهم من المنتوج اللغوي المعروض في السوق اللساني.

إن **المخيال اللساني المغربي** هو مجموع التمثلات والتصورات والصور الذهنية والمواقف والآراء والرموز... التي نسجها الفرد والمجتمع في إطار تفاعل متبادل بطريقة واعية أو غير واعية عبر التاريخ بخصوص الوضع اللغوي بالبلد، والخريطة اللسانية المطبوعة في ذهنه، ثم سلميتها في سوق المبادلات الرمزية محليا ودوليا. ويمارس هذا المخيال اللساني فعله الرمزي في مجال التمثل، وفي سياق العمل السوسيوثقافي للمجتمع، كما يتوفر على دور وثقل في تأجيج الصراع اللغوي داخل نفس الفضاء الجغرافي الاجتماعي، أو في خلق الاتصال.

وعليه، فإن التصور التقريبي السائد هو :

- أن هناك لغة **وطنية ـ رسمية** (اللغة العربية)، ولغات **محلية ـ جهوية** (البربريات المغربية والعربيات المغربية)، وأن القاسم المشترك بينها هو الانتماء إلى نفس سوق المبادلات الرمزية المتجلية في إطار مفردة مغرب التاريخ والراهن والمستقبل المتناغم سيميولوجيا والمختلف لسانيا.

- أن هناك لغات أجنبية تاريخية (الفرنسية، والإنجليزية، والإسبانية...)، يتم النظر إليها بوصفها مفاتيح ولوج مجالات وفضاءات أخرى بغية التفاعل والتواصل....

4.4.4. مبدأ الاقتصاد

إن المؤهلات التي تتوفر عليها اللغة العربية هي أنها أداة متعالية عن الانتماءات الإثنوثقافية الخاصة، مما يجعلها متساوقة ومكونات المواطنة التي تنظر إلى الإنسان نظرة مجردة بغض النظر عن ثقافته الإنتروبولوجية وبيولوجيته ووضعه السوسيولوجي.

وتجعل هذه السمات والخصائص الكلفة المادية والرمزية أدنوية، والفائدة ذات مردودية مرتفعة. فأدنوية الكلفة المادية والرمزية تتمثل في أنها تقرب بين ثقافات المغرب، وتوثق وتجسر العلاقة الأفقية والعمودية بين النسيج الثقافي المغربي، وتقتصد الوقت.

وإن لارتفاع مردودية الفائدة صلة بأدنوية الكلفة المادية والرمزية، ما دام أن هناك إرثا تاريخيا وحضاريا، وتجربة ثقافية ومعرفية، ورصيدا لغويا غنيا، ومكانة عالمية وعولماتية، مما يجعل عملية الاستثمار اللغوي خارج العربية استثمارا مآله خرق مبدأ الاقتصاد في تدبير الزمن الثقافي للبلد، والتشويش على مكون رئيسي يضبط إيقاع التوازنات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والروحية.

5ـ خاتمة

إن اعتبار العربية لغة رسمية معناه وضعها في موقع رمزي متميز يقوم بدور صنع التوازن الاستراتيجي بالمغرب، وصنع التوازن هذا يسوغه كون هذه اللغة متعالية عن أي انتماء عرقي واثنوثقافي خاص أو معين في ربوع جهات المغرب، مما يؤهلها لكي تتبوأ مرتبة اللغة الوطنية بامتياز أفقيا وعموديا، وذلك بمقتضى مسوغات قانونية (لغة رسمية مدسترة، ووطنية ذات امتداد عمودي وأفقي)، وسوسيولسانية (لغة حضارة، ولغة لتداول الشامل lingua franca، بحيث إنها لا تمثل لغة جهة ما، ولا فئة ضيقة ما، ولا مجموعة أهلية معينة)، وسوسيوثقافية (بمعنى أن اللغة العربية تحقق الأمن اللغوي، وتصون التوازن المادي والرمزي وتصنعه، ولا تشوش على المخيال اللساني).

لغات المغرب :
التمثلات والخيارات والحلول الممكنة

رشيد الإدريسي

راهنية سؤال اللغة

إن الجواب عن مختلف الأسئلة التي يطرحها الوضع اللغوي بالمغرب، مرتبط بالدرجة الأولى بالجواب عن سؤال الهوية، المرتبط هو الآخر بالمسألة الثقافية، والتي من ضمن مكوناتها الأساسية اللغة بوصفها أداة للتفكير والتواصل وحقلا لظهور الرموز وتثبيتها ونقلها من جيل لآخر.

وقد طرحت مسألة الهوية بما تتضمنه من محددات للجماعات والشعوب وصفاتها الثقافية والنفسية التي تتميز بها عن الآخرين، بصيغ مختلفة وتسميات عدة، كلها تبدأ في الظهور بمجرد طرح سؤال من نحن وعلى أي أرض نقف وما هو تصورنا لذواتنا وللآخر. ومقولة الهوية تظل حاضرة فينا بقوة تشرط سلوكنا في تعاملنا مع العالم والأشياء، توجهنا في حكمنا على الأحداث والوقائع، لكنها في سياقات أخرى، تظهر بوصفها موضوعا مفكرا به ومفكرا فيه، كما هو الشأن في عصرنا اليوم، خاصة بعد التغييرات الجذرية التي عرفها العالم عقب انهيار المعسكر الشرقي وتغير الخارطة السياسية وبروز صراعات وتحالفات وانقسامات، يعتمد في فهمها وتحليلها على الدين والثقافة والهوية واللغة والحضارة وغيرها من العوامل الأخرى المتداخلة، وإن كان العامل السوسيواقتصادي في الكثير من الحالات هو المحرك الأساسي والذي تضفى عليه مسحة ثقافية من

أجل الرفع من درجة قوته على تعبئة الأتباع، وخلق جبهة ذات خصوصيات مشتركة تسمح بخوض الصراع مع الآخرين بصفوف متراصة، فتتخذ اللغة شكل رأسمال تتم المقامرة به من أجل شيء لا علاقة له لا باللغة ذاتها ولا بالثقافة.

وهذا وحده يفسر سبب التعامل التنازعي حول موضوع اللغة وهو ما نجده متمثلا في الانفعال وعدم تحكيم المصلحة العامة في المقام الأول، والرغبة في المزايدة وإثبات الذات وتحقيق أكبر قدر من "النقط" في مواجهة "الخصم"، بينما الموضوع يتطلب سلوك سبيل المناقشة والمقارنة بين مختلف الآراء، للانتهاء إلى أكثر المواقف عقلانية وبعدا عن الوهم وعن الطرق الوعرة التي نضطر في النهاية إلى قطعها في الاتجاه المعاكس، مع كل ما يؤدي إليه ذلك من مضيعة للوقت والجهد.

أسئلة وأخرى

القضية إذن معقدة، وقد تطرح بشكل سطحي لا يراعي التناول الدقيق، مما يزيد من تعقيدها بدل تقريب مفاهيمها وإشكالاتها وفتح سبل فهمها فهما يسمح بالخروج بتصور متكامل، يحل المشاكل ولا يعمقها ويزيد من عددها.

فما تصورات الهوية المقترحة والرائجة في الفضاء العمومي المغربي ؟ وما المواقف المترتبة عنها بشأن اللغة والوضع اللغوي الذي يجب أن يكون عليه المغرب ؟ ما التمثلات التي يحملها غالبية المغاربة عن لغاتهم المغربية وعن اللغات الأجنبية والفرنسية على وجه الخصوص ؟ وما تأثير ذلك على تصورات التخطيط اللغوي بالمغرب ؟ ما اللغة الأقل تكلفة والأكثر إجرائية الممكن اعتمادها داخليا وفي العلاقات الخارجية دون أن يترتب عن ذلك مشاكل ثقافية وكومونوطارية ؟ هل تعدد اللغات الرسمية في المغرب ضرورة واقعية، وأمر ممكن عمليا وماديا ؟ هل هناك مسوغات للإبقاء على اللغة العربية لغة رسمية لكل المغاربة وما الداعي إلى ذلك ؟

هذه بعض الأسئلة نطرحها وعيا منا بأن كل معرفة هي جواب عن سؤال أو أسئلة بعينها، توجه عملية البحث والتقصي، وتسيجها حتى لا تتحول الإجابة إلى مجرد رصف للمعطيات المتناقضة التي تجيب على سؤال طرح في مكان وزمان غير المكان والزمان المغربيين. فالعلمية تمنعنا من أن تكون لنا آراء حول قضايا لا نجيد صياغتها ولا نعرف طريقة طرحها، وهذه إحدى الشروط العلمية الأولية التي يجب توفرها للخروج بتصور واضح للقضية ؛ أي معرفة حدود المسألة ومكوناتها ومختلف الأجوبة حولها وخلفيات كل جواب وما يحمله من عناصر ذاتية وموضوعية، وما يحاول تمريره من زيف وأوهام، انتصارا لما يعتقده المجيب، وضدا على المعرفة المسائلة والمساءلة التي تخلخل تصوره.

وهذا الإجراء المنهجي ذو أهمية أساسية في جعل النقاش منتجا وإبراز قيمة الأفكار التي يتم الإدلاء بها حول هذه القضية الشائكة. والهدف في النهاية هو الاحتفاظ بالأفكار التي تقدم

إمكانات جديدة للفهم وتراعي الواقع والتاريخ والمصلحة الجماعية وتسهل الحركة وتسهم في حل المشاكل الثقافية، والتخلي عن تلك التي تعبر عن واقع نفسي لشخص بعينه وتزيد في تأزيم الواقع اللغوي والاجتماعي المغربيين.

الهوية هويات

بعد بروز المسألة الثقافية واللغوية في المغرب، منذ أن أعطى انطلاقتها الأولى المنظرون الفرنسيون بشكل رسمي سنة 1930، كان المنطلق الأساسي هو إدخال مكونات الثقافة المغربية، وقبلها الجزائرية والمصرية... في صراع حاد. لذلك فقد بنوا تصورهم للمغرب على الثنائيات المتضادة والمتصارعة ؛ فتحدثوا عن العربي في مقابل الأمازيغي، وبلاد المخزن في مقابل بلاد السيبة، والحضري في مقابل القروي، والشرع في مقابل العرف، ومغرب المرحلة الإسلامية في مقابل مغرب ما قبل الإسلام، بحيث أصبح من الصعب انطلاقا من هذا الفهم الخروج بتصور متكامل يفهم المغرب بوصفه كلا تتداخل عناصره وتتفاعل فيما بينها، وكل ذلك تجسيدا لمقولة فرق تسد التي سلكتها فرنسا مع كل مستعمراتها السابقة.

هذه المنطلقات التي تشكل نقطة الانحراف، هي التي أدت إلى نشوء تصور للهوية، لدى نشطاء الحركة الأمازيغية، يقوم على صفاء ثقافي وعرقي وهمي وعلى تصور أحادي وانغلاق على الذات في مواجهة المغربي الآخر المتحدث بلغات مغربية أخرى، واللغات العربية وثقافتها على وجه الخصوص. والدعوة إلى معيرة اللهجات الأمازيغية وتوحيدها، باكورة هذا التصور المنغلق ؛ إذ يراد من وراء ذلك بناء جسر للتواصل بين المتحدثين بالأمازيغيات بديلا عن جسر اللغة العربية المشيد منذ قرون عدة، والذي أثبت قوته وفعاليته في وجه كل التحديات التي عرفها المغرب، وحقق ويحقق إلى اليوم التواصل بأقل تكلفة ممكنة والتوافق بين مختلف الأطراف بأقل قدر من التنازلات. إذ في هذه الحالة يحافظ الجميع على لغاتهم ويُلجأ إلى العربية عند الحاجة إليها، بينما المعيرة التي يتبناها المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية ستلزم الكل على التخلي عن لغة التنشئة لاعتماد لغة وليدة المختبر ولا علاقة لها بلغة الأم ولا بتراث المنطقة المحفوظ والمكتوب.

هكذا يظهر لنا أن تبني هذا النوع من الهوية، يؤدي إلى التعصب ضد مكون من مكونات الثقافة الوطنية، ليرتد في نهاية المطاف ضد الذات، حيث أخذنا نسمع من يصرح بأن ما يهمه هو الريف والريفية ولا شيء غير ذلك، وهو فكر إذا ما انتشر على نطاق واسع أدى إلى تناسل هويات تجزيئية أخرى، تحشر نفسها في خانة انتماء أضيق لينفي بعضها بعضا، بينما المطلوب هو تصور يقوم على الانفتاح واعتبار كل مكونات الثقافة المغربية ملكا لكل المغاربة، مع توزيع للوظائف فيما بينها، توزيعا تراعى فيه الإجرائية والفعالية، ويقوم على التنوع داخل الوحدة، كما يؤكد ذلك ظهير أجدير، لا التنوع داخل التنوع الذي يؤدي إلى ترهل النسيج الاجتماعي، أو الوحدة داخل الوحدة التي تؤدي إلى إفقار هذا النسيج.

اللغة العربية، حاضر الماضي وماضي الحاضر

لم تكن اللغة العربية، منذ دخولها إلى المغرب، في حاجة إلى خوض أي صراع مع اللغات الأخرى الأمازيغية لبسط نفوذها وتسربها إلى ألسنة الناطقين بالأمازيغيات آنذاك. واستحضار الصراع أمر غير وارد أصلا، على اعتبار أن هذه اللغة ارتبطت بالدين الجديد ارتباطا وثيقا. وهو تصور نجد آثاره حاضرة إلى اليوم لدى المغاربة الذين يصعب عليهم تصور عربي غير مسلم، وهذا ما نلمسه في تمثلات عامة الناس، و إلى وقت قريب لدى مثقفيهم كذلك، يقول محمد عابد الجابري موضحا سبب اختياره لصفة العربي بدل الإسلامي في عنونة مشروعه : "والحق أن كثيرا من القراء تساءلوا : لماذا أسميناه "العقل العربي" ولم نسمه العقل الإسلامي". للجواب عن هذا التساؤل، جوابا يعبر فعلا عن عمق تفكيرنا، لا بد من التذكير بأن مؤلف الكتاب من أبناء المغرب الأقصى. ونحن في المغرب العربي عموما لا نفرق بين الوصفين : "عربي"، و"إسلامي". ومع أن أغلبية المغاربة أمازيغ (ويسمون أيضا البربر) - ومنهم كاتب هذه السطور - فهم يعتبرون أنفسهم عربا مسلمين أو مسلمين عربا، حتى ولو كان الواحد منهم لا يتكلم إلا الأمازيغية. فالوصف "عربي" عندهم هو تحديد لهوية تميز نفسها عن "الآخر" الأوربي، الذي كثيرا ما يطلق عليه اسم "النصراني". ولقد كان من الأمور المدهشة لعامة المغاربة اكتشافهم - بعد الاستقلال واحتكاكهم بالمشرق العربي - أن "العربي" يمكن أن يكون مسيحيا، وأنه ليس كل عربي مسلما، كما أنه ليس كل مسلم عربيا"(1).

لهذا الاعتبار وغيره، حظيت اللغة العربية الفصيحة بالعناية من قبل كل الدول التي تعاقبت على حكم الغرب الإسلامي، انطلاقا من الأدارسة الذين حكموا المغرب بتفويض من الأمازيغ، ومرورا بالمرابطين الذين عملوا على توحيد المغرب ونشروا المذهب المالكي، ووصولا إلى الموحدين الذين أتموا مشروع التوحيد السياسي والديني ودعموا الوحدة الثقافية بنقلهم لمضامين الثقافة العربية الإسلامية إلى اللغة الأمازيغية أو ما كانوا يسمونه آنذاك باللسان الغربي. فباستثناء بعض العناصر الخاصة بالموحدين، كما يؤكد هشام جعيط، فإن تنظيم الدولة لدى الأمازيغ الذين حكموا المغرب، كان نسخة عن الدولة النموذج بصيغتها الإسلامية الكلاسيكية التي تستعمل اللغة العربية، وتستند إلى الشريعة (القانون الإسلامي) وتوظف عددا من العرب المحليين أو ذوي الأصول الأندلسية. والظاهرة الأساسية هو أن هذه الدول الأمازيغية، في المغرب كما في تونس، لم يكن لها أدنى إحساس بأمازيغيتها ولم تكن تطرحها بأي شكل من الأشكال بوصفها أساسا لسلطتها ولا للولاءات التي تعمل على تحصيلها"(2).

وبمعزل عن هذا الجانب الذي جعل الناطق بالأمازيغية لا يقيم أية علاقة بين هذه اللغة وبين العربي القادم من الشرق، وهو موقف ساهم في محو أية عقدة تجاه هذه اللغة قد تتولد عن التقلبات السياسية، فإن خاصية قابليتها للكتابة واستعمالها في الدواوين والمراسلات وطلب العلم، وتوظيفها في كتابة الشعارات على الأعلام وسك النقود... جعلها تحظى بالعناية وتستعمل حتى من قبل

الدولة البرغواطية التي فهمت من طرف البعض بوصفها دولة قامت على التحيز والتعصب للأمازيغية. هذه الخصائص جعلت من المتيسر على العربية الامتداد في جغرافية المغرب دون مشاكل تذكر، وارتباطها آنذاك بالحضارة والنص القرآني الذي كان أقوى عامل حفز الأمازيغ على تبنيها، ونشرها في المغرب وجنوب الصحراء، يخول لنا أن نقول بأن تعريب المغرب هو خيار أمازيغي قبل كل شيء.

هذه المعطيات التاريخية المرتبطة بالتمثلات التي يحملها المغاربة عن هذا المكون اللغوي المغربي، ذات أهمية قصوى في بناء التخطيط اللغوي الذي يراد للمغرب اليوم تبنيه، فالحاضر لا يمكن أن يبنى من فراغ كما لا يمكن الانطلاق في كل مرحلة تاريخية من الصفر، ذلك أن اللغة لا تقف آثارها عند ما هو ثقافي، بل تتعداه إلى ما هو سياسي واقتصادي واجتماعي... والسياسات اللغوية المنتهجة اليوم من طرف مختلف الدول، تؤكد ذلك وتكشف عن مدى تعالق اللغوي بهذه القطاعات الأخرى، ولعبه دورا أساسيا في التوازنات الدولية الآخذة في الاختلال بفعل العولمة التي بدأت اليوم تستفحل أكثر، والتي لا تقر بالخصوصيات الثقافية واللغوية للأمم والشعوب، حيث ترمي بالدرجة الأولى إلى تأحيد العالم وتنميطه وجعل اللغة الإنجليزية لغة مهيمنة على جميع اللغات.

اللغة العربية وعولمة الثقافة

إن هذا الوضع يفرض نوعا من التعاطي مع الإشكالية اللغوية تتوفر فيه مجموعة خصائص، وبذل أقصى الجهد للحفاظ عل اللغة العربية التي تضمن لمجموع ساكنة المغرب معرفة الذات بالاطلاع على تراثنا الغني، كما تضمن التواصل مع أكثر من ثلاث مائة مليون عربي عبر العالم، وإقامة علاقات اقتصادية وسياسية فيما بين الدول التي ينتمون إليها، فهي إذن لغة يمكنها أن تتحول على المدى القريب إلى قوة وازنة في اتخاذ القرارات على المستوى العالمي، هذا دون نسيان مليار مسلم تحظى لديهم هذه اللغة بالاحترام والتقدير والرغبة في تعلمها. ولهذه الاعتبارات وغيرها، فإنه يمكننا القول إنها لغة يجب أن تعطى لها الأولوية في التخطيط اللغوي المغربي لأنها في معترك العولمة لغة قادرة على الصمود، خاصة إذا استحضرنا تراثها العريق الذي شارك في صنعه، العرب والفرس والأمازيغ والأفارقة والأتراك والأكراد...

لقد أدرك أصحاب اللغات الأخرى الخطر الذي يحدق بهم بفعل تنامي العولمة المتزايد، لذلك فقد سعت ألمانيا إلى إقامة حلف لغوي ألماني يجمع بينها وبين النمسا وسويسرا، بينما مجموعة الدول الاسكندنافية تهيئ فيما بينها لمشروع مشابه للمشروع الألماني، هذا دون الحديث عن التكتلات اللغوية التي تملأ الساحة السياسية العالمية والتي تكلف الدول المكونة منها مبالغ مالية ضخمة، مثل الكتلة الفرنكوفونية والأنكلوفونية والإسبانوفونية، وقد بلغ الأمر بفرنسا إلى حد معاقبة من يستخدم غير الفرنسية في الوثائق والمستندات، والإعلانات المسموعة والمرئية، وكافة مكاتبات الشركات العالمية على الأراضي الفرنسية، وبوجه خاص المحلات التجارية والأفلام الدعائية المبثوثة

في الإذاعة والتلفزيون... وفرضت غرامات مالية على كل من يخرق هذا التعاقد.

وفي مواجهة هذا المد العولمي، فرضت فكرة الوحدة نفسها على المجموعة الأوروبية بشكل أكثر عمقا، وبرز المعطى الثقافي إلى جانب المعطى الاقتصادي، لدرجة جعلت أب الوحدة الأورورببية جون موني Jean Monnet يقول في آخر أيام حياته " لو أمكنني إعادة كل شيء [أي الوحدة الأوروبية] لبدأت من الثقافة"(3). وهذا هو ما أكده جاك دولور Jacques Delors في كلمة عن توجهات لجنة المجموعة الأورورببية بقوله: " إننا لا نغرم بسوق كبير [يقصد السوق الأورورببية المشتركة]، وإنه يلزمنا أن نجعلها (أي المجموعة الأورورببية) أكثر إحساسا، وأن نهبها، ولما لا، روحا إضافية" ويتساءل بعد ذلك عما تستطيع الحضارة الأوروبية فعله، وكيف يمكن إحياء القوى التي انبنت عليها وبث الحيوية في أبعادها الإنسانية الحية، ليجيب بأن ذلك "يكمن في ثلاثي التربية والثقافة والمجتمع"(4). لذلك هناك اليوم في أوروبا حديث عن منظمة الوحدة اللاتينية l'union latine باعتبارها أداة توحيد عابرة للقارات. وهي منظمة غير حكومية، تضم أكثر من ثلاثين دولة من أوروبا وأمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا، وتضع من بين أهدافها تشجيع اللغات ذات الأصول اللاتينية (الفرنسية، الإسبانية، البرتغالية، الإيطالية..) وخدمتها على جميع المستويات، مع إعطاء الأولوية لعملية الجمع والابتكار المصطلحي، والدفاع عن الهوية الثقافية الوطنية، بحيث يؤدي الأمر إلى تشكيل قطب لغوي ينافس الإنجليزية ويقرب بين هذه اللغات بواسطة الترجمة من الواحدة إلى الأخرى، والتنسيق بين مختلف الدول اللاتينية فيما يخص ترجمة المصطلحات العلمية والتقنية.

إن دول المجموعة الأوروبية بعد أن عجزت عن إيجاد لغة تحقق لها التواصل فيما بينها، كما هو الشأن بالنسبة للدول العربية، نجدها تعود إلى أصل شبه وهمي ؛ أي اللاتينية التي اشتقت منها كل هذه اللغات الأوروبية، والتي لم يعد لها وجود إلا في الكنيسة، تعود إليها لتجعل منها عاملا رمزيا للتقريب والتوحيد بين الشعوب الأوروبية. من هنا تظهر لنا الفرصة الثمينة والورقة الرابحة التي بين أيدي الشعوب العربية، المتمثلة في اللغة العربية التي تحظى بالقبول بنسبة تقترب من الإجماع. فعلى الرغم من اختلاف لهجات الدول التي ينتمون إليها، فإن مختلف هذه الشعوب تعود في النهاية إلى اللغة العربية الفصحى، التي تعتبر لغة دولية وأداة فعالة في الربط بين الجغرافيا الواقعة بين المحيط والخليج.

محتوى اللغة ولغة الآخر

ورغم كل هذه المعطيات الموضوعية والحقائق النفسية والتاريخية التي لا تدع مجالا للشك في طبيعة اللغة العربية الاستراتيجية مغاربيا وعربيا ودوليا، فإنها لم تسلم من التنقيص بحجة أنها لغة حُملت قديما بمضامين دينية لا تؤمن بالاختلاف والانفتاح، وحديثا شحنت بفكر وطني تجييشي ما بعد استعماري، يعمل في إطار رؤية يعقوبية، على فرض وحدة وهمية لا علاقة لها بالواقع المتعدد.

وأصحاب هذا التصور[5]، باعتمادهم هذا النوع من التحليل يقعون في تمجيد اللغة الفرنسية وطرحها، بشكل مباشر وغير مباشر، كحل لما نعرفه من مشاكل على مستوى اللغة والتعريب والفكر والسياسة، بوصفها لغة محملة بمضامين علمانية صريحة. والواقع أن هذا الطرح هو تحليل سطحي إيديولوجي، يعفي صاحبه من عملية التفكير في الإشكالية المطروحة ويخول له الهروب إلى الأمام وتعويض إشكالية حقيقية بإشكالية أخرى زائفة، لأنه إذا كانت اللغة، على فرض صحة ذلك، تحمل مخزونا سلبيا، فإن الحل ليس هو التخلص من هذا المخزون والوعاء الذي يحتويه، وإلا لكان من الواجب، اعتمادا على هذه الرؤية، التخلص من اللغة الألمانية وثقافتها التي أنتجت النازية ومن الإيطالية التي أنتجت الفاشية ومن الإنجليزية التي أنتجت مأساة فيتنام والعراق... وهلم جرا.

وصاحب هذا الرأي يقع في خطأ واضح إذ يعمم تمثلا بعينه على جميع الذين لهم علاقة بهذه اللغة، ويحصره فقط في الديني، وهذا ليس صحيحا في كل الحالات "فإذا نحن استعرضنا أولئك الذين خدموا العربية وتعصبوا لها، فإننا سنجدهم إما مسلمين غير عرب وإما عربا غير مسلمين، أعني مسيحيين. ويكفي أن نشير إلى أن علماء اللغة والبلاغة ومؤلفي القواميس والمعاجم في العصور القديمة كانوا في الأغلبية الساحقة منهم من أصل غير عربي. أما إذا نظرنا إلى العصر الحاضر فإننا سنجد أن الذين قاموا بخدمة اللغة العربية وآدابها في عصر النهضة الحديثة كانوا من المسيحيين العرب"[6]. وهذا ما دفع أحد الدارسين الفرنسيين الملمين جيدا بواقع اللغة في المغرب إلى أن يقول عن العربية بأنها "لغة الأمة الإسلامية، التي تتلألأ فيها كما في المرآة، هوية المسلم، والتي يعتبرها كل مغاربي عنصرا أساسيا من شخصيته الفردية والاجتماعية، وهو تجذر هوياتي شديد العمق لدرجة تجعله حيا حتى عند فقدان العقيدة مع الملحد وعند فقدان الجنسية مع الحامل لجنسية أخرى، وعند فقدان اللغة مع المفرنس"[7].

وما يجب تسجيله على هذا النوع من التناول للمسألة اللغوية المتحامل على اللغة العربية الفصيحة ضمنا أو صراحة، هو تحكم متغير اللغة الفرنسية فيه وتوجيهه للوصول إلى هذه الخلاصة، ذلك أن الفرنسية تحضر بوصفها البديل المثالي للعربية والوعاء الحامل للحداثة والفكر النقدي وغيرها من الشعارات الأخرى الرامية إلى التمكين لها في المغرب وبعضا من دول المغرب العربي الأخرى. والسبب يرجع إلى طبيعة هذه اللغة التي هي لغة استئصالية بامتياز ؛ أي أن أصحابها، عند اصطدامهم بثقافة ولغات أخرى، يكون هدفهم الأول هو ترسيم لغتهم بشتى الوسائل وإحلالها المقام الأول، بعد بث البلبلة بين اللغات الأصيلة وكسر العلاقات التي تحكمها. وتجربة فرنسا مع دول إفريقيا السوداء مثال بارز على ذلك، إذ يكفي أن نعلم أن العشرات من هذه الدول تتخذ إلى اليوم اللغة الفرنسية لغة رسمية لها إما جزئيا أو كليا بما في ذلك (الكابون والتشاد والسينيغال والكونكو وساحل العاج وغينيا ومدغشقر وجمهورية إفريقيا الوسطى وزايير وبوركينافاسو والكاميرون ورواندا ومالي وجزر القمر ودجيبوتي والبنين...)، وهذا هو الهدف نفسه الذي

كانت ترمي إلى سحبه على المغرب، فلم يتحقق لها ذلك، نتيجة قوة اللغة العربية التي وقفت حاجزا أمام هذا المسخ الهوياتي الخطير.

وعلى الرغم من عدم نجاح اللغة الفرنسية في أن تأخذ مكان اللغة العربية بشكل رسمي، فإنها استطاعت، عمليا على الأقل، أن تخلق نوعا من الاختلال في التخطيط اللغوي بالمغرب، لأنها في الكثير من الحالات تأخذ مكان اللغة الرسمية، فتخرق بذلك ما ينص عليه الدستور المغربي من أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للمغرب. وللمس مدى فداحة هذا الخرق، يمكننا أن نقلب الآية وأن نتصور عالما ممكنا تكون فيه فرنسا مغلوبة على أمرها متخلفة كما هو الشأن بالنسبة للمغرب، فتتحول اللغة العربية إلى لغة تستعمل في مجالات اللغة الفرنسية، فنكون بذلك أمام خرق لبند هام من بنود الدستور الفرنسي أي أن اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية للجمهورية.

التأسيس للصراع اللغوي

إنَّ الخلخلة التي أحدثتها الفرنسية بدخولها على خط اللغات المغربية التي ظلت متسالمة قرونا عدة، إلى اليوم ما زال العمل جاريا لتعميقها بواسطة مصادمة اللغة العربية الفصيحة مع اللغات الأخرى بما فيها الأمازيغيات التي يعمل النزوعيون على سجنها في تصور للهوية إقصائي وشديد الفقر يتغذى على الأفكار العنصرية التي تؤمن بالصفاء العرقي وتسقط التمازجات التاريخية من حسابها. وهذا التعامل نفسه يسحب اليوم على اللغة العربية الدارجة التي يراد لها هي الأخرى أن تتصادم مع اللغة العربية الفصيحة، وهي المهمة التي تضطلع بها نخبة فرنكوفونية درست في مدارس البعثة الفرنسية فلم يتح لها أن تتعلم اللغة العربية، أو تعلمتها ولم تتقنها، فكان جهلها بها سببا في مناصبتها العداء، والدعوة إلى التخلي عنها وتبني اللغة الدارجة مكانها.

وفي هذا الإطار خصصت إحدى المجلات المغربية[8] المكتوبة بالفرنسية ملفا خاصا بالموضوع عنونته بـ "الدارجة لغتنا الوطنية الحقيقية". والملف في أغلبه عبارة عن مغالطات ووجهات نظر لا تراعي لا الواقع ولا التاريخ ولا التراكم الثقافي والخصوصية المغربية. ويظهر جليا أن ما يحكم أصحاب هذه الرؤية، هو السيناريو الذي عرفته اللغة الفرنسية التي كانت في مرحلة من المراحل هي دارجة الفرنسيين، فاستطاعت الانفصال عن اللاتينية واحتلال مكانها لتصبح هي لغة الثقافة والعلم، ولتتحول الأخرى إلى لغة ميتة لا أثر لها في المجتمع. لذلك فالمجلة المذكورة تفتتح ملفها بتحذير فكرة الصراع بين لغات المغرب قائلة "هُمشت العربية الدارجة والأمازيغية لصالح العربية الفصحى التي تطورت على حسابهما، والتعريب هو أكبر دليل على ذلك". فقد كان، دائما حسب رأي أصحاب المجلة المذكورة، "بإمكان الدارجة أن تُقنن وتُوحد وتُمعير وأن تُعتمد لغة وطنية بعيد الاستقلال. وهو ما كان بوسعه أن يفيد على المستوى البراغماتي. لكن الحركة الوطنية والإيديولوجية القومية العربية والقداسة الدينية، كلها منعت تحقق هذا الخيار".

لا نلاحظ أي جديد في هذه الأقوال، فهي نفسها التي يعتمدها النزوعيون لإدخال العربية الفصيحة في صراع مع الأمازيغيات، وبدل التحليل العميق الذي يقف عند التاريخ والثقافة والتمثلات الذهنية، يكتفى بإلصاق مختلف التهم بالحركة الوطنية، وتستحضر الحركة القومية العربية بوصفها كبش فداء مع أن الحس القومي، حسب الدارسين الذين لا تحكمهم الخلفيات الإيديولوجية، كان شديد الضعف بالمغرب، وبقي نخبويا في الغالب. ولمعرفة أصحاب هذه الأفكار بمدى هشاشة طرحهم وسطحيته الواضحة، فقد اعتمدوا أسلوب الشتم والتنقيص والتجريح، ليصبح حسب رأيهم "التحدث باللغة العربية الفصيحة علامة على انفصام الشخصية واحتقار الذات"، يقول أحد المساهمين في هذا الملف : "إننا في المغرب، ما زلنا، إلى أن يثبت العكس، نستعمل اللغة (العربية الكلاسيكية على وجه التدقيق) بهدف سلطوي من أجل القمع والحجب والأسطرة".

إن المفارقة هي السمة الأساسية لهذا النوع من الكلام الحاقد، القائم على تأثيم المتحدث بالعربية واللعب على نفسيته بإضعافها عن طريق الترهيب. فالتحدث باللغة العربية الفصيحة يصبح علامة على احتقار الذات، وكأن العربية ليست من الذات وكأن توطينها عشرات القرون في المغرب غير كاف لاعتبارها من الذات، بينما الفرنسية التي يقال بها هذا الكلام والتي لا يتجاوز وجودها في المغرب سنين معدودة والتي فرضت بالحديد والنار والخطط والترغيب والترهيب، هي جزء من الذات !!! المفارقة شاسعة وهي تكشف عن ضحالة النقاش الدائر في المغرب حول المسألة اللغوية، وضرورة الالتفات إلى كل ما يكتب حول الموضوع لغربلته وإخضاعه للنقد والتمحيص، وإعادة التفكير في تصور للوضع اللغوي المغربي باستحضار التاريخ والقيام بدراسات للمخيال الاجتماعي وللتمثلات الشائعة عن كل مكون من المكونات اللغوية، بعيدا عن القراءة الكولونيالية الفرنسية التي ما زالت إلى اليوم تلقي بضلالها على الكثير من التحليلات المعاصرة.

إن فكرة اعتماد الدارجة المغربية مكان العربية الفصيحة ليست بالدعوة الجديدة، فقد عرفتها دول عربية أخرى، فلم يكن لها ما بعدها ودفنت في مهدها، والدارجة لا تطرح لذاتها بل تمهيدا للتمكين للغة الفرنسية على حساب اللغة العربية الفصيحة التي يجب أن تزاح عن الطريق، لأنها هي التي فوتت على اللغة الفرنسية، في مرحلة الاستعمار، فرصة أن تصبح لغة رسمية في المغرب كما كان لها ذلك في كل الدول الإفريقية الأخرى، والسبيل الأيسر لتحقيق ذلك اليوم هو كسر الانسجام بين لغات المغرب وتأليب الدوارج والأمازيغيات على العربية لإضعافها وقطع الصلة بالدول العربية الأخرى التي تشكل عمق المغرب الحضاري والثقافي، وبعد ذلك الانقضاض على الفريسة المنهكة دون أي جهد والتهامها دون أية خسائر تذكر.

الأمازيغيات بين المعيرة والأمر الواقع

يعتبر مطلب معيرة الأمازيغية أحد الأهداف الأساسية التي يركز عليها نشطاء الحركة الأمازيغية بالمغرب وقبله في الجزائر وفرنسا، وهو مطلب يكتسب مسحة نزوعية واضحة لعمله على تكوين وتشييد لغة موحدة هدفها غير المعلن عنه، هو مواجهة اللغة العربية وإغناء الناطقين بالأمازيغية عن اللجوء إليها ومنافستها على كل المستويات ؛ أي أن الهدف سياسي بالدرجة الأولى يرمي إلى تأسيس الصراع بين "العرب" و"الأمازيغ" على أسس ثقافية لا تنمحي وتكوين هوية أمازيغية خاصة بالأمازيغ ومشذبة من الشوائب العربية الإسلامية على اعتبار أنها هوية علمانية لادينية تعطي الأولوية للعرف (أزرف) الذي فهم من طرف المنظرين الاستعماريين بوصفه منظومة قانونية تعادي الشرع وتنافسه.

وعملا على تحقيق هذا الهدف السياسي، نلاحظ لدى النزوعي تأكيدا مرضيا على التمييز بين اللغة العربية واللغات الأمازيغية، ومحاولة عدم تناولهما من داخل نفس الأسرة اللغوية السامية وتغييب نقط الاشتراك بينهما. وهذه الخطة التي أصلها محمد شفيق، كان قد أعطى انطلاقتها الأولى منظرو الاستعمار الفرنسي الذين عملوا على خلق هذا الشرخ بين اللغتين مؤكدين أن للأمازيغ تقاليد قريبة من تقاليد الأوروبي وأن لهم ماض مسيحي وروماني يجمعهم بالفرنسي أكثر مما يجمعهم بـ"العربي" المسلم، بينما قد تبث أن " اللغة البربرية من اللغات السامية، والحجج المأخودة من النحو البربري، ومن اللغة نفسها لا تدخل تحت حصر ؛ كما أن قواعد النحو البربرية قريبة من القواعد العربية، وإدراك ذلك ميسور لمن له إلمام باللغتين"(9).

واللعب على المكون اللغوي بهذا الشكل كان دائما أحد الثوابت لدى المستعمرين، وهذا ما حاولت بريطانيا اعتماده هي الأخرى من أجل التمكين لإمبراطوريتها في البلدان الآسيوية، إذ عمل الباحثون الإنجليز على توسيع القرابة بين اللغات الأوروبية ولغات بعض الدول الآسيوية الواقعة تحت سيطرتها، فكان البحث فيلولوجيا مقارنا، بينما الهدف منه سياسيا استعماريا. لأن الحديث عن اللغات الهندوأوروبية و"إثبات القرابة السلالية بين مجموعة من اللغات (السنسكريتية والإغريقية الكلاسيكية واللاتينية)، إثبات ضمني للقرابة العرقية بين الناطقين بتلك اللغات ؛ بإرجاعهم إلى أصل واحد ينحدرون منه انحدار لغاتهم من نفس الأصل اللغوي المندثر. ولا يخفى ما في ذلك من مساعدة للشعب الهندي أو غيره على امتصاص صدمة الحاكم الأجنبي الغريب"(10).

وحتى وإن كانت هذه "الحقائق العلمية" لا تصل في حالات كثيرة إلى عامة الشعب، فإن المهم بالنسبة للمستعمر هو تثبيتها لدى النخبة المؤهلة مستقبلا لحكم البلد عندما "سينجلي" عنه الاستعمار، وهذا هو ما وعته فرنسا جيدا، فأنشأت المدارس الفرانكو بربرية التي ساهم في بلورتها المستشرق الفرنسي لوي ماسينيون، وعملت من خلالها، حسب تصورها الاستعماري على :

- "الإبقاء بشكل خفي، ما أمكن ذلك، على الاختلافات اللغوية والدينية والاجتماعية الموجودة بين السهول التي تمكن منها الإسلام والجبال البربرية، وبذل الجهد للاحتفاظ بالعادات والمؤسسات البربرية ومقاومة اجتياح العربية والإسلام.

- توجيه البربر في الاتجاه الفرنسي. بحيث يجب إقصاء تعلم العربية والقرآن بشكل مطلق لصالح الفرنسية التي يجب أن تتحول بالنسبة للبربر إلى لغة الإدارة والاقتصاد، أي الأداة اللغوية للحضارة الحديثة"(11).

وبغض النظر عن الأبعاد السياسية المستهدف تحقيقها بهذه المعيرة، والتي لن تؤدي إلا إلى إهدار الوقت والمال والجهد، فإنها من وجهة نظر علمية مشروع لا مستقبل له، لأنه يعتمد مناهج اللسانيات السلالية التي انقرضت منذ قرن تقريبا، بسبب محاكاتها لمناهج العلوم الحقة، خاصة البيولوجيا، ولعدم أخذها، نتيجة ذلك، بالبعد التاريخي للغات. من هنا فقد فشلت في تحقيق أهدافها إبان ظهورها، وبعث اللغة الأصل التي تفرعت عنها جميع اللغات الهندوأوروبية، هذا على الرغم من توفر هذه اللغات على تراث مكتوب يعود إلى آلاف السنين. فالمهمة تصبح خيالية عندما نستحضر شفوية الأمازيغيات وتأصل الاختلاف فيما بينها منذ أقدم الحقب، "قال أبو سعد: ولغاتهم (أي البربر) ترجع إلى أصول واحدة وتختلف فروعها حتى لا تفهم إلا بترجمان"(12)، وبإضافة تعذر إمكان الرجوع إلى الشواهد التاريخية لإقامة جسر بين المعجم والتركيب الحاليين وما كان شائعا في حقب تاريخية غابرة، فإن التوصل إلى تشييد اللغة المعيار سيبقى ضربا من التخمين وتغليب لهجة على اللهجات الأخرى لا أكثر.

لقد تأكد بما لا يدع مجالا للشك أن هذا المشروع هو إهدار للوقت، وضرب للتنوع اللغوي وإفقار للتراث المغربي وجناية على لغة الأم، وهو إلى جانب ذلك استنبات لمشاكل سياسية واجتماعية لا يعرف أبعادها إلا المطلع على تاريخ الشعوب التي عرفت نفس المسار الذي يراد للمغرب اتباعه. فنحن اليوم في المغرب وغيره من الدول العربية الأخرى نشكو من ازدواجية اللغة المتمثلة في لغة متحدث بها تحقق التواصل اليومي هي العربية المغربية الدارجة من جهة، ومن جهة أخرى لغة مكتوبة هي العربية الفصحى التي تستعمل في الإعلام السمعي البصري وفي التواصل الرسمي وفي الكتابات العلمية والإدارية وفي الحياة السياسية والتعليم والقضاء... والحل للخروج من هذه الثنائية، المكلفة تربويا وماديا حسب الكثير من الباحثين، هو العمل على التقريب بين هذين اللغتين، وهي المهمة التي تقوم بها اليوم وسائل الإعلام والمدرسة العمومية بشكل جد موفق.

والمفارقة هو أن أصحاب دعوة المعيرة من النزوعيين يعملون على تكرار نفس التجربة وإنتاج نفس الأزمة بالنسبة للأمازيغيات ، إذ يعملون على إضافة لغة أخرى بعد إخراجها من المختبر وفرضها على المغاربة جميعا، وبالتالي الزيادة في عدد اللغات، كما زادوا سابقا في عدد الأبجديات. والخلل في كل هذا المزيج هو عدم مراعاة البعد البيداغوجي المتمثل في أن هذه البضائع

توجه لأطفال بالدرجة الأولى. فالطفل المغربي بهذه الإجراءات المرتجلة سيجد نفسه في وضعية لا مثيل لها في العالم بأسره، إذ سيصبح المغربي مطالب بتعلم لغة عربية مغربية (لغة الأم) ولغة عربية فصيحة (لغة القرآن) ولغات أمازيغية جهوية (تاريفيت وتاشلحيت وتامازيغت) (لغة الأم مرة أخرى) ولغة أمازيغية موحدة، إضافة إلى اللغة الفرنسية ولغة تفتح ثانية هي الإنجليزية، كما سيكون مطالبا بتعلم أبجدية عربية وأبجدية فينيقية (تيفيناغ) وأبجدية لاتينية بإملائية فرنسية، لنصبح في النهاية أمام متعلم لا يضبط ضبطا جيدا أيا من اللغات التي تم تلقينها له، وكل ذلك نتيجة الإخلال بكل تلك الأوليات البيداغوجية التي ذكرها ابن خلدون في مقدمته والمتمثلة في التدرج شيئا فشيئا وقليلاً قليلاً، واعتماد الإجمال والتكرار، والانتقال من التقريب إلى الاستيعاب ومراعاة قوه عقل المتعلم واستعداده، وعدم الإكثار على المتعلم "لما في [ذلك] من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما [أي العلوم] إلى تفهم الآخر ؛ فيستغلقان معا ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة. وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصراً عليه، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله"(13).

إن المعيرة والتوحيد مطلب قد يقبل بالنسبة لدولة ناشئة لا تتوفر على لغة موحَدة موحِدة قوية، وتسعى بذلك الإجراء إلى الحفاظ على نسيجها الاجتماعي، وهذا عكس المغرب الذي تلعب اللغة العربية فيه هذا الدور بأقل تكلفة ممكنة. وحتى لو فرضنا جدلا أن الأمر يتطلب توحيدا ومعيرة، وهو تاريخيا وواقعيا مطلب غير مبرر، لأن الناطقين بالأمازيغيات منذ دخول الإسلام، إلى جانب احتفاظهم بلغاتهم المختلفة، اعتبروا اللغة العربية لغتهم هي الأخرى، بل وعلى مستوى التمثل هي لديهم، كما لدى كل المغاربة، فوق كل اللغات. ولو افترضنا أنه قد قام نوع من التوافق بين كل أصحاب اللهجات الأمازيغية بالمغرب، وأصبح الأمر عمليا ممكنا، وأمكننا الخروج بهذه اللغة إلى حيز الوجود وتمكنا من تقليص حيز اللغة الريفية والشلحية والسوسية لصالح هذه اللغة المعيار، لو تحققت كل هذه الأهداف وأصبحنا أمام مغرب لا يتحدث أهله إلا هذه الأمازيغية الخيالية، وأمكن القضاء على اللغة العربية وتحويلها إلى لغة دينية ميتة مثلها مثل اللاتينية، لو افترضنا وقوع كل ذلك، وهي كلها مجرد افتراضات يتطلب تحقيق الواحدة منها قرونا وميزانيات ضخمة ومحو كامل لذاكرة كل المغاربة، فإننا عند الوصول إلى هذه المحطة سنضطر إلى إعادة الكرة مرة أخرى والانطلاق من الصفر والعمل على تعويض هذه اللغة الاصطناعية بلغة أمازيغية أخرى، لا تأخذ فقط لهجات المغرب وحده، بل تتعداها إلى لهجات الجزائر وليبيا والطوارق والنيجر ومالي وبوركينا فاصو، وهي ما يشكل حدود تامزغا الأسطورية في عرف النزوعي السادر في أحلامه، مما يعني البحث عن توافق جديد، وهذه المرة بين الدول المعنية بالأمر وليس فقط بين المغاربة وحدهم.

والنتيجة هي استحالة ذلك أصلا، لأنه يتطلب إعادة صياغة التاريخ والجغرافيا والثقافة والمعتقد والسياسة والإنسان...ذلك أنه لو تحققت هذه المرحلة الأخيرة وأمكننا إيجاد أمازيغية عابرة للبلدان، فإن المعطى الجغرافي والاختلافات السياسية وحدها كفيلة بأن تحطم هذه المعيرة الخيالية

وتولد منها عشرات اللغات، لنجد أنفسنا أمام ذات السيناريو الذي وقع للغة اللاتينية التي كانت لغة أدب وكتابة فانشعبت لتعطي الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والرومانية... ومع ذلك لا أحد اليوم يزعم أنه بتعلمه لإحدى هذه اللغات المشتركة في جذع واحد، يستطيع فهم لغة أخرى من هذه اللغات، ولا أحد من هذه الدول الأوروبية الموحدة سياسيا واقتصاديا تقبل العودة إلى اللغة اللاتينية الأم مع أن هذا الحلم يراود الكثير من المثقفين، ورغم أن هذا التعدد اللغوي الأوروبي يكلف هذه الدول ملايين الدولارات كل سنة، فهناك مسار تاريخي تم عبوره ومحاولة قطع هذا المسار في الاتجاه المعاكس لم يعد ممكنا.

من هنا يظهر لنا خطأ من يحاولون تجاوز واقع التعدد اللغوي الأمازيغي باختلاق أمازيغية موحدة، وذلك لأنهم يقعون في تناقض صارخ، فهم من جهة يطالبون باحترام التعدد اللغوي في المغرب، لكن بمجرد ما تحقق لهم ذلك، هم الآن يدعون إلى المعيرة والتوحيد، وبذلك يخرقون مبدأ التعدد لأنه لم يعد يخدم مصالحهم، لا مبدأ هناك إذن وإنما مصالح كلما انقلبت انقلب معها الموقف.

الدسترة بين الحاجة والنزوع

من أوائل ما طرح من القضايا اللغوية بعد انطلاق النقاش حول المسألة الثقافية في المغرب، قضية دسترة اللغة الأمازيغية وإحلالها نفس مكان اللغة العربية التي تعتبر هي اللغة الرسمية للدولة. وعدم واقعية هذا المطلب تتجلى واضحة عندما نستحضر معطى التعدد الذي تعرفه الأمازيغيات والذي يراد القضاء عليه، كما وضحنا أعلاه، بالمعيرة والتوحيد. والدعوة إلى دسترة الأمازيغية هكذا بالمفرد بدل الجمع، غير منصفة لانطلاقها من تصور كومونوطاري communautarisme ضيق، لا يراعي الزاوية الحقوقية بصفة عامة والتي تأخذ بعين الاعتبار وضع اللغات المغربية الأخرى (العربية المغربية والحسانية...). ولأن تعبير "دسترة الأمازيغية" تطرح معه كل هذه الاعتراضات وغيرها، فقد تمت الاستعاضة عنه بتعبير آخر شبه محايد، هو ضرورة "الحماية القانونية للأمازيغية"، وهو تعبير مراوغ، الهدف منه إخفاء طبيعة المطلب اللاعقلانية واللاعملية، والمنحى الصدامي مع اللغة العربية الفصيحة التي تظهر واضحة مع تعبير الدسترة. فتعبير الحماية القانونية لا يأتي بجديد بقدر ما يحاول أصحابه اللعب على الشعارات والمناورة بالألفاظ لتحقيق أهدافهم السياسية، تحت غطاء تعبير ثقافي وحقوقي بريء، من هنا ضرورة الاحتفاظ بتعبير الدسترة لما له من قدرة على توضيح حدود المطلب وفضح خلفياته الإيديولوجية.

إن طرح المسألة اللغوية في علاقتها بالدستور بالنسبة للمغرب، ليست بالموضوع الذي له تاريخ، أي أنها حديثة ولم تطرح إلا في السنوات الأخيرة، خاصة من طرف بعض جمعيات المجتمع المدني المهتمة بالمسألة الثقافية وبالأمازيغية على وجه الخصوص. فالقضية إذن ليست مطلبا جماهيريا أو حتى حزبيا إذ أن غالبية الأحزاب، إن لم أقل كلها، ليس من مطالبها إعادة مراجعة وضع اللغة في الدستور وترسيم أي من لغات المغرب الأخرى إلى جانب اللغة العربية الفصيحة.

فدور اللغة العربية بوصفها لغة رسمية كما يقول محمد أركون لا تناقش من طرف أي شخص، وهو ما أدى إلى وضع لساني مشترك بين دول المغرب العربي فِرض من طرف التاريخ منذ معرفة المنطقة للحدث العربي والإسلامي. وهذا ما أكده عبد الله العروي بقوله: "ما يظهر جليا من خلال نصوص الرحالة هو أنه لا يوجد في هذا العصر[القرن التاسع عشر] منطقة مستقلة لغويا أو سياسيا أو اقتصاديا، يمكن أن تشكل كيانا داخل أو بمحاذاة المغرب كما نعرفه اليوم"(14).

لقد كانت القاعدة هي التداخل بين اللغات، خاصة الأمازيغيات والدوارج العربية، مع احتلال العربية الفصيحة **عرفيا** لوضع لغة الكتابة والتدوين بمستويات متقاربة في كل مناطق المغرب، سواء أكان أهلها ناطقين بالدارجة المغربية أو بالأمازيغيات، وظاهرة خزانات الكتب العربية في كل جهات المغرب في الزوايا والمساجد دليل واضح على ذلك. ولنا في الدستور الإنجليزي خير مثال، فهو مكون من **أعراف** دستورية ومن قوانين؛ والأولى لم تكن نتيجة قانون صدر بها وإنما هي مبادئ تعارف عليها الشعب الإنجليزي أو ممثلوه في مختلف العصور، وسار عليها نظام الحكم كما لو كان يسير على قانون مكتوب، فأصبحت مبادئ دستورية لا مجال لمخالفتها. ومن أمثلتها الأساسية أن مجلس الوزراء هو الذي يضطلع بالحكم لا الملك أو الملكة. وأن السلطة السياسية من حق الأكثرية في مجلس العموم. وأن البرلمان ينعقد سنويا. والقواعد التي تحدد للملك وللوزراء طريقة القيام بسلطاتهم، وكيف تعين الحكومة وكيف تستقيل، وممن تتألف، ومتى يجب على أحد الوزراء أن يستقيل، ومتى يحل البرلمان(15)...

هذا الوضع الدستوري اللغوي الذي كان عرفا منذ دخول الإسلام إلى المغرب، والذي لا يلحق أي ضرر بأي من سكان المغرب، كما سنرى لاحقا، والذي لا ينطوي على أي إجحاف في حق أي من جهات المغرب المختلفة، بدأ يتعرض للنقد والمطالبة بتغييره من طرف نزوعيين نشطاء في الحركة الأمازيغية، بحجة احترام مبادئ الديمقراطية والتعدد الثقافي. وهي حجج كما رأينا أعلاه تقف بالديمقراطية عند نقطة بعينها ولا تتجاوزها إلى لغات المغرب الأخرى، كما أنها تفهم التعدد بالشكل الذي يخدم أهدافها، بحيث يصبح دعوة إلى عدم الضبط وفتح الأبواب للارتجال ولكل اللغات لكي يتم ترسيمها على قدم المساواة مع اللغة العربية، وهو أمر مستحيل عمليا لتكلفته الباهضة ولإضعافه للنسيج الاجتماعي.

وللاطلاع على المسكوت عنه في مقولة التعدد الثقافي الذي يتخذ حجة لهذا المطلب، نورد نصا للسوسيولوجي الفرنسي آلان تورين يقول فيه : "إن عالم اليوم ملزم بالاعتراف بالتعدد الثقافي الذي هو جواب على عولمة الاقتصاد والثقافة. ذلك أن مجتمعا وطنيا متجانسا ثقافيا هو بطبيعته مجتمع مضاد للديمقراطية. فالمجتمع الدولي يتكون ويفرض على الذين قدموا من الجنوب الذهاب إلى الشمال والعيش هناك والعكس بالعكس. إن الازدواجية الاجتماعية والثقافية حاضرة في كل

مكان، كما أن السياسات التي تنهجها الدول تعمل على الدفاع عن الخصوصيات الثقافية في كل مكان. فبقدر ما كانت حرية القدماء تستند على المساواة بين المواطنين، فإن حرية المحدثين تتأسس على التنوع الاجتماعي والثقافي لأفراد المجتمع الوطني أو المحلي. إن الديمقراطية اليوم هي الوسيلة السياسية التي تحمي هذا التنوع، والتي تمكن أفرادا وجماعات تختلف فيما بينها أكثر فأكثر من **العيش سوية في مجتمع من المفروض فيه أن يشتغل كذلك بوصفه موحدا. ذلك أن أي مجتمع سياسي لا يستطيع أن يعيش إلا بلغة وطنية ونظام قضائي يسري على الجميع، حتى وإن كنا نقبل التعدد الثقافي أكثر فأكثر**"(16).

و ألان تورين في هذا النص، بقدر تركيزه على عناصر التنوع والتعدد والاختلاف، يركز على عناصر الوحدة والانسجام. وهذا التصور لا يستحضره فقط سواء بالنسبة لفرنسا أو بالنسبة للمجموعة الأوروبية، بل هو تصور لكل المجتمعات الرامية إلى تحقيق نوع من الحكامة الجيدة. وما يجب معرفته هو أن ألان تورين لا علاقة لطرحه بالتصور اليعقوبي للدولة، الذي لا يكل بعض النزوعيين من ترديده في كل السياقات، وخاصة في سياق الحديث عن الدستور المغربي وترسيمه للغة العربية ، بل هو أحد أقطاب مدرسة التعدد الثقافي التي تسيطر اليوم على الفكر، ومع ذلك فهو كما نرى يتعامل بواقعية مع التعدد ويعتبر بأنه لا ينافي الوحدة، بل الوحدة شرط ضروري من شروط وجوده.

إن مطلب دسترة الأمازيغية، ليس فقط كلغة وطنية ولكن كلغة رسمية،هو إذن مطلب غير واقعي، على عكس الاعتراف بالبعد الأمازيغي ضمن مكونات الهوية المغربية الذي لا يمكن لأي مغربي أن يتحفظ عليه، بل هذا هو الوضع الطبيعي الذي يجب أن تكون عليه الأمور. وهذا هو ما نجده ماثلا في الدستور الجزائري وفي الدستور التونسي الذي وإن تحدث عن الهوية التونسية بوصفها عربية إسلامية، فإن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى يوغرتن وهانيبعل وابن خلدون وسحنون بوصفهم رموزا لهذا البلد. أما فيما يخص التنصيص على وطنيتها فهو الآخر إجراء مشروع لكونه سيضمن الاعتراف بها وحمايتها من الضياع. والدستور الجزائري مرة أخرى متقدم في هذه النقطة، إذ التغيير الذي أدخل عليه في سنة 2002 نص على وطنية الأمازيغية بوضوح. أما بالنسبة للمغرب فإن هذا المطلب مطروح وهو مشروع مع مراعاة الإشارة إلى المكونات الأمازيغية الثلاث وإلى الحسانية والعربيات المغربية التي هي الأخرى، من وجهة نظر حقوقية صرفة، يجب الالتفات إليها. هذا مزيج من اللغات التي يتكلمها كل المغاربة والتي تعتبر اللغة العربية الفصحى الجسر والخيط الناظم لها ولمتكلميها، والمحققة للتواصل فيما بينهم على المستوى الحضاري والرمزي والثقافي.

ويبقى الإشكال مطروحا عندما نتحدث عن تحويل الأمازيغية إلى لغة رسمية، بداية يجب أن نعلم بأن رسميتها تعني اعتمادها في الإدارة والمراسلات الرسمية وفي وسائل الإعلام والاقتصاد وفي كل القطاعات الأخرى، وعندما نعلم أن الأمازيغية هي في الحقيقة أمازيغيات، فإن السؤال

الذي يطرح هو أي منها سوف نعتمده هل تاريفت أم تمازغت أم تاشلحيت ؟ ولنفرض جدلا أنها كانت لغة موحدة ورسمناها فعلا، فما الذي يمنع الصحراوي بأن يطالب هو الآخر بترسيم حسانيته، والعربيات المغربية الدارجة أليست هي الأخرى ذات معجم وتركيب ودلالة وتراث فني؟ فما المانع من دسترتها وترسيمها بدورها ؟

إن ترسيم لغة ثانية سيكلف أموالا باهضة وهذا ما تشكو منه كندا، وهي الدولة الغنية، التي تكلفها الثنائية اللغوية الرسمية ملايير الدولارات سنويا. إن طرح ترسيم الأمازيغية، مثله تماما مثل المعيرة والتوحيد، مطلب لا واقعي لأنه لا يراعي الواقع ولا التاريخ المغربيين. فالذين يطالبون به يفعلون ذلك من باب مساواتها بالعربية الفصيحة وضمان حقوق فئة من المغاربة في مقابل فئة أخرى. وهذا خطأ فادح ذلك أن اللغة العربية الفصيحة لغة لا تنتمي لأي جهة من جهات المغرب كما هو الشأن بالنسبة للحسانية أوَ العربيات المغربية أو الأمازيغيات الثلاث، كما أنها ليست لغة الاكتساب الأولى لأي من المغاربة؛ أي أنها ليست لغة الأم لأي منا. فهي لغة يتم تعلمها في المدرسة من طرف الكل، كما أنها لم ترتبط بأي عرق أو إثنية، فتاريخيا، كما فصلنا ذلك أعلاه، ساهم في نشرها وخدمتها الكثير من الأقوام الفرس واليونان والعرب والمسلمين والمسيحيين واليهود، أما الأمازيغ فقد اعتبروها لغتهم وألفوا في علومها الكثير من الكتب، وتبنوا حرفها... وكتاب الأجرومية الذي اعتمد لعدة قرون في تعليم النحو العربي يثبت أنهم أساتذة في تعليم هذه اللغة حتى للعرب أنفسهم.

وما يجعل هذا المطلب غير ذي موضوع هو أن العربية الفصحى حظيت بالإجماع من طرف كل المغاربة، سواء أكانوا ناطقين بالدوارج العربية أم بمختلف الأمازيغيات، بل إن يهود المغرب تاريخيا، وكما يثبت ذلك حاييم الزعفراني، لم تكن لهم أية عقدة تجاه العربية التي اعتبروها لغة لهم، فاستعملوها في نشاطهم الفكري في كتاباتهم الدينية والدنيوية في شريعتهم وعلومهم وفي ترجمة وتفسير التوراة وفي الشعائر والعبادات وفي النحو والمعجم كما في المراسلات، وكتابة مؤلفاتهم باللغة العبرية وبالحرف العربي أو بالعربية وبالحرف العبري أمر شائع عندهم، أفبعد هذا يقبل أن يأتي من يزايد على اللغة العربية الفصحى. إنه لو كانت لغة الدستور الرسمية هي إحدى اللغات المغربية المرتبطة بجهة أو فئة أو "قبيلة" ما، لحق لمن شاء أن يطالب بترسيم هذه الأمازيغية أو تلك، أما وأن الأمر مختلف فإن المطالبة بذلك عبث وعمل على تحويل المغرب إلى شبه برج بابل. والذهاب بهذا المطلب إلى أبعد حدوده سيدفعنا مستقبلا إلى اللجوء إلى لغة أجنبية لاعتمادها لغة رسمية، وهذا ماهو واقع في الهند التي تعتمد اللغة الإنجليزية لكثرة لغاتها وتنافسها فيما بينها، وهذا ما ينص عليه الدستور الهندي وما يقوله راجيش شارما مؤسس دار الآداب الهندية، الذي يعتبر أن اللغة الإنكليزية لغة الهنود المشتركة الحقيقية والوحيدة !

نقول إذن بأن هذه الدعوة تفتقد للمنطق ولا تراعي مبدأ الكلفة والفائدة وتتجاهل التاريخ الذي جعل العربية لغة للأمازيغ إلى جانب لغاتهم الأخرى وتصطنع صراعا وهميا لم يكن له وجود، إذ أن التمثلات والصورة التي يحملها الناطقون بالأمازيغية عن اللغة العربية الفصحى كلها إيجابية، ولا تشوبها أية عقدة كتلك التي نجدها في الخطاب النزوعي الداعي إلى بلقنة المغرب ثقافيا، بفك الجسور بين لغاته وثقافاته، تهييئا لبلقنته على المستوى السياسي وتحويله إلى بلد مكون من طوائف ينفي بعضها بعضا.

ضرورة التفكير في تعدد ثقافي مغربي

لقد تبين لنا أن الكثير من الاختلالات التي يعرفها الواقع اللغوي المغربي على مستوى الممارسة والتنظير والخيارات، يرجع في الكثير من جوانبه إلى دخول لغة الآخر وخططه على الخط الثقافي المغربي، فما فعلته فرنسا وأشاعته من دراسات وأفكار تجزيئية، والتي كللتها بالظهير البربري لسنة 1930، ما زالت إلى اليوم تسري في الكثير من الدراسات لمغاربة وفرنسيين(17). مثمرة تصورات تضرب التلاحم الاجتماعي في الصميم. و إذا أضفنا إلى ذلك أفكار فلسفة التعدد الثقافي التي توظف اليوم في المغرب بشكل سطحي دون الغوص في أبعادها وتنسيب نتائجها، تبين لنا سر الخلط والارتجال الذي يطبع تدبير هذا الملف الحساس.

إن عدم مراعاة الاختلافات الموجودة بين الواقع المغربي والواقع الموجود في الدول الأخرى، والانخراط في اتفاقية الشعوب الأصلية المهينة للمغاربة والمشوهة لتاريخهم، والرغبة في نقل السياسات اللغوية لهذه الدول إلى المغرب كما هي، يؤدي إلى نقل تاريخ تلك الدول بما يحمله من أحقاد وصراعات ونظرة شوفينية، لا تستبانه في واقعنا المغربي. والرؤية التي تحكم أصحاب هذه الآراء هو أن التعدد الثقافي هو هو في كل الدول، بينما التعدد قبل أن يكون وصفا للواقع هو فلسفة جاءت لتسد النقص الحاصل في المواطنة في دول بعينها، فانتهت نظريا وواقعيا إلى انحرافات خطيرة؛ فهي من منطلق إرادة احترام أنماط العيش وتمثيل مختلف الجهات، وقعت في أشكال من اللاتسامح ونبذ الآخر، نلاحظه اليوم واضحا في الأفكار النزوعية بالمغرب التي تعمل على تكليس الهويات الجهوية وتحديدها بشكل مغلق وتضخيم الخصوصيات وقراءة التاريخ قراءة عرقية.

إن العيش في إطار التعدد لا يمكنه النجاح ما لم ينبني على تقاسم مرجعيات مشتركة، وكل ما أوردناه في دراستنا هاته، كشف أن اللغة العربية الفصيحة تشكل عنصرا ضروريا لتحقيق هذا الهدف و لبناء الذات المغربية، دون إغفال للغات الأخرى أمازيغيات ودوارج، إلى جانب لغات التفتح (الإنجليزية والإسبانية والفرنسية...). فاللغة العربية تبقى هي وحدها القادرة، في السياق المغربي، على مواجهة تحديات العولمة ومنافسة الآخر، وهو أمر ممكن عندما نعلم أنها من بين لغات التواصل الكبرى في العالم.

هوامش :

1- أشكر الأستاذ عبد القادر الحضري الذي زودني بهذا النص المدرج في مقدمة الترجمة التركية لكتاب "بنية العقل العربي".

2- Hicham Djait, "Les cultures maghrbines travers l'histoire", in Les Cultures du Maghreb, ouv coll sous la direction de Maria-Angels Roque, éd. L'Harmattan, 1996.

3- Ignacio Ramonet, Deux ressorts pour construire l'identit culturelle, Le Monde Diplomatique, Mars 1989.

4- نفسه.

5- انظر : Mohamed Arkoun, langues, Socit et Religion dans le Maghreb indpendant in Les cultures du Maghreb, ouv coll sous la direction de Maria-Angels Roque, éd. L'Harmattan, 1996.

6- محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1994، ص. 215.

7- Gilbert Grandguillaume, Arabisation et politique linguistique au Maghreb, p. 24, éd. Paris, Mais

onneuve & Larose, 1983.

34, Juin, 2002. °8- Tel quel, n

9- محمد العثماني، ألواح جزولة والتشريع الإسلامي، دراسة لأعراف قبائل سوس في ضوء التشريع الإسلامي. الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص. 45، 2004.

10- محمد الأوراغي، التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2002. ص، 124.

11- Gilles Lafuente, La politique berbre de la France et le nationalisme marocain, éd. L'Harmattan, 1999, p.75.

12- محمد صديق خان، لقطة العجلان فيما تمس إليه حاجة الإنسان، بيروت، دار الكتب العلمية، ص. 115، 1985.

13- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المجموعة الوطنية للتقنية، 2003، ص. 40.

14- Abdallah Laroui, les origines sociales et culturelles du nationlisme marocain (1830-1912), Casablanca, Centre Culturel Arabe, 1993, p. 40.

15- عبد الكريم غلاب، التطور الدستوري والنيابي بالمغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 52، 1988.

16- Alain Touraine, Qu'est-ce que la démocratie ? éd. Fayard, p. 171, 1994.

لأخذ فكرة عن هذا النوع من الدراسات التي لم تستطع التخلص من النظرة الكولونيالية، انظر كتاب : Pierre Vermeren, Le Maroc en Transition, Paris, éd. La Découverte, 2001.

موقع اللغة الأمازيغية من التعدد اللغوي بالمغرب

ⴰⵏⵙⴰ ⵏ ⵜⵓⵜⵍⴰⵢⵜ ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ ⴳ ⵓⵎⴰⵟⴰ ⵏ ⵡⴰⵍⵙⵉⵡⵏ ⴳ ⵍⵎⴰⵖⵔⵉⴱ

محمد المدلاوي

تلخيص

يتناول هذا العرض الوضعيتين الفعلية والاعتبارية للأمازيغية في المغرب. وإذ يسطر أبرز أوجه الحركية التي طبعت هذا الملف السوسيو ـ ثقافي والسوسيو ـ سياسي مؤخرا ما بين التناول السجالي المبني أساسا على الأهواء كمنطلق وعلى "الدمغي" كأساس للتشخيص وبين المعالجة التدبيرية المبنية بالضرورة على العقلانية كمنطلق وعلى المعرفة العلمية بالواقع كأساس للتشخيص، فإنه يستعرض في عجالة بعض ما تحقق، لكنه يركز على الصعوبات التي تكتنف جوانب تناول الملف على مستوى التصور ومعالجة أمره على الصعيد الميداني(1).

التعدد اللغوي هو القاعدة

لقد طبع التعددُ اللغوي الفضاء المغاربي عامة والمغربي خاصة مند أن برز هذا الفضاء على مشهد التاريخ. وفي مناخ ذلك التعدد، وبفضل خصوبة وغنى تربته، أنتجت هذه الرقعة من العالم ما أنتجت، وساهمت بما ساهمت به، في صرح الحضارة الإنسانية، في ميادين العلم، والفن، والفلسفة، والأخلاق، والنظم، والملل والنحل، والعمران، وذلك من يوبا الثاني ـ في حدود المعرفة التاريخية الحالية ـ إلى القديس أغوسطين، إلى ابن رشد، وابن ميمون، وابن البناء المراكشي، وابن

سليمان الروداني، والسموأل بن يحيى المغربي، وابن قريش، وابن خلدون، والإدريسي، وابن بطوطة، وحسن الوزان، وإليا بن أمازيغ وغيرهم، وإلى أعمدة العلم والفكر والأدب والفن والنظُم في المغرب الحديث(2).

معالجة أمر التعدد اللغوي في المغرب

وقد كانت معالجة أمر هذا التعدد اللغوي إلى حدود منتصف القرن الماضي من باب **الأمور العفوية**، تحكمها العادة، والأعراف الجارية، والتقديرات المتواطإ عليها ضمنيا، وذلك من حيث توزيع الوظائف والرمزيات على اللغات المؤثثة لفضاء ذلك التعدد، إن تكاملا وإن تنافسا. لكن، ابتداء من الثلاثينات من القرن الماضي، بما عرفته تلك الفترة من بداية تطور سريع، ثم انتشار متزايد لمؤسسات الاتصال والتكوين والإدارة (مدرسة، قضاء عصري، إدارة، إذاعة، تلفزة)، ومن احتكار السلطة المركزية لمضامين تلك المؤسسات وأدواتها اللغوية، أصبحت معالجة المسألة اللغوية **معالجة رسمية**، وذلك من خلال النصوص والقرارات المنظمة لتلك المؤسسات من حيث أبعادها اللغوية، وبذلك أصبح الملف اللغوي من بين ملفات الشأن العام يتم التموقع السياسي بشأنه.

غير أن **المعالجة الرسمية** التي تجلت بالخصوص، بعد تجربة فترة الحماية، في تجربة **مشروع التعريب** مع بدايات الستينات من القرن الماضي، بما طبع هذه التجربة من إرادوية ومن طابع أحادي وشعاري، لم تشرع في استكشاف معالم **الطريقة التدبيرية** لتناول الملف اللغوي إلا مع المصادقة على نص الميثاق الوطني للتربية والتكوين في نهاية القرن الماضي، مع ما ترتب عن ذلك من تصورات إصلاحية للتعليم (ماي 2000). ولم يشرع هذا **التصور التدبيري** للملف اللغوي في بلورة تصورات ملموسة فيما يتعلق بالأمازيغية على الأخص إلا بصدور الظهير الملكي المؤسس للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية (17 أكتوبر 2001)، وما تلا ذلك وانبنى عليه من إخراج فعلي للمعهد إلى حيز الوجود، ومن الشروع في إدماج الأمازيغية في المدرسة، وبداية الاعتراف بها عمليا في المحيط العام.

موقع الأمازيغية من وظائفية التعدد، ما بين الميثاق والظهير

فيما عدا كلمتي "**استئناس**" و"**انفتاح**" (المادتان 61، 115 من "الميثاق") الخاليتين ـ بحكم انعدام الاصطلاح، من أي مضمون سوسيو ـ ثقافيّ جدّي، ومن أي مضمون تربوي بيداغوجي ملموس ـ لم يخول الميثاق الوطني للتربية والتكوين أيَّ **وضعيةٍ اعتبارية** للغة الأمازيغية، وهي لغة وطنية، ولا يُسند إليها أيّ **وظيفة سوسيو ـ تربوية أو سوسيو ـ ثقافية** واضحة يمكن أن تُرسم على أساسها أهدافٌ تربوية تكون أساسا للتقويم. بينما كان ذلك الميثاق واضحا بالنسبة لوظائف كل من اللغة العربية واللغات الأجنبية. فلقد حدد الوضعية القانونية للغة العربية باعتبارها **اللغة الرسمية للبلاد بمقتضى الدستور**، كما يُسجِّل الميثاق نفسه ذلك، ويستند إليه، من خلال مادته 110، حين نصّ على أن تعليم تلك اللغة "إلزامي لكل الأطفال المغاربة، في كل المؤسسات التربوية العاملة في المغرب، مع

مراعاة الاتفاقيات الثنائية المنظمة لمؤسسات البعثات الأجنبية"، وذلك حتى يتسنى "تعزيزها واستعمالها في مختلف مجالات العلم والحياة" (المادة 111، أنظر كذلك المواد 112، 113، 114 من الميثاق). إلى جانب ذلك، حدد ذلك الميثاق وظائف وغايات للغات الأجنبية باعتباره إياها **حوامل للمعرفة العلمية الحديثة**. ولذلك، فإن برنامج التحكم في تلك اللغات وتنمية تدريسها، والرفع من مستوى ذلك التدريس (المادة 117) في إطار ازدواج أو تعدد لغوي مع العربية، قد تصوره ذلك الميثاق على أساس غايات تتوخى العمل على رسملة القدرات والملكات التعبيرية العلمية المكتسبة بفضل ذلك الازدواج أو التعدد، وتحويلها بالإكساب والتطويع إلى متن اللغة العربية وبنياتها، في إطار **برنامج لتأهيل هذه اللغة تأهيلا علميا** كما سطر الميثاق ذلك في المادة 112؛ وهو تأهيل يلعب فيه **التحكم في اللغات الأجنبية** دورا أساسيا باعتبار ذلك التحكم **وظيفة من الوظائف التربوية** بالمدرسة المغربية، يُتوخّى من ورائها **هدفٌ سوسيو - ثقافي أسمى** هو التأهيل العلمي للغة العربية.

ومع ذلك، يمكن القول إن مجرد إقدام الميثاق على إدراج اللغة الأمازيغية، باعتبارها واقعا وطنيا، ضمن أوراق الملف اللغوي، زيادة على اعترافه الصريح للغات الأجنبية بوظائف وأدوار واضحة ومتفاوتة في غاياتها وأهمياتها ومرحلياتها، لهو شيء ينم عن أن **المفهوم التدبيري** للملف اللغوي كان قد لاح في أفق أذهان الفاعلين، ولم يعد أمر الذهنية على ما كان عليها إبّان تجربة مشروع المعالجة الستينية لذلك الملف، والتي كانت أبعد ما تكون عن مفهوم التدبير.

التصور التدبيري لمعالجة الملف اللغوي

فماذا يعني التصور التدبيري لمعالجة ملف من الملفات؟ إنه يعني الوعي بأن لقطاع الملف المعني وجها معرفيا يتعين إعداد دراسات عنه من باب المعرفة بواقع القضية، وذلك قبل الإقدام على اتخاذ مواقف وقرارات وتدابير بشأن ذلك الواقع، بما في ذلك موقف الإرجاء المرحلي أو اللامبالاة. وبهذا المفهوم، وباعتبار الملف اللغوي الوطني عامة، وموقع اللغة الأمازيغية منه على وجه الخصوص، شأنا عاما ومسؤولية وطنية تتأسس على كيفية تدبيره التوازنات الوطنية الكبرى وتتحدد بمقتضى كيفية معالجته حظوظُ وآفاقُ ومعالمُ المستقبل، وباعتباره شأنا لا تعني معالجةُ أمره، في هذا الاتجاه أو ذاك، مجرد فئة معينة بعينها، لا كفاعلة فيه دون غيرها، ولا كمستفيدة من نتائجه في هذا الاتجاه أو ذلك دون غيرها؛ بناء على كل ذلك، فإنه يتعين على كل فاعل من الفاعلين في فضاء الشأن العام أن يتوفر على ملف ميداني للمسألة الأمازيغية، ليس فقط من باب إعداد عُدة مهارات التموقعات السياسية - وهذا أمر عاد ومشروع على كل حال - ولكن كذلك من وجهة المعرفة بواقع القضية في حد ذاتها، بغض النظر عن حقائق تموقع الأطراف المختلفة إزاءها.

والحال أن أوجه واقع الأمازيغية متعددة كما هو شأن بقية اللغات عامة، ولكن على الأخص منها تلك التي اخترقت مسافات التاريخ بعبقرية خاصة بعد أن عايشت، بأوجهها المتعاقبة، كلا من الفينيقية، ثم البونيقية، ثم الأغريقية، ثم اللاتينية، ثم الآرامية، ثم العربية، ثم اللغات المعاصرة،

وبقيت عبر الزمن حية بآدابها في الوجدان وعلى اللسان، يشكّل نبضُ ثقافتها بتجلياته المختلفة ضمانةَ تميُّزِ أمةٍ متعددةِ الأبعاد والمشارب وضمانة عدمِ ذوبان تلك الأمة في غيرها من الأطر الثقافية والسياسية، بينما لف تاريخُ الأولين بدرجات متفاوتة من الختم والتحنيط بقيةَ تلك اللغات في توابيت متحفه. فهناك المعرفة بالواقع السوسيولغوي لتلك اللغة (أوجهها، وجوامعها، وخارطتها، وأطالسها، ووظائفها)، وبواقع مخزونها الأدبي بأنواعه، وبتاريخ تداول وحفظ تراثها الفكري والأدبي، وتعايشها وتداخلها مع غيرها من اللغات بدرجات متفاوتة، وكذا تاريخ وواقع الدراسات اللغوية والأدبية والأثنوغرافية المتعلقة بها منذ قرون، وواقع مكتبتها المخطوطة منها والمطبوعة، وتاريخ تجاربها مع الكتابة ومع الشفهية عبر القرون، وأخيرا وعلى الخصوص، ما تمثله عاطفيا بالنسبة للشخصية المغربية، سواء في أوجهها الصريحة باعتبارها لغة **العلاقات الحميمية** بالنسبة لأعداد واسعة من المغاربة والمغربيات، أم في أوجهها الكامنة وراء مظاهر هي ثمرات من الثمار الطيبة للتاريخ المغربي، كالعربية المغربية الدارجة بأصواتها، وصرفها، وتراكيبها، وأمثالها وأحاجيها وأزجالها، ومثل كثير من فنون الطرب والغناء المغربي الأصيل كطرب الملحون، والموسيقى المغربية الأندلسية، وليس هنا مقام إثبات ما نذهب إليه هنا مما تمت فيه دراسات كان لنا فيها إسهام ومنها نصيب(3).

ومن باب عمل أي مؤسسة ثقافية أو سياسية أو تسييرية معينة على تأهيل نفسها في الميدان عن طريق إعداد **ملف جدي** من الدراسات يتجاوز المفهوم السياسوي التقليدي لمضمون الملف التقني - هذا المفهوم الذي يقتصر عادة على تعقب وتسجيل المواقف والتصريحات الخاصة بالأفراد والهيئات والمؤسسات قصد الاستخدام السياسي - يتعين الاحتراز من **تذويب ملف الأمازيغية في صلصة شعار "التعدد"**، الذي ينذر أمر ابتذاله بأن يصبح شعارا استهلاكيا للتعويم، مع أنه واقع قائم لا يحتاج إلا إلى تدبير عقلاني. فللأمازيغية والعربية في المغرب أبعاد خاصة لا يمكن تذويبها في مجرد مقولة التعدد، التي تندرج تحت قبعتها حتى اللغات الأجنبية. ولقد نبهت إلى ذلك من خلال محاضرة بعنوان **"اللغة العبرانية في عشرية تدبير اللغات الأجنبية بالمغرب"** كنت قد ألقيتها بالمعهد الجامعي للبحث العلمي بدعوة من المنتدى المغربي للمصطلحيات والترجمة (الرباط يوم 09 يونيو 2005)، وذلك حينما قلت :

"فقد كان يتعين أن تكون اللغة العبرانية من بين اللغات المدرجة والممثلة في أشغال اللجنة المشتركة التي تنكب حاليا على تفاصيل **المخطط العشري للغات**، وكذلك في أشغال برامج الملتقيات التي تنظمها الآن بالضبط بعض المؤسسات الأكاديمية بموازاة مع أشغال تلك اللجنة، وألا يترك أمر تلك اللغة لمجرد العفوية والمبادرات الشخصية، وذلك **بدلا من إدراج التخطيط للغة الأمازيغية في أشغال تلك اللجنة وفي تلك البرامج الأكاديمية** كما هو حاصل الآن. ذلك لأن الإطار المرجعي للجنة المذكورة لا يمكن أن يتمثل إلا في النقطة السادسة من المادة 117 من الركيزة التاسعة للميثاق الوطني للتربية

والتكوين التي تنص على أنه "يتعين إعداد **مخطط عشري** للنهوض **باللغات الأجنبية** قبل يونيو من سنة 2000". إنه الإطار الوحيد الذي يتحدث عن **مخطط عشري للغات**، وهو مخطط مقصور بحكم النص على **اللغات الأجنبية**. **ومن المعلوم أن اللغة الأمازيغية ليست لغة أجنبية في المغرب**، وأن إدراجها في مثل هذه الأطر ينطوي على غير قليل من الخلط إذا ما صفت النيات، أو على كثير من التبييت إذا لم يكن الأمر كذلك، وكلتا الحالتين منافية للمصالح العليا للأمة المغربية.

التعدد اللغوي والأبعاد الخاصة

إن هناك بالفعل تعددا في الوظائف ما بين اللغات المتعايشة، إنْ تكاملا وإنْ تنافسا، في قطاعات السوق اللغوية المغربية كما هو الشان في كل فضاءات التعدد اللغوي. غير **أن من الأبعاد والوظائف ما لا تصح فيها المنافسة**. إنها الأبعاد الخاصة، التي لا تسمح بأن يتم تذويب لغة وطنية ذات أسس هوياتية في الصلصة العامة للتعدد، على قدم المساواة مع بقية اللغات النفعية المتقلبة أحوالـُها حسب الظرفية (كانت الفينيقية ثم الإغريقة ثم اللاتينية يوما، وغدا قد تكون الصينية أو اليابانية). وفي هذا الصدد يسجل الظهير المؤسس للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية تقدما كبيرا بالقياس إلى الميثاق، حيث ينص الأول تنصيصا، في إطار "تعميق السياسة اللغوية المحددة في الميثاق الوطني للتربية والتكوين والقائمة من بين ما تقوم عليه، على إدراج الأمازيغية في المنظومة التربوية " (الفقرة 6 من بيان الأسباب الموجبة للظهير)، على **البعد الأمازيغي ضمن أبعادِ الهوية الوطنية** (الفقرة 2 من بيان الأسباب الموجبة للظهير). كما أن ذلك الظهير قد جعل من بين أهداف المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية العملَ على تسهيل تدريس الأمازيغية وتعلُّمها وانتشارها بشكل يضمن "**تكافؤ الفرص أمام جميع أطفال بلادنا في اكتساب العلم و المعرفة ويساعد على تقوية الوحدة الوطنية**" (الفقرة 77 من بيان الأسباب الموجبة). وفي هذا الاتجاه يضع من بين مهمات المعهد المؤسِّس مهمة "الإسهام في إعداد برامج للتكوين الأساسي والمستمر لفائدة الأطر التربوية المكلفة بتدريس الأمازيغية، والموظفين والمستخدمين الذين تقتضي مهنتهم استعمالها، وبوجه عام كل من يرغب في تعلمها" (الفقرة 5 من المادة 3). كما أن الظهير يُسند وظائف أخرى للغة الأمازيغية ويتصور لها موقعا في الفضاء السوسيو ـ لغوي العام، زيادة على تسطيره **لأبعادها الهوياتية ولوظائفيتها القطاعية**، وذلك حين تحدث عن سياسة يتعاون من خلالها المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية مع السلطات الحكومية والمؤسسات المعنية "**تساعد على إدراج الأمازيغية في المنظومة التربوية وضمان إشعاعها في الفضاء الاجتماعي والثقافي والإعلامي الوطني والجهوي والمحلي**" (المادة الثانية من الظهير).

الصعوبات الحالية في تدبير ملف الأمازيغية

لقد تم قطع أشواط مهمة في إطار تدبير شأن اللغة الأمازيغية، وإن كان ذلك يتم لحد الآن بمقتضى التجريب وتحت ضغط وطأة استرضاءات الشارع، وليس على أساس وعلى ضوء دراسات وتصورات استراتيجية منجمة على القطاعات، وممرحلة في الزمن، حسب الأولويات وبالوتائر

التي يقتضيها إعداد الدراسات التشخيصية والأدوات الأكاديمية والتربوية والبشرية. فلقد فُكَّت العقدة على المستويات السياسية العليا بعد إبرام اتفاقية الشراكة بين وزارة التربية الوطنية والمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية (23 يونيو 2003) تأسيسا على نص وروح الظهير المؤسس لهذا المعهد وعلى مختلف النصوص الأخرى الممهدة له؛ وتمت معيرة الإملائية الأمازيغية، ومعيرةُ نصيب من المفردات الأساسية، والتراكيب الأولية، وأُعدت بعض أدوات المصاحبة البيداغوجية (مدخل إلى الأمازيغية، معيرة الأمازيغية، كتب التلميذ والأستاذ 1، 2، 3)، وتم إصدار ما يفوق أربعين مؤلفا في مدة قياسية من طرف المعهد الملكي "إركام" مما له تعلق بالثقافة الأمازيغية ؛ كما أُبرم ضعف ذلك من تعاقدات البحث مع باحثين من خارج المعهد ؛ ثم شُرِع في التجربة الميدانية لإدماج الأمازيغية في المدرسة بشكل فعلي منذ سبتمبر 2003، ولو أن ذلك قد تم وما يزال يتم باللجوء إلى إجراءات موقتة على مستوى تكوين الأساتذة، وهو أمر كان لابد منه لضمان البدء وتكسير بعض الحواجز السيكولوجية المترسبة من تكوين ثقافي وتربوي سابق لم يكن في توافق مع الواقع المغربي. كما أن الأمور بدأت تتحرك على مستوى الإعلام السمعي البصري بعد إبرام اتفاقية بين المعهد الملكي ووزارة الاتصال وأن بقي أن يتم مثل ذلك مع المعهد العالي للصحافة وغيره من المؤسسات المماثلة.

إلا أن جرأة المبادرة بالبدء، تلك، التي تمت في ميدان التكوين والتخطيط التربوي خاصة، بما استتبعته من إجراءات مؤقتة كان لا مفر منها في البدء، كما قلت، نظرا للظرفية الخاصة التي طبعت تأسيس هياكل المعهد على الخصوص، قد أصبحت تبدو منذ أكثر من سنة وكأنها قد **رسّمت تلك الإجراءات الموقتة واتخذتها نهجا ومنهاجا قارين لتكوين المكونين في باب الأمازيغية.**

فليس من باب التدبير الرشيد لإدراج الأمازيغية في مكانتها من المدرسة ومن المحيط عامة في إطار تدبير عقلاني وطني للملف اللغوي في أفق تنمية وإعداد العنصر البشري، أن يتم الاستمرارُ، للسنة الثالثة على التوالي، في استنزاف ميزانية المعهد، وفي هدر وتبذير الطاقات الفكرية والفيزيقية لباحثيه ـ وهم بضعة أفراد في كل من مركز التهيئة اللغوية ومركز البيداغوجيا ـ عن طريق البعث المنهجي بهؤلاء في كل مرة، على حين غرة منهم (ونصفهم نساء)، متنقلين ومتنقلات في الأصقاع بسافلة العملية التكوينبة ما بين العيون، وورززات، ووجدة، وطنجة وما بينها جميعا من مدن أخرى، ليقيموا بالفنادق بضع ليال وبضعة أيام يلتقي الواحد منهم خلالها لما متوسطه ثلاثة أيام بجمهور عريض من الأساتذة المرشحين للتكوين من ذوي أعمار متقدمة، بما في ذلك عمر من يشرف على التقاعد، والمستقدَمين بدورهم من مختلف الآفاق في ظروف استعجالية، وانطلاقا من لوائح اعتباطية لا يمكن معها للمؤطرين المضيّ في متوالية متدرجة (évolution progressive) بما أن المستفيدين غالبا ما يتراوحون ما بين من سبق لهم أن استفادوا من دورة أو دورتين، وممن مارسوا تعليم الأمازيغية بشكل عصامي لسنة أو لسنتين، في مستوى واحد أو مستويين، والذين يشعرون لدرجات متفاوتة بملل التكرار، وما بين من لم يسبق لهم أن استفادوا من أي دورة سابقة والذين

يجدون صعوبة في مواكبة مضامين التكوين على ما تتصف به من تكرار بالنسبة للبعض الآخر.

وليس من التدبير الجدي والمسؤول في شيء المضي في مثل تلك الترقيعات المهدئة وانتظار طفوّ أُزيمة إعلامية ظرفية على هذا المستوى أو ذاك للإسراع إلى "إعادة الروح" إلى اللجنة المشتركة (إركام ـ وزارة التربية) وإلى المناداة الاستعجالية على "الباحثين" في المركزين المذكورين ليتوزعوا في الأصقاع بالتاريخ الفلاني المعيّن في غيبة عنهم، وبقطع النظر عن رُزنامات برامج بحث ذينك المركزين، وذلك لأداء ما يشبه رقصة "التكوين" بشكل فولكلوري إعلامي يوهم فيه كلّ طرف بأنه قد أدى مسؤوليته.

ولقد سبق لي، في محاضرة بالمعهد الجامعي للبحث العلمي (الرباط ـ 27 يناير 2005) نُشر نظيرُها في النشرة الإخبارية للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية "ينغميسن ن وسيناك"، ع : 3–4 مارس 2005، أن قلت ما هو قريب مما يلي، انطلاقا من تجربتي الميدانية في تلك العمليات التكوينية الترحالية مند تدشينها في صيف 2003 بالرباط (30 ماي ـ 1 يونيو ؛ ثم 1–11 يوليوز) :

«إن الخطة الاستعجالية للتكوين السريع (أي دورات تستدعى إليها مصالحُ الوزارة مجموعاتٍ من "المكلفين بتدريس الأمازيغية"، و"يؤطرها" باحثون من المعهد الملكي لما بين 3 أيام وأسبوع) قد استنفدت كل إمكانياتها. وإن الاستمرار في المراهنة عليها وحدها بالرغم من التوسع السنوي المنتظر لدائرة الخارطة المدرسية المنتظر تغطيتها بمقتضى الخطة الوزارية التي تراهن على التعميم الأفقي والعمودي للأمازيغية في حدود 2010، لفيه إهدار لطاقات الموارد المادية والبشرية للمعهد، وفيه شغلٌ لتلك الطاقات عن إنجاز مهام البحث في ميادين معيرة اللغة والمساهمة، بتنسيق وتعاون مع المؤسسات الأكاديمية والتربوية المعنية، في توفير الأدوات البيداغوجية اليومية (كتاب التلميذ، كراريس نحوية، مرجع معجمي أساسي، دليل تدريس لفائدة الأستاذ، ديداكتيكية أكاديمية خاصة لفائدة المرشدين التربويين ومراكز تكوين المكونين) وكذا أدوات الإرشاد والتقويم. كما أن من شأن الاستمرار في المضي في ذلك النهج أن يعمل على تدنّ مستمر لمردودية ذلك التكوين نفسه، الذي يتم لحد الآن في السافلة (أي في الميدان) بدل أن يتم في العالية (مراكز التكوين ومدارس الأساتذة)»؛ إنه تدنّ من شأنه أن يترسخ ويحتد كلما اتسعت الخارطة المدرسية وتعددت "المستويات"، إلى درجة قد تفضي في النهاية إلى إعلان الإخفاق التام كاحتمال ممكن.

وقد أضفت في تلك المحاضرة قائلا :

«بأن الوقت قد حان للانتقال من **خطة استعجالية واستثنائية للتكوين** في فضاءات عابرة تُحشر فيها من حين لآخر ليومين أو ثلاثة جموعٌ غفيرة من المرشحين للتكوين، ونزر قليل من المكونين الرّحّل، نحوَ **خطة عادية لتخريج الأطر الشابة في مراكز التكوين الأولي، وفي المراكز التربوية الجهوية، وفي المراكز الجامعية لتكوين المكونين**، التي تنص عليها المادة 116 من الميثاق الوطني للتربية والتكوين، خطة

عادية يساهم فيها المعهد هذه المرة بتأطير **يتم في العالية بشكل مركزي** أكثر ترشيدا ومردودية، ويتناسب مع إمكانيات المعهد موارده البشرية كمّاً وكيفاً»، بدلا من تذويب طاقات تلك الموارد البشرية والمادية بإقحامها الميداني الموسمي من حين لآخر في فضاءات تضارب الاختصاصات، والتقديرات والمبادرات، وحتى المواقف أحيانا ما بين بعض المصالح الإقليمية والجهوية لوزارة التربية الوطنية من أكاديميات جهوية ونيابات إقليمية. هذا وإن الأطر المرجعية لتلك الخطة العادية متوفرة ويكفي توجيه الجهد التدبيري والتشاركي في اتجاه تفعيل ما تتيحه من إمكانيات العمل، إذ تقول المادة 112 من الميثاق الوطني للتربية والتكوين مثلا :

Il sera crée, auprés de certaines universités à partir de la rentrée universitaire 2000-2001, des structures de recherche et de développement linguistiqu et culturel amazigh, ainsi que de formation de formateurs et de développement des programmes et curricula scolaires. (art 116 de la Charte de l'Education).

وفي إحالة واضحة على المادة أعلاه، تحدد المادة 3 من الظهير المؤسس للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية المهمةَ السادسة من مهام المعهد في : **"مساعدة الجامعات إن اقتضى الحال، على تنظيم المراكز التي تعنى بالبحث والتطوير اللغوي والثقافي الأمازيغي وعلى تكوين المكونين"**.

خلاصـــــة

معنى كل هذا أن مسألة الصعوبات العملية الحالية لإدراج الأمازيغة في مكانتها الوطنية، كما يقتضي ذلك التدبير الوطني العقلاني للملف اللغوي هي مسألة أكبر من مجرد مسألة ثغرات لوجيستيكية أو إدارية يومية (عدم تعميم توزيع الكتاب المدرسي، تقاعس هذه الأكاديمية أو تلك عن الإعلان عن دورة "تكوينية"، الخ) كما رددت ذلك أطراف كثيرة من بينها بعض أعضاء مجلس إدارة معهد الإركام نفسه خلال دورته العادية لشهر مارس (24-25) 2005 كما لخصت ذلك الصحافة؛ ولا هي متعلقة من جهة أخرى بانعدام الأطر المرجعية والقانونية الكفيلة باستيعاب الطاقات العلمية والعملية المتوفرة، إذ أنه وإن كانت هناك قُبُلٌ للعمل والتدبير ما تزال تنتظر نصوصا تؤطرها في الوثائق المرجعية بعد تحيينها (مسائل الوضع الاعتباري، والوظائف والأهداف، وما يتعلق بها)، فإنه لم تُستنفذ بعدُ جميعُ الإمكانيات التي يوفرها مجردُ النصوص الموجودة وما تسمح به من استراتيجيات للتخطيط والعمل (مخطط جدي لإعداد الخارطة المدرسية المتدرجة على أسس سوسيو ـ إحصائية، مخطط لتخريج مكونين شباب ما بين الجامعة ومراكز التكوين بتشارك مع المعهد الملكي، مخطط للتعاون مع المؤسسات المعنية قصد تكوين وإعادة تكوين صحفيي القنوات الإعلامية، الخ.). وبذلك **يبقى الأمر، إذن، مجرد مسألة مدى توفر الإرادات الصادقة، والمبادرات المستقلة عن الاسترضاءات الفورية، في هذا القطاع أو ذلك، وعلى هذا المستوى أو ذلك من مستويات المسؤولية المؤسسية أو الفردية.** والمأمول هو أن يكون اللقاء الذي تم مؤخرا بين وزير التربية الوطنية وعميد المعهد الملكي للثقافة الأمازيغة يوم 19 أكتوبر 2005 منطلقا لبرنامج **خطة جدية قارة** للتكوين

الأساسي المركز لأساتذة الأمازيغية، يتعاون على إنجازه المعهد والجامعة ومؤسسات التكوين التربوي لتجاوز **الخطة الاستعجالية الترقيعية والاسترضائية** في ميدان التكوين، التي تستنزف من المال والطاقات ما لا يتناسب مع مردودها المحدود والمعرض للتدني المستمر بسبب ما يولده من إحباطات وإنهاكات.

وتجدر الإشارة بخصوص ضرورة توفر تلك الإرادات والمبادرات إلى ما تنص عليه مثلا الفقرة 7 من الخطاب الملكي بأجدير (17 أكتوبر 2001) من "**أن النهوض بالأمازيغية مسؤولية وطنية**"، أي أن جميع المؤسسات التي يعنيها الشأن العام، سياسيةً كانت أم ثقافية مدنية، أم تشريعية، أم حكومية، أم أكاديمية، مدعوةٌ إلى تحمّـل مسؤولياتها بالمشاركة الفعالة في هذه الورشة الوطنية، وأنّ **إنشاء المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية يتعين ألا يُعتبر إعفاءً لأي طرف مِن تحمّـل نصيبه من المسؤولية** بما أن المواطنة عينيةٌ وليست مما يجزي فيه البعض بالكفاية عن بعض. أما الذهاب إلى حد اعتبار المشاكل الحالية لإدراج الأمازيغية في المكانة اللائقة بها مشاكل ذات طابع دستوري فقد بينت ما يعن لي بشأنه في مساهمة سابقة ولا داعي لتكرار ذلك هنا، وقل نفس الشيء بالنسبة للعلاقة التي يتعين قيامها ما بين الدراسات الأمازيغية والدراسات العربية في إطار تطوير قدرات اللغتين معا كي يضطلع كل منهما بدوره المتميز ضمن المنظومة الثقافية المغربية الغنية[4].

هوامش :

1- هذا نص عرض كان قد ألقي في مائدة التعدد اللغوي بالمغرب. مؤسسة علال الفاسي - الرباط. 29 أكتوبر 2005 ووزعت منه خلال ذلك صيغة أولية تحتوي على جوهر النقط المعالجة.

2- كان الملك يوبا الثاني يتقن الأمازيغية كلغة أمّ ولغة تخاطب يومي وأدب محلي، واللاتينية كلغة إدارة، والإغريقية كلغة علم وفلسفة، وبها ألف ما ألف ؛ وكان القديس أغوسطين، مشيد الصرح الكلامي للديانة السماوية الثانية، يتقن الأمازيغية كلغة أم ولغة تخاطب يومي وأدب محلي، والإغريقية كلغة فلسفة واطلاع على الملل والنحل الأولى، واللغة اللاتينية كلغة كتابة وتأليف بعد أن تطورت وتهذبت ؛ وكان موسى ابن ميمون يتقن العربية والعبرانية والآرامية والقشتالية، وكان الرياضي وعالم الملل والنحل السموٌل بن يحيى المغربي مثل ذلك ؛ وكان يهودا بن قريش يتقن العربية والأمازيغية والعبرانية والآرامية وكان أول من أسس علم اللغة المقارن من خلال رسالته الشهيرة إلى جماعة يهود فاس يدعوهم فيها إلى تعلم العربية والآرامية إلى جانب العبرانية ؛ وكان حسن الوزان يتقن الأمازيغية والعربية الرومانثية والإطالية والعبرانية ؛ وكان ... المختار السوسي يتقن الأمازيغية والعربية، وكان علال الفاسي يتقن العربية والفرنسية. وكان الحسن الثاني يتقن العربية والفرنسية ويلم بعدة لغات أخرى ومنها الأمازيغية. والمفكران عبد الله العروي و محمد عابد الجابري يتقنان العربية والفرنسية، ويضيف العروي الاسبانية فيما أعتقد، ويضيف الجابري الأمازيغة كلغة أولى. وعبد السلام ياسين، الذي ألف كل ما ألف في أيديولوجيا النظـُم والأخلاق، يتقن عدة لغات إلى جانب الأمازيغية، وكان قد تناظر كتابيا مع الأكاديمي محمد شفيق، صاحب المعجم العربي الأمازيغي الضخم والمتضلع كذلك في الفرنسية، في شأن معالجة المسألة اللغوية فاختلفا، كما اختلف معهما في النظرة إلى الأمر محمد عابد الجابري، مع أن الأمازيغية كلغة أمّ وكثقافة يومية مباشرة وصريحة تجمع بين الثلاثة، مما يبين بالملموس أن التموقع بالنسبة للتعامل مع الشأن اللغوي لم يكن يوما مسألة إثنية بقدر ما كان دائما أمر تقدير وتفكير وأيديولوجيا حسب اختلاف المشارب وتبدل الأحوال. انظر مقالنا :

Elmedlaoui, M. (2003) "Le berbère et l'histoire du plurilingisme au Maghreb (le cas du Maroc)". Prologues N° 27-28/2003 (L'amazighe : les défis d'une renaissance) pp : 83-100.

3- انظر على سبيل المثال :

المدلاوي، محمد (2001) "الأسس العروضية لشعر الملحون والزجل المغربي عامة" ؛ ص 129–137 من البحث في الطرب الغرناطي: حصيلة وآفاق. إعداد مصطفى الغديري ؛ منشورات كلية الآداب - وجدة، رقم 14؛ سلسلة ندوات و مناظرات، رقم 21

المدلاوي، محمد (2003)

أ – "بنية الأبحر العروضية الأمازيغية على ضوء العروض الخليلي". محاضرة ألقيت في خيمة الفكر والإبداع، الدورة الرابعة. تنظيم جمعية فاس - سايس. فاس 11–13 اكتوبرالمدلاوي، محمد (2003)

ب– "نحو تدوين الآداب الشفهية المغربية في إطار الحرف العربي الموسع"، أعمال ندوة الأمثال العلمية في المغرب ؛ تدوينها، وتوظيفها العلمي والبيداغوجي. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ؛ سلسلة "الندوات". الرباط 2003. ص: 159–223.

المدلاوي، محمد (2005)،

أ – "عروض، وطبوع، وإيقاعات أغنية الروايس الأمازيغية (مشروع قاعدة معطيات مؤعددة)". ملتقى فاس الأول للثقافة الأمازغية الذي نظمته جمعية فاس - سايس كلية الآداب ظهر المهراس، المجلس الجهوي والإركام (فاس 10–13 مارس 2005). ينشر نصه ضمن أعمال الندوة، وقد نشر تلخيص غنه في إيمازيغن (Imazighen) ع : 15 (يونيو/يوليوز/غشت 2005.

شفيق، محمد (1999) الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة "المعاجم"

Elmedlaoui, M. (1998) b "Le substrat berbère en Arabe Marocain : un système de contraintes"; Langues et Littératures, vol. XVI 1998 (Contact et évolution historique des langues au Maroc), pp : 137-165. Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Rabat.

Elmedlaoui, M. (2000) "L'Arabe Marocain : un lexique sémitique inséré sur un fond grammatical berbère" ; pp : 155-187 in Salem Chaker, éd. Etudes Berbères et Chamito-Sémitiques ; mélanges offerts à Karl-G. Prasse ; réunis par Salem Chaker et Endrjez Zaborski. Peeters : Paris - Louvain 2000.

Dell, F. & M. Elmedlaoui (2002) Syllables in Tashlhiyt Berber and in Moroccan Arabic ; the Kluwer International Handbooks in Linguistics ; vol. 2 ; Kluwer Academic Publishers Dordrecht / Boston / London.

Elmedlaoui (à paraître) "Métrique, rythmes et modes de la chanson amazighe des 'rways' ; un plaidoyer pour la sauvegarde du pentatonisme de la musique marocaine" ; à paraître en hommage dans un ouvrage collectif. Publication de l'Institut Royal de la Culture Amazighe. Un résumé journalistique en a été publié dans plusieurs journaux dont Le Matin du Sahara (09-04-2005).

انظر على التوالي :

المدلاوي محمد (2005)

ب– "قضايا لسانية معاصرة" (حوار أجراه حافيظ اسماعيلي علوي، ومحمد الملاخ) نشر في مجلة منتدى الحوار، عدد 22 (غشت 2005)، ص : 22–28 ؛ وفي مجلة فكر ونقد، عدد 27 أكتوبر 2005، ص : 98–111.

ج – "أسئلة راهنة حول الأمازيغية" (حوار أجراه محمد خطابي، حافيظ اسماعيلي علوي، ومحمد الملاخ) يصدر في مجلة قراءات ، عدد 2 (خريف 2005).

مكانة الأمازيغية
في السياسة اللغوية لمغرب اليوم

الحسين وعزي

مقدمة

يشكل إعادة طرح السؤال اللغوي في مغرب اليوم مناسبة ثمينة لمواصلة الحوار القديم الجديد حول مكانة اللغة الأمازيغية في السياسة اللغوية المتبعة في بلادنا. وأرجو أن يساهم هذا الحوار في إبراز مختلف التحليلات والمواقف والتصورات التي يتعين استثمارها رسميا وشعبيا من أجل إرساء سياسة لغوية وطنية تراعي المبادئ الديمقراطية لمعالجة المشاكل المرتبطة بالتعدد اللغوي وعدم التجانس الثقافي، وتعطي للأمازيغية كلغة هوية المكانة التي تستحقها لتساهم في التقدم المجتمعي الشامل.

ومساهمة مني في هذا الحوار عبر صفحات مجلة "آفاق" سأبدأ بإعطاء لمحة موجزة عن السياسة اللغوية السائدة، لأوضح بعد ذلك كيف تم إهمال اللغة الأمازيغية في هذه السياسة والعوامل التي أدت إلى ذلك الإهمال، ثم أعطي في الأخير نظرة موجزة عن بوادر ورهانات سياسة لغوية جديدة يتم من خلالها السعي إلى الحفاظ على اللغة الأمازيغية والنهوض بها.

1- لمحة عن السياسة اللغوية السائدة

احتلت اللغة العربية مكانة متميزة في السياسة اللغوية المتبناة رسميا غداة الاستقلال. فقد قدم الخطاب السائد استعمال اللغة العربية في التعليم والإدارة كمظهر من مظاهر السيادة الوطنية وكأداة للتحرر الوطني. إن الأمر يتعلق في الواقع برد فعل ضد سياسة الإقامة العامة في فترة الحماية التي أعطت الأسبقية للغة الفرنسية في جميع مجالات تدبير شؤون المغرب. وتشكل هذه السياسة اللغوية الجديدة ذات الطابع الوطني امتدادا لسياسة المدارس الحرة التي أنشأها الوطنيون في المدن قبل الاستقلال لإيجاد أطر وطنية يتقنون اللغة العربية. وتتجه هذه السياسة اللغوية الوطنية إلى استكمال البناء الثقافي للأمة (الخطير أبو القاسم : الوطنية والبناء الثقافي للأمة بالمغرب) التي يتم تقديمها أحيانا كأمة عربية إسلامية خالصة وأحيانا أخرى كجزء من هذه الأمة العربية الإسلامية.

ووفق هذا التصور، وضعت أول لجنة وطنية للتعليم المبادئ الأربعة المشهورة التي يتعين أن يخضع لها التعليم في المغرب، وهي : التعريب والتوحيد والتعميم والمغربة. ولتطبيق سياسة التعريب إياها تم تعريب مجموع مواد القسم الأول والثاني من التعليم الابتدائي منذ السنة الدراسية 1960-1961. كما تم إزالة المحاكم العرفية مباشرة بعد الاستقلال، وأصدر البرلمان سنة 1960 قانونا يمنع بموجبه الترافع أمام المحاكم المغربية بلغة غير اللغة العربية. واستمرت سياسة التعريب خاصة في مجال التعليم بتعريب مواد العلوم الإنسانية بالتعليم الثانوي وبالجامعة في بداية سبعينيات القرن الماضي وتعريب المواد العلمية بالتعليم الثانوي بعد ذلك، دون أن يصاحبه تعريب تدريس هذه المواد بالجامعة. وقد تمت عملية التعريب هاته بكثير من الارتجال، نتج عنه ضعف التكوين الناجم عن ضعف الإلمام بلغتي التلقين أي العربية والفرنسية. وهو مشكل لازال قائما بالرغم من صدور ميثاق التربية والتكوين الذي حاول إصلاح منظومة التعليم الوطني.

وبالرغم من كثرة المناظرات والملتقيات الوطنية الدورية حول قضايا التعليم، فإن المسألة اللغوية لم تناقش بالجدية اللازمة. فقد طغى الطابع العاطفي على النقاشات الجارية بشأنها مما أنتج الكثير من الغموض والارتباك والتناقضات. ومن مفارقات عدم وضوح السياسة اللغوية ببلادنا لجوء الكثير من الأطر المدافعين عن تعريب التعليم، المساهمين في فرضه على أولاد الشعب في المدرسة العمومية، إلى مدارس البعثات لتكوين أبنائهم بلغات أخرى غير اللغة العربية. وهناك فئات أخرى ليست مقتنعة بسياسة التعريب كما هي مطبقة ببلادنا، ولكنها لا تتجرأ على انتقادها علنيا، وتكتفي بمخالفتها في الممارسة.

هذا فيما يتعلق بالنقاش حول الإطار العام للسياسة اللغوية، أما الجوهر فيتناول الازدواجية اللغوية عربية فرنسية ولمن ستكون الأفضلية. وهنا يلاحظ أن الخطاب المناصر لأولوية اللغة العربية لم تسايره الممارسة الرسمية إلا في القطاعات الإدارية والقضائية والهيئات التداولية التي تستفيد من

النصوص القانونية ومن جعل الدستور اللغة العربية لغة رسمية. أما المرافق الاقتصادية والمالية فلا زالت فيها الغلبة للغة الفرنسية.

ونتج عن هذه السياسة هيمنة النخب المفرنسة في تسيير المرافق المنتجة وبروز النخب المعربة في المنابر الخطابية. وهذا ما يجعل في كثير من الأحيان المواقف حول السياسة اللغوية مجرد دفاع عن المواقع المكتسبة أواحتجاج على عدم التواجد في مواقع أخرى.

2- كيف تم إهمال الأمازيغية في السياسة اللغوية السائدة

ولم تعر هذه السياسة اللغوية أي اهتمام للأمازيغية سواء في التعليم أ و في تسيير الشؤون العامة. ويعود ذلك لسببين رئيسين، أولهما يعود لاعتماد الأمازيغية في إعادة إنتاج ذاتها لغة و ثقافة على التقليد الشفوي الذي لم يعد قادرا على القيام بنفس الدور في الوضع الجديد الناجم عن سيرورة التحديث المادي التي أطلقت دولة الحماية عنانها، وثانيهما يعود للدعاية الموالية لظهير 16 ماي 1930 والتي نتج عنها اعتبار الاهتمام بالأمازيغية شيئا مشبوها كاد يقارب الخيانة الوطنية (نشأة الحركة الثقافية الأمازيغية بالمغرب 2000).

شهد القرن العشرون تدهورا خطيرا للغة والثقافة الأمازيغيتن بسبب الانقلاب الذي أحدثه تأسيس الدولة العصرية بالمغرب بواسطة عقد الحماية سنة 1912. فبالمقارنة مع التراجع البطيء الذي لحق باللغة والثقافة الأمازيغيتين طيلة قرون لعدم استعمالها كلغة كتابية في تسيير الشؤون العامة (رحمة توبراس : تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي)، أدى هذا الانقلاب إلى تسريع وتيرة هذا التراجع بشكل أصبح معه وجود اللغة الأمازيغية مهددا. وقد تجلى هذا التحديث المادي الجبار لدولة الحماية في شق الطرق وإنشاء المدن وتعميم المرافق الإدارية والأمنية على كافة التراب الوطني ؛ وساهمت المدرسة العصرية ووسائل الإعلام ووسائل الإنتاج العصرية، بجانب هذا التحديث المادي، في تقويض أسس المجتمع التقليدي وثقافته. وكانت الثقافة الأمازيغية ذات التقليد الشفوي الضحية الأولى لهذا التحديث الدولتي.

وورثت دولة الاستقلال هذا الوضع وعمقت سلبياته بسياستها الإرادوية التي كانت موضوعيا ضد اللغة والثقافة الأمازيغيتين. فقد اهتمت هذه السياسة بالتعريب وأغفلت كلية الاهتمام بالأمازيغية بذريعة تصفية آثار الاستعمار وبناء الوحدة الوطنية. ويصنف الرأي السائد هذه السياسة التي لا تأخذ الأمازيغية بعين الاعتبار، يصنفها في خانة العمل الوطني. ومن سوء حظ الأمازيغية أن الحركة الوطنية نشأت في خضم ملابسات الاحتجاج ضد ظهير 16 ماي 1930 الذي أطلقت عليه هذه الحركة إسما قدحيا (الظهير البربري) اشتهر به. وانطلقت منه كحركة توحيدية تحارب كل الخصوصيات التي قد يستعملها الاستعمار للنيل من الوحدة الوطنية. وكان الاختلاف الوحيد المسموح به أثناء النضال الوطني هو الاختلاف مع الأجنبي المستعمر ؛ أما الاختلاف الداخلي فلا

يتم التفكير فيه في ظل النضال الوطني إلا بكيفية سلبية. وتأتي الأمازيغية على رأس كل ما هو سلبي آنذاك. فقد تم بناء هذه الصورة السلبية عن الأمازيغية داخل المساجد من خلال قراءة اللطيف وإلقاء الخطب السجالية التي لا تميز بين الأمازيغية والسياسة الاستعمارية لفرنسا. وبذلك ارتبطت الأمازيغية لغة وثقافة، في المخيال الاجتماعي للجماعة الوطنية وأتباعها، بالاستعمار وتمزيق الوحدة الوطنية. وتم بناء هذه الصورة السلبية باستعمال الخطاب العاطفي الذي يترسخ في الوجدان ويتغلغل في اللاوعي ليتحول بعد ذلك إلى اعتقاد راسخ لا يقبل النقاش. وبمرور السنوات واجترار الحديث عن هذا الظهير الاستعماري في الصحف وفي المقرات الحزبية في مناسبات عدة تأسست "معادلة الوطنية" ذات العناصر الإيجابية والسلبية : وتتكون العناصر الإيجابية من الإسلام والعربية والوحدة، ويشكل الاستعمار والتبشير والفرنسية والبربرية والمساس بالوحدة عناصرها السلبية. وهكذا اختزلت الأمازيغية لغة وثقافة وهوية في أداة يوظفها الاستعمار لتنفيذ سياسة تقسيمية خبيثة، مما حول الأمازيغية مع مرور الزمن إلى طابو يمنع الحديث الإيجابي عنها. فلقد أصبحت والحالة هاته مجرد شيء حقير لئيم معاد للتقدم ومضر بالوحدة الوطنية.

ولما جاء الاستقلال حال هذا المفهوم السائد للوطنية والنهوض بالأمازيغية كلغة وكثقافة لم تعد تسمح لها الظروف الجديدة التي يعيشها المجتمع المغربي في المدن بإعادة إنتاج ذاتها بأساليب التقليد الشفوي.

ولم يعر الوطنيون أي اهتمام للأمازيغية لغة وثقافة وهوية ؛ فالأمازيغي مجرد إنسان لم يدخل المدرسة في نظرهم، ولا يوجد أي مشكل لغوي أو ثقافي بهذا الشأن، ولا يعدو الأمر أن يكون مجرد نقص في تجهيز البوادي بالتجهيزات الأساسية. وتشكل المدرسة أهم هذه التجهيزات لأنها ستقوم بتعميم اللغة العربية على أبناء البادية. وقد ذهب بعض المتحمسين المدافعين عن سياسة التعريب من موقع الوطنية التقدمية إلى حد المطالبة بإماتة اللهجات البربرية والدارجة لفسح المجال لازدهار العربية الفصحى (الجابري : أضواء على مشكل التعليم بالمغرب).

لم يبق أمام الأمازيغية في مغرب الاستقلال حسب السياسة الرسمية والإيديولوجية المشرعنة لها سوى الانقراض. وهو ما كان يتم بوتيرة متسارعة في المدن الكبرى. ولتصحيح هذا الوضع ظهرت الحركة الهوياتية الأمازيغية كحركة من أجل الحياة تدافع عن حق الأمازيغية في الاستمرار في الوجود.

ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه بدأت هذه الحركة بجمع وتدوين التراث الأمازيغي وسعت إلى تحسيس المجتمع والمثقفين بأهمية العناية بهذا التراث المنسي والمجهول. ولم يؤخذ خطابها في البداية مأخذ الجد لأنه شكل خطابا مضادا للخطاب السائد، وهذا ما يفسر ردود الفعل السلبية التي عبر عنه إزاءه بعض المثقفين الملتزمين في التيارات السياسية المنبثقة عن الحركة الوطنية الذين لا يستسيغون نقد تصور الحركة الوطنية في المجال اللغوي الثقافي الهوياتي. ويذهب بعض المدافعين عن العروبة

الخالصة للمغرب إلى حد نفي التمايز الأمازيغي على المستوى اللغوي أحيانا أو التقليل من شأنه أحيانا أخرى باعتباره من القضايا الثانوية التي يتعين تأجيل الحسم فيها إلى ما بعد الحسم في القضايا الرئيسية. لكنهم مع ذلك يعتبرون إثارة هذا التمايز مصدر خطورة على الوحدة الوطنية وعائقا أمام تحقيق الوحدة العربية ومجرد مطية استغلها الاستعمار في الماضي ويستغلها في الحاضر لتحقيق أغراضه ("علال الأزهر : المسالة القومية والنزعة الأمازيغية وبناء المغرب العربي" - "أنوال الثقافي عدد 17").

3- نحو سياسة لغوية جديدة

غير أن استمرار النقاش حول المكانة التي يتعين أن تأخذها الأمازيغية خاصة بعد صدور ميثاق أكادير حول اللغة والثقافة الأمازيغيتين في 6 غشت 1991 جعل المواقف السلبية من الأمازيغية تتغير شيئا فشيئا وإن بنسب متفاوتة. ويعزى هذا التغيير إلى قوة الحجة التي تأبطها خطاب الحركة الهوياتية الأمازيغية في انتقاد السياسة اللغوية الثقافية السائدة. فقد ربطت هذه الحركة العناية بالأمازيغية بالنضال الوطني الديمقراطي معتبرة هذه العناية مسؤولية وطنية على الجميع تحملها، وفي مقدمة هؤلاء مسيرو الشؤون العامة.

ويعود هذا التحول الإيجابي كذلك إلى التراكمات الإبداعية التي خلقتها الحركة الهوياتية الأمازيغية في مجالات الكتابة النثرية والشعرية وفي فنون الموسيقى والغناء والمسرح... وتراكماتها العلمية حول مختلف جوانب الأمازيغية. وهو ما سمح بوقوف الخطاب الإقناعي لهذه الحركة على أرضية صلبة.

وهكذا بدأت تظهر بعض المواقف الإيجابية من اللغة والثقافة الأمازيغيتين بعضها فردي وبعضها جماعي، الشيء الذي أدى إلى إحداث دينامية جديدة في الساحة السياسية الوطنية نتج عنها وضع قضايا اللغة والثقافة والهوية في صلب انشغالات المجتمع.

وكان لخطاب الملك الراحل الحسن الثاني في 20 غشت 1994 الداعي إلى تدريس الأمازيغية في الابتدائي (بالرغم من عدم تنفيذ مقتضياته) أثره البالغ في تأجيج هذه الدينامية التي انتقل معها سؤال الأمازيغية من لماذا إلى كيف. واتجه تفكير المهتمين بالأمازيغية إلى إبراز آليات وطرق إدماج اللغة الأمازيغية في المدرسة الوطنية كما اتجه كذلك إلى طرح القضايا المتعلقة بالمعيرة وحرف التدريس. ولم يساير ميثاق التربية والتكوين هذه الدينامية إذ اكتفت بعض مقتضياته بمجرد الاستئناس بالأمازيغية أو أي لهجة أخرى في السنوات الأولى من الدراسة لتسهيل تدريس اللغة العربية. وهو موقف أثار اعتراضات واسعة في أوساط الحركة الهوياتية الأمازيغية، وكاد الوضع يتجه نحو الاحتقان.

غير أن تولي جلالة الملك محمد السادس العرش في 30 يوليوز 1999 خلق وضعا جديدا أنعش آمال فئات عريضة من المجتمع. وانخرطت الحركة الهوياتية الأمازيغية في بلورة هذه الآمال في مجال النهوض بالأمازيغية من خلال عملين نضاليين متوازيين. يتجسد الأول في الوثيقة التي كتبها الأستاذ محمد شفيق تحت عنوان "بيان من أجل الاعتراف الرسمي بأمازيغية المغرب"، وهي وثيقة تم توقيعها من طرف مجموعة من الفعاليات المناضلة في الحركة الهوياتية الأمازيغية ابتداء من فاتح مارس 2000. وقد أدى هذا البيان الذي قام بتحيين المطالب الواردة في ميثاق أكادير إلى تأسيس هيأة من طرف الموقعين عليه عرفت بإسم مجموعة البيان الأمازيغي. وقام هؤلاء بعقد عدة لقاءات لتفعيل محتويات البيان أسفرت عن مزيد من الاهتمام الرسمي والمجتمعي بمطالب الحركة الهوياتية الأمازيغية كنتيجة للتغطية الإعلامية الواسعة المصاحبة لتحركات مجموعة البيان. أما العمل النضالي الموازي فيتمثل في التنسيق بين مجموعة من الجمعيات الثقافية الأمازيغية ومن ضمنها الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي وجمعية تاماينوت من أجل القيام بعمل نضالي للاحتجاج على تماطل المسئولين في الاستجابة لمطالب الحركة الهوياتية الأمازيغية. وقد أسفر هذا التنسيق على أن يتم الاحتجاج في شكل مسيرة وطنية كان مقررا القيام بها في مدينة الرباط في أكتوبر 2001.

وكان الإنصات الرسمي لرسالة العملين النضاليين إيجابيا فجاء خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس في 30 يوليوز 2001 بمناسبة الذكرى الثانية لعيد العرش متبنيا توجها جديدا في العناية بالأمازيغية بإعلان هذه العناية مسؤولية وطنية وإقرار إحداث المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية ليساهم باقتراحاته في بلورة هذه السياسة اللغوية الجديدة. وقد تم بالفعل إحداث هذا المعهد بظهير 17 أكتوبر 2001 تمت تلاوة مقتضياته في حفل وطني بأجدير - خنيفرا استدعي له ممثلو مختلف مكونات الأمة، من سياسية ونقابية، ودينية وثقافية، واقتصادية وجمعوية. وخطب صاحب الجلالة في هذا الجمع الوطني معلنا إقرار الجميع بكل مقومات التاريخ الجماعي وبالهوية الثقافية الوطنية مؤكدا على أن الأمازيغية التي تمتد جذورها في أعماق تاريخ الشعب المغربي هي ملك لكل المغاربة بدون استثناء، وأن النهوض بها مسؤولية وطنية.

وهكذا دشن المغرب مرحلة جديدة في سياسته اللغوية تجعل من واجبات الدولة الحفاظ على اللغة والثقافة الأمازيغيتين والنهوض بهما. ويشكل المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية أهم أدوات تنفيذ هذه السياسة الدولتية الجديدة. وفي هذا الصدد على المعهد أن يتعاون مع السلطات الحكومية والمؤسسات المعنية لتنفيذ السياسات التي يعتمدها صاحب الجلالة لإدراج الأمازيغية في المنظومة التربوية وضمان إشعاعها في الفضاء الاجتماعي والثقافي والإعلامي الوطني والجهوي والمحلي (المادة الثانية من ظهير 17 أكتوبر 2001).

ولقد تم بالفعل إدماج تدريس اللغة الأمازيغية في 344 مدرسة في المستوى الأول من التعليم الأولي ابتدءا من الموسم الدراسي 2003–2004 لمدة ثلاث ساعات في الأسبوع على امتداد التراب

الوطني. ووصل تدريس اللغة الأمازيغية في هذا الموسم الدراسي (2005-2006) إلى المستوى الثالث.

وسيستمر هذا الإدماج التدريجي للوصول إلى تعميم تدريس اللغة الأمازيغية لجميع أطفال المدرسة العمومية المغربية. وهناك لجنة مشتركة بين المعهد ووزارة التعليم تعمل من أجل إزالة العراقيل التي تعترض هذا الإدماج.

ويشتغل المعهد على قدم وساق للإعداد التدريجي للغة الأمازيغية المشتركة وتهييء الكتب المدرسية والحوامل البيداغوجية لإنجاح هذا الإدماج.

وهناك كذلك مجهودات يبذلها المعهد لدى وزارة الاتصال لتحسين مكانة الأمازيغية في وسائل الإعلام العمومية.

وقد سمحت هذه السياسة اللغوية الجديدة، التي يشكل فيها النهوض بالأمازيغية شرطا من شروط إنجاز المجتمع الديمقراطي الحداثي ببلادنا، بتحيين النقاش الوطني حول القضايا اللغوية والثقافية وخاصة مايهم مكانة ووظيفة كل من اللغتين العربية والأمازيغية في إنجاز هذا المشروع المجتمعي. وهناك توجهان في هذا النقاش : توجه أنصار التراتبية وتوجه أنصار المساواة. ولا ينكر المدافعون عن التراتبية اللغوية أهمية الحفاظ على اللغة والثقافة الأمازيغيتين لأنهما من التراث الوطني، ولكنهم يعطون أهمية أكبر للغة العربية. ويسعون أن تحتل هذه اللغة، التي تحظى بالشرعية الدينية والتاريخية والسياسة، المكانة الأولى في التعليم والإعلام وفي تسيير الشؤون العامة. وتمثل اللغة العربية في نظرهم أحد رموز السيادة الوطنية مثلها مثل العلم والعملة. فهي اللغة الرسمية بنص الدستور. ويناضل أنصار هذا التوجه في اتجاهين : فهم يريدون أن تحتل العربية مكانة الفرنسية في القطاعات الإنتاجية وفي وسائل الاتصال الحديثة من جهة، كما يسعون من جهة أخرى لكيلا يؤدي النهوض باللغة والثقافة الأمازيغيتين إلى المساس بمكاسب اللغة العربية، ومن أجل ذلك يكافحون للحفاظ على بعض الامتيازات التي تحظى بها العربية حاليا كانفرادها بامتلاك صفة الرسمية حسب النص الدستوري الحالي. ويشكل هذا الموقف الدفاعي امتدادا للموقف اللغوي للحركة الوطنية الذي يتم تكييفه لكيلا يتعارض مع الموقف الملكي الحالي في الموضوع. أما أنصار التوجه المساواتي، وهم في معظمهم من مناضلي الحركة الهوياتية الأمازيغية، فينادون بالمساواة القانونية بين اللغتين الوطنيتين العربية والأمازيغية. ويقصدون بذلك المساواة في توفير الشروط وفي تكافؤ الفرص. وهو ما يحتاج في نظرهم إلى مجهودات وقرارات رسمية للنهوض بالأمازيغية. ويقترحون أن يقوم تدريس الأمازيغية على أربعة مبادئ هي : التعميم والإجبارية والشمولية والتوحيد من أجل ترسيخ الوعي بالذات الفردية والجماعية وتأهيل المتعلم ليصبح مواطنا واعيا بمسؤولياته وفاعلا في التنمية المحلية والوطنية (بوكوس : الأمازيغية والسياسة اللغوية والثقافية بالمغرب). ويدعون كذلك إلى إعداد خطة وطنية لاستعمال الأمازيغية في محاربة الأمية ولتوظيف

الأمازيغية في مختلف المرافق العمومية بما يقتضيه ذلك من تكوين الأطر وإعادة تأهيل الموظفين ليستطيعوا مسايرة وإنجاح سياسة لغوية وطنية تتبنى الازدواجية اللغوية عربية أمازيغية بشكل تكاملي، وتستعمل اللغات الأجنبية كأدوات لمواكبة المستجدات العلمية والتكنولوجية على الصعيد العالمي. كما يطالبون بتحسين مكانة الأمازيغية في وسائل الإعلام السمعية البصرية العمومية. ولتحصين الإجراءات الرسمية للنهوض بالأمازيغية يلحون على توفير الحماية القانونية بنص دستوري يساوي بين اللغتين العربية والأمازيغية.

خاتمة

إن التقدم الحاصل الآن في مقاربة مكانة اللغة الأمازيغية في إطار السؤال اللغوي الثقافي في بلادنا بالمقارنة مع المقاربة السائدة في النصف الثاني من القرن العشرين كان نتيجة الحوار الذي بادر إليه مناضلو الحركة الهوياتية الأمازيغية بغية الوصول إلى توظيف اللغة والثقافة الأمازيغيتين في بناء مجتمع ديمقراطي حداثي يسمح بتعبئة جميع المواطنين في تقدم الوطن وازدهاره. وقد أدى هذا الحوار إلى تجاوز معظم مخلفات النظرة السلبية السائدة إزاء الأمازيغية والمهتمين بها. وعليه، فإن استمرار الحوار حول تحسين مكانة اللغة والثقافة الأمازيغيتين في هذا الوضع الجديد سيساهم ولا شك في ردم الهوة بين مختلف الآراء المعبر عنها في هذا الموضوع. ومهما بدت الهوة عميقة بين أنصار التراتبية اللغوية وأنصار المساواة اللغوية فنهج أسلوب الحوار المتسلح بقوة الحجة لقادر على تقريب وجهات النظر.

المراجع

1- Elkhtir Aboulkacem ; Nationalisme et construction culturelle de la nation au Maroc : Processus et réactions : Thèse pour l'obtention du doctorat en anthropologie sociale et ethnologie ; Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales ; Paris ; 2005.

2- الحسين وعزي ؛ نشأة الحركة الثقافية الأمازيغية بالمغرب : تحليل سيرورة تحول الوعي بالهوية الأمازيغية من الوعي التقليدي إلى الوعي العصري ؛ مطبعة المعارف الجديدة ؛ الرباط ؛ 2000.

3- رحمة تويراس ؛ تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي ؛ أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ ؛ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ؛ جامعة محمد الخامس - أكدال ؛ الرباط ؛ 2005.

4- محمد عابد الجابري ؛ أضواء على مشكل التعليم بالمغرب ؛ دار النشر المغربية؛ الدار البيضاء ؛ 1974.

5- علال الأزهر ؛ المسألة القومية والنزعة الأمازيغية وبناء المغرب العربي ؛ دارالخطابي للطباعة والنشر ؛ الطبعة الأولى ؛ 1984.

6- أنوال الثقافي (ملف حول الأمازيغية) ؛ عدد 17 ؛ 7 دجنبر 1985.

7- أحمد بوكوس ؛ الأمازيغية والسياسة اللغوية والثقافية بالمغرب ؛ مركز طارق بن زياد ؛ الرباط ؛ 2003.

"مقدمات في مسألة التعريب"

نور الدين دنياجي

1ـ مبدأ التوليد والتطور اللغوي :

تعتمد اللغات الإنسانية في عمومها على مبدإ "التوليد"، حرصا منها على استمرارها وضمانا لنموها وتطورها. والتوليد بالنسبة للغة لا يختلف في جوهره عن "التوالد" بالنسبة للإنسان وإن اختلفت شكلياتهما.

فبهذا المبدإ يحافظ الإنسان على نوعه وتحافظ اللغة على كيانها.

وفي "لسان العرب"، لا تخرج مادة "ولد" عن المعاني الآتية :

ـ الكثرة، الرهط، النتاج، الولادة، التولد، المولد، المحدث، المفتعل(1). أما في أساس "البلاغة" فإن المعنى المجازي لمادة "ولد"، يعني الحدث، يقول الزمخشري : "ومن المجاز ولدوا حديثا وكلاما، استحدثوه، وكلام مولد ليس من أصل لغتهم ..(2). وفي تاريخ الثقافة العربية نلاحظ أن هذا اللفظ دلّ :

أـ على الطارئ من الألفاظ والكلام.

ب ـ شعر الشعراء الذين ظهروا بعد عصر الاحتجاج اللغوي، وسموا بالشعراء المولدين.

ج ـ على حمولة معيارية صارمة ارتبطت بمقياس زمني، وقد سبب هذا "المعيار" خصومات وسجالات بين النحاة واللغويين من جهة، وبين الأدباء والشعراء من جهة أخرى(3).

ولقد كان هذا المعنى الأخير سببا في تقسيم اللغويين الدخيل إلى قسمين :

ـ فما عربته العرب قديما سمي معربا.

ـ وما عر به المولدون اعتبر مولدا(4).

ومن هنا عد "المولد"، خارجا عن دائرة الكلام الفصيح الذي يحتج به في اللغة، ولهذا أخذ مستوى ثانويا في باب الاهتمام اللغوي عموما، وفي باب المعاجم بشكل خاص، ولعل هذا المعنى هو الذي جعل كثيرا من الألفاظ الحضارية بعيدة عن معاجمنا لفترة طويلة.

وإذا كانت مادة "ولد" تحيل في معناها العام على الإنتاج والحدوث، فإن هذا الإنتاج والحدوث المصطلح عليه بالتوليد يمكن تقسيمه إلى قسمين :

ـ توليد صوري شكلي (أو لفظي) : وهو إنتاج وحدات صوتية (لفظية) جديدة لمعنى معجمي جديد، وطرق هذا النوع من التوليد هي : الاشتقاق والنحت والتعريب...

ـ توليد دلالي (معنوي) : وهو كل إنتاج لدلالات جديدة تخص وحدات معجمية موجودة أصلا في اللغة، عن طريق المجاز أو الاتساع.

ويمكن أن نجد في تعريف (الشريف الجرجاني لهذه المادة "ولد"، مفهوما يقارب هذين القسمين من التوليد، يقول : «التوليد هو أن يحصل الفعل من فاعله بتوسط فعل آخر، كحركة المفتاح بحركة اليد»(5)، ويقول أيضا : «التولد أن يصير الحيوان بلا أب وأم مثل الحيوان المتولد من الماء الراكد في الصيف»(6).

وهكذا، يكون التوليد الصوري : "تولدا"، مادته الخام هي الأصوات العربية، وهي تقارب المواد الخام التي تدفع إلى تولد الحيوان في الماء الراكد صيفا.

ويكون "التوليد الدلالي"، توليدا حاصلا من توسط صيغة لفظية ومحتواها الدلالي في حصول الفعل، وهو المعنى أو الدلالة الجديدة.

وانطلاقا من مفهوم التوليد كمبدإ في استمرار ونمو وتطور اللغة، نقترح إعادة النظر في مسألة "التعريب"، وإن كنا نلاحظ أن هذه المسألة تتطلب في الحقيقة شروطا أخرى ومستلزمات خارج تعريف اللغة بمفهومها البسيط، إذ اللغة في الحقيقة مؤسسة اجتماعية لا تنفصل عن الحضاري والثقافي والسياسي في كل أمة.

2ـ ظاهر التعريب في اللغة :

يتفق اللغويون العرب القدامى على أن التعريب هو : إخضاع اللفظ الأعجمي لطرق الصياغة العربية، يقول الجوهري في صحاحه «تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها. تقول : عربته العرب، وأعربته أيضا».

لقد «دخلت العربية في تاريخها الحافل الطويل قبل الإسلام وبعده كلمات كثيرة من لغات أخرى، فأخضعتها العربية لقواعدها الصوتية، وطوعتها في الغالب لمقاييس أبنيتها، فصارت هذه الكلمات الدخيلة جزءا من ثروتها اللفظية يضاف إلى العربي الأصيل فيها»(7).

وتبادل التأثير والتأثر بين اللغات سمة طبيعية وضرورة، ويذكر الشيخ صبحي الصالح أن «العربية ليست بدعا من اللغات الإنسانية، فهي جميعا تتبادل التأثر والتأثير... متى تجاورت أو اتصل بعضها ببعض على أي وجه، وبأي سبب، ولأي غاية. ومن يرم العربية مقصورة على الإعراب محبوسة عن التعريب، ويزعم أيضا أنها بصيغها وأنواع اشتقاقها وحدها أعربت عن خصائصها الذاتية، وأنها إن أدخلت على نفسها بالتعريب مصطلحات الحضارة شوهت محاسنها وفقدت خصائصها وأنكرت نفسها بنفسها، فليس يريد لهذه العربية إلا الموت، وليس يعيش بعربيته إلا في بروج من العاج بناها له خياله سقيم»(8).

3ـ شروط العربية في التعريب :

غير أن العربية ـ وكجميع اللغات ـ وضعت للفظ الدخيل شروطا خاصة، لابد منها حتى يصبح عربيا. وهذه الشروط تباينت في مكوناتها ووجوبها، واختلفت حسب الحاجة والضرورة ـ وقد لازمت هذه الشروط اللغة العربية منذ بدايتها. ومن تم وجدها ألفاظا كثيرة قد دخلت العربية في العصر الجاهلي والعصور التي تلته.

ولنا في القرآن الكريم خير دليل على ما عرب في العصر الجاهلي نذكر من ذلك :

الكلمة	أصلها	معناها
القسطاس	رومية	الميزان
الإستبرق	فارسية	الديباج الغليظ
طوبى	هندية	الجنة
السري	سريانية	النهر
الأرائك	حبشية	السرر
قطنا	نبطية	كتابنا
كفر	عبرية	أُمح
غساق	تركية	منتن

بل نجد في القرآن الكريم ألفاظا زنجية وأخرى بربرية. وهذا يعني أن العربية كانت دائما منفتحة على جميع الشعوب والحضارات وأن مسألة التعريب هي عملية ضرورية لنموها واستمرارها.

وأما الشروط التي وضعتها العربية فهي :

ـ المكون الصوتي : ويشترط احترام الأصوات العربية، وإبعاد الأصوات التي لا توجد في العربية بتعييرها إلى الأصوات القريبة منها. وذلك كالباء المهموسة (P) والجيم الخالية من التعطيش (g) والفاء المهجورة (v).

ـ المكون البنائي : ونقصد به بناء الجذر أو تأليف الجذر في العربية، وهو بناء يقوم على قيود صوتية حيث تمنع في العربية الجذور المتقاربة المخارج. فذوق العربية ينبو عن الأصوات المتباعدة المخارج. وقد أشار اللغويون القدماء إلى ذلك كقول بن جني في سر صناعة الإعراب : «وأحسن التآليف ما يبعد فيه بين الحروف، فمتى تجاور مخرجا الحرفين فالقياس ألا يأتلفا»(9). وقول بن فارس: «المهمل على ضربين : ضرب لا يجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب بتة، وذلك كجيم تؤلف مع كاف، أو كاف تقدم على جيم، وكعين مع غين، أو حاء مع هاء أو غين. فهذا وما أشبهه لا يأتلف.

والضرب الآخر ما يجوز تألف حروفه، لكن العرب لم تقل عليه، وذلك كإراد مريد أن يقول "عضج"، فهذا يجوز تألفه وليس بالنافر، ألا تراهم قد قالوا في الأحرف الثلاثة "خضع". لكن العرب لم تقل عضج، فهذا ضربا المهمل»(10).

ـ المكون الصرفي : وهو الالتزام الثالث، إذ يجب تقريب الكلمة الدخيلة من الصيغ القياسية العربية قدر المستطاع.

4ـ شروط التعريب بين التشدد والتساهل.

والملاحظ، أن العربية قد اختلفت في الالتزام بالمكونات السابقة في قضية الدخيل، ولعل جردا أوليا للمواد المعربة في تاريخ العربية يقودنا إلى الخلاصات الآتية(11) :

أـ التشدد والصرامة في المكون الصوتي حيث رفضت العربية الأصوات الغريبة عنها، وعالجتها من خلال ردها إلى الأصوات التي تقاربها مخرجا أو صفة.

ب ـ التوسط في قبول بعض المفردات الدخيلة التي تخرق المكون البنائي للجذر.

وقد تأرجحت العربية في هذا الجانب بين قلب بعض الأصوات إلى ما قاربها مخرجا، لأن بصيغتها الأعجمية مرفوضة في هذا المكون. كقلبها الزاي "سينا" في كلمة "مهندس"، يقول الجواليقي : «وليس في كلامهم زاي بعد دال إلا دخيل من ذلك الهنداز والمهندز، وأبدلوا الزاي

سينا فقالوا : المهندس»[12]، وبين قبول بعض التأليفات الممنوعة، التي يدل في كلمة دليلا على أنها معربة، مثل، الجيم والقاف (الجوق) والصاد والجيم (الحيص)، وورود بناء فيه نون بعدها راء (نرجس)، أو بناء من ياء وسين وتاء (سبتان)[13]. أو بناء رباعي وخماسي خال من الحروف الذولقية (الراء والنون واللام والفاء والباء والميم)[14].

ج ـ التساهل في المكون الصرفي، وذلك أن العربية قبلت كلمات كثيرة خارجة عن الأوزان الصرفية العربية وقبلتها بشرط تعريب أصواتها فقط. وهذه الظاهرة تلاحظ بشكل قوي مع المصطلحات العديدة التي دخلت إلى العربية في العصر العباسي عندما اشتدت حركة الترجمة. ووجدت العربية نفسها وجها لوجه مع المد الحضاري للأمم المفتوحة، فعالجت حاجاتها على مستوى المصطلحات بالاشتقاق تارة، وبالتعريب تارة أخرى.

5ـ خصوصيات الترجمة بين الوضع والتعريب :

وإذا وقفنا عند قضية الترجمة في العصر العباسي، فإننا يمكن أن نقف عند خصوصيات "التوليد" بصفة عامة والتعريب بصفة خاصة. إن هذا العصر يمثل في الحقيقة صورة صادقة لطرق وأشكال التعامل مع المصطلحات. ولا نتفق بهذا الصدد مع من يذهب إلى أن العصر العباسي عرف ترجمة عن حضارات في طور سكون، بينما نحن مطالبون بالترجمة عن حضارة حية وعن علوم وحقول ثقافية في طور الحياة، ولا تستقر على أشكال قارة، ولهذا لا يصلح العصر العباسي لأن يكون صورة صادقة يمكن اتخاذها نموذجا[15].

ونستند في ردنا لهذا الرأي على جملة أسباب نذكر منها :

أـ حقيقة الترجمة لا تتغير في نفسها، مهما تغيرت الظروف فالترجمة[16] هي تحول دلالي من لغة (أ) إلى لغة (ب). ولا يؤخذ فيه بعين الاعتبار إلا منطق اللغتين (أ) و(ب) وخصائصمها العامة في اللغة والتركيب والأسلوب والذوق.

ب ـ أن الترجمة وإن كانت تتجه إلى هذا البعد التحويلي، فإنها تقوم في جوهرها على توظيف آلية التوليد في اللغة ومن هنا تتجه إلى :

1ـ وضع المقابل الدلالي[17] عن طريق صيغ لفظية موجودة أصلا في اللغة.

2ـ اختراع المقابل الدلالي عن طريق بناء صيغ لفظية جديدة تؤدي المعنى المراد بالاشتقاق والنحت.

3ـ نقل الحامل الدلالي[18] عن طريق "التعديل"، بإخضاع هذا الحامل الدلالي إلى المكونات التي يستوجبها قبوله في اللغة المستقبلة.

ج ـ أن الترجمة تفرض إلمام المترجم باللغتين (أ) و(ب) في الإفراد والتركيب والأسلوب، وذوق كل لغة.

د ـ أن الترجمة تفرض إلمام المترجم أيضا، بالموضوع الذي هو قيد الترجمة إلماما دقيقا حتى تكون ترجمته موفقة.

6ـ المصطلحات في العربية :

وإذا كانت الترجمات قد اختلفت وتعددت في العصر العباسي كما وكيفا، فإننا نرى أنه يحق لنا أن نستخلص منها العناصر التي اتكأ عليها أسلافنا في النظر إلى النصوص، ومعالجة المصطلحات. هذه المصطلحات التي نمت وتطورت وكثرت عبر فترات الإسلام المختلفة. ولكن الملاحظ أن معاجمنا وقواميسنا الأساسية قد اتجهت في الأغلب إلى جانب خاص من المفردات في اللغة، وأهمل المهتمون بصناعة القاموس المصطلحات أو ما يسمى بالمفردات الحضارية.

ولعل أهم سبب في هذا الإهمال يعود إلى موقف لغويينا القدماء من "المولد" بصفة عامة، سواء أكان في المجال الأدبي أو العلمي، وهذه نقطة سبقت الإشارة إليها. فهذا الموقف جعل المصطلحات العلمية والعملية، تخرج من دائرة قواميسنا. وإذا كان المولد في مجال الأدب قد استطاع الانفلات من قبضة المتشددين واستطاع الدخول إلى القواميس العربية، وذلك تحت ضغط الاستعمال، فإن المصطلح العلمي بشكل خاص ظل محصورا في بيئة ضيقة ـ من المختصين والمهتمين ـ ومن تم تكون فرص انتشار المصطلحات العلمية أقل بكثير من فرص المفردات العامة الجديدة.

7ـ أسباب غياب المصطلح العلمي من المعاجم العربية :

يذهب بعض الدارسين ودون بحث دقيق منهم عن أسباب غياب المصطلحات العلمية في معاجمنا، ودون بذل الجهود من أجل تقويم الحصيلة الاصطلاحية التي تكونت في اللغة العربية نتيجة يقظة العقل العربي المسلم، وخوضه في مجالات معرفية مختلفة، إلى نعت العربية بنعوت قاصرة، زاعمين أن «اللغة العربية لغة تصلح للفقه والأدب والشعر، ولا تصلح للعلوم الطبيعية والطبية»[19].

وهذا الزعم في نظرنا، مردود لجملة اعتبارات نذكرها كالتالي :

أـ «إن كل لغة للإنتاج الفكري لغة قادرة على التعبير والاستيعاب"[20] ؛

ب ـ غياب المصطلح العلمي جاء نتيجة أخذ اللغويين بمعيار انتقائي بني على بعد مكاني (مناطق القبائل الفصيحة)، وبعد زماني (عصر الاحتجاج)[21].

ومن هنا اعتبرت المصطلحات من المولد الذي لا يعتد به في جانب الفصاحة.

ج ـ اهتمام أصحاب المعاجم بالمكونات اللغوية العامة، ومن ثم ركزوا على الألفاظ والمواد المشتركة، وأهملوا المصطلحات لخصوصياتها وانحصارها في مجالها الضيق الخاص بها.

د ـ المفردات الحضارية أو المصطلحات العلمية أو الفنية، وجدت في تاريخ العربية في شكل معاجم ورسائل خاصة، وقد شكلت المعاجم الخاصة التي أفردت للمصطلحات مقابلا للمعاجم العامة التي اتجهت إلى المدونة العامة. ويمكن أن نشير في هذا الجانب إلى بعضها ألف في الجناح الغربي للبلاد الإسلامية.

كمفردات "بن الخطيب" وهي عبارة عن قاموس للألفاظ الحضارية من القرن الثامن الهجري، يقول د. عبد العالي الودغيري في تقديمه لها : «ولا يخفى ما يلمسه دارس القواميس العربية القديمة من نقص ملحوظ في المفردات العلمية والألفاظ الحضارية، بسبب موقفها المعروف والمتحفظ إزاء هذا النوع من الكلمات التي كان أغلب القاموسيين العرب يدون أنها لا تصلح أن تدمج في القاموس اللغوي الشامل، لأنها يجب أن تخصص بكتب مفردة ويجب أن تبعد من القاموس العام، لأنها ليست من الفصيح بل هي من الموالد والمحدث والأعجمي، أو لأنها من المجازي وليست من الحقيقي.

وهذا ما أدى إلى إفقار القاموس العربي وجعله قاصرا عن متابعة التطور الحضاري ومواكبة الحركة الثقافية التي شهدتها الأقطار العربية عبر الحقب وفي شتى الميادين»[22].

ومن هذه المؤلفات التي اهتمت بالمفردات المتخصصة :

- "تفسير الألفاظ الطيبة واللغوية" لعبد الغني بن مرجان الأزموري.
- بغية الطلاب في شرح منية الحساب. لابن غازي العثماني.
- روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار للجاديري.
- حجة الرغاب في معرفة الفرائض والحساب لإبراهيم بن أبي القاسم السملالي.
- الإكتفا في طلب الشفا لمحمد بن يحيى العزفي.
- حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والعقار لقاسم الغساني.

واللائحة طويلة تغطي تقريبا جميع العلوم والصناعات، وإن غنى هذه المؤلفات وكثرتها يدعونا إلى إعادة جمعها وتبويبها حسب اهتماماتها. ولعل في هذا العمل خدمة جليلة للغة العربية وللتراث العربي والإنساني. كما أنه يمكن أن يغطي في عمومه بعض جوانب الخصاص في المصطلح العلمي

المعاصر.

8ـ التعريب مسألة حضارية :

ولعل طرح قضية المصطلحات العلمية في العربية تجعلنا نقف على مسألة التعريب باعتبارها قضية حضارية، وعلى هذا يكون المعنى الاصطلاحي الثاني الذي تحمله هذه المادة (ع ر ب)، هو ترجمة العلوم والثقافات الكونية إلى العربية. أو هو إخضاع العلوم والثقافات الكونية إلى اللغة العربية اصطلاحا وتدريسا وبحثا وفكرا. ونتائج هذا التعريب هي وحدها الكفيلة بنهضة عربية إسلامية في رحلة العلوم نحو التقدم والازدهار.

ووقوفنا عند التعريب باعتبار البعد الحضاري فيه، هو وقوف عند أشد القضايا الراهنة حساسية وخطرا، وذلك أن الاعتبار اللغوي ضروري في حياة الأمة والأفراد. واللغة إذا كانت مؤسسة اجتماعية فإن صورة المجتمع بمختلف مشاربه ومكوناته تظهر من خلال وضع اللغة، وفي ذات الآن ليست اللغة سوى هذا المجتمع نفسه معبرا عنه في شكل رموز لها مقابل في الواقع الملموس.

ونسب الرموز اللغوية من حيث القلة والكثرة تعكس تطور هذا الحقل وتخلف ذلك الحقل. وبالتالي تعكس تطور أو تخلف المجتمع. وما قلة الرموز العلمية الأصلية في حياتنا المعاصرة سوى دليل على قلة باعنا العلمي.

وما كثرة الرموز الأدبية والفقهية سوى دليل آخر على روح ديني ونفس فني لا يخبوان في هذه الأمة، ولكن ينبغي مواكبتهما بروح علمي وتقني لسد حاجاتنا فيهما.

9ـ ولكن ما السبيل إلى تعريب شامل ؟

يجد الدارس نفسه محرجا جدا، وهو يحاول طرح بعض السبل والاقتراحات قصد تحقيق تعريب شامل، فالدراسات والمؤتمرات والندوات والتوصيات التي عقدت لبحث هذا الموضوع، قد تعددت وكثرت. ولكن النتائج في الحقيقة ظلت هزيلة قياسا، إلى ما يجب فعله. وهكذا، نجد أنفسنا وجها لوجه مع إحباط جماعي وخيبة عامة إزاء هذا الوضع اللغوي الذي نوجد فيه، والذي فرض علينا مع بدايات الغزو الأجنبي لدولنا العربية.

والمجامع اللغوية ومكاتب تنسيق التعريب لا يمكن لها أن تحقق وحدها الأمل الجماعي في التعريب. وذلك أن التعريب هو قضية حضارية، يجب أن تتضافر الجهود لتحقيق قفزة نوعية فيها، وليس التعريب قضية لغة وليست اللغة قضية ألفاظ أو مصطلحات، إن اللغة فكرة والفكر أداته اللغة. وإذا كان الفكر وسيلة أساسية للتطور ولاستيعاب حضارة العصر، فإن ذلك لا يتم إلا عبر اللغة. وهذا الجانب لا يكفي فيه تعريب المصطلحات أو ترجمة العلوم والآداب والفنون وغير ذلك

إلى اللغة العربية، بل لابد من أن تكون العربية فضاء يلف حياة الإنسان العربي بشكل كلي. وتصبح لغة الفكر والشعور ولغة العلم والعمل، لغة القلب والقالب، لغة نعبر بها عن جميع المقاصد ونفكر من خلالها، ولا يضرنا بعد ذلك أن نتعلم لغة أو لغات أخرى أو أن نحيي لهجاتنا المحلية ونطورها ونجعلها وسيلة من وسائل التعلم ونوظفها توظيفا إيجابيا في حياتنا العامة والخاصة.

لقد نجحت تجارب دول متعددة، رغم افتقار لغاتها إلى الخصائص الإيجابية التي توجد في العربية (كظاهرة الاقتصاد والإيجاز وكثرة الأوزان الاشتقاقية وتعدد أنواع من اشتقاق ونحت وقلب وإبدال ومرونة صيغ التعريب والتاريخ العلمي والأدبي، والريادة في مجال الحضارة لقرون لا يستهان بها). ويمكن أن نذكر من بين هذه الدول اليابان التي تعتبر رائدة ونموذجا في هذا الباب، وكذلك الصين وروسيا والفيتنام، واليهود الذين أحيوا لغة ميتة، وجعلوها لغة التعليم في جميع الاختصاصات بما في ذلك الطب والهندسة والتقانة.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن "للقرار السياسي و"الإرادة الجماعية"، كلمة الفصل والحسم في مسألة "فرض اللغة" أو "إحيائها" أو "تطويرها". ومن هنا نقول إن التعريب يحتاج في الدول العربية إلي "قرار سياسي" وإلى "إدارة جماعية" لا غير. حتى يتحقق للعقل العربي عبر اللغة العربية فرص الاستيعاب الحضاري لننتقل بعد ذلك إلى مرحلة العطاء والابتكار العلمي والأدبي.

هوامش :

1. لسان العرب، مادة "ولد".
2. أساس البلاغة، "مادة ولد"، ص. 507، الزمخشري، دار المعرفة، بيروت 1979م.
3. انظر في "عيار الشعر"، لابن طباطبا، قضية الشعر المحدث أو المولد، ص. 14، دار الكتب العلمية، بيروت 1402 هـ - 1972م، وتحقيق عباس عبد الستار. وانظر طبقات الشعراء لابن سلام، لترى كيف قسم الشعراء إلى طبقات وفق معايير زمنية قبل أن تكون فنية.
4. الأصول تمام حسان، ص. 280، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1401–1981.
5. التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم، محمد غاليم، ص. 5، دار توبقال للنشر، ط. 1، 1987.

لنا موقف آخر من هذا التقسيم، إذ نرى وجوب معالجة التوليد الدلالي في إطار التوليد التكميلي دون فصل بين القسمين. لأن الجانب الدلالي هو الأصل والجانب الصوري خادم له وتبع له.

6. التعريفات - الشريف الجرجاني - ص. 31، دار السرور، بيروت.
7. نصوص في فقه اللغة العربية، د. السيد يعقوب بكر، الجزء 2، دار النهضة العربية، بيروت، ص. 5، وقد أخذه عن المزهر في علوم اللغة العربية، للسيوطي، ج. 1، ص. 268–269.
8. دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، ص. 314–315، دار العلم للملايين، بيروت، ط. 1981.
9. سر صناعة الإعراب، ابن جني، تحقيق حسن هنداوي، الجزء 2، ص. 814، دار القلم، دمشق، 1985.
10. الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها، تحقيق مصطفى الشويهي، ص. 87، بيروت.
11. انظر الأصول، ص. 280–281.
12. المعرب، الجواليقي، ص. 11–12، دار الكتب المصرية، 1361 هـ.

13. أشار الجواليقي إلى مادة (ب.س.ت) في موضع آخر من كتابة، ص. 54.

14. المعرب، ص. 12، وقد عقد السيوطي في كتابة "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" فصلا خاصا للمغرب، تعريفا وبيانا لطرق معرفته وأمثلته وكذا بيان المعربات التي لها أسماء في لغة العرب، أنظر ص. 268-294، من الجزء الأول، شرح وتعليق محمد أبو الفضل وآخرون، المكتبة العصرية، بيروت، 1408-1987 م.

15. مجلة عالم الفكر، مقال : "اللغة العربية والنهضة العلمية المنشودة في عالمنا الإسلامي"، لكارم السيد، المجلد 19، ع. 4، 1989.

. تنقسم أنواع الترجمة في ضوء الترجمات العربية في العصر العباسي إلى قسمين :

- الترجمة اللفظية : وفيها يعمد المترجم إلى النص، ويقوم بنقله كلمة بكلمة وحرفا بحرف. وكان رأس هذه الطريقة يوحنا بن البطريق وعبد المسيح بن المهيمن.

- الترجمة المعنوية ويعمد فيها الكاتب أو المترجم إلى تفهم عبارة النص ثم يقوم بترجمة نحوها إلى العربية... وكان عميد هذا الاتجاه : حنين بن إسحاق.

17. نقصد بالمقابل الدلالي : الصيغة اللفظية في اللغة المترجم إليها.

18. نقصد بالحامل الدلالي : الصيغة اللفظية في اللغة المترجم منها.

19. "آفاق الترجمة والتعريب"، نجاة عبد العزيز المطوع، عالم الفكر، ن.ع. ص. 10.

ويظهر أن حقيقة المصطلح في ذاته تشي بأن العناصر الأساسية فيه، هي :

1. الاتفاق بين جماعة معينة على دلالة معينة.
2. وجود اللفظ.
3. إخراج معنى اللفظ من معنى لغوي إلى آخر.
4. المناسبة بين المعنيين.

يقول الشريف الجرجاني، "الاصطلاح عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأول. والاصطلاح إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما، وقبل الاصطلاح اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى. وقبل الاصطلاح إخراج الشيء من معنى لغوي إلى معنى آخر لبيان المراد. وقبل الاصطلاح لفظ معين من قوم معنيين" (التعريفات، ص. 12).

درجة نضجه وتطوره تتطلب ذلك.

20. "آفاق الترجمة والتعريب"، نجاة عبد العزيز المطوع، عالم الفكر، ن.ع. ص. 10.

21. انظر المزهر للسيوطي في باب معرفة من تقبل روايته ومن ترد ص. 137 وما بعدها، وباب معرفة طرق الأخذ والتحمل، ص. 144 وما بعدها من الجزء الأول. وانظر نص الفارابي المشهور في معرفة القبائل التي يؤخذ عنها. كتاب الحروف، ص. 84. تحقيق محسن مهدي دار المشرق، بيروت 169. وقد أضاف السيوطي في المزهر قبيلة كنانة إلى القبائل التي ذكرها الفارابي وهي قيس وتميم وأسد وطيء ثم هذيل، ويذكر الفارابي أن فترة التدوين استمرت من سنة تسعين إلى مائتين.

22. مفردات ابن الخطيب، تحقيق وتقديم د. عبد العلي الودغيري، منشورات عكاظ، الطبعة الأولى، 1988.

اللغة والذات وخطاب المصالحة

الذهبي مشروحي مارس

> أنا لا ["أُقبّل اليد التي لا أستطيع بترها". عمر بنجلون]، لأن مهمتي ليست هي بتر الأيادي. ولكني إن قبّلت يدا فإنني أنتظر ممن قبّلت يده أن يقبّل يدي هو الآخر. وهذا هو الإنصاف الذي يكمن في التبادل الحر للتقدير التذايتي. (من مخطوطة "في هجو العتمات" ذ.م.م).

بما أن همنا الأساس في هذه المقالة هو خطاب المصالحة، فإننا لن نتحدث عن اللغة ككائن أو كمأوى للوجود ؛ لأنه لا يوجد في حقيقة الأمر شيء يمكن أن نطلق عليه هذه النعوت، بل إنه لم يعد من المتيسر بعد التطورات التي عرفها الفكر الفلسفي في عصر ما بعد الحداثة أن نتحدث عن اللغة كما لو أنها شيء متعال، له وظيفة محددة هي المعرفة والتعبير والتواصل. بل سنتناولها من خلال وجهة نظر براغماتية جديدة لنركز على المحادثة باعتبارها ممارسة لخطاب. وعوض أن تصبح اللغة هي علة التواصل يصبح التواصل هو علة اللغة.

سوف نتحدث في هذا الموضوع عن تأهيل الذات من خلال تحقيق التنشيء المطلوب. فالناشئ ذات تنخرط في بيئة لتحقيق إشباع أو ارتياح أو أهداف أو رغبات أو معتقدات. ولا تحتاج الذات

ككائن عضوي إلى عقل أو روح أو نفس أو ما شابهها، بل إنها لا تحتاج إلا إلى جهاز عصبي سليم لتتفاعل مع البيئة التي تولد فيها. وبما أن الذات شبكة من الرغبات والمعتقدات، فإنه من المفروض أن نرجع القهقرى، إلى زمن كانت فيه الذات في وضع المنسي. وكانت الرغبة والاعتقاد يتم التعبير عنهما من خلال الحكماء أو الفلاسفة في بداية الأمر. وسنتخذ من نموذج الذات عند أفلاطون منطلقا لوجهة النظر هذه. ظنا منا أن الذات عندنا ما تزال هي ذات الذات التي حدد لها أفلاطون رغباتها ومعتقداتها سواء من خلال الكهف (الغار)، أو من خلال تقسيم الذات والعالم إلى أقسام تناظر الواحدة منها الأخرى. فكان نسيان الذات هو الذي وسم نتاج الكثير من الفلاسفة من خلال أسطورة المرآة العاكسة للطبيعة الحقة وللمثل. فكانت الذات هي هذا المنسي الكبير الذي ترسخ في تاريخ الفكر الإنساني ومنه ثقافتنا وحسُّنا المشترك. وفي اعتقادنا ما يزال يحكم تصورنا سواء الحسي المشترك منه أم التصور العالِم تصور أفلاطون للذات باعتبارها عقلا أو نفسا أو روحا من جهة، وجزء آخر هو الجسد لا يعتد به لأنه يقرب الإنسان من الحيوان ويبلد الجزء السامي أو الإلهي في الإنسان من جهة ثانية. لذا لزم أن أفكك هذه الصورة من خلال الخطاطة التالية :

الخطاطة الأولى

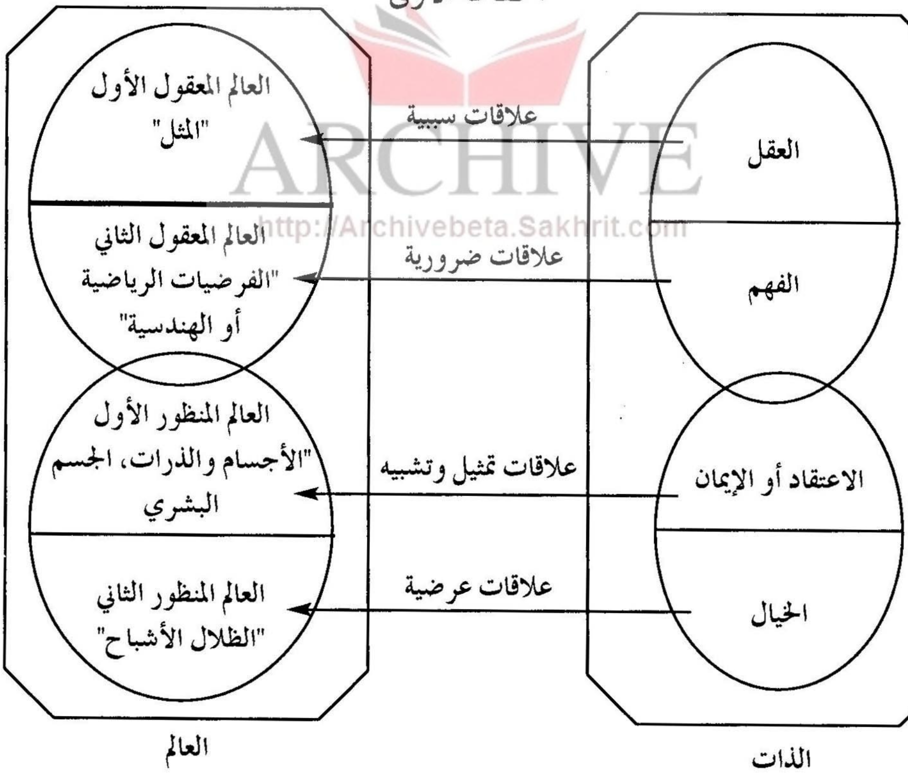
العقل
الفهم
الاعتقاد أو الإيمان
الخيال
علاقات سببية
علاقات ضرورية
علاقات تمثيل وتشبيه
علاقات عرضية
العالم المعقول الأول "المثل"
العالم المعقول الثاني "الفرضيات الرياضية أو الهندسية"
العالم المنظور الأول "الأجسام والذرات، الجسم البشري
العالم المنظور الثاني "الظلال الأشباح"
العالم
الذات

هذا التقسيم للذات الذي يمنح الجسم أو الجسد المرتبة الدنيا، يعني أن الذات ليست جزءاً من العالم، بل ينتمي جزء من الذات أي العقل إلى عالم انطلوجي رفيع هو عالم المعقول، بينما ينتمي الجسم إلى عالم أنطولوجي وضيع هو عالم المنظور. تكون وظيفة الذات هي مطابقة الخيال بالعالم المنظور الثاني والاعتقاد أو الإيمان بالعالم المنظور الأول. هذا التقسيم يمكن مقابلته بوضع السجناء في الكهف الدنيوي. ولا تبدأ مرحلة السمو إلا مع الفهم باعتباره الخطوة الأولى نحو عالم المعقولات ليطابق بدوره العالم المعقول الثاني ثم مرتبة العقل، ويمكن مقابلته بوضع الأحرار أو المتحررين من أثقال وخطايا الجسد في عالم الفردوس أو عالم المثل.

الذات لديها سلم معرفة، لكن ليس بإمكان كل الناس الصعود في هذا السلم. لذلك لزم أن يبقى أو يلزم كل واحد مرتبته. الصانع أو العامل اليدوي لن يتجاوز مرحلة الخيال وارتباطه بظنون أو أوهام الكهف في عالم الظلال والأشباح. الحكيم أو الملك الفيلسوف أو الفيلسوف الملك وفيما بعد النبي والرسول أوالكاهن هو الذي يستطيع أن يرقى كل مراتب السلم نحو الأعلى أو نحو السماء، وبمستطاعه الهبوط لتحرير الأسرى وإبلاغهم أن هناك عالما آخر وهو العالم الماورائي أو عالم الآخرة. قدرة المفكر المحرر على بلوغ الحقيقة المفارقة أو الماورائية يعني قدرته على الإدراك الشمولي للعالم المعقول أو عالم المثل أو عالم الآخرة. الذات المنسية تدرك العالم أو الواقع الحق عبر المرآة التي هي العقل. وبقدر ما تصفو المرآة وتصقل بمناهج علوم المنطق والرياضيات تصبح قادرة على عكس الحقيقة التي لا توجد في العالم الطبيعي. أما الحواس فهي سجن للطبيعة المعقولة المستنيرة إذ لا تستطيع أن تتجاوز المحسوسات، ولا تطابق سوى الظلال. الحواس تدرك الحقيقة المصنوعة أو الحقيقة البدعة، ولذا فمعرفتها وهم وضلال. أما الذي يستطيع أن يحرر الناس من سجن البدع والمحسوسات فهو الذي يستطيع أن يكسر قيود وأغلال الحس ويقود الناس نحو الأعلى أي نحو السماء أي يخرجهم من الظلمات إلى النور.

انتقلت صورة أفلاطون للذات مع بعض الترميم إلى الفكر العربي وإلى الفكر اللاتيني بل والمعاصر وكذا الديانات الشرق أوسطية. فكانت المواجهة تتم بين العقل واللاعقل أو اللغة واللالغة، أي بين الكلمات والأشياء. وبعد فشل العقل في ردم الهوة بين الذات والعالم وتعرضه لمحاولات الاستبدال سواء من طرف الوعي أو من طرف الإرادة، حلت محله اللغة لتربط بين الذات والعالم وتردم الهوة التي تفصل بين عالمي الذات والموضوع. اللغة تعبر عن أشياء لا لغوية هي المعاني وتمثل أشياء لالغوية هي الوقائع. التعبير والتمثيل يجعل من اللغة واسطة وهذا لا يساعدنا أبدا في الدخول إلى صلب الموضوع ألا وهو الخطاب أو خطاب المصالحة.

إذا اعتبرنا أن الذات هي مالكة نسيج من الرغبات والمعتقدات فإن هذا التعريف يثير مشكلتين:

المشكلة الأولى : تكون الرغبة صحيحة إذا تطابقت مع الطبيعة الجوهرية للذات الحقة، أي مع مبادئ الأخلاق، وإلا فإنها ستكون لاأخلاقية ولاطبيعية.

المشكلة الثانية : لا يكون الاعتقاد صحيحا إلا إذا تمثل الواقع الحق وطابقت المعاني موضوعاتها وإذا فشل فشلت المطابقة.

هنا لا يسع الذات إلا أن تتوسط بين جوهرها العاقل من جهة وبين الواقع الطبيعي. فتكون بالتالي نتاج تفاعل بين الجانبين تعبر عن الأول وتمثل الثاني. وتبقى الهوة الأنطولوجية التي تفصل بين عالمي الجسم والعقل على حالها.

الذات المتكلمة أو الفاعلة :

عندما نعرف الذات باعتبارها شبكة من المعتقدات والرغبات أو لنقل بعبارة أخرى أن المعتقدات والرغبات هي عين الذات وليست شيئا تملكه الذات ؛ فهذه الشبكة لا تنسج من طرف فاعل منفصل عن الشبكة، بل إن الذات الفاعلة باعتبارها شبكة تنسج وتعيد نسج ذاتها بذاتها بوصفها استجابة لمنبهات داخل بيئة. والذات الفاعلة وهي تنسج، تُغَيِّر وتتغير. والنسيج البالي يتآكل ويضمحل. إذن الذات هنا ليس لها مركز أو جوهر أو ماهية. وكل ما تحتاجه الذات بعد غياب شيء يسمى "عقل" أو "وعي" أو "إرادة" أو "لغة" هو التكيف الناجح مع بيئتها. وفي هذا الأمر تتساوى كل الكائنات الحية باعتبارها كائنات بيولوجية مبرمجة بيئيا. هنا لا مجال للتفريق بين الحالات العصبية أو الحالات الفيزيولوجية. يكفي أن تملك الذات جهازا عصبيا سليما حتى تستطيع أن تتفاعل مع محيطها ولو في غياب اللغة. لأن الخطوة الأولى نحو اللغة تبدأ من الصراخ. وفي هذا الأمر يمكن أن يتكيف الإنسان مع وسطه دون لغة كما في حالة الصم والبكم والرضَّع. لكن ذات الرجل الأصم والأبكم والحيوان والحشرات لن تتكيف مع أشباهها إلا بواسطة التواصل. وفي هذه الحالة يكون بواسطة إشارات حسية. والإحساس هنا لا يقل عن فهم. وتأتي المرحلة الثانية عندما يدرك الطفل أن الآخرين يصدرون مثله أصواتا محددة تعبّر عن متع محددة. ويدرك أن لكل شيء اسما يعرف به. ونحن لا نعرف لأجل المعرفة، بل نعرف لأجل أن نتصرف تصرفا ناجحا نحقق من خلاله مصالحنا الذاتية وتوازننا. وبما أننا كائنات مبرمجة بواسطة لغة، فإن نسج الذات لمعتقداتها يتم انطلاقا من لعبة لغوية قد تكون لعبت قبل الشبكة ذاتها، وقد تكون قواعد اللعبة خاطئة وعلى الذات المبدعة أن تبتكر مجازاتها واستعاراتها، لكي تنشئ لعباتها اللغوية الخاصة بها والملائمة لأغراض الذات وأهدافها. وهذا ما يتناسب مع هذه الخطاطة :

الخطاطة الثانية

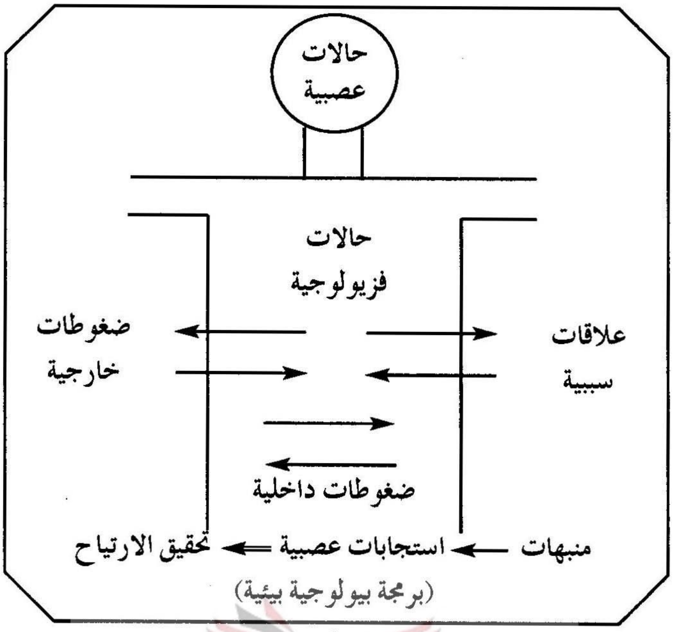

بيئة طبيعية

تسقط هذه الخطاطة من حسابها أن يكون للعالم أو للذات طبيعة جوهرية أو أن هناك حقيقة ماثلة في الماوراء تنتظر من يكتشفها في عالم الغيب. ومن هنا يصبح خطاب الذات هو مشروعها الوجودي المبني على حرية الاختيار والذي يرتمي في المستقبل لكي يتحقق. وبما أن الخطاب هو ممارسة وأداة فعل، فقد ربطت في قلب هذه الممارسة خصومة بين المنطق والخطابة. إذ أن كل ما يحتاجه طرفان متحادثان هو أن يتفق كل منهما على النظريات العابرة أي على كل التخمينات المتعلقة بكل ما يمكن القيام به من سلوك الاستجابة أو الرفض ضمن هذه الشروط أو تلك أو ضمن هذه السياقات الجهوية أو المحلية أو تلك. إننا عندما نمارس خطاب المصالحة، فإننا نمحو كل الحدود الفاصلة بين ممارسة لغة وشق طريقنا في البحث عن حلول للمشكلات التي أرقتنا وربما ستظل تؤرقنا ما لم نتوصل بصددها إلى توافق أو حل متفاوض عليه.

عندما نسقط من حسابنا الذات الجوهر أو الطبيعة الحقة أو عالم المعقول وعالم المنظور، فإننا نسقط في الوقت ذاته حاجتنا، إلى لغة تكون واسطة للتمثيل أو للتعبير، لكنها مع كل ذلك تظل أداة للتواصل الأكثر ثراء وأداة للتفاعل الاجتماعي وكيفية للارتباط بكائنات إنسانية أخرى. وابتكار خطاب جديد يعني في سياقنا الحالي ابتكار أداة جديدة لتحل محل الأدوات القديمة التي أورثتنا مشكلات عويصة ما كان لها أن تحدث لولا أن الخطاب القديم كان أصحابه يعتقدون أنه خطاب سياسي صحيح أوحد أو مقدس أو رشيد يلزم أن تنضوي تحته كل الخطابات الأخرى قسريا.

والخطاب الذي يلزم أن يضعه المتحادثون نصب أعينهم لن يكون بأية حال من الأحوال توليفا أو مصالحة بين خطابات قديمة بعضها ببعض، بل يلزم أن يكون خطابا بديلا وأداة جديدة تحُل محل الخطابات القديمة من قبيل خطاب السلطة وخطاب المعارضة (بعض امتدادات الحركة الوطنية)، أو خطاب الجلادين وخطاب الضحايا المنكل بهم في الغَيَّابات التي كان يعتقد بأنها تقدم خدمة لهذه الخطابات الفاسدة باعتبارها تضع المصلحة العامة أو الوطنية فوق كل اعتبار ذاتي. ومن ثمة لزم استبدال الذات الأفلاطونية باعتبارها عقلا أو روحا بذات مبرمجة بيولوجيا بواسطة لغة.

هذا التحول في استعمال الخطاب، جاء نتيجة آلاف التحولات الصغيرة التي وجدت المكان المناسب في اللحظة الحالية وأخرى لم تجد المكان المناسب ؛ ومعنى ذلك أن هذا الخطاب إن هو إلا نتاج الإمكان والجواز والمصادفة، وليس وليد الحتميات المفترضة، سواء أكانت تاريخية أم اجتماعية أم سياسية أم طبقية. لقد عمل خطاب الماضي السياسي بشقيه الديني والعلماني في السلطة أو في المعارضة "الشرعية" أحيانا على سعي كارثي كان يتوخى دمجا قسريا لباقي الخطابات الأخرى وبالتالي لباقي وجهات النظر الأخرى التي رأت في الإجماع الوطني إجماعا على الظلم والعنف والإقصاء والقهر والإخفاء القسري. فكان هذا الخطاب بشقيه يمارس أنواعا من الديماغوجية للفت الأنظار عن الجرائم التي كانت ترتكب في السجون السرية والعلنية. وباعتبار هذه الخطابات هي خطابات كائنات لغوية ونتاج استعارات ومجازات رغم ما أغدقته على نفسها من رشد ورزانة وقداسة وواقعية أخذت تموت في الحرْفية وتلقى حتفها بعدما تكشف أن اللعبة اللغوية كانت خاطئة من الأساس. لقد كان العنف بكل أشكاله السافرة تمارسه مؤسسات باتت ضالعة في كل الانتهاكات الجسيمة لحقوق المواطن المغربي وبعضها الآخر يمارس أشكالا مرموزة بالصمت أو باتهام وجهات نظر الضحايا بأنها انقلابية أو ارتزاقية أو متياسرة تضر بجنة الوحدة الوطنية. وكانت وجهة نظر الضحايا سواء من اليسار الجديد أو الحركة الوطنية وجيش التحرير تعتبر هؤلاء المنخرطين في وجهة نظر العنف السلطوي بكل أشكاله، أو ممارسة الصمت والاتهامات بكل أصنافها، إنما يدافعون عن مكاسب مادية أو مناصب سلطوية أو تزلفا وخوفا من السلطة الفالتة من عقال القانون، لأن المشرِّع الأوحد وضع القانون لكي يدوسه، لا أن يكون تحت طائلته، وبالتالي فسدت اللعبة من كل الجهات.

وخطاب المصالحة لا يمكنه أن يكون ممارسة ناجحة إلا إذا صير الذوات الأخرى شاعرة بأهمية المسؤولية الملقاة على عاتق الجميع : جلادين، وضحايا، أو "متفرجين". إن من مسؤوليتنا الفردية أن نعبر عن وجهات نظرنا، أي نتخذ موقفا ونصدر حكما على مرحلة قاسية من تاريخنا الجماعي. وتكون وجهة النظر هذه معقولة لا لأنها تتطابق مع الحقيقة أو مع كل وجهات النظر، لأن هذا الأمر يستحيل تحقيقه، بل تكون كذلك من خلال وضعنا الذاتي ككائنات استفاقت أو علمت بهذا الوضع المأساوي حيث تحول مواطنون مغاربة إلى قاتلين لمواطنين مغاربة آخرين بسبب رفضهم أو معارضتهم لوجهة نظر لم يستحسنوها، وكل ذلك كان يتم خارج القانون. ولكي تصبح وجهات

النظر معقولة أكثر من غيرها، لزم أن تصبح وجهة نظر مشتركة أو قابلة للتشارك أو تذايتية متبادلة.

إن هذا الوضع الذي نتحدث عنه هو وضع ذاتي ومحلي وجهوي قد تؤدي مناقشته إلى التفاهم حوله أو قد لا تؤدي إلى هذا الهدف. وهذا يردنا إلى مفهوم المصالحة. فإذا شئنا الاتفاق أو التوافق حول المصالحة لزم بداية أن نقول، إن تحقيق التوافق حول وجهة نظر أو وجهات نظر هو لعب لعبة لغوية نشترك أو يشترك المتحادثون في وضع قواعدها بحيث تكون كل وجهة نظر تساوي وجهة نظر أخرى من حيث الأهمية لا من حيث الصدق، وتعطى حقها في الاستماع إليها وتنال التقدير والتكريم من خلال مناقشتها. هذا بدوره يقود إلى اتفاق حول التعريف وحول الأحكام. والتفاهم حول هذه الأمور يؤدي بنا إلى الفهم التذايتي بحيث تكون كل وجهة نظر بداية أو منطلقا نحو فهم ممكن أحسن لوجهات النظر الأخرى، وليس البحث بأي حال من الأحوال عن أي منها يطابق حقيقة الواقع. ويمكننا أن نصل إلى هذا الأمر من خلال وجهات نظر أربع :

الأولى : يفهم المخاطَب ما يقوله المتكلم على أنه خاطئ أو غير ملائم. وأقصد هنا منتدى الحقيقة والانصاف. يجري النقاش أو الاتهام من جانب واحد وتتم المحاكمات الرمزية أي يتم في النقاش التعبير عن وجهة نظر واحدة تخاطب وجهة نظر غائبة ـ حاضرة لأن كل شيء يجري أمام مراقبتها. هنا يمكننا أن نفتح بابا وتكون النتيجة هي اللاتفاهم من جانب واحد. لكن السؤال هو كيف تم الاتفاق على اللاتفاهم بوجود طرف وغياب الطرف الآخر المشترك أو المفترض إشراكه في اللعبة السياسية الجديدة أو في لعبة المصالحة ؟

الثانية : يحاول المخاطَب أن يفهم أو يتفهم ما يقوله المتكلم على أنه إمكانية من بين عدة إمكانيات لتجاوز الأفق المسدود، والمثال هنا هيئة الإنصاف والمصالحة. في هذا الجانب يعتبر المخاطَب والمتكلم أنهما يفهمان بعضيهما رغم ما يكون من سوء فهم وعراقيل، لكنهما يفتحان أفقا مشتركا لكل فهم ممكن.

الثالثة : المخاطَب هو هو والمتكلم مفترض أو غيب ذاته قصديا، يرقب ويسجل ويلاحظ. يذكّر في كل مرة بأنه متكلم فعلي وليس مفترضا، لكنه يمرر، إرسالية عبر طرف ثالث هو هيئة الإنصاف والمصالحة. وهذا تعبير عن تفهم ضمني بأن المصالحة بين هذا الطرف والمخاطَب قد تمت بالفعل منذ عقود، لكن بقي هناك ما يشوبها، وأقصد اليسار الاشتراكي التقليدي.

الرابعة : المخاطَب يشكك في نوايا المتكلم، فلا يصغي ويرفض التوقف عند مجرد الاتهام ؛ والمتهم يشكك في نوايا المتكلم، فيرفض الوقوف عند مجرد النية في المصالحة. فاللاتفاهم متبادل والمحادثة متوقفة. وأقصد هنا بعض فئات اليسار الجديد.

في خطاب المصالحة لا يدرك معنى المصالحة إلا في خضم صيرورة التفاهم داخل كل محادثة لا خارجها. لأن كل محادثة تكون مثمرة إذا استجابت للمعايير التالية :

1– إغناء وجهات النظر المختلفة والتقريب فيما بينها ؛

2- جعل المتحادثين يتخلون عن الحدود المسبقة التي تمنع انصهار الآفاق ؛

3- بلوغ الأهداف المرسومة من خلال تبادل وجهات النظر عبر مذكرات لا من خلال تبادل الشتائم والاتهامات وإشاعة الشائعات ؛

4- تلطيف الذوات بجعلها قادرة على نسج خطاب الأمل وقادرة على التخلي عن كل الأحقاد الدفينة أو معتقدات الانتقام والرغبة في موت الآخر ؛

5- جعل المتحادثين قادرين على صنع اللحظة وفق شروط الإمكان ؛

6- التخلي عن مهمة اكتشاف الحقيقة بالمفرد كما لو أنها محددة سلفا.

إن فهم المصالحة لا يمكن أن يدرك إلا بوصفه هدفاً يتوج جهود المتحادثين انطلاقا من أفق يتحدد ويتجدد باستمرار. ولا يلزم أن يغرب عن بالنا استحالة انصاف الضحايا أو القتلى منهم على الأقل لأن هذا يتطلب منا العودة إلى الماضي ورفع الظلم عنهم وهذا أمر مستحيل لأننا مهما فعلنا لن نصحح المظالم التي لحقت بمن ظلموا أو عذّبوا أو شرّدوا أو غُيّبوا في سجون مثل تزمامارت وتكونيت وقلعة مكونة وغيرها. كما لا يمكن جر كل المتهمين إلى العدالة لأن هذا سوف يجر الأحزاب التي تسمي نفسها وطنية وديمقراطية إلى فقص الاتهام لأنها علمت وصممت على الصمت والضحايا مغيبون أو يعانون أو يحتضرون ولم تقدم لهم المساعدة. والممكن في الانصاف هو التوجه نحو المستقبل. لأن أحسن انصاف هو ألا تتكرر مثل هذه المآسي التي لحقت بذوات الضحايا في حق ذوات مواطنيهم الآن وغدا. ومعنى ذلك وضع القوانين والمؤسسات التي تجعل من أشكال كل تلك الممارسات الحاطة بكرامة المواطن أمرا مستحيلا أو على الأقل لا يفلت مقترفها من العقاب الفوري كائنا من يكون.

خطاب المصالحة باعتباره خطابا سياسيا :

هذا الخطاب هو في حقيقته طوباوية سياسية من نوع رفيع. فمن كان يعتقد أن سلطتنا السياسية سوف تبدل من استراتيجيتها الجهنمية في الإدماج القسري أو الإقصاء والتغييب الفعلي عن الشؤون العامة ؟ كيف حدث أن تحولت الاستراتيجية اليسارية وشبه اليسارية وبعض فلول الحركة الوطنية من قلب نظام الحكم إلى قلب صفحة الماضي ؟ من لا يعتقد الآن أن خطاب المصالحة السياسية يوسع حدود الإمكان ويرسم آمال المستقبل ؟ ما علاقة المصالحة بالنظام الملكي الديقراطي الدستوري ؟ هل تشكل المصالحة والإنصاف بداية الاحتكام إلى العدالة الإجرائية التي هي أساس كل نظام ديمقراطي ؟ هل للمصالحة علاقة بالانتقال نحو الديمقراطية باعتبارها مؤسسات سياسية تشاركية؟

إن المصالحة مع الذات هي الخطوة الأولى نحو المصالحة الاجتماعية، بل هي خطوة أولى نحو احترام الذات واحترام الآخرين لها. أي إن الخطاب الذي نرسم بعض ملامحه يجب أن يكون هو الخطاب العمومي للمرحلة. والتجربة السياسية لمغرب ما بعد الاستقلال رغم النكسات التي

تعرضت لها والمثالب والنواقص التي اعترتها يمكن أن ترشدنا عند إعادة تناولها وإعادة وصفها إلى أمور يمكننا اعتبارها بداية للانتقال الديمقراطي وللإصلاح السياسي المنشود ومنها :

1- **احترام التعددية السياسية** : هي سمة من سمات الديمقراطية الليبرالية وتعني من بين ما تعنيه حرية التعبير عن وجهات النظر المختلفة في الإنسان والكون والدين والسياسة والجنس سواء كانت دينية أو علمانية، وسواء تم التعبير عنها من خلال مؤسسات سياسية أم اجتماعية أم فكرية. والدولة لكي تكون منصفة باعتبارها بوتقة تنصهر فيها كل وجهات النظر يلزم أن يصدى خطابها العمومي بكل وجهات النظر هذه باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الدولة ذاتها إن كانت تحترم التعاقد. ويكون لمسألة فصل الدين عن الدولة دور حاسم في مسألة التحكيم القانوني والدستوري، بحيث يكون لكل مذهب لا يتوسل العنف الحق في الوجود والتعبير عن معتقداته من خلال وسائل الاتصال السمعية والبصرية العمومية. وبهذا المعنى تكون الضمانة الكبرى هي حرية الاختيارات السياسية والثقافية المتساوية لدى الجميع. وقد تكون التعددية السياسية تعددية لغوية وتعددية دينية لأن الاعتراف للآخرين بحقهم في الاختلاف نابع من هذا الإقرار. اللغة والدين لن يكونا أبدا هوية لمواطني الحداثة ولا يشكلان اللحمة الاجتماعية المنشودة. إن الهوية إن لم تكن هوية متوحشة يلزم البحث عنها في الممارسة السياسية وفي الآفاق التضامنية التي تفتحها أمام المواطنين باعتبارهم كائنات تتحمل مسؤولية مصيرها. لأن الهوية هي الأخرى قيد التحقق وبالتالي ليست ماهية يلزم البحث عنها في النصوص المقدسة أو فيما وراء الطبيعة. لا يشكل التعدد اللغوي مشكلة تهدد كيان المجتمع بالزوال ؛ ولدينا مثال أوربا الآن رغم عشرات اللغات تتحد في أفق الاستجابة لمصالح أجيالها الحالية والمستقبلية. بالطبع هناك صعوبات تعترض إنجاز هذا الخيار التعددي في مجتمع متخلف ؛ لكن الصعوبات هنا لا تتعدى كونها صعوبات إجرائية سرعان ما يتم تجاوزها عند الاتفاق على المسار الذي تتخذه الإصلاحات السياسية اللاحقة في أفق تحقيق مجتمع العدالة والقانون والرفاه الاجتماعي. أما التعدد الديني فإنه يوجد على هامش كل شيء بالرغم من أن الديانة اليهودية لا تقل عراقة عن الديانة الإسلامية في المغرب. فلا نجد أي أثر لنص ديني يهودي أو مسيحي في المقررات المدرسية وربما في المكتبات أيضا. وهذا الغياب هو ما يشكل في نظرنا تشجيعا على التطرف الديني والفكري بل نزعاته الهدامة. لأن التغييب وعدم إفساح المجال للآخر المختلف يمحوه من الوجود التاريخي بالرغم من أنه ليس آخر إلا في نظر الهوية المتوحشة التي تعتمد الإقصاء والعنف بمثابة منهج للنقاء الإيديلوجي المغلف بثوب الدين الواحد الصحيح. والبكاء أو إبداء أسف زائد على "بلقنة الحياة السياسية" يعني في نظرنا شيئا واحدا : ألا وهو البكاء على "فقدان القطيع الأكبر" الذي ينقاد للزعيم الكبير حامي الملة السياسية والعائلية والقبلية. وقبل البكاء على البلقنة فهي حاصل القمع الذي سلط على الطبقة الوسطى وسياسات تفتيت كل التجمعات السياسية الكبرى وتقزيم المعارضات ومواجهتها بضعفها أو بمحاولة إضعافها لأجل احتوائها. لكن الجانب السلبي في البلقنة السياسية قد يتحول إلى إيجابية بالنسبة لمستقبل التكتلات السياسية. وهذا

يعني احترام وجهات النظر السياسية مهما بلغت من الصغر، ويعني ذلك بذل المزيد من الجهد للإقناع والتنازل لأجل الإدماج، وليس الاندماج القسرى في وجهة النظر الصحيحة الوحيدة.

2– **إقرار الوحدة الديمقراطية والاختلاف الديمقراطي** : في مجتمع ديمقراطي ليبرالي لا تكون الوحدة السياسية والاجتماعية دمجا قسريا للأحزاب في حزب واحد أو دمجا قسريا لديانات في دين واحد، بل ولا حتى دمجا قسريا لوجهات نظر مختلفة في وجهة نظر واحدة ووحيدة مقدسة وصحيحة وهي التي أراد الله لها أن تسود. إن التعددية سواء في المجال السياسي أو الديني أو اللغوي لن تجرنا نحو كارثة الانسلاخ عن هوية ما، بل العكس هو الصحيح. وبما أن غاية الجميع أو النخبة المنفتحة الحداثية على الأقل هي بلوغ الوفاق أو الاتفاق، وبما أن غاية كل وفاق ملازمة للغة–الخطاب فإن على المتكلم أن يتفاهم مع متكلم آخر حول موضوع، وبالتالي يلزمهما معا أن يفهما الخاصية الملتصقة بالملفوظات أو المنطوقات، وهذا أمر يجعل الوفاق في غاية الصعوبة؛ لأنه يتطلب من المتحادثين بذل المزيد من الجهد وربما جهودا مضاعفة من أجل بلوغ التوافق. وبما أن التوافق العقلاني يعني تعليل التفاهم بالكلام فإن الوحدة الديمقراطية ذاتها تعني أن الوضع الحواري يؤدي لزوما إلى توارد وجهات النظر المختلفة دون إكراه حول هذه الصيغة من القول أو أخرى، الشيء الذي يعني أن الاتفاق أو التوافق الحواري تنتج عنه نتائج قابلة للتحقق كالاتفاق على تبني مؤسسات جديدة في الحكم، وبناء ثقة بين النخب السياسية والمواطنين، وبناء مدن ومطارات وتغيير أسمائها، أو إلغاء ممارسات وعوائد متأصلة إلخ. ولن يكون التحادث مثمرا دون أن تتكافأ فيه وجهات نظر المتحادثين. لأن تكافؤ فرص الاستماع لكل وجهة نظر بشكل كاف كغيرها من وجهات النظر يسمح في الوقت نفسه بإمكانية تجاوز كل وجهات النظر المقدمة نحو وجهة نظر ثالثة تتجاوز المتكلم والمستمع معا. وحتى لو لم تؤخذ وجهة نظر ما بالحسبان، فهذا لا يعني مناوءة لصاحبها أو أصحابها أو انتقاصا من مكانتهم أو إشعارهم بالدونية، بل لأن الفهم التذايتي استقر على وجهة نظر أخرى بدت صحيحة أو ملائمة أو منسجمة مع وجهات نظر أخرى على الأقل في اللحظة التي تم فيها اتخاذ القرار. وإذا تعذر بلوغ الاتفاق وبقيت وجهات النظر متباينة ومناوئة لبعضها البعض فإن أفق الاتفاق يظل محجوزا إلى حين تجاوز صعوبات التفاهم وهي صعوبات مرتبطة بالوضع الحواري أو التفاوضي. ومن حق كل واحد أن يبحث عن التبريرات والتعليلات الضرورية لدحض وجهة نظر الآخر ، بالقول وحده، دون تجاوز ذلك إلى استعمال العنف أو التلويح به في وجه من اختلف. ونعتقد أن خطاب المصالحة فتح آفاقا رحبة في هذا الاتجاه. إن الوحدة والاختلاف والاتفاق واللااتفاق والتفاهم واللاتفاهم يعني أن كل شيء يمكن التناظر والتحادث بشأنه في المجتمع الديمقراطي. وهذا ما تحاول الخطابات التيئيسية يمينية أو يسارية التشويش عليه.

3– **إصلاح استراتيجية الخطاب العمومي** : نعني بالخطاب العمومي الخطاب الذي تبثه الدولة أو تسمح ببثه وإنتاجه تحت رقابتها من خلال المؤسسات العمومية : إذاعة، تلفزيون، جامعة، ثانوية،

مدرسة أو مسجد أو من خلال المؤسسات الخصوصية : المطابع، والمكتبات، والصحف الحزبية أو غير الحزبية والكتب والمقررات المدرسية. هذا الخطاب الذي يتوخى منه الاستجابة الكلية لحقوق المواطنة ولقيم الحداثة والديمقراطية ما يزال سجين ازدواجية منفرة لا تساعد على خلق البدائل المتوازنة في تدبير الشأن العام. فأي خطاب لا يسمح للناس بالانخراط في صنع مستقبلهم بالاعتماد على مجهوداتهم الخاصة طلبا للسعادة الأرضية بوصفه هدفاً محترماً لن يصب سوى في خانة التطرف بكل أصنافه الدينية والسياسية. ومن اللامعقول أن يتشبث خطاب السلطة السياسية بحق مقدس في التعالي والاعتماد على مشروعية خارقة من خارج الدستور. لذلك وجب أن يحصر الدين في المجالات الخاصة للأفراد لا أن يرفع كهوية إلهية سياسية مستقلة عن المجتمع ؛ لأن هذا في نظرنا هو ما يسهم في تجديد السيرورات التدميرية التي كشفت عن وجهها البشع ليس فقط في 16 ماي 2003 بل وفي الاغتيالات السياسية التي مارستها وما تزال تطمح إلى ممارستها جماعات تدعي حلولها في وجهة نظر الله السياسية في قضايانا الإنسانية. ولأن الاعتقاد الذي ما فتئ يروج له المتأسلمون هو أن الله نذرهم أو نذروا هم أنفسهم لخدمة وجهة نظره السياسية في الملكية وفي الدستور وفي البرلمان وفي المؤسسات الحكومية وغير الحكومية إلخ.. التي تنخرط في محاربة وجهات النظر المخالفة سوف يؤدي حتما إلى الباب المسدود وإلى قطع فرص المحادثة. والبحث عن السعادة الشخصية لا علاقة له بأخلاق "الدين" أو القطيع أو بأخلاق الرعايا، بل له علاقة بحرية المواطن في مجتمع الحداثة. والحرية تعني من بين ما تعنيه : حرية التعبير وحرية الصحافة والجامعة، وحرية التقرير في المصير الشخصي وحرية اختيار المشاريع الخاصة، والحق في أن تكون للشخص معتقدات ورغبات لا علاقة للآخرين بها ويلزمهم احترامها، والحق في اعتناق المذهب السياسي الذي يختاره المرء وفي اختيار الوطن واللغة والدين التي يرى المواطن أنها تكفل له كامل الحرية في تحقيق كماله الخصوصي وتكفل له حرية التعبير عن آرائه وممارستها في وضح النهار، وكذا حقه الثقافي غير القابل للتفويت. إن هذه الحرية هي التي نراهن عليها للتقدم الأخلاقي باعتباره أرقى ما يختاره الناس لأنفسهم وما يستجيب لرغباتهم ومقاصدهم باعتبارهم كائنات مبرمجة لغويا، لكنها حرة في نسج شبكة الاعتقادات والرغبات التي تستجيب للحاجات الضرورية الآنية والمستقبلية لديها ولأنها كائنات تلعب لعبة لغوية قد تنتهي مهمتها بعد تحقيق الهدف أو قبله ولا يهم إن كانت هذه اللعبة خاطئة من البداية. إن أسوأ خطاب هو خطاب الاجماع الذي لا يلغي كل الخطابات الفردية والخاصة فحسب، بل يلغي الحوار والمحادثة، وبالتالي فهو مناقض لكل توافق وتبادل لوجهات النظر، بل إنه مناقض للإمكان ذاته. وتحصين المجتمع من أعدائه المتطرفين دينيا أو سياسيا يتم من خلال إشراك الناس في تدبير شؤونهم ودمجهم في البحث عن آفاق مشتركة لكل فعل اجتماعي وتحسيسهم بمخاطر الانغلاق والتزمت. وعلى الدولة أن تتوسط بين المجالين الخاص والعام وتستعمل وسائل الإقناع ولا تلجأ ضد مواطنيها إلى وسائل الإكراه من أي نوع كانت. ومقياس الفهم هنا هو أن خطاب الحداثة يوفر إمكانية الإطلال على المستقبل بكل الثقة والأمل اللازمين،

ولذلك فهو انفتاح على الحرية الإنسانية بكل معانيها الجليلة. إن الارتماء في المستقبل هو الذي يسمح بالتخلص من العبء التاريخي لتجاوزات الماضي الأليمة، وهذه فضيلة عملية ونفعية لا يجدر بنا نسيانها.

4- **توطيد الديمقراطية الليبرالية** : تعني في أفق المصالحة إقامة مجتمع ديمقراطي تعددي حداثي تكون مختلف مؤسساته من ديوان ملكي ووزارة أولى والوزارات الأخرى بدون تمييز بين سيادية وغير سيادية ومؤسسات الجيش والشرطة والشرطة السرية والمخابرات والأحزاب السياسية ذات المشروعية النضالية أو ذات المشروعية الإدارية أو المشروعية القانونية والجمعيات الثقافية والتنموية والتضامنية ككل لا تلجأ لتمرير وجهات نظرها إلى العنف أو الإكراه ما عدا إكراه المحادثة أو إكراه ممارسة وجهة النظر. وأن تقر جميعها أن المبادئ التي تقوم عليها الدولة الديمقراطية من مساواة وعدالة وحقوق فردية وجماعية وحرية التعبير والاختيار وحقوق العمل والتعلم وتكافؤ الفرص لا يقبل أي منها الانتهاك. ففي الدولة الديمقراطية الليبرالية يلغى دور التعليمات وتحل محلها المذكرات التي يتم تبادلها علنا بين المؤسسات، ولن تكون في حاجة إلى الإخفاء لأنها تتماشى مع القوانين الجاري بها العمل. وأن الهدف من كل مذكرة هو تكريم المواطن وإشعاره بأن الدولة ومؤسساتها في خدمة مصالحه. في الأفق الديمقراطي الليبرالي تعني المصالحة تورطا في وجهة نظر الآخر أو الآخرين، ولهذا فهي النقيض للموضوعية التي تعني الحياد والاستقلال وتبني وجهة النظر الإلهية المنزهة عن كل غرض أو مصلحة. إن المصالحة تعني تعاقدا تذاتيا اجتماعيا وسياسيا بين طرفين لم يكن بالإمكان أن يتبادلا المذكرات ووجهات النظر ولم يكن بمستطاعهما التموقع ضمن اختيار ثالث صونا لمصلحة الطرفين ولرغبتهما بعيدا عن ديماغوجية المصلحة الوطنية العليا أو ما شابهها. وإذا نجحت المصالحة في أن تتحول إلى قوانين الدولة الملكية المستقبلية المواطِنة فإنها تتوافق في الآن نفسه مع القوانين الدولية في تصور معايير الحق والعدل والإنصاف. وتعني التموقع ضمن وجهة نظر الآخر المحلي أو الدولي وتصبح نموذجا يحتذى به في إنصاف الضحايا أو ذويهم. وهنا نشير إلى لأنه لا معنى للتراتبية في مملكة ديمقراطية ما لم تكن تشاركية، أي تسمح بمواجهة وجهات النظر مع وجهات نظر أخرى لا علاقة لها بحق الأمير المقدس في الحكم أو التعالي فوق مجرد وجهة نظره والتداول أو التناظر بشأنها لأن النقاش وحده سيسمح بتغليب وجهة نظر مفترض نجاحها على وجهة نظر أخرى مفترض إخفاقها. وحتى لا تصبح الدولة مارقة أو خارجة عن القانون وحتى لا نحتاج إلى الانقلاب الأمر الذي يعني الخروج عن القانون ويعني من بين ما يعنيه فرض شروط غير ملائمة أو استثنائية بدل التعاقد ويعني استبعاد النخبة من المشاركة في القرارات السياسية المتعلقة بشؤون حياة المواطنين الذين يشكلون جزء لا يتجزأ منهم باعتبارهم المجتمع المدني. وستؤول المصالحة والإنصاف إلى الإشراك والتعاقد وفي نفس الوقت رفضا للدولة الكليانية التي تمجد وجهة نظر الزعيم الأوحد أو عبادة شخصه المقدس. وهذا التحدي للذات كلقطة أو صورة فوتغرافية ثابتة يعني التجاوز نحو فعل حي يتفاعل مع المعطيات المتجددة في الوضع القائم الذي ينبغي تصحيحه

وإصلاحه بشكل دائم. والمصالحة السياسية أو التسوية السياسية هي حل للمشاكل ووضع حد معقول لممارسة السلطة وتمكين للعدالة الدستورية التي تسمح للمواطنين بتحقيق مصالحهم الأساسية. وبما أن كل ما حدث فيما بات يعرف بسنوات الجمر والرصاص هو تجسيد للظلم السياسي والاقتصادي والثقافي واللغوي والديني، فإن المصالحة تعني أيضا تجاوز كل أنواع هذه المظالم وإقرار قوانين تحارب في الحاضر والمستقبل العودة لمثل هذه المظالم والحاجة إليها. كما إننا عندما نقول ليس من الضروري أن نجر الجلادين إلى المحاكم لكن لا بد من جرهم إلى الاعتراف بما اقترفوه كنوع من التداوي وليس كنوع من التشفي، فإننا نقر بأنه من حق المواطنين أن يخطئوا في حق الدولة لكن ليس من حق الدولة أن تخطئ في حق المواطنين ؛ لأن الدولة ككيان سياسي هي الجدار الذي يحتمي به الجميع. ومن المستغرب حقا أن تتدخل بعض المنظمات الدولية لتملي وصايتها من خلال التأكيد على أن "يتضمن التقرير الختامي لهيئة الإنصاف والمصالحة التشديد على معاقبة الجلادين" مع أن كل هذه الهيئات كانت غائبة لما تصالح سود جنوب إفريقيا مع بيضها دون محاكمات ودون جر الجلادين إلى المحاكم لأن الجلادين في نظرنا هم الدولة وبما أن الاستمرارية ثابتة يلزم أن يقدم الاعتذار للضحايا ولذويهم باعتبار ذلك إنصافا معنويا وأخلاقيا.

5– **بعث الأمل في التضامن** : المجتمع الذي يفقد معايير وحدته ولحمته هو المجتمع الذي يغلق باب الحوار والاجتهاد. لأن المعايير هي دوما قيد التحقق وتجري مع صانعيها في طريق ليس له نهاية. والتضامن ليس عملا خيريا أو دعائيا أو فضيلة مطلوبة لذاتها بل هو شعور يخلق لدى المواطن أو يتم تحسيسه به ليقف في وجه الفقر والحاجة إلى جانب ذوي الاحتياجات باعتبار هذه المشكلات مشكلات إنسانية قابلة للحل وليست قدرا. فاللحمة الاجتماعية لا معنى لها إن لم تجعل المواطنين يشعرون بأن من واجبهم حفظ حياتهم وحرياتهم وأمنهم وسعادتهم من خلال الشعور بحاجة الآخرين إلى كل هذه الأمور. مع التأكيد على أن الحرية التي تعترف بها الديمقراطية هي تلك التي تتماشى مع القوانين الوضعية وتعني الالتزام الوجودي في هذه الأرض التي تسمى المغرب وضمن الأفق الذي يتحرك فيه دستور هذه الدولة ـ الوطن ـ المملكة وهو يتطور نحو الأحسن فالأحسن. إن الدعوة إلى مجتمع التضامن بقدر ما هي مدنية هي دعوة إلى الطموح الخلاق والنشاط الملتزم بتصور للتاريخ وصناعته ضمن البحث عن تحقيق أهداف تبدو لا مفر منها لإصلاح استراتيجية تداول السلطة وتحسين الشرط الاجتماعي للحرية والرفاهية. إنها جواب على وجهات النظر الماضوية المستهلكة للسلطة : سلطة المال والدين والسياسة. والتضامن هو في حد ذاته جوهر المصالحة مع الذات بأوسع معانيها باعتباره وحده القادر على إطلاق الفعل الإيجابي الذي يستطيع أن يوقف سيرورات الفقر والجهل والمرض والتطرف وانتهاك الحريات. والظلم السياسي الذي دبج صفحات سوداء من تاريخنا المعاصر يتطلب منا إرادة التجاوز بفضل إجراءات المصالحة التي تعني إقامة العدل والإنصاف ليس على أسس مطلقة وإنما على أسس تضامنية. لأن التضامن هو في حد ذاته تفاوض. ولهذا لن تتحقق المصالحة، في نظرنا، على يد أصوليين دينيين أو أصوليين علمانيين

يبجلون وجهات نظرهم أو يعتبرونها وجهة نظر العدالة الإلهية أو وجهة نظر الضحايا. إننا عندما نتحادث أو نتحاور إنما نواجه بعضنا البعض بمستحدثاتنا وبدعنا الخطابية ولا نواجه بعضنا بحقائق أبدية، ولهذا لزم أن تغذي كل محادثةٍ محادثةً أخرى أو تطلق خطابات أخرى في اتجاهات مختلفة بحثا عن صهر كل الآفاق تحقيقا للحمة والأمل الاجتماعيين القادرين على إبقاء حيز الأمل المشترك مفتوحا. وهذا يستلزم ملاءمة الوسائل السياسية بأهداف التضامن والخلق الذاتي الفردي في الكفاح ضد القسوة والوحشية وسوء استعمال السلطة. وبما أن الذات الأخلاقية هي الذات التي يمكن احتقارها فإن الإحساس بالتضامن يقوم على الإحساس بوجود خطر مشترك يهدد الجميع، ولذا تلزم مواجهته من قبل الجميع أيضا.

6- **إطلاق طوباوية الأمل** : إن المصالحة بأوسع معانيها هي الأمل المعقود على تجاوز الخلل في كل الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية واللغوية والدينية والمدنية والبيئية إلخ، سواء أكانت جهوية أم غير جهوية. إن المصالحة تعني أن خطاب الماضي لم يكن كما كان يعتقد أنه الخطاب الصحيح المتطابق مع جواهر الأمور أو مطابق لإرادة إلهية أو سامية، وإنما كان تعبيرا عن اقتناعات وآمال أفراد استفردوا بالمؤسسات فحكموا ثم ظلموا فاشتطّو أيما شطط. وتقادم هذا الخطاب هو الذي فتح الباب أمام الحاجة إلى خطاب جديد يفتح فضاءات جديدة أمام تكافؤ الفرص بين جميع الخطابات ووجهات النظر المختلفة. ولكي لا يخيب الأمل من جديد كما خاب "في المسلسل الديمقراطي" يجب ألا نخضع لتوقعات الماضي. وأن دليلنا هو تغيير الممارسات لفسح المجال أمام ممارسات تستجيب لحاجيات أخرى أفضل. وأنه بالإمكان بل وفي المتناول إيجاد كيفيات لوضع حد للظلم والجشع والأنانية لخلق دولة الرفاه الديمقراطية وتحقيق تكافؤ الفرص في الحياة بين المواطنين وإعادة توزيع السلطة والثروة والفائض الذي أنتجه اقتصاد السوق وجعل النظام الملكي حداثيا بمعنى الكلمة حتى لا نفسح المجال للتدخلات الخارجية لتفسد لعبتنا. إن خلق الأمل في عصر المصالحة مع الذات يعني الثقة في الجهود المنصبة على معالجة القضايا التي تشغل بال المواطنين ومن مختلف الفئات المتضررة وأن بالإمكان أن يصبح المواطن مواطنا لا رعية في دولة ملكية ديمقراطية. وبهذا تصبح الملكية محببة يرحب بها ويعتز بالانتماء إليها كأقصى ما يطمح إليه المواطن كذات هي شبكة من الاعتقادات والرغبات لا تنسج إلا وهي تستجيب لضغط البيئة الخارجية أو الداخلية بحثا عن إشباع أو ارتياح سواء كان استهلاك سلطة أو سلعة أو شعوراً بالانتماء إلى الأرض والإنسان. هذه الطوباوية السياسية ليس لها أصل في الدين أوفي العلم بل إن أساسها هو ما ينتج عنه تحقيق أهداف ورغبات عملية ونفعية ذات خلفية اجتماعية. والمجتمع الديمقراطي الكامل هو المجتمع الذي لا يعيش على معايير محايدة أو مطلقة أو موجودة سلفا، بل هو الذي يعمد، إلى خلق معاييره النسبية من خلال صيرورة تداول وجهات النظر واستهلاك السلط المختلفة باعتبارها بضاعة يلزم أن تستهلك قبل انتهاء مدة صلاحيتها. في ممارسة الطوباوية كخطاب للأمل يفتقد يقين الحقيقة ليحل محله إمكان التوافق الاجتماعي والتخيل الفردي ولا توجد حدود يلزم احترامها غير حدود المصالح

الجديدة المسجلة في مختلف الخطابات أو وجهات النظر المسجلة في لائحة المعتقدات والرغبات التي يفترض في منحها الأولوية أن تحقق التوازن السياسي أو الثقافي أوالبيئي. وهذا ما يسمح بتغيير العوائد ورؤية الأمور بشكل مختلف أي مواجهة سيناريوهات بأخرى بديلة وأوصاف بأوصاف ولعب لغوية بلعب أخرى. وأن نكون عربا أو مسلمين أو يهودا أو مسيحيين أو أمازيغ وشلوحا وريافة أو نكون مغاربة فهذا لا يمنحنا رابطة مشتركة فما نتقاسمه مع هؤلاء هو الشعور بالألم والاحتقار والوحشية الذي تعرضنا له أو سنتعرض له من قبل مواطنينا أو من قبل غزاة محتملين. وأن يمارس التعذيب على شخص لا يعني أن الجلاد يريد أن يجعله يصرخ من الألم ويبكي ويندم على الفرص الضائعة بل هي أن يجعل الشخص يفشل في إعادة بناء نفسه وجعله يعتقد برغبات ومعتقدات لم يكن يستطيع التعامل معها في السابق أو يلزمه التوافق معها رغم أنها لا تتوافق مع رغباته ومعتقداته الراهنة. وهذا يعني فشله كذات أو عجزه عن أن يكون ذاتا ترغب وتعتقد وتكره بحسب احتياجاتها لا بحسب أوامر من إرادة عليا قد تكون الله أو الملك أو الوزير أو العامل أو القائد أو المقدم أو الأب أو الفقيه أو الكاهن. والمصالحة ما هي إلا هذه القدرة على البوح والقدرة على حكي قصة تمكننا من الانتقال من الحالة الراهنة إلى هذا المستقبل الأمل. وهنا قد يكون الروائي أو الشاعر هو الأقدر على بلورة خطاب يفضح هذا العجز. والمراوحة في المكان أو انسداد الآفاق المستقبلية لا تجدي معه الأساليب العتيقة من السرديات الدينية التي ولى زمانها ولا السرديات السلطوية التي لا يمكن تبليغها إلا بوسائل القهر. ولا تعني الطوباوية الديمقراطية سوى الحلم بتحقيق أفضل رغبة وأفضل معتقد تعتبره الذات ضروريا لتحقيق توازنها وأفضل فضيلة هي التسامح وحب استطلاع وجهات نظر الآخرين، وليس البحث عن الحقيقة الموضوعية. وبقدر اقترابنا من هذه الفضائل البشرية نبتعد عن دولة الإرهاب الديني ونقترب من دولة المواطنة أي دولة الشعر والرواية لأن الخيال هو الأقدر على تحقيق هذه الطوباوية أي المجتمع الافتراضي الذي نسعى إلى تحقيقه. فالرواية والمسرحية والفيلم والمسلسل التلفزي تحل محل الموعظة الدينية كأحد أساليب التغيير الأخلاقي والسلوكي. إذن لا مفر من إبداع خطابنا بكلماتنا الخاصة، ولا مفر من تحمل المسؤولية في إيجاد هذا الخطاب المتلائم مع رهاناتنا السياسية الحالية لأجل العبور بسلام نحو المستقبل. هنا لا يتعارض الخلق الذاتي للخطاب مع التضامن التذايتي. لأن الاستقلال الذاتي يغطي مجال الذات الخصوصي والتضامن يغطي مجال الذات العمومي. وباختصار تعني طوباوية المصالحة أن توفر الدولة ومؤسساتها كل الوسائل الملائمة التي تمكن المواطنين من حرية الاختيار في شؤون هم أدرى بحاجتهم إليها، كما تعني فصل الدين عن الدولة وفصل السلطات فصلا حقيقيا يسمح بقيام التوازن فيما بينها ويجلب النجاعة في تحقيق مجتمع العدالة والإدماج. فالخير العملي هو تقسيم العمل بين المؤسسات التشريعية والقضائية والتنفيذية. والأمل الاجتماعي الذي يحتاج إليه المواطن هو امتلاك القدرة والحرية في اختيار الكيفية التي يدفع بها الأمور نحو الأحسن، والكف عن قص قصص مستحيلة التحقيق. وبدون التضامن فإن المصالحة ليست وحدها مستحيلة، بل والديمقراطية

ذاتها.

عودة إلى البداية :

لا يكون الوجود عبثيا إلا لمن يبحث عن معايير للصدق خارج الذات أو يتخذ وجهة نظر إلهية ليتموقع فيها أي يساهم في الجهود المبذولة لإقرار المصالحة من لا–مكان ولا يعبأ بالتبعات السياسية المترتبة على هذا الموقف. إن الذوات الفاعلة والمتفاعلة والمنخرطة في بيئتها هي التي تستطيع أن تقترح علينا وجهة نظر في المصالحة. وقدرتنا على النسج بين وجهة نظرنا ووجهات نظر الآخرين هو الذي يجعلنا نحترم وجهات نظر الآخرين باعتبارها معتقدات ورغبات خصوصية وفي احترامها نضمن احترام الآخرين لرغباتنا ومعتقداتنا. ولهذا لزم أن تترك الحرية للذوات الفاعلة كي تنسج نسيجها الخصوصي وبقدر ما تتشابك الخيوط مع بعضها البعض تزدهر اللحمة في النسيج الاجتماعي، ومعها يكبر الأمل في النشاط المثمر ويحل البحث عن السعادة الذاتية أو التذايتية الدنيوية محل الخطيئة الكبرى والبؤس الجماعي واليأس والكآبة. إن خطاب المصالحة والإنصاف، بصيغته المغربية الآخذة في التبلور منذ مدة، نعتبره "بدعة" مغربية خصوصية وهو وحده الأقدر على قلب صيرورة الفشل التي حكمتنا ووحده سيرجع لنا الثقة المفقودة في ذواتنا وفي سلطتنا ويعيد لنا الاحترام الذاتي. هذا يعني بدوره أن هناك صراعا صريحا بين خطاب مستحكم أصبح عائقا أمام انصهار الآفاق وبين خطاب جديد آخذ في التبلور، يعد وإن ببعض الغموض بأشياء رائعة ومنها أن نحيا فوق هذه الأرض باعتبارنا كائنات حرة وممكنة وضمن معايير نخلقها ونعيد خلقها باستمرار تبعا لاحتياجاتنا وضروريات عيشنا. ولهذا فتغيير الخطابات باعتبارها ممارسات اجتماعية قد ينتج كائنات اجتماعية من نوع جديد قادرة على تقبل وجهات نظر الآخرين على أنها محض اختيار ومصادفة سعيدة. هذا ما سيسمح بديمومة الإصلاح باعتباره هدفا يجنبنا كل المحن التي تنتج عن سوء الفهم وتفرض ظروف الاستثناء لتطلق يد كل من يريد أن يعبث بحريتنا ويقلص أفق الأمل الذي سنحيا به ككل الشعوب الديمقراطية. ولن نكون كائنات جديرة بالاحترام إذا فشلنا في بناء المجتمع الديمقراطي الذي ننشده. ونظام القيم الذي يُتوافق بشأنه يجب أن يتلاءم مع دولة الحداثة والديمقراطية وهو بكل تأكيد يختلف عن الإيديولوجيا الدينية ورهاناتها في النهوض بأوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ولهذا سوف تكون المصالحة والإنصاف تحديدا لتوجه عام سيأخذ مجال تطبيقه في القوانين التي ينبغي أن تخرج من القوة إلى الفعل بفضل جهودنا وحدها. وهذا وحده يزرع الأمل ويقوض الاستقالة من تحمل المسؤولية إزاء بعضنا البعض، ويجعل النزوعات الريبية والتيئيسية أمرا مرفوضا من قبل الغالبية المطلقة. وما لم تصبح الديمقراطية والمصالحة والإنصاف أهدافا نعرف، في كل إعادة تقييم لخطواتنا صوب تحقيقها، إن كنا نقترب منها أو نبتعد ومتى تفرض علينا تعديل استراتيجياتنا المتبعة، فإنها لن تكون جديرة بالمتابعة ولا تستحق العناء. وما لم نغير تصورنا الذاتي لأنفسنا باستمرار، فإن الحلم بالتغيير لن يكون سوى وهمٍ وعزاء يملأ ذاكرتنا عندما نقفل على ذاتنا كل أبواب الأمل.

اللغة التي نحيا بها

هوامش على كتاب "اللغة والبيئة"
للأستاذ عبد القادر الفاسي الفهري

أنور المرتجي

يعتبر موضوع السياسة اللغوية من أهم القضايا الشائكة التي يواجهها واقعنا الثقافي، لقد اتسم الحوار حول المسألة اللغوية، سواء تعلق الأمر باللغة الوطنية، أو باللغات الأخرى التي يزخر بها واقعنا اللغوي، بغلبة المواقف الإيديولوجية والعقيدية، وأحكام القيمة. وتم التخوين والإقصاء، بدل مدارسة التعدد الذي يسكننا بأدوات العلم والمعرفة المستنيرة برؤية منهاجية موضوعية.

في هذا السياق السجالي، يأتي هذا الكتيب الصغير الحجم، والثقيل في ميزان البحث العلمي، حول "اللغة والبيئة"(1) للدكتور اللساني عبد القادر الفاسي الفهري ليدشن بطريقة موضوعية مقاربة جديدة لوضع اللغة الوطنية داخل مسار السياسة اللغوية التي اتبعت منذ الاستقلال، متوخيا رصد التحديات المحلية والكونية التي تواجهها اللغة العربية في عالم "مجتمع المعرفة والمعلومات".

ينحاز الأستاذ الفاسي الفهري من حيث المنهج، إلى مقاربة إيكلوجية بيئية، تتعامل مع اللغة ككائن يتطور في الزمن والمكان، ويحيا مثل (الكائنات النباتية والحيوانية والبشرية)(2) ويتأرجح بين الحياة والموت، (وتصارع من أجل البقاء والنماء والفاعلية الوظيفية، والابتعاد عن التقهقر والانكماش والانقراض)(3).

يحدد الأستاذ عبد القادر الفاسي مجموعة من العوامل والمؤشرات المطردة، التي تكون سببا في تدهور وضع اللغة وانطفائها، والتي تعود إلى عامل خارج عن المجال اللغوي له طبيعة (سياسية وإقتصادية واجتماعية وإثنية). أما العامل الثاني، فيتعلق بالسلوك اللغوي المتمثل في المواقف من اللغة والأحكام التنقيصية التي تقال حولها من طرف متكلميها (وغير خاف أن اللغة لا تنهار بفعل فقرها وضعفها الداخلي، بل إن هذا الفقر غالبا ما يكون نتيجة أو لازمة لتحول تنقيصي في مواقف متكلميها منها)(4).

إن السياسة اللغوية التي نهجتها الدولة منذ استقلال المغرب، اتسمت بالرؤية العقيدية التابعة، والتجريبية العمياء. لقد ألصقت باللغة العربية وظيفة "المحافظة" والتعبير عن الهوية. أما وظيفة الاتصال الإداري والعلمي والتقني فقد كانت من نصيب اللغة الأجنبية (ومن أمثلة هذه الظاهرة أيضا أن كل المواد العلمية والتقنية تدرس بالفرنسية وخصوصا في التعليم الجامعي)(5).

إن المواقف المترددة من التعريب، التي مارستها الدولة منذ أكثر من أربعة عقود، تؤكد بالملموس أن الدولة المغربية، تفتقر إلى سياسة استراتيجية واضحة تجاه تدريس اللغة العربية وذلك لأنها لا تمتلك مشروعا مجتمعيا متكاملا.

من أجل رسم ركائز هذه السياسة اللغوية، يشدد الدكتور عبد القادر الفاسي على ضرورة الارتكاز (على مبادئ الهوية الثقافية الوطنية الشمولية، والتنوع الإثني المحلي أو الجهوي)(6) في تعالقها مع الانفتاح (على عالمية التقدم والمعرفة). بمعنى آخر، إن تأهيل السياسة اللغوية أمام التضخم اللغوي على المستوى الكوني والمحلي بالاعتماد (على منهج علمي معقول وهادئ لمعالجة مشاكل اتصال اللغات) يعتبر دعامة (رافعة لتحقيق الاستقرار البيئي اللغوي الطبيعي للمغرب)(7).

لقد تمّ في المحيط اللغوي بالمغرب، توزيع الأدوار بين لغات السوق الرمزية، بطريقة اعتباطية، وغير ديمقراطية، فبالنسبة للغة الفرنسية نجد استعمالها (شبه معمم في بعض القطاعات العلمية والاقتصادية لاعتبارات وظيفية أو انتقالية، ص. 11) بينما نجد اللغة العربية تنعت (بتهم واهية، من قبيل ربطها بتدني مستوى التعليم، وبعدم الدقة، وبكونها تؤدي إلى العطالة. ص. 11).

ولقد ترتب عن هذا الموقف الأحادي المتحيز لصالح الفرنسية ظهور ردود أفعال (تذهب إلى اتخاذ وتبني مواقف في الاتجاه المعاكس، ليست في صالح الفرنسية، حيث تتحمل الفرنسية مسؤولية كل المشاكل. ص. 11).

بعد استعراض المؤلف للسياسة الرسمية في المجال اللغوي، التي تعلي من قيمة اللغة الأجنبية وتعمل على تسفيل اللغة الوطنية، يعمد إلى تعديل هذه الصورة المحدّبة للمسألة اللغوية من خلال

الدعوة إلى ضرورة الوعي (بأهمية تثمين دور اللغة الرسمية الوطنية، وبالدور الإيجابي للغات الأخرى، من أجل التمكن من المعارف والمعلومات. ص. 12).

ينطلق الأستاذ عبد القادر الفاسي من ضرورة إيجاد نوع من التوازن العادل بين العربية واللغات الأخرى، وذلك بالقطع مع الأحكام التحقيرية التي تُرفع ضد اللغة العربية، كنعتها في الفترة الكولونيالية، بأنها لغة كلاسيكية (أي بدون ارتباط بالحاضر والعصري، ص. 54). إن مثل هذه المواقف لن تساعد إلا على تشجيع الإهجار عبر اللغة (بحيث يتحول عامة الأطر والمواطنين إلى منتظرين للهجرة، أو مهاجرين محليين، غير مندمجين في محيطهم اللغوي. ص. 53).

كما أن دعاة النزعة الشعبوية، نجدهم في دعوتهم التشقيقية يشددون على الازدواجية بين العربية الفصحى والدوارج، فنظرا للبون الشاسع بين اللغة المكتوبة والشفوية، نجد بعض الباحثين المبرزين يطالبون (بتجاوز البون اللسني المرتبط بالازدواجية. ص. 40)، وذلك بتبني اللغة الشفوية لاعتبارات شعبوية سياسوية يزعم أصحابها (أن هناك علاقة مباشرة بين تبني اللغة الشفوية والديمقراطية. ص. 41).

لكن التصدي لهذه المزاعم من طرف الأستاذ عبد القادر الفاسي يعتمد على وقائع تاريخية، وعلى أمثلة من الدرس اللغوي المقارن، تؤكد على الدور الذي قامت به اللغة العربية (كحضارة كونية تاريخية، ص. 41)، وأن استعادة هذا الدور سيتحقق حاضراً عندما نؤهلها لتكون (لغة الحياة اليومية، ص. 26)، كما يفند في هذا الصدد بعض الصيحات المتعالية التي تزعم بأن الخلل الوظيفي الذي تعاني منه العربية مرجعه إلى فقر أو ضعف لغوي (في المقومات البنيوية الداخلية للغة العربية، ص. 24) فقد أثبتت اللغة العربية عبر تاريخها (قدرتها على الصمود والاستمرارية، ص. 24).

إن العنصر الأساسي في ضعف اللغة، الذي يؤدي أحيانا إلى انهيارها، مرجعه في الغالب إلى الأحكام (التسفيلية) لمتكلميها. عندما توجد في واقع بيئي ملوث (تطغى فيه لغة أجنبية دخيلة على اللغة المحلية، ص. 25). لهذا السبب يقلل الأستاذ عبد القادر الفاسي من الخطر المزعوم المتمثل (في الازدواج اللغوي بين العربية الفصحى واللهجات العربية العامية، ص. 25) لأن هذه اللهجات المحلية (تمثل مداً (للعربية) في الوظائف والرصيد المفرداتي، والآليات الصرفية، والنحوية والدلالية، وتدخل ضمن هذه المنظومة الثقافية العامة لهذه الازدواجية الأمازيغية، لأنها أخت العربية، وتنتمي إلى نفس الأسرة اللغوية الحامية / السامية، فسواء تعلق الأمر بالازدواج اللغوي بين العربية / العربية، أو التعددية اللسانية بين العربية والأمازيغية، فإن ذلك لا يمثل تهديداً للغة الوطنية. وقد أكدت التجارب التاريخية، عن تعايش غير مسبوق بين العربية والأمازيغية، يعتبر مثالا (مشرفاً للتناغم والانسجام والاستقرار اللغوي، ص. 26).

عندما نعود إلى الأحداث التاريخية، يتأكد لنا بالملموس قدرة العربية على مواجهة الازدواج والتعدد اللغوي (الفارسي والتركي) وذلك بفضل انفتاحها عبر وساطة الترجمة والتعريب والاقتراض (ولم يكن يخطر في بال متكلميها من العرب والشعوبيين (الذين اعتنقوا الإسلام) أنها يمكن أن تكون مهددة بفعل بنيتها أو مقوماتها الداخلية، ص. 29) ولم يبدأ هذا الشعور بالتهديد يترسب عند متكلميها، إلا عندما ضعفت الأمة سياسيا (ودخلت القوات الأجنبية الفرنسية والإنجليزية والتركية لتفرض هيمنتها، ص. 27).

بعد ذلك ينتقل المؤلف إلى الرد على بعض الآراء التحقيرية ضد اللغة العربية التي تمس وظيفيتها، بدعوى عجزها عن مواكبة سُنة التطور نتيجة "لثورة المعلومات" التي يعرفها العالم. في هذا السياق يؤكد الأستاذ عبد القادر الفاسي على دور المدرسة وضرورة إصلاح المنظومة التعليمية في جانبها اللغوي، ومحاربة الأمية، وذلك بالتبني الواعي لرؤية شمولية واضحة بالنسبة لمسألة التعدد اللغوي في المغرب.

وبمثابة خلاصة لهذه المقاربة المتوازنة، يرحب الأستاذ عبد القادر الفاسي بالحدث التاريخي المتمثل في ميثاق إصلاح التعليم (الذي شارك المؤلف في إنجازه)، لأنه يحتضن جميع الاختيارات اللغوية، ويعتبر الإطار المناسب لإيجاد لغة رسمية شاملة في كل القطاعات والوحدات والمجزوءات التعليمية من أجل أن تكون لغة جديدة عصرية، لا تتعارض مع تعددية لسانية تراكمية متوازية ومتنوعة ومعزّزة في المدرسة تحترم التنوع اللغوي الهوي الأمازيغي.

اعتبارا لهذه المقومات القاعدية التي بشر بها ميثاق إصلاح التعليم، سيتبنى الأستاذ عبد القادر الفاسي بدون تحفظ، الحدث التاريخي المتمثل في إنشاء "أكاديمية محمد السادس للغة العربية" لأنه يتماشى مع مضامين "الميثاق الوطني" كخطوة ناضجة (نحو تحديث العمل وتحديث الوسائل لخدمة اللغة الرسمية في المستوى المطلوب، ص. 91).

بعد استعراضنا لأفكار هذا الكتاب المكثفة، التي تتمنع على الإحاطة الشاملة من طرف القارئ المتضامن معها، وصعوبة أن ينثرها في تفاصيلها. لهذا آثرنا أن نعدل صيغة المقاربة وأن نطرح في آخر هذا العرض بعض الأسئلة التي تثيرها القراءة الأولى لهذا الكتاب القيم.

إن الملاحظة التي تستدعي اهتمام الباحث تتمثل في جدة الجهاز المفاهيمي الذي وظفه المؤلف، من قبيل (التلوث اللغوي)، (التقنين البيئي)، (التثقيف اللغوي)، (الميز اللغوي) (الاستقرار البيئي) بدل خطاب المواجهة والحروب الأهلية اللغوية، الذي يتبناه ممثلو الأطروحة الأحادية في توصيف الواقع اللغوي، وثنائية اللغة المهيمنة والمهيمن عليها.

لكن هذه الاستراتيجية "المسالمة" ظاهريا التي يفصح عنها القاموس البيئي للمؤلف، ليست تنازلا عن المواجهة، أو هروبا إلى الأمام، بل اقتناعاً يضمر موقفا علميا هادئا، يذكرنا بأن التعاطي مع المسألة اللغوية وسياستها، يتطلب منا أن نتسلح (بمنهج علمي معقول وهادئ لمعالجة اتصال اللغات، ص. 49)، وأن نتبنى في هذا الحوار المناهج العلمية، لكي نتكلم عن دراية بالموضوع، وليس كما يفعل أصحاب المواقف الإرادوية في النقاشات اللغوية غير الأكاديمية، أو غير المحترفة، أو النقاشات الأكاديمية الأقل علمية أو النضالية، ص. 46).

لقد نبهنا الأستاذ عبد الله العروي في بحثه الرائد (أن الإصلاح اللغوي الضروري، لا يمكن أن يتحقق إلا في إطار سلطة قومية لها نفوذ قوي). ونحن نتفق مع د. عبد القادر الفاسي - عندما يعتبر أن إنشاء "أكاديمية محمد السادس للغة العربية" تمثل خطوة في الاتجاه الصحيح - لكننا نصاب بالخيبة والإحباط عندما نلاحظ تردداً وتعثراً عند المسؤولين في تنفيذ وأجرأة مراسيم هذه المبادرة الجسورة، مما يدفعنا إلى القول إن السياسة اللغوية لا تحترم مبدأ التعدد اللغوي المتساوي الأضلاع، وإن التمييز لصالح اللغات الأخرى ليس من مصلحة التنمية الثقافية الشاملة التي يتطلع إليها جميع المغاربة.

إن القيمة العلمية لكتاب "اللغة والبيئة" تتمثل في اعتباره بمثابة بيان ديمقراطي للتعاطي مع واقعنا اللغوي، يسد فراغا في المكتبة المغربية والعربية، بعيدا عن منطق الحروب اللغوية المفتعلة، ودليل استراتيجي ما أحوج الساسة والنخب لكي يكون في مكتبتهم.

هوامش :

1. عبد القادر الفاسي الفهري، "اللغة والبيئة"، كتاب الجيب، منشورات الزمن، 2003.
2. "اللغة والبيئة، ص. 25.
3. نفس المرجع، ص. 24.
4. نفس المرجع والصفحة.
5. نفس المرجع، ص. 10.
6. "اللغة والبيئة"، ص. 11.
7. نفس المرجع، ص. 49.

بونوا دونيس : الأدب والالتزام

محمد برادة

تناقُضاتُ الالتزام*

في ما يتعلَّق بالأدب، فإن الاستعانة بالدُّنيوي والتوجّه إليه لِتبرير اختيار الالتزام، يُمثِّل عملية جِدالية ونقدية. وبالفعل، فإن الكاتب الملتزم، باعتماده على محفل خارج عن الحقل (الجمهور الواسع)، يضع نفسه مَوْضعَ مَنْ يوجه نظرة "لا تَقْديسيّة" إلى الواقعة الأدبية : ذلك أن ميثولوجيا الكتابة والكتب بِكاملها تُوضَع على مسافة نتيجة لهذا التغيير في المنظور ـ فَهَمُّ الخَلَف يفسح المجال لِوَعْي الاستعجال، والمطالبة بالاستقلال الذاتي والانكفاء تتحوَّل إلى مُقتضى المسؤولية والمشاركة، وَوِضْعَةُ الحياد تنقلب إلى تأكيد ضرورة الاختيار الخ. وهذا التحوُّل في المنظُور، يغيِّر في الآن نفسه خُطاطات تقييم الأعمال الأدبية، فيتمُّ الانتقال من التَّثمين الإستتيقي إلى انتقادات ذات طابع أخلاقي أو إيديولوجي.

على هذا النحو، يدفع الالتزامُ، بدرجات مختلفة، إلى إعادة النظر في التمثيل الأدبي الذي شيَّدتْه الحداثة : مأخوذاً بين الكاتب ذي الحضور الشامل المؤكَّد بقوة، والجمهور الذي يلعب دور القُطبِ المعدِّل، يبدو العمل الأدبي نفسه فاقداً الاكتفاء الذاتي الذي اكتَسبه داخل الرأي العام الحديث ؛ إنه لم يَعُدْ هو غايةُ ذاته، بل أصبح وسيلةً في خدمة قضية أو موضوع يتجاوزُه. لقد امَّحى حلم أدبٍ خالص لصالح شيء آخر هو، هنا، إرادة الالتزام ومصالحة الأدب والمجتمع في اتجاه معاكس للقطيعة الحداثية.

---

* من كتاب : بونْوا دونيس، الأدب والالتزام، من پاسكال إلى سارتر، لوسوي،الفصل 5 ، 2000.

إن نَظرية الالتزام السارترية، كما هي معروضة في "ما الأدب ؟" وكما اتَّخذناها خطّاً مُوجِّهاً في الفصول السابقة، تسعى بكيفية نسقيَّة إلى وضع مسافة مع **القانون** الحديث : فَمِنْ خلال تجميع سلسلة الملامح المتفرِّقة قليلة التَّقعيد التي كانت تُميِّز الأدب الملتزم إلى ذلك التاريخ، عمد سارتر إلى مَفْصَلة ذلك في كُلٍّ مُلتحِم ومُفكَّر فيه. نتيجة لذلك، فإن موقفه في مجال الأدب قد يبدو، بِحق، أشْبه بِموقف مُتطرّف ؛ وهذا ما جعله يُخلِّف صدىً واسعاً ويستمر إلى اليوم في إثارة اعتراضات كثيرة. فبينما كان مَنْ سبقوه يمارسون الالتزام الأدبي بِكيفية تجريبيَّة وخُطوة خطوة مُتكيِّفين بطريقة أو أخرى مع المصاعب التي يُثيرها التزامُهم، كان التفكير السارتري يُبرز ويُواجه التوتُّر المستَتِر آنئذٍ بين الالتزام وَمفهومٍ للأدب مَوْرُوثٍ عن الحداثة ؛ وذلك لدرجة أنه يمكن التّساؤل عنْ حتى إمكانية قَرْنِ الأدب بالالتزام بِدون التخلّي عن الأول أو "تَضْيِيع" الثاني [= الالتزام].

وفي الصفحات التالية، سنحاول استعراضَ بعض المصاعب التي تُثيرها مَوضوعةُ الأدب الملتزِم، قبل أن نَنتهي إلى سؤالٍ يُكثِّف هذه الإشكالية وهو : سؤال علائق الشِّعر والالتزام.

إن المأخذ الأكثر ذُيوعاً الموجَّه إلى مفهوم الالتزام السارتري، هو أنه يُهمل البُعْد الإستتيقي النَّوعي للمشروع الأدبي. والحقّ أن الجزء الثاني من كتاب "مواقف" يكتَظُّ بِصِيَغٍ تؤكّد هذا الانطباع: "ليس الجمال سوى [...] قوة ناعمة وفاقدة للإحساس" ؛ أو : "في عمق الاقْتضاء الإستتيقي نتبيَّن الاقتضاء الأخلاقيّ".

وكما نلاحظ، فإن كل مجهود سارتر، هنا، يسعى لا إلى دحض البُعد الإستتيقي للعمل الأدبي، وإنما بالأحرى يجعله ثانوياً وذلك بأن يَرْبِطه بِاعتباراتٍ ذات طبيعة أخرى، هي أساساً أخلاقية.

من هذا المنظور، يجب مُمايَزةُ الأدب عن الفنون الأخرى : الموسيقى، الرسم والنَّحت، التي لا يمكن أن تخضع لِمثْل هذا التَّقييم، وإذن، لا يمكنها أن تتطلَّع إلى الالتزام. وهذا التّمييز بين الكاتب والفنان، المقتَرَح منذ الصفحات الأولى لكتاب "ما الأدب ؟" والمُقيَّس بِدقَّة على التّمييز بين النَّاثر والشاعر والذي سنتوقَّف عنده في نهاية هذا الفصل، يظل مع ذلك إشكالياً، مُعتَرَضاً عليه في غالب الأحيان. ونجد مثلاً، جان لوي فِيرْبي في كتابه "مِنْ بيكاسُو إلى غرنيكا"(1)، يحرص على أن يُبيِّن بأمانة مُناقِضة للروح السَّارترية، أن الرَّسم أيضاً يمكنه أن يكون ملتزِماً. وفي اتجاهٍ مُعاكس، نجد ألبير كامو في "خِطاب السَّويد" (1957) يَبْسط مفهوماً للأدب الملتزِم يستعير حُججه الأساسية من سارتر، إلاَّ أنه يُعوِّض بطريقة دالَّة مصطلح "كاتب" بِـ "فنَّان" : وهذا الانزلاق المتكتِّم يترجم إرادتَه في أنْ يُعزِّز ـ ضد سارتر ـ أسبقية المَقْصد الإستتيقي في المشروع الأدبيّ.

إلاَّ أنه يظل مع ذلك من خلال سؤال الفنان وَ، أوْ، الكاتب، أن شيئاً آخر يُطرَح : ما معنى الكتابة ؟ ما هي أهميّة هذا المشروع المتفرِّد ؟ بأيّ شيء وكيف يستطيع الأدبُ، الذي يَصدر ضرورةً

عن مقصد إستيقي، أنْ يتكشَّفَ قُوّةً فاعلة تمارس تأثيراً على العالم، بل وتُسهم في تغييره ؟

من وجهة النظر هذه، يعارض سارتر الفكرةَ الشائعة عموماً، مِنْ أن الكاتب، على غِرار الفنان، يضع **إشارةً مُبدعة**. إنه يرى، مثلما هو الشأن في كل مشروع بشري، أن الإبداع المطلق (من عَدَم) هو عملياً غير مقبول في الأدب، ولا يمكن للكاتب أن يزعم القِيامَ بِدورِ خَالق : سيكون معنى ذلك أنه يعتبر نفسه إلاهاً ومِنْ ثمَّ يأخذ مكاناً خارج الشّرط البشري ؛ ومنذ ذاك يغدو عالمُ الناس متعذِّراً الوصول إليه، ولا يعود هناك أي تَبادُل ممكن بين الكاتب وقارئه (كذلك، فإن الكاتب لا يمكن أن يتطلع إلى الحياد الذي يوفره الوضعُ الإلاهي : فهو دائماً مُمَوضَع). نتبيَّن من جديد، المظهر اللاَّتقْدِيسي الذي يتَّخذه تدخُّل سارتر، ما دام يُجابِه وينتقد النفوذ الخلاَّق الذي يُضْفَى عادة على الكاتب.

يُبْدِل سارتر كلمة الإبداع كصيغةٍ إجرائية للأدب، بِمَوْضوعةِ **الكشف** : فالكاتب باشتغاله على ما هو مُعطىً وموجود مِنْ قبل، تغدو مَهمَّتُه هو أن يُضيء ما هو قائم ولكنَّه غير ظاهر أو مُختبئ : «إن الكاتب هو الذي يُسمّي ما لم يُسَم بعد، أو ما لا يجروُ على الجَهْر باسمه»(2). بعبارة ثانية، الكاتب مُنْغمِس في تعقيدات العالم الواسعة لأجل أن يكشف منها بعض المظاهر أو الجوانب التي لم تَحْظَ بالاهتمام إلى ذلك الحين. ومن ثمَّ فإن جِدَّة عمله لا تتمثل في كَوْنه يضيف جديداً إلى ما كان موجوداً من قبل، وإنّما في كَوْن تَدخُّله يتَّصل بما لم يسبق إظهاره أو قوله : بإضافة الكاتب عنصراً جديداً لِمَا كان معروفاً، فإنه يضع تحت النظر والتفكير مجموع العناصر من وجهةِ نَظر جديدة ؛ إنه يُغيّر، إذن، المعطى بِسَبب التأثير الوحيد لكلامه الكاشف. هنا تبرز الثقة الكبيرة التي يُوليها سارتر للكلمات : قَوْلُ الأشياء معناه إرادةُ تغييرها ؛ والكلام أو الكتابة هما ممارسةُ فِعل على العالم. بعد مرور سنوات على ما كتبه سارتر، سيقترح رولان بارتْ، وهو بِصَدَد الحديث عن كافْكا، أنّ ما يُميِّز الأدب لا يوجد في الكشف بِقَدْر ما هو في **التَّلميح**(3) : فالأدب يتكلم مائلاً وبِمُوارَبةٍ ويقول الأشياء بِنِصْف كلمات، مُحافظاً على التباس المعنى أو طُفُوِّه، وهو ما يجعله آلةً لمساءلة العالم والإشارات إلى ما لا نهاية ؛ وهذه المساءلة الدّائمة تكوِّن التأثير الوحيد الذي يملكه الكاتب على المعطيات.

في نهاية الأمر، كما نلاحظ، فإن ما يفصل سارتر بِعُمق أكثر عن الحداثة الأدبية، هو بلا شكّ العلاقة باللُّغة. ذلك أن الوعي الحداثي يقوم، فعلاً، على إدراكِ عدم تلاؤم اللغة مع العالم : فالألفاظ لا تُعبر أبداً بدقَّة عن ما نريد أن نُحمِّلها إيَّاه ؛ إنها **تقاوم** من حيث إنها تمتلك كثافةً أوْ سمكاً خاصَّيْن. وداخل اللغة يكمُن قِسط مِنْ ما لا يُبَلَّغ يتوجَّب على الكاتب أنْ يَسْبُرَهُ أولاً وقبل كل شيء. كذلك، إذا استعملنا مصطلح بارت في "كُتَّاب وكَتَبَة"، فإن الكاتب الحداثي يمارس نشاطاً

لازماً (غَيْر مُتَعَدٍّ)، ما دام "يستغرق نفسه وظيفياً" في الاشتغال على اللغة، "ويمتَصُّ جذرياً **لِماذا العالم** داخل **كيف نكتب**".

إن سارتر، ومعه كل الأدب الذي يَنْزع إلى الالتزام، يتعثَّر ويصطدم بمفهوم اللغة الحداثي : بالنسبة إليه، اللغة في جوهرها نَفْعيّة وتَضْطلع بوظيفة أداتية. والذي يتكلم أو يكتب ـ حسب سارتر لا مجال للتّمييز بين الكاتب و"المتكلّم" ولا بين المشروع الأدبي والتواصل اليومي ـ هو ملتزِم في سيرورة تبَادُلٍ وتواصل. إن الكلمات، هنا، غير أساسية قياسا إلى الواقع الذي تُعَيِّنُه. والكلام الملتزِم هو، إذن، مُتَعَدٍّ إذْ يتعلَّق الأمر **بالكتابة مِنْ أجل**، واستِهْداف نَقْلِ الأخبار والأفكار والآراء والمشاعر. وهذا لا يعني أن سارتر يفهم اللغة على أنها شفافية مُثْلَى وكاملة : صحيح، الكلام يقدِّم كَبَواتٍ وإخفاقات هي بِمثابة "صمْت" [أو خَرَس] لِلُّغة[4]، يجب على الكاتب الملتزم أن يشتغل لِيقْطع ذلك الصمت ولِيَملأه بِدلالة واضحة. إلاَّ أن هذه المعضلات المحدَّدة في مَوْضعها، لا تستطيع أن تصرف الكاتب الملتزم عن المهمَّة التي حدَّدها لنفسه والمتمثِّلة في أن يقول، بِلا مَلَلٍ، العَالَمَ والأشياء عبر إيجابية اللّغة ـ الأداة.

ندرك، بطبيعة الحال، إلى أي حدّ استطاع هذا الموقف ـ وما يزال ـ يَبْدُو فَاضحاً : إمّا أنه يكشف جهلاً أساسياً بِحقيقة المشروع الأدبي، وإمّا أنه نتيجة إرادة تتوخّى القطيعة مع تجربة في اللغة هي مع ذلك مُؤَسِّسة ولا يمكن مُجاوَزَتُها. عند سارتر، تتأكّد هذه القطيعة من خلال اعتبار اللغة (أو إعادة اعتبارها) من موقعها "بِالنِّسبة إلى"، أي من خلال رَفْضِ الانجذاب والافْتتان بالقِسط غير القابل للتَّبليغ الموجود فيها، وهو ذلك الموقف الذي يعتبر اللغة "بِالمقْلوب" فَيُحرِّف استعمالها ويُضلِّله.

ARCHIVE

إن هذه المسافة المأخوذة تُجاه الإشكالية الحداثية لِلُّغة تكون واضحة بِالأخص بمجرّد أن نتناول مسألةَ **الشَّكل**. وبالفعل، فقد قدَّستْ الحداثة العمل الشَّكلي ـ لنفكر فقط في فلوبير ـ وجعلتْ منه الخاصَّة النّوعية للأدبيِّ : "فالاستغراق الوظيفي في الاشتغال على اللغة"، معناه جَعْلُ الشَّكل هو الموضع الامْتيازي للنشاط ا الأدبي حيث يتجلّى للنَّظر المعنى الذي حدَّده الكاتب لمشروعه، وكذلك الفرق الجذريّ الذي يُميِّز استعمالَ اللغة الأدبي عن استعمالاتها العملية واليومية. وإذن، فإن الأسبقية المبدئية المعطاةَ للشَّكل هي التي تعزل الأدب عن الخطابات الاجتماعية الأخرى ؛ ومن ثمَّ أيضاً كَوْنُ كُلِّ بحثٍ عن "أدب خالص" قد اختُزل تقريباً ودائماً إلى الإغراء بِإنتاج شكْلانية تامّة، أوْ على الأقل إنتاج أدبٍ ذاتيِّ الغائية سيكون هو نفسه مَوْضوعَه الخاص.

وإذا كان سارتر ينتقد الدَّائريةَ التِّكرارية لمثل هذا المفهوم الشكلاني للأدب، فإن ذلك لا يعني، مع ذلك، أن إشكالية الشَّكل هي غريبة عنه تماماً. فعلى سبيل المثال، نجد أن نصوصه النقدية الأدبية

الأولى، تكاد تتركّز فقط على مسائل التّقنية الروائية، وهي التي ستقوده إلى صوْغ مُسَلَّمة نقدية أساس: فهو برَفْضه أنْ يعتبر "غرائبَ تقنيةٍ" فُولكنر "تدريباتٍ مجّانية للمهارة"، سيطرح على العكس مسلمة تقول "إن التّقنية الروائية تُحيل دائماً على ميتافيزيقا الروائي"⁽⁵⁾. وهذه العبارة تُحدِّد جيداً موقف سارتر تجاه الشّكل: فعلى العكس مِنْ ما قد يُوحي به مفهومُه الأداتي تقريباً لِلُّغة، نجده هنا مُدركاً تماماً أن الشكل حامل للمعنى وأنه يُسهم كُليَّة في المشروع الأدبي وفي الالتزام. ببساطة "يتعلق الأمر [أولاً] بمعرفة عن أي شيء نريد الكتابة" وبعد ذلك "يبقى أن نُحدِّد كيف سنكتبه"؛ "وغالباً ما يكون الاختياران اختياراً واحداً، لكن عند الكُتَّاب الجيِّدين أبداً لا يسبق الاختيارُ الثاني الأوّلَ". بعبارة ثانية، الانْشغال الشّكلي ليس غَيْرَ مُتلائم مع اختيار الالتزام؛ إلاَّ أن ما يرفضه سارتر بعُنف، هو **استقلال الشكل الذاتي**: فهذا الأخير لا يمكنه أن يَدُلَّ في معزل عن المضمون، وعليه أن يظلَّ، بطريقة مّا، "في خِدْمَتِه". إنه لا يستطيع أن يُشوش المضمون وأقلّ من ذلك، أن يُعارضه ويُناقضه. وسيسعى رولان بارت منذ كتابه "الدرجة الصفر للكتابة"، إلى معارضة سارتر في هذه المسألة المحدَّدة وإلى أن يُعيد للشكل الحقوق التي أعطتْه إياها الحداثة:

> «إن الكتابة الحداثية هي جسم حقيقي، مستقل، ينمو حول الفعل الأدبي ويُزيِّنه بقيمةٍ غريبة عن قصديَّته ويدفعه باستمرار إلى صيغةِ وجودٍ مزدوجةٍ، ويُنضِّد على محتوى الألفاظ إشارات كثيفة تحمل في طيَّاتها تاريخاً، أو تَلْويثاً أو افْتداءً ثانياً بحيْث يختلط بموقف الفكر مصيرٌ إضافيٌّ، للشّكل غالباً ما يكون مختلفاً ودائماً هو مُرْبِكٌ»⁽⁶⁾.

على هذا النحو، فإن الموقفين القُطبِيَيْن لسارتر وبارت يُحددان فضاء جدالياً داخله يتحرك النقاش حول الالتزام. بين التَّقيِيس الصارم السارتري للشكل على المضمون، والفصل الجذري الذي يُجريه بارت ما بين "موقف الفكر" وَ"مصير الشكل المستقل"، يوجد بَوْن واسع داخلَه يتطوَّر الأدب الملتزم: فالكاتب الملتزم هو فعلاً موزَّع بين هَمِّ اتخاذ موقفٍ بوضوح ليكون مسموعاً، وبين الرغبة في أن يصنع عملاً أدبياً بالرغم من كل شيء (على رغم جميع الالتباسات التي تُفرزها الكتابة الأدبية)، وهو ما يعني الرغبةَ في الالتزام من دون التخلّي عن الأدب.

إن هذه الرغبة في مُصالحة مُقْتضيَيْن قد يَبدُوَانِ مُتناقضيْن، هو أمر مشترك بين جميع الكُتَّاب الملتزمين؛ ومِنْ مالرو إلى كامو، ومن بيغي إلى سارتر، تَرتسم ملامح غائمة لِنشاطٍ **هجين**: بين التّعدِّي واللّزوم، بين كاتب ومُسْتَكْتَب، يتخلَّى الأدب الملتزِم في الواقع، عن النَّزعة الأرستقراطية والصفاء اللّذين يقتضِيهُما المثَل الأعلى الحداثي. لا توجد حقيقة الأدب بَعْدُ في ذاتها وداخل تَحمُّلها لِغايتها في نفسها، وإنما توجد بالأحرى في الطريقة، المَوْضعة والمؤقّتة، التي تسلكها لِتُعْرِض عن نفسها ولتؤثر في العالم. وهذه الهجانة التي تُبْرز بِقوّة لاَ اسْتقرارَ موضوعة الأدب

الملتزم، قد تُشكِّل عظَمةَ هذا المشروع الذي يخاطر الكاتب بِكُليته، في الاضطلاع به، عالماً بِالتناقضات المستعصية على الحلّ التي يتعرَّض إليها.

إن تناقضات الالتزام هذه ـ والتي هي مُتماثلة تماماً عكسياً مع التناقضات المميِّزة لمفهوم الأدب الحداثي ـ تتَّجه جميعها صوْب نقطة عمياء من الممارسة الأدبية تُسمَّى : **الشعر**. فالشعر، من بين جميع الأجناس الأدبية، هو الذي ثَمَّنَتْه رمزياً أكثر من غيره، الحداثةُ لأنَّ فيه تتجلى كاملةً المبادئ التي تُؤَسس الإدراك الحداثي للأدب : فالقصيدة شيء مستقل ومُغلَق، له في ذاته مبدؤه الخاص وغايته الخاصة. وداخله تنقلب اللغة على نفسها وتعتبر حالها موضوعاً، لا تقول شيئاً آخر سوى ذلك المسعَى الذَّاتي الانْعكاس. إن الشعر، وهو الشكل اللاَّزم بامتياز، يُقاوم بِكلّ "كينونته" الالتزامَ.

يجب، إذن، ألاَّ نستغرب من كون "ما الأدب ؟" يبدأ بالتمييز بين النثر والشعر ـ وهُما نشاطان لا يوجد بينهما "شيء مشترك سوى حركة اليد التي تخطُّ الحروف". ويتعلق الأمر، عند سارتر، بإمكانية الالتزام التي تستدعي رفْضَ "تَلويثِ نوعٍ من النثر بِالشّعر". وعلى قَدَم المساواة مع الموسيقى والنّحت أو الرسم، يكون الشعر، عنده، "غير قابِل للالتزام" لأنه لا يستخدم علاماتٍ ولا يتغيَّا التّواصل : فالشاعر يوجد خارج اللغة وخارج الشَّرط الإنساني لِكيْ يراقب اللغة "بالمقلوب" ؛ والكلمات لديْه ليست أشياء وهو غير مُنخرط في سيرورة تبادُل وتواصل، ونشاطه هو إنفاقٌ خالص وهدْمٌ مجاني للعالم بواسطة "هولوكوست الألفاظ".

أمّا النثر، فهو "نفْعيّ في جوهره" و"مادّته دالَّة بِطبيعتها :

> «يعني أن الألفاظ ليستْ أولاً أشياء، بل هي تعيينٌ لأشياء ؛ ولا يَتعلَّقُ الأمر بأن نعرف أولاً ما إذا كانت تَروقُ أو لا تَروقُ في حدّ ذاتها، وإنما هل هي، تُشير بكيفية صحيحة إلى شيء معيَّن في العالم أو إلى مَوْضوعة (...) إن النثر هو قبل كل شيء حالةُ فِكر : يكون هناك نثْر عندما ـ كما يقول ڤاليري ـ يمرّ اللفظ من خلال نَظرنا مثلما يمرّ الزجاج عبر الشمس»(7).

عند قراءتنا هذه الفقرة، ندرك كيف أنه من خلال التَّمييز بين النَّثر والشعر، تعود إشكالية اللّغة التي توقَّفْنا عندها سابقاً. وبالنسبة إلى سارتر، هناك استعمال شعريٌّ لِلُّغة هو بالضَّرورة لازِمٌ غير مُتعدٍّ ولا يكون لِلالتزام دَخَل فيه. والمجال الخاص بهذا الأخير، هو النَّثر الذي يُهيِّئه لُزُومُه ورسالتُه النَّفعية لهذا المسعى بِكيفية طبيعية.

ومنذ ذاك، يغدو الوضع الاعتباري للحدَث الشِّعري جِدَّ إشكاليّ. وعلى رغم أن سارتر يعتبر الشعر غير قابل للالتزام، فإنه لا يُدينُه ولا يطلب منه أن يتحوَّل لكي يلتقيَ ضروراتِ الالتزام الإيجابية : إن الشّعر هو ما هو، ولا مجال لأن نطلب منه أن يكون شيئاً آخر، وإلاَّ فإنّه سيكفُّ عن

أن يكون شعراً. ماذا نفعل به منذ ذاك، وما المكانة التي نُعطيها للشعر داخل قارَّة الأدب ؟ بمجردِ ما أنْ يُقرَّ سارتر بتَفرُّد الحدَث الشعري، فإنه يُخرج من مُقتضيات الالتزام قِسطاً مهمّاً من النشاط الأدبي، حتى لا نقول "القسط الأفضل" حيث تَجسَّد تمثيل بكامِله لمعنى الكتابة. ولا يمكن أن ندفع الشعر هكذا إلى حافَّة الحدَث الأدبي وأن نَصُفَّه إلى جانب الفنون الجميلة : ذلك أن نفوذه ووظيفته الرمزية في الأدب هما جدُّ كبيريْن، ومن شأن هذه المقاربة ـ نتيجة لِقَلْبٍ مُفارق ـ أن تؤول فعلاً إلى تهميش النّثر ومعه كل الأدب الملتزِم. وقد أدرك ذلك جيداً جانْ ريكاردو، خلال مُناقشته لسارتر، فقال :

«ما أقترح تسميتَه **أدباً**، يدعوه سارتر شعراً ؛ وما أسميه مجالاً لِلكتَبَة أو الإعلام، يسميه هو أدباً. . .»(8).

وفي السياق الذي تتحدّد فكرةُ الأدب داخله كثيراً بالإحالة على المسعى الشعري ـ لِنتذكَّر ببساطة "الوظيفة الشعرية" عند جاكبسون التي جُعِلَتْ مؤشّـراً على الخصوصية النّوعية للأدبيِّ برُمَّته ـ، فإن استثناء الشعر من الالتزام يظلُّ مُعضلة. ولقد حاول سارتر جاهداً أن يُطوِّق الصعوبة بأن يُدينَ، بدلاً من الشعر، موقفَ الشاعر الوجودي، مُؤاخذاً له باتخاذ **التزام سلبيّ**، تُوجهه فكرةُ استحالة التواصل وأن الأدب لا يستطيع تغيير العالم. إلاَّ أن الحدَث يظل قائماً : فالشعر يقاوم الالتزام الذي يُكوِّن بالنسبة إليه النقطة العمياء ؛ ومن خلال الشعر تتكشَّف إحراجاتُ المشروع الملتزِم وكأنها حدود أو تناقضات لا تُقْهَر. وكيف ما كانت الحِقَب أو الكُتّاب، فإن تحالف الشّعريّ والالتزام يعلن دائماً عن صعوبة : فسواء تعلق الأمر بالفكر المضادّ للثورة المدين لأدبِ الأنوار بِحُجَّة أنه تجاهل جوهر الشعر، أو بِهيجو وَبيغي اللذين هما شاعران وكاتبان ملتزمان، فإننا سنلتقي دوْماً، من خلال مسألة الشعر، بذلك الظّل المحيط بِعبارة تبدو، في النهاية، ضَدِيدةً : الأدب الملتزم.

هكذا، فإن الأدب الملتزِم، في مجال التمثيلات، يظهر موضوعةً مُلتبسة، ازدواجية لكونها تسعى إلى مصالحة أنماط من القيم (تلك التي تتعلق بالأدب وحده، وأخرى تتَّصل بمقاييس أخلاقية واجتماعية أو سياسية) اعتَبرتْها الحداثةُ غير متلائمة. على أنه بالرغم من هذه الصعوبات والتناقضات، فإن الأدب الملتزِم قد وُجِد وكُتِب، وقُرئ بشَغف، كما أن كُتاباً ملتزمين قد عرفوا كيفَ يُسمعون صوتَهم وينالون الاحترام سواء بِوَصفهم كُتاباً أو رجالاً لهم قناعات ومعارك. ومنذُ ذاك، وفي المجال العملي، كيف يتحقق الأدب الملتزم ؟ ما هي أنماط النصوص والوسائل التي يسلكها لكي يُقرأ ويصبح موضوع تأمُّل ؟

يهتم الفصل التّالي بِوصف الاقتصاد الفريد لأجناس التعبير التي تُنظِّم الالتزام الأدبيَّ.

هوامش :

1) J- Louis Ferrier : De Picasso à Guernica. Généalogie d'un tableau, ed. Hachette, 1998.

2) سارتر : ما الأدب ؟ ص. 29.

3) بارت : محاولات نقدية، م.م، ص. 138-142.

4) J-F. Fouette : Silence de Sartre ed. Presse universitaire du Mirail, 1995

5) سارتر : مواقف، ج. I، ص. 65-66.

6) الدرجة الصفر للكتابة، ص. 62.

7) ما الأدب ؟ ص. 25-26.

8) Que peut la littérature ? ed. UGE, coll. "L'inédit", 1965.

الشعر باحثا عن مغايرته في "سدوم"

محمد زهير

أطر تمهيدية :

كتبت نصوص "سدوم"* - الديوان الثالث للشاعر محمد بنطلحة ما بين 1988 و1991. وهي تنتمي إلى منحى شعري يختلف عن منحى تجربة الشاعر خلال السبعينيات، دالة على تحول نوعي في رؤيته وممارسته الشعريتين. وهو التحول الذي برزت ملامحه في شعره منذ بداية الثمانينيات. وتتشخص في الانكباب - بشكل خاص - على المادة البنائية للشعر، معجما وتركيبا وإيقاعا.

1. **معجما**، بتوسيع إمكانات مد النص الشعري بمادة لغوية مسترفدة من حقول مفهومية، كحقلي نظرية الأدب ونقده، وفنية، كالتشكيل والمسرح..

واجتذاب المادة اللغوية ذات الصلة بهذه الحقول وغيرها، إلى فضاء الشعر، تؤطره رؤية شعرية رحبة، تقاطع في النص الشعري بين مفردات خطابات متغايرة أجناسا وأنواعا ووظائف، لبناء نص يوسع استعمالات اللغة. وهي تشتغل في نسيجه محولة من سياقاتها خارج النص الشعري إلى سياقها داخله، حيث تنخرط في بناء لغته، فتمنحه من خصائصها، ويمنحها من خصائصه، وتنفتح على ممكنات جديدة، في سياق شعري منفتح على ما لا حصر له من اللغات والمرجعيات. وهو وجه من وجوه العدول عن "نقاء" الجنس الأدبي وانغلاقه المعياري على ذاته.

2. تركيبا، بابتداع علاقات تخييلية لا تلتزم بمواثيق الوضوح ولا تشف عن دلالة مبذولة أو تكاد. والأمر، هنا، يتعلق بنسج علاقات تصويرية على أساس رؤية شعرية محفزة بحركة تخييلية منتجة، وليس بمجرد وصل عنصر لغوي بآخر أو مجاورتهما، دون لاحم رؤيوي داخلي، ينتظم مكونات النص، ويساورها روحا خفيا دقيقا، هو جوهر الشعر، ودمه السري، وبصيرته وحدسه اليقظ.

إن المركبات التخييلية في "سدوم" تبني علاقاتها على أساس الفكاك من معيارين:

- معيار الصورة الشعرية العادية بحكم تكرارها، وانطفاء انبثاقها.

---

* سدوم - محمد بنطلحة - توبقال - الدار البيضاء - ط. 1 - 1992.

ـ معيار المرجع الخارجي الجاهز، ماديا كان أو معنويا، خاصة حين يباشر ـ بشكل أو آخر ـ سلطته على الإبداع، فيحد من حركته الذاتية الخلاقة، التي لها رؤيتها، وطريقتها، ووسائطها الخاصة في التقاطع مع أي مرجع، كيفما كان.

3. **إيقاعيا**، ببناء نظام صوتي، يلائم قصد القراءة، وليس قصد الإنشاد. فالشاعر يحد من غنائية النظام التفعيلي المتجانس، الذي يلتزم به عنصرا محوريا في البناء الإيقاعي، باستعارة ملفوظات مفهومية، أي باستعارة آليات من الصياغة النثرية، لدمجها في النسيج الشعري، ليحد مثل هذا الإجراء من زخرفة الإيقاع وغنائيته، لصالح القيمة القرائية العمومية، لنصوص لا يمكن محاورة محتملاتها، إلا من سبيل قراءتها بتركيز فائق..

حركة فك الأطواق :

تنتمي نصوص "سدوم" إلى شعرية مسكونة بقلق البحث عن لغة مختلفة، تضرب في عمق المجاز، وتصارع سلطة المعيار الذي يعشي عين الشعر، أو يحول دون انطلاق إبداعيته، مصادرا أو مسيجا حريته الضرورية.. وسلطة المعيار تسكن الذات واللغة والروح، فينوء وعي الشاعر بها، وتتضاعف معاناته في مقاومة وطأتها..

يا جسدي !
يا أيها السجان !
منذ متى أصبحت الألفاظ لي زنزانة ؟
والروح مقصلة ؟

ص. 42 من الديوان.

إذن، فالشعر هنا، يؤسس كينونته مجاذبا الجسد والألفاظ والروح، في حركة وجودية بروميثية عنيفة، للتخلص أو التخفيف أو مداورة الأغلال المقيدة للجسد والكلمة وانطلاق الروح، أي المقيدة لإبداعية الشعر. ففي الجسد والألفاظ والروح تتقاطع العلاقات والعلامات، وتنصهر الروافد، ومن الجسد والروح تنبثق الرؤى، فتؤشر عليها الألفاظ، وهي ليست مادة الشعر وحسب، بل هي أجساد تسكنها أرواح..

وهذا الصراع، الظاهر والخفي، المحفز برغبة الكشف والاكتشاف، وقلق البحث عن صوت الذات المفارق، من القضايا المحورية في الكثير من نصوص بنطلحة. ومن ثمة انشغاله بالشعر داخل الشعر، حيث يصير النص قولا وقولا عن القول، يلح أساسا على الكوابح والمعيقات، إلحاحا يؤشر على قوة الرغبة في التخلص منها..

ضيف أتانا،
وضيف يَفُلُّ قِسِيَّ رؤانا ؛
ويحذف
تسعة أعشار هذي القصيدة ؛
أو تلكَ ؛
ثمَّ
يحملق
في إليتَيْ سَلَّة المهملاتِ ؛
ويجلس للشربِ.

ص. 61.

هذا المتجزأ من قصيدة "قنديل في الريح"، وهي قصيدة ذات أسر، يدل عنوانها على ما يتهدد الضوء الرمزي من عنف، ترمز إليه الريح،

ومن معانيها : القوة والغلبة.. يمكن اعتبار هذه القصيدة تكثيفا لتجربة بنطلحة في "سدوم"، تجربة تقاطع المراجع واللغات، وإصرار ضوء القنديل، أو ضوء القصيدة، على مقاومة عتو الريح، في حدود ممكن شرط الشاعر شرط الترتيبات والتعاليم القسرية، الملابسة للكيان كالظل الغريب عن الجسد. لذلك لا يكف الشاعر عن معاودة التأمل في كيانه الشاخص في جسده، ملكه الحميمي الأخص، وعلامة كينونته الكبرى، وفضاء حريته الذاتي، التي هي جوهر وجوده، فيرى أن لبسة الجسد مشكلة بمقاس محدد..

ثوبنا جسد : قدماه مقص ؛
ومنكبه ضحك ؛
أو بكاء.
يا أمير القوافي !
ويا ظل من يرتدي
- في ركاب التوهم -
خُفين أصلهما عطشٌ،
ورواء !
أفي فتنة القول متسَع للزيادة
والنقص ؟
أم أن شكل المقص
يحدد شكل الرداء ؟

ص. 32.

هذا النص بعنوان "ضربة مقص". عنوان فيه تورية، والتورية "مقلب"، لغوي، يخفي خلاف ما يظهر، فكأن الشاعر يقابل "مقلب" المقص بـ "مقلب"، القول عنه. وفي قوله عنه ما يؤشر على انتهاك المقص لحرية القول، انتهاكا يقلص من سعة الرؤيا وانفساحها، فيتضاعف ضيق العبارة، الضيقة أصلا، عن شساعة الرؤيا ..

إن الشاعر يدرك، بنفاذ استبصاره، أن في العبارة مقصا للرؤيا، ومهما توهم القائل سعة العبارة، فإن شكل المقص، الخفي في الكثير من الأحيان، هو المحدد لشكل رداء العبارة وعى القائل بذاك أم لم يع.. هل هذا ما يجعل الشعر أحيانا، موغلا في المجاز ؟ هل هذا ما يجعله يواجه شبح المقص بمراوغته في عتمة المجاز، وتحت سجفه، حيث يلتبس على المقص، أو يعمى عن رؤية العلاقات كما يتصورها معياره؟!، وحيث يمكن للشاعر خلق فجواته، وممكناته، ومساحات حركته، وتسريب ممكن رؤياه من خلف ستار، قد تتضاعف كثافته، فتناظر كثافة السديم.. وفي هذا السياق نلفت إلى ما يجاوز حدود المجانسة بين "سدوم" - الديوان - و"السديم : متاهة العتمة وعناقيد الضوء البعيدة، وتقاطعات الأضواء والظلال والكواكب التي لا ترى إلا بعين كعين زرقاء اليمامة.. إن وسم الديوان بالرمز الكثيف "سدوم" مؤشر على مدلولات غزيرة، يمكن تركيزها في بؤرة الحالة ونقيضها، كتعارض السلب والإيجاب، والتدمير والبناء، والموت والحياة، والاحتراق والبعث.. والرمز الكثيف "سدوم" يختزل كل ذلك، كرمز الطوفان..

أليس لدي زوج
من جميع الكائنات ؟
أليس لي فُلْكِي ؟
وطوفاني ؟

ص. 70.

والمتكلم هنا، هو لسان الشاعر المبدع، الذي يمارس اختراقاته الإبداعية، إذ يشق بكائناته عباب بحر اللغة، فلكه الخيال، وطوفان روحه المتوفزة ورؤياه الخلاقة.. طوفان يغرق القش ويكتسح الهشيم، لتمرع الأرض طلعا حيا جديدا.

فضاء تحاقل النصوص..

تبدو، ظاهريا، هندسة نص "رؤوس أقلام"، النص الأول في الديوان، كهندسة نص نثري، وقد توقع رؤيته المجردة خارج الديوان، في وهم نثريته، وربما عضدت طبيعة عنوانه هذا الوهم، الذي تعصف به مباشرة قراءة النص.. إن "رؤوس أقلام" هو بمثابة التكثيف لمقومات المنحنى الشعري في ديوان "سدوم" على مستوى انفتاح النص، واختراقاته التخييلية، وانشغالات الشاعر الجوهرية، وعلاقاته بالذاكرة والذات والراهن وقول الشعر.. فهو "رؤوس أقلام" للتجربة الشعرية في الديوان، ومن ثمة فوضعه الأول في ترتيب النصوص، له مغزاه على هذا الأساس..

يبدأ نص "رؤوس أقلام" بهذا المجتزأ :

> لك يا منازل ضعف ما للبحر في سفر الخروج. لك الكلام المر، والفرص التي لم تأت بعد، وهالة الخطإ العروضيِّ. انتهى قولي. وليس لدي غير ثواب معصيةٍ، وأجر فضيحة كبرى. أنا المنذور للمطر المُلَفَّقِ من مَذَمَّات، ومن قُبَلٍ عجاف، لست ألتمس الدليل على صواب شبه مهجور، ولست أمد كفي.
> ص. 7.

على هذا النحو التدويري يُبْنَى النص ـ على تفعيلة الكامل ـ بادئا سطره الأول بكلمة "لك"، ومقفيا بها، في تكرار شعري مؤكد مفصل.. ومطلع النص منافذة لبيت أبي الطيب المتنبي :

لك يا منازل في القلوب منازل
أقفرتِ أنتِ وهن منك أواهل

ومن لطيف ما يلمح هنا أن بنطلحة بنى، عروضيا، نص "رؤوس أقلام" على تفعيلة بحر الكامل، وهو البحر الذي بنى المتنبي عليه قصيدته، التي مطلعها بيته المذكور. وقد نافذ بنطلحة ما يستشعر في البيت من حس غائر بالفقدان، والأشواق المسكونة بالأشواق.. وإذا كان المتنبي يخاطب منازل الصبوة والشوق والذكرى، على ديدان راسخ في الوجدان الإنساني، فإن في قصيدة بنطلحة من القرائن ما يعضد احتمال كون المخاطب هو الشعر نفسه، وأحوال الشاعر في مجاذبة كوابح ريح عسراء، تقذي صفاء الماء وتعيق انسيابه.. لكن الشاعر المحمل بشوقه المضاعف إلى البحر ـ الرمز، يقول كلمته، ويدرك ما سيترتب على اجتراحه، إذ ليس له "غير ثواب معصية، وأجر فضيحة كبرى"، ولأن الأمر جوهري بالنسبة إليه، فهو ليس في حاجة إلى التماس دليل على ما يراه صوابا، حتى وإن كان مهجورا من سدنة المعايير، أو ممن لا يرونه صوابا، لأسباب تخصهم..

هكذا تتأسس النصوص في "سدوم" على بلاغة سجالية، تبني النصوص وتقول عنها في آن. فيكون الشعر مجال تقاطع بين الخطاب والخطاب عن الخطاب، إذ يدمج الشاعر في

النص مفردات واصطلاحات وعناصر من حقلي الفكر والنقد الأدبيين، فيشتغل النقد في صلب الشعر، ويحاجج الشعر عن اختياره من داخله. والأمثلة وفيرة على هذا في "سدوم". منها هذا المجتزأ من نص "رؤوس أقلام" أيضا "

> .... يا قدمي
>
> أطيعيني. ويا شمس المدارات الحزينة عزي سخرية الأقدار بالشرح الدقيق، وباحتمالات حدوث إعصار بلاغيٍّ أمد له لساني مرتين، فيحتمي بقواعد الملهاة والشعر القديم. ألم ير الجمهور أن طبيعة الديكور تستدعي اختصار العرض في نُـوْيٍ ومِدْخنةٍ ؟...
>
> ص. 8.

على هذا النحو يسرب الشاعر عناصر الخطاب المفهومي إلى النص الشعري مزيحا المسافة بينهما، فيسترفد النص من خطاب النقد مادة في صياغة بنيته ورؤيته الشعريتين- النقديتين، في آن :

وكعنوان "رؤوس أقلام"، فإن عناوين "مدخل نظري"، "عمود الشعر"، "عقدة أوديب"، "كتابة بيضاء"، "قصة قصيرة"، ونظائرها، تضعنا في مواجهة التباس خطابي، يقع في صلب منحى بلاغة الشعر في نصوص "سدوم". فاختيار هذه العناوين يحفز على بحث علاقتها بالنصوص الموسومة بها، لأن الشاعر اختارها عن قصد ولقصد.. ولنقرأ نص "عقدة أوديب"، وهو من النصوص القصيرة في الديوان:

ذاك عرش النبيذ.
وتلك سُلالة بلقيسَ تُتلى
عليَّ
من الذاكرة.
فأين الملاذ ؟
وأين فمي
من فم امرأة
يستوي عندها الظل
والهاجرةْ ؟

ص. 71.

يصور الشاعر علاقته الوجودية الصميمة بالقصيدة، عشقه الذي لا فكاك له منه، عشقه المرموز إليه بعقدة أوديب. أما القصيدة، فهي عرش النبيذ، وسلالة بلقيس، والمرأة التي يتدفق كلامها شهوة وافتتانا ويختلف في فيئها إيقاع الزمان، وإيقاع المكان.. تلك هي المعشوقة والعشق، وعلاقة العاشق بها علاقة أوديبية، رمزية ذات معان بلا ضفاف..

فنص "عقدة أوديب" اخترق الأسطورة الأصل، ليؤسس أسطورته الشعرية المفارقة، بتحويل بلاغي تختلف فيه الرموز والمدلولات.. فكأن النص استعارة داخل استعارة..

ومن صور هذا التقاطع المرجعي التحويلي المركب، هذه الصورة التي اجتذب الشاعر فيها المفهومي إلى فضاء المجازي، والمجازي إلى حقل المفهومي، لصياغة النص الشعري، وتضمين رؤيته النقدية داخل بنيته..

من أي نازلة
سيختلق الغبار الدائريُّ
روايةً أخرى :
أمن أفق انتظار لم يكن في البالِ ؟
أم من حُنكة الراوي ؟

أنا عندي اقتراحٌ :
أن يدس القارئ الضمني نَمْلاً جائعا
في أنف خادم شهرزادَ ؛
وأن يقوم بمدح فجر كاذب.
مهما يكن. قلبي على حومانة الدَّرَّاجِ !
والنقشِ الذي استعصى على التأويل !

ص. 16.

نلاحظ كيف سرب الشاعر إلى فضاء النص الشعري عناصر اصطلاحية ومفهومية، كالرواية، وأفق الانتظار، والحبكة، والراوي، والقارئ الضمني، والتأويل.. منسبا خطاب الشعر، باختراقه بخطاب النقد والعكس. وهو اختراق من وظائفه هنا، السخرية من مسلك الغبار الدائري، في اختلاقه للمزاعم والنوازل الرامية إلى إعاقة هبوب الشعر وتدفقه، وتجدد رؤاه وطرائقه.. وقد خلص الشاعر إلى استحضار تناصي لمطلع معلقة زهير بن أبي سلمى :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم
بحومانة الدراج فالمتثلم

مكنيا عن تعلقه بمسكن الشعر، بحالة وتعلق سلفه ابن أبي سلمى بدمنة حومانة الدراج، وعن فتنة الشعر باستعارة عميقة له، هي النقش المستعصي على التأويل..

الرؤيا / المطرقة / المحرقة ..

وفي استعارة النقش المستعصي على التأويل، إشارة إلى طبيعة البلاغة في نصوص كنصوص "سدوم"، حيث يشتغل التصوير الشعري بحيوية فائقة عاصفا بترابطات المقاربة والتماثل.. فالمجاز في "سدوم" بنطلحة يوغل في مجرات السديم، مجردا الصورة عن علاقات المقاربة، والتماثل، والتناظر، وكل علائق التقريب، المدركة بالقياس المبذول.. لذلك يحتاج تأويل المجاز، هنا، إلى نظر نافذ، وقدرة خاصة على استبصار العلائق المضمرة، وإنتاج المحتملات.. أما الرؤيا التي تساور مجازات الشاعر ويصدر عنها شعره، فهي التي يشير إليها في هذا النص المعنون بـ"رؤى" :

نُهُوداً من الثَّلْجِ
ذُبْنَ
ـ على عجَلٍ ـ
حيث لا شيء يبدو
سوى هذه الورقةْ.
رويدك ؛
يا امرأة !
إن أصل الرؤى
مِطْرقةْ.

ص. 98.

أصل الرؤى مطرقة، تكسر الرث لإعادة البناء، أما نهود الثلج، الكلمات الجليدية ذات البريق الخادع، فسرعان ما تذوب، مسفرة عن فراغ الورقة المهول أو بياضها الشره كالمحرقة، مطرقة تجانس المحرقة في الفعل. والرؤيا المؤصلة منها والمعادلة لفعلها، لصوتها الشعري إيقاع الاستثناء..

... وَسَوْفَ أَرْطِنُ بانزياحٍ فاجرٍ.

ص. 17.

انزياح ركوب مغامرة المحو، حيث دم الذات المسكونة برؤيا المطرقة ـ المحرقة، هو غريمها المحفز لها على المغامرة..

فإنَّ سريرة المِمحاة معراجِي ؛
وإنَّ دمي غريمي.

ص. 50.

تلك هي مخاطرة الرؤيا المطرقة، الرؤيا المحرقة، التي تسكن الذات، فلا تستكين لاستقرار ولا يستكين لها قرار، ما دامت اختارت الصعب، وهو الاختيار الذي يبيح لرمادها الناهضة منه متجددة كالعنقاء، أن "يتبجح" قليلا :

يا رمادي !
تبجَّح قليلا،
وقل : إنها خُضْرة لا تدومْ.
سَيَفْنَى الزمان إذن،
ولكن ستبقى سَدُومْ.

ص. 26.

ستتحول الخضرة إلى رماد، لتخرج من صلبه مجددا، في حركة احتراق وبعث، تفنى بها لحظة لتنهض لحظة، ويعصف زمان بآخر فتستمر ديمومة الزمن الخلاقة، وذلك هو الجوهر الوجودي في "سدوم".

"أعمال شعرية" لمحمد الأشعري [1]

البياض المر
البياض الشهي

محمد بودويك

- 1 -

في الشعر كما في الحياة، يتعدد الدبيب والخطو، ويتم تركيم الخبرات والتجارب بالقسوة جميعها ... والفرحة الضئيلة. وفي خلال التموقع والانخراط، ضمن هذا الصف أو ذاك ... واتخاذ ما يعتقد أنه الموقف الذي ينتصر للقوى المحركة للتاريخ ... والذوات الصانعة للحاضر، تنغرس الأنا مستدخلة الصوت الجمعي.. صادحة بالنشيد المنوب.. ورافعة العقيرة بما تراه.. الأكثر انحيازا إليه.. والأصوب تسديدا للآخر، بالمعنى الذي يجعل النشد شعرا.. والشعر حياة أخرى.. مفترضة ومبتغاة.

الشعر بما هو صنف من كتابة وسيعة.. مفتوحة ومركبة، يسعى إلى جسدنة الجرح والمقول والمطب والحلم الأبهى. ذلك ديدنه منذ ليل الحضارات، وأرحام التواريخ البعيدة: النوسان بين البوح والهدير. ولعل إصدار ديوان جامع بعد لحظات التركيم المشتعلة أن يكون في الأس من فكرة تجميع المجموعات الشعرية. بما يعني تجميع خلاصات حيوات متداخلة، واستقطار تجارب وخبرات معيشة في الخيبات والانتصارات. هكذا أنظر إلى صدور الأعمال الشعرية بما هي حدث وفرح لأنها تتيح الرحلة البعيدة والمتكثرة .. وتسمح بالمتابعة والاستقصاء.. والإمساك بالخيط المتكبكب عبر العقود والمحطات.

إن الأعمال الشعرية متواليات، متعاضدة ومتفارقة، من الآلام والآمال.. والانكسارات والانعطافات الحياتية واللغوية. بهذا المنظور، أحتفي بها بوصفها منجزا استعاديا منتوى، وبخاصة إذا كانت أعمال لشاعر من حجم الأشعري.. كرس انغراسه في تربة الشعر المغربي بله العربي، مربيا لشعره وحادبا ومتعهدا بالسقيا والسهر.. وجلب القش إلى العش البهي. وبالمنظور إياه، أقرأ شعره كما لو كان قصيدة واحدة مسترسلة منسابة كنهر أو قلب دائم الخفقان.. قد يكبو وتعترضه

الحصوات.. ولكنه يظل ساريا متدفقا بعد أن يتجدد بالهواء.. والماء.. وبرقص الضفتين.

الكتابة إضفاء الحياة على ما لا حياة فيه، أنسنة وشخصنة وإكساء وإنقاذ من سديم الغياب ومتاهات العزلة.

وإذا كانت الكتابة فعل استدراج وتكملة لشيء ناقص في الحياة في ظن محمد برادة، فهي - في الآن ذاته، امحاء وتلاش وموت : إعلان لطي تواريخ ووقائع وصور، بقدر ما هي إضمار لحياة أصوات وشخوص وعلائق وأشياء وذات ما فتئت منغرسة في الكتابة وبها. طي ونشر.. موت وحياة.. هكذا هو الشعر.. هكذا هي الكتابة الإبداعية بوجه عام. فالحياة والكتابة وجهان لبلوى واحدة وامتحان قاس. وعليه فإن صدور أعمال الأشعري الشعرية هو صنيع تتويجي فعلي ورمزي لسيرة شعرية حافلة".

منذ "صهيل الخيل الجرحة" الصادر في العام 1978.. مرورا ب : "عينان بسعة الحلم" الصادر في العام 1982، و"يومية النار والسفر" الصادر في العام 1983، "سيرة المطر" العام 1988، و"مائيات" 1994، و"سرير لعزلة السنبلة" الصار في العام 1998، وانتهاء بـ "حكايات صخرية" الصادر سنة 2000، لفت الأشعري الانتباه إليه.. كصوت نقي نوعي جمعي وفرداني، وفق المراحل واللحظات.. وتبعا للحذق الأدائي.. والإنصات للشعر. هو الذي ما ونى يطرح الأسئلة على الواقع وعلى الشعر.. أسئلة الوجود والندوب والأعطاب الروحية.. وانشطار الذات الشاعرة ما بين الرماد والورد.

وحين يشتد الدوار بالشاعر وهو يلهث وراء دوائر المتاه، يحفر في الطفولة عميقا يستصفي خدوشها راسما ومتعقبا بالصمت وصارخا (تأمل المفارقة) في البرية الجديبة، يفيئ إلى سروة الذكرى حيث الصحب والغيم والقصيدة، وحيث الطفولة عكاز وناي.. ارتداد إلي الصلصال والأم، وتشوف إلى القصيدة بما هي هناءة وجذل ولهو وزينة ولعب.

وفي "سيرة المطر" وكثير من القصائد، يرتفع رنين الطفولة الخضراء ملونا منظار الشاعر إلى الأشياء والعلائق والكون والدوائر الميتافيزيقية من دون أن نعني بها المتسامق والمتعالي. رنين يتمدد في الفراغ والبياض، يخدش رفيف الفراشة ويجرح سحنة الليل، وعواء الرغبة القرمزية. هكذا يمهر الشاعر نصوصه الشعرية ببقيا زجاج عرقه، ونزيف روحه، وأصداء طفولة ما انفكت مستعلنة مصاحبة لسيرة الشعر والشاعر وهي تأتلق معانقة مديات من البهجة والمرارة، من السواد والبياض، من البحر والصحراء، من الأسلاك والحدائق، من السنونو والغربان، من عتمة القَبْو وضياء النشيد، من السيف والقمح، من الوشم الفضي، والصمت النحاسي، من الطفل اللاهي الذي كان، والمشطوب الذي سيكون. كل ذلك في تضايف عجيب، وتصاد راعف لا يتحقق إلا في الشعر بما هو نداء الذات، وترجمان الأشواق، وسؤال الكينونة والوجود :

- صدر قصيدة آوَتْكَ محترقا
لفيء حليبها
وهدتك للعطش المحال.

شعر الأشعري يؤالف بين الغناء والعناء.. يسكن لغة مشتعلة وينسكن بها، وعدا مشتعلا أبدا في الصياغة والأفق والمغامرة. عبور من وضعية إلى أخرى، من التحديق البراني المدمى، إلى استبطان الجرح الأليم، والاستغوار الجواني الكتوم. هكذا تشتعل الحواس متضايفة بعضها بعضا كأنها في عملية تراسلات وتنافذات من أجل أن تقول البعيد القصي الذي يتلامع في مشيمة الإشارات الغامزة والألفاظ الرامزة. وليس هذا القصي الخفي الجواني سوى صدى الانكسارات والخيبات، والاحتفاء بالعزلة والانكفاء والصمت في مرحلة لاحقة، مستنجدا بالصوت الذي لا صدى له، وبالقصيدة مأوى، والمرأة رمزا أو لحما، سكنا وحرثا بوصفهما إبدالا وجوديا.. وتصعيدا نفسيا، وتعويضا جماليا عن تشوهات الواقع : الواقع المر، والحبوطات التي تترى.

يسهر محمد الأشعري على لغته، متبتلا في محرابها، دون أن نقصد التحكيك والتنخيل والزخرفة - وينسج من لعابها ورذاذها وحريرها محفلا حكائيا، وسجلا سرديا لا يني ينساب رقراقا تغشاه حوريات الشعر، وتحفه أنغام أورفي الفاتكة.

والسؤال الشعري يطرح منذ "سيرة المطر"، وعذاب الامتلاك واضح وجلي، امتلاك لغة مخصوصة لتقول الإحساس والشعور والرؤيا في شفوف الينابيع.. وفي صفاء عيون الديكة.

ديوان "سيرة المطر" يدشن سيرة شعرية جديدة، إذ يتيح إمكانية القول بالكتابة الشعرية الموعى بها والمدركة في أخص دقائقها أي بما يجعل الشعر مرتهنا لشعريته وحسب.. من خلال استعلان الأنا.. وحضور الذات وانتساج الجمالي في أعطاف القصيدة بانيا ولاحما ومخترقا. والقول بالكتابة يقود إلى القول بانقضاء الكلام أو ضموره وضآلته في بناء النص وبنية القصيدة. فهل الكلام حِكي ؟ هل الحكي كلام يرتد إلى الأسمار، وهزع الليالي، وامتشاق الشعر سيفا ورمحا وتراشقا وتنابزا وجوقة تلتهب بالتصفيق ؟ وهل الكتابة تركيب واعتكاف ومحو وابتعاث.. أي شعر ومجاز ؟

لا مراء في أن الكلام ذاكرة المرئي والمسموع والمروي.. تحتجزه الكتابة، وتنشره على محفة الصمت أي على الورق.. على البياض.

لكنه يظل وهو مكتوب - أعلق بالبعد الشفاهي والمشيمة الأولى لأنه يسمي ولأنه تطريبي. بينما الكتابة حدث في الآن والبعد الشخصي والإضافي. إنها جرح الذات الذي لا ينبجس إلا في قسوة التيه، وذهب العزلة أو وحشتها على الرغم من استدراج العناصر والأشياء والعلائق البرانية إلى حياضها ومصهرها.

ضمن الأسئلة الحائرة إياها، تندرج أعمال محمد الأشعري الشعرية ككل الأعمال الكتابية النوعية التي تسعى إلى حفر مجراها.. وإطلاق نشيدها في التاريخي والراهن والآتي.

إذ هي : (الأعمال) الحيز المادي الملموس الذي ينتأ حجة على التباس الصوت في البدايات، والتباسه بالجمعي والموقف الموحد، والمشترك العام وينهض - بما تتيحه المجاميع - من

ناحية أخرى، برهانا على الانفصال فيما هو متصل، والخروج فيما هو مبق على النداءات الأخرى. هكذا تَشَيَّدَ المتنُ الأشعري، وتميز عبر عذابات الأيام والليالي، انتسج فيها مشروع كتابي / شعري ما انفك يرسم نقلاته المدوخة، وانعطافاته الحاذقة.. إضافاته وصوته الاعتباري الجدير بالانتباه والمتابعة والاستقصاء. لأنه أي المشروع لبنة أساس في بيتنا الشعري، وضعت بعين المهندس، وحدب المصمم، منذ أن قال، في د يوانه : (عينان بسعة الحلم) :

ـ أقفر الدرب
وحسبنا الدقائق تلو الدقائق
انتبهنا لملامحنا
وقرأنا وراء ابتسام التحدي اعترافا برعب الحقيقة
ثم تشكل موكبنا الفرد واحدا واحدا.
كما يعبر الياسمين إلى هدأة الليل.

كانت المجموعتان الشعريتان الأوليان : "صهيل الخيل الجرحة" و"عينان بسعة الحلم"، تجسيدا دالا على مرحلة المطلقات والأماني الكبيرة التي رآها الحلم أو الوهم طوع اليد. وكانتا لحظة تمرأى فيها الصوت الجماعي.. صادحا بالنشيد الوطني.. هادرا بالوعود،.. وملتمعا بروقا.. ومخاييل تباشير. من أعماق الواقع صاغ الأشعري أسئلته وصوره وحواراته، وبنى متخيله على الحسي والمرئي والجمري اللاهب.. واقع شائه... واقع مر.. واقع كوسج. ولا غرو فالزمن القرن الفائت، والعقد سبعيني.. وما أدراك ما السبعيني.. إليه ينئسب الشاعر كصوت منغرس ومركوز سياسيا وثقافيا وشعريا، والذي ساهم فيه ـ إلى جانب زمرة من سارقي النار ـ بإقلاق القصيدة أقصد بسؤال اللغة كأداة أميرة يتوسلها سيد الكلام : الشعر، رغم حراشف السياسة، واستضمار العصا والجزرة. قصيدة بقدر ما انهمت بنقد الوضع السياسي العام، بقدر ما ساورتها الحيرة الفادحة في كيفية تحقيق شعريتها والانتصار لصوت أفروديت أو إيراتو. هذا الأرق الشعري والانهمام الجمالي هو ما تأكد في الثمانينيات وتسيد في ما بعدها، منذ "سيرة المطر" تحديدا ـ كما أسلفنا ـ. لقد أحس الأشعري وثلة من مجايليه بتورط النص في الشعار أي في الكلام، وسقوط معظم "الكتابات" كاسترجاع وتبويق في التقريرية والهتاف واستجداء التصفيق. ومن ثم تبلور الأرق إياه في سؤال كيفية صهر السياسي بمعناه العمي، في نار الشعري. إنها المعادلة التي قصر دونها البعض ـ فيما ـ استأنف المشاؤون ـ والأشعري واحد منهم ـ مسيرهم لتحقيق الوعد، "وعد كنبض الأجنة"، واستضافة المستحيل والجمالي، وما به تكون الكتابة جديرة بالتوصيف الأجناسي : "الشعر".

أقفل الباب وراء "الصهيل" الذي تناثر مزقا وارتطم بالأسوار وأسبل الجفنين إلى حين ـ على "عينان بسعة الحلم" اللتين رأتا ما يدمي القلب ليستقوي على اصطكاك الركبتين بدفء الطفولة في "سيرة المطر"، والاستبطان في "مائيات" والحلم والأمل في "يومية النار والسفر" هو الذي أصبح :

ـ جسدا متعبا بتفاصيله
ـ جسدا موصدا
ـ جسدا موحلا
ـ جسدا من رماد ودمع

ها هي ذي قدامنا ـ حياة مضاعفة : حيوات منكتبة.. عيشت ـ بالطول وبالعرض، ملأى بالندوب ومثقلة بأنداء الحلم، ونداءات اللانهائي. حيوات في النصوص، ونصوص في الحيوات، أصداء عنونات في بدايات الخطو والنشيد، حبرات في البناء والمحو.. في الكبو والقبض على الجمر. أصداء عنونات من رجع المرحلة : ـ خروج رأس الحسين من المدن الخائنة (قاسم حداد) ـ أعناق الجياد النافرة (فواز عيد) ـ أرفع يدي احتجاجا (فوزي كريم) مرثية العمر الجميل (عبد المعطي حجازي) ـ تأملات في زمن جريح (صلاح عبد الصبور)...

وأصداء قصائد مغربية ممهورة بميسم القص والسرد يبصمها الهم السبعيني واقعيا وشعريا، وتبني سمتا ونعتا على رامز شخوصي واقعي أو متخيل : "السكدالي" في قصيدة عبد الله راجع : "رائعة أيامك يا حرب الزنج" ـ ومحمد الأشعري مع نفسه : "وقائع متوهجة من سيرة الفقيه بولحية" التي أسقطها من الأعمال الشعرية، وهي القصيدة التي ضمها ديوانه الأول : "صهيل الخيل الجريحة". ومحمد بنيس : "وجه متوهج عبر امتداد الزمن"، و"شخصية ياسر أبو النصر الجائي" لأحمد بلبداوي. ومحمد بنطلحة "أبو فراس" وحسن الأمراني : "على أعتاب بن الفجاءة".. وهي تصاديات حضرت في الكتابة، ضمن التاريخ المذكور.. والسياق السوسيوثقافي للمرحلة.. حتى نأمن منزلق الإسقاط والتعالم. ذلك أن انسراب الخطاب السياسي، أو الموقف الإيديولوجي، إلى الشعر، لم يكن في المحصلة، سوى انسراب سؤال الواقع بكل زخمه إليه، فضلا عن أنه الجامع المشترك بين القصائد الشعرية المغربية تاريخئذ.

ثم ما عتم أن حلقت القصيدة إذ انتقلت : (من دائرة المنظور السياسي الإيديولوجي إلى رحابة المتخيل) فيما يقول المهدي أخريف (2). وطفقت الأنا الشعرية تختبر لعبة المرايا الشعرية وتنحت معجمها الشعري الساعي إلى بناء قصيدة مركبة متكثرة تُسَامِتُ بين الدرامي والغنائي، الحواري والمونولوجي، القصيرة المكثفة، ذات الصور الومضية المدهشة.. والمطولة المتعددة.. منذ "سيرة المطر"، و"مائيات" و"حكايات صخرية" و"سرير لعزلة السنبلة". وتميز الأشعري، وهو يختبر الأشكال والرؤى، بما يمكن تسميته بصهر الشعر بالنثر أو النثر بالشعر.. أو البحث عن شاعرية النثر كـ"شكل من أشكال البحث عن إيقاع الواقع، وضخ الأوزان الشعرية بمياه جديدة"، بلغة محمود درويش، "إذ لا يمكن لأي شاعر مهما كان انحيازه لخياره الجمالي، النجاة من الحوار معه".

وترتيبا عليه، يكون ديوان "حكايات صخرية" الذي يضم.. "بستان العزلة'.." و"سرير لعزلة السنبلة" بما هما مرثية لعمر جميل.. أو مرثاة عميقة لأَرْكَادْيَا غامَتْ وغابت، ومديح للحب.. ونوسطالجيا حارقة، يكون مجلى لما أومأنا إليه، إذ لا يخفى كيف أن الشاعر يزاوج بين بنيتين تركيبيتين : "حكايات صخرية" كبنية نثرية تحيل على الحكي والسرد وتوهم بالتتابع والخطية، وبنية شعرية مكثفة : (بستان العزلة) و"سرير السنبلة، تقوض الخطية وتعلي من قدر الصورة وقيمة المجاز. وهو دأب أشعري بامتياز، موعى به ومدرك ومقصود، رافق التجربة

الشعرية منذ "الصهيل". ولا أدل على ذلك من عنونات مجاميعه : "صهيل الخيل الجريحة" - "عينان بسعة الحلم" - "يومية النار والسفر" - سيرة المطر - مائيات - حكايات صخرية - نقرأ مثلا :

وسيتبعون آثار خطوي بمكانس من زجاج
حتى يصبح المحو نزيفا حافلا بالشظايا
ولكن أحدا لن يجرؤ على اقتحام بستان العزلة
الذي وضعت فيه منذ أمد بعيد
أشياء روحي
وبنيت فيه سريرا عذبا
للمرأة التي وضعت قلبها
مثل وشم صغير على عنقي.

دم ينتشر في الكتابة ويلون بالقاني والقرمزي والأرجواني أمداء الطفولة.. ومغاني الصبا.. والذاكرة المعافاة والمشروخة.. واليومي المتشظي.. والشطح واللعب اللغوي. والبعثرة المرجعية كما في نص "استعارة"، والمدهش الغرائي أحيانا بتفصيل مدقق وعناية ريتسوسية (نسبة إلى يانيس ريتسوس).. وأحيانا أخرى.. بتركيز وتقشف ومضي كما في المجتزآت الشعرية التالية :

- أحبيني كما لو كنت أصبعك الصغير
تداعبين بياضه بالخاتم الماسي والحجر الكريم
تصوري يدك الجميلة دونه
تصوري أني هجرتك
أو أن صقرا ضاريا خطف الحجر
يا ليت أدركت منذ الوهلة الأولى
أن الحياة سخيفة..
من غير هذا الأصبع الماسي
من غير هذا العنف يقطعه
ويرسم بالدم القاني حبنا
حديقة تحت المطر.

لغة الأشعري اجتراحية متوثبة تموز بالحركة والتدفق.. المدهش والبسيط العذب : القصيدة أفقية والسرد عمودي. ثم يتناوب البعدين هذين، خطان متعامدان متفاعلان يتعاوران الغنائية والمونولوغية والحواري. من هنا قوة مقترح الأشعري الجمالي في "مائيات" و"حكايات صخرية". انبثاقية مدوخة وسيولة هذيانية بالمعنى الإيجابي، تنضفر بها وعليها الصور وهي تدور كوشيعة المتبتل. شعر ينوس بين الدوال المجروحة والمداليل المنشرحة. ورغم كون مرحلة "صهيل الخيل الجريحة" و"عينان بسعة الحلم"، مرحلة منقوعة في اللحظة السياسية والإيديولوجيا، فإنها لم تكن انعكاسا مصمتا في العملين الشعريين أو صدى مرآويا كما أرادت البلوكاتشية أو الكولدمانية بعد تعديل طفيف، بل تحويل وتضعيف وتنافذ ذاتي - جمعي، حضر فيها بمقدار، قلق وسؤال الشعر.

ولئن نظرنا نظرة اختزالية إلى ديوان "مائيات" لقلنا إن الشعر فيه ينصب على الشعر.. حيث تنتصب الوظيفة اللعبية : La fonction ludique، كألطف ما تكون اللطيفة بلغة عبد القاهر الجرجاني. لنقرأ قصيدة: "حروب صغيرة" فسنلفي أنها قصيدة مدوخة تجعل من مفهوم القصيدة موضوعا للتأمل، ومن سيرة الكتابة مجالا للنبش في الماضي والحاضر.. في المحسوس والمجرد، الفلسفي والسوريالي والفيزيقي والمتافيزيقي. دوامة من الصور المولدة حيث

المعنى إلى زئبقية وفرار يسعى، والدلالة إلى تعمية وانفجار : عتمة وصحو، غضارة وغشاوة، غمد وسفور، إغماض وتحديق.

وفي ديوان : "حكايات صخرية" ومطولته، "سرير العزلة"، يتقدم الشطح التخييلي.. ويستفرد الانزياح اللغوي والتوتر التصويري بفضاء المحكي الشعري. ومن ثمة بات الحديث عن قصيدة مغربية متجذرة وراسخة من باب السماء فوقنا.

نقرأ في عجالة ما يؤكد تَأَوُّلَنَا :

- وهبت سيول مهججة
فإذا ضوع عريك يغمرني
أجوس مراتعه جذلا
هذا المذاق الذي يلسع القلب
هذا التوجس في رفة الجفن
هذا التوتر في رعشة حلقت.

كما نشعر بالالتذاذ والدهشة، ونحن نُرَحِلُ العين والحس والوجدان بين النصوص التالية : "نظرية بلاغية"، "وجبة زجاجية"، "استحالات شخصية"، "دمية روسية"، "استعارة" - "درس في المرارة.."... الخ. حيث تلتقط رؤية الأشعري ضجر اليومي - واحتقان الناس وحياد المرأة الناسي، وبرودة العلاقات.. والمعيوش الكابي والفاتر والإحساس المكسور كما في قصيدة "ذهاب وإياب".

ويدهنا الديوان إياه بالكشف عن الأقنعة.. وازدواجية البعض، وشيزوفرينيتهم، وانشطار ذواتهم، وبمحاولة فك الارتباط بين التمثيلي بمعناه السلبي، وبين الجدي. لهذا المعنى ينتظم القصائد حكي "صخري" ناتئ حاد شرس يقول الخذلان فيما يذهب بمضاء الصورة المتقشفة والمجاز البارع المكثف إلى قلب التفاصيل في اليومي البادي، والجواني الخبيء، حكي صخري، لا يعوزه نسيج الحرير وهفهفة الأنامل :

- لأن شفتيها انفرجتا
حتى يمر لساني إلى عش الصاعقه
لن ترى الشظايا التي تسقط من كلينا في معبد الماء
ولا الفراشات التي ستنبت فوق رموشنا المسبلة.

وتحضر السخرية والباروديا في جملة من القصائد عبر الدواوين المختلفة وهاك نتفا :

1. وسألت شاعرا عن الجلنار كيف هو
فقال لعله زهرة زرقاء
وأنا أعرف أنه لا بأس
من أن يكون الجلنار زهرة زرقاء في الشعر.
- "استعارة" -

2. وقال :
ها هو ذا شاعر جديد
من صنف شعراء العشريات
دعنا نقل ...
ها هي قصيدة نثر تنام في حوصلتي
أنا الذي كنت قبل قليل
سحابة تنام في معطفها
أو "غيمة في بنطلون"
كما يقول الآخر.
- "حلول" -

- وفي خاتمة "حروب صغيرة" يقول :

- أما الذي قتلته في البداية
عن راية أو فرار
فليس سوى خدعة لمغادرة النص

حتى يعود الهدوء إلى جوقة الكلمات
ويصير الكلام عبورا ظليلا

الشاعر طفل واللغة دمية تقول : هيت لك هيأت لك، فيتقدم نحوها بشهوة البراءة كلها ليبعثر شعرها الأشقر أو الكستنائي، ويعيث "فسادا" في أطرافها المركبة، واضعا أصبعه الصغير الناحل، في ثقبيها = عينيها اللوزتين المسحوبتين إلى الخلف كفروعونية إلهة. يعبث ويلعب ويفكك، من دون أن يعلم أنه ينشيء خلقا، ويبني متخيلا. وشبيه بهذا : الوظيفة اللعبية التي يتأسس عليها الشعر حيث الانتشاء واللذاذة والرجة والألم أيضا.

ـ سأترك وعدي قابعا مثل قط خجول
في لوحة غبراء
وأرمي بنفسي في لجة توله أبيض
لا يسكنه جسد
ولا رقة
ولا رفة طائر وحش
ييخدش زرقة السماء.

وحيرة الشاعر في الوجود من حيرة الطفل وتلفتاته اللاتنتهي نحو الجهات الست. حيرته وهو يحمل كيانه الهش.. ـ مخطوفا ومنجرحا ـ على محفة موئة أو وردة شعره، مبتغيا الوصل ـ وليس غير الوصل ـ سبيلا إلى التفتت والتذرر والامتزاج بتربة أرض آتية وسماء حانية تلقم الروح ندى غيث وبعث وحياة ثانية :

ـ وقد كان وعدا فضل السبيل
وكان سبيلا فتهت
فلما شربت الرحيل زلالا
ظمئت
ولما رجعت إلى النبع
ضيعت وجهي بمرآته
ونأيت
إلي بهذا المدى
فإن كان وصلا فوصل
وإن كان موتا فموت

من "صهيل الخيل الجريحة"، إلى "حكايات صخرية" خيط من الدم والنجم والغبار، وليال من العذاب والمحو ؛ المحو يتبعه المحو : محو الخدوش والأعطاب الوجودية بالقصيدة، ومحو القصيدة بالقصيدة في مسعى حثيث ومدروس من أجل التميز واحتياز الصوت المتفرد، في الكتابة الأخرى التي تحضر ظلا للمتاه.. وسريرا للعزلة الذهبية. في الكتابة وهي تنشر أسرارها كما تنشر فاتنة بدوية ضفائرها الليلية في شمس أبريل أو على مرايا سنابل صهد يونيو، أو ترتمي كالشراع البعيد على الملح والنوارس، فاتحة للأزرق اللازوردي وشمها، وللمر العلقم دثارها، وأزرار الأغاني.

"إن صدور الأعمال الشعرية في ديوان ـ فيما يقول محمد بنيس، لحظة من حياة لا تتوقف. وإذا كان الموت يتحول إلى تجربة مأساوية عندما يرتفع إلى مستوى تجربة المصير، فإن للقصيدة حياتها الثانية التي لا نعرف عنها شيئا"(3).

---

1) محمد الأشعري، أعمال شعرية، دار الثقافة، اتحاد كتاب المغرب، ط. 1، 2005.

2) المهدي أخريف، كلمة وردت في مقدمته لأعمال الأشعري.

3) محمد بنيس : الأعمال الشعرية، الجزء الأول، دار توبقال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط. 2002.

"أعمال شعرية" لمحمد الأشعري

خالد بلقاسم

عن دار الثقافة واتحاد كتاب المغرب صدر لمحمد الأشعري **أعمال شعرية** ، 2005. وهي إضمامة تجمع قصائد منتقاة من دواوين الشاعر السابقة : **صهيل الخيل الجريحة** 1978، **عينان بسعة الحلم** 1982 ، **يومية النار والسفر** 1983، **سيرة المطر** 1988، **مائيات** 1994، **سرير لعزلة السنبلة** 1998، **حكايات صخرية** 2000.

يعد احتفاظ الإضمامة بالتنكير في عنوانها مدخلا أوليا لمساءلة الرهان من جمع قصائد دون أخرى. فالجمع شمل كل الدواوين غير أنه اقتصر على قصائد واستثنى أخرى. فهل يعد هذا الجمع، القائم على الحذف، صيغة من صيغ إعادة الكتابة الذاتية التي يُقبل عليها الشعراء كلما راكموا ما يخول لهم إنجاز تأمل لسيرة قصيدتهم؟ يُرجح التنكير المعتمد في صوغ عنوان الإضمامة الجواب بالسلب. فالتنكير إقرار بأن الإضمامة لا تقدم مجموع الأعمال الشعرية. وبذلك فإن هذا التنكير يُعد فكرة تنكُّر الشاعر للقصائد المحذوفة، التي تحتفظ بانتسابها إلى التجربة الشعرية لمحمد الأشعري وإن لم تجد مكانها في الإضمامة. ثم إن إعادة الكتابة، سواء بصيغتها الملمح إليها أو بصيغها الأخرى التي تقوم على التشطيب والمحو والإضافة، لا تبدو هاجسا موجِّها لهذا الجمع. ذلك أن يد الشاعر لا تتدخل ثانية في تعديل ما أنجزته، حتى بالنسبة لقصائد البداية، وإنما تحتفظ لهذا المنجز بصيغته الأولى. ومع ذلك لا ينبغي التسليم بأن الحذف، الذي أبعد قصائد من الإضمامة واحتفظ بأخرى، وليد الصدفة. إنه هامش للكشف عن اختلاف درجات التواطؤ الذي يتأسس بين الشاعر ومجموع إنتاجه، إذ يشعر بأن ما يشده إلى قصيدة أقوى مما يصله بأخرى. إن هذه الوشيجة التي تقوم على التفاوت في الإحساس بالقصائد الشخصية، ولربما على المفاضلة أيضا، تظل أحيانا ملتبسة حتى على الشاعر نفسه. وهذه كوة قرائية خصيبة تحتاج إلى إضاءة تتجاوز ممكن النقد ما لم يتأسس لها متنها الأول، أي تصريح الشعراء

بتفاصيل عن علاقتهم النفسية والشعرية بقصائدهم، وعن انجذابهم، الغامض منه والواضح، إلى قصائد دون أخرى.

إن عدَّ الحذف في الإضمامة هامشا للإنصات لرهان الشاعر محمد الأشعري من جمعه أعمالا شعرية من دواوينه السابقة يقتضي التنبه لما وجه هذا الحذف. وهذا إمكان قرائي لا تتسع له هذه الورقة التقديمية، التي تعي حدودها وما يفصلها عن الإنصات المتأني الذي لا يستقيم إلا برصد التفاصيل. لذلك سنكتفي في مصاحبة أولية للحذف على تأمل تراجعه اللافت ابتداء من المجموعة الشعرية مائيات، أي أن الحذف اشتغل على نحو أقوى في الدواوين السابقة عن هذه المجموعة. ففي ديوان **عينان بسعة الحلم**، على سبيل التمثيل، تم حذف ثمان قصائد من مجموع أربع عشرة قصيدة، وفي **يومية النار والسفر** تم حذف نصف القصائد المكونة لهذا الديوان، بينما اقتصر الحذف في **مائيات** على ست قصائد من مجموع سبع وعشرين قصيدة، ثم اختفى في **سرير لعزلة السنبلة**، ليعود مرة أخرى، وعلى نحو محدود، في ديوان **حكايات صخرية**، المكون من ثمان وعشرين قصيدة سقطت منها ثلاث قصائد وحسب. ولما كان جمع الشعراء لأعمالهم، الكاملة أو غير الكاملة، إنجازا واعيا يستنفر فيه الشاعر حدسه النقدي، فإن وتيرة الحذف، في الجمع الذي ظهرت به **أعمال شعرية** لمحمد الأشعري، تعد علامة دالة على ما تضمره، إذ تنطوي هذه الوتيرة، فيما نزعم، على موجِّه نقدي يخول للحذف في هذا الجمع وظيفتين متداخلتين :

أ. **الوظيفة التوجيهية**، وتقوم على إبراز تجربة **مائيات** وما بعدها، بغية تهييئ المتلقي لإنجاز ما يسميه جيرار جنيت بالقراءة الحسنة. فإضمامة **أعمال شعرية** تسمح، وهي ترجح قصائد على أخرى، برصد الشعر في القصيدة لا خارجها. ومن ثم فإن للحذف موجها تحكم فيه تحول وعي الشاعر بالقصيدة وبكتابتها في آن، وإن اقتصر مظهر هذا التحكم على الانتقاء وحسب.

ب. **الوظيفة التداولية**، فالحذف في **أعمال شعرية**، يقيد القصائد المحذوفة بتداول أقل، في حين يسمح للقصائد المنتقاة في الإضمامة بذيوع أوسع. فالانتقاء لا يبلغ حد التنكر للقصائد المحذوفة ولكنه يضيق دائرة تداولها، إذ يحصرها في وضعها الذي اقترن به ظهورها الأول. كما أن التداول الواسع، الذي تتيحه الإضمامة للقصائد المنتقاة، ينطوي على قيمة نقدية مضافة ناجمة عن التجاور الجديد الذي يحققه انتقال هذه القصائد من دواوينها الأولى إلى سياق يحرض على مقاربتها في ضوء تجربة انطلقت منذ أكثر من ثلاثة عقود. وليس امتداد التجربة في الزمن هو ما يضيء هذا التجاور، وإنما العكس هو المرجح، دون أن يحتفظ هذا الترجيح للزمن، في الإنصات للتجربة، بمفهومه المقيس. فالتحول، الذي يسمح هذا التجاور بملامسته في تجربة الأشعري، غير منفصل عن وضع القصائد الجديد في الإضمامة. وضعٌ يهيئ لها قراءة مخالفة تتوجه لاستكشاف الزمن الشعري والإنصات لاشتغاله في بناء هذه

القصائد.

بالإلماح إلى الزمن الشعري نقترب من سؤال القراءة الذي تطرحه الإضمامة الجديدة للشاعر محمد الأشعري. ذلك أن الإمكان القرائي الذي فتحته الإشارات السابقة عن الحذف في **أعمال شعرية** كان موجَّها لرصد علاقة الشاعر بإبداعه الشخصي والاقتراب من تأمله لمسار قصيدته عبر انتقاء كان الحذف شاهدا عليه على نحو ما.

كيف ننصت، إذن، لهذا الزمن الشعري ؟ أو بصوغ أوسع كيف نقرأ إضمامة أعمال شعرية ؟ السؤال يستبعد وَهْمَ الحصر، الذي يمكن أن يدعيه الجواب مهما بلغت كفايته المنهجية. فهذا الحصر لا يقبل به الشعر.

الإمكان القرائي الأول، الذي يمليه سؤال الزمن الشعري، لا يستقيم إلا بوصل إضمامة محمد الأشعري بالمشهد الشعري المغربي المعاصر، لا بهدف الاطمئنان إلى الأحكام العامة، وإنما لتأطير الإضمامة في انشغال عام تحكم في كتابة الشعراء المغاربة الذين تقاطع معهم محمد الأشعري في انطلاقته الشعرية الأولى، قبل أن يخط كل منهم إيقاعه الخاص. وقد دأب النقد المصاحب لهذا المشهد على التمييز بين لحظتين في تجربة الشعراء الذين اقترن اسمهم بالسبعينيات في التصنيف الذي يطمئن لمفهوم الجيل بمقياس زمني ينتظر المساءلة والتفكيك. وهكذا ساد وصل اللحظة الأولى بطغيان السياسي على الشعري قبل أن يسترجع الشعر، في اللحظة الثانية، هويته من عناصر بنائه النصي. لهذا التمييز ما يُعضِّده، غير أن تحولَه إلى معطى قبلي في القراءة يُهدد باستفراغه من طاقته التحليلية وتحويله إلى مجرد معلومة. ومن تم فإن تحصين كفايته المنهجية ينطلق من الوعي بالاستسهال الذي ينطوي عليه تداولُه الفج، دون اختبارٍ لتحققه النصي الذي لا يستقيم إلا بالإنصات للمنجز الشعري. وهكذا يقتضي هذا الوعي الانطلاق من عنصر نصي واضح لاختبار التمييز السابق، الذي يتعين أيضا عده مجرد موقع قرائي لا يلغي مواقع أخرى تظل دوما مشرعة. وفي هذا السياق نزعم أن البناء التخييلي للعلاقة التي تفتحها قصائد الأشعري مع جسد المرأة يؤرخ لتحول يضيء التمييز السابق. وهو تحول نزعم تحققه ابتداء من ديوان **مائيات**، أو بدقة أكثر ابتداء من قصيدة **مائيات**، التي اشتركت مع الديوان في العنوان. ذلك ما سنستدل عليه في دراسة مستقلة تتجاوز ممكن هذه الورقة التقديمية.

الإمكان القرائي الثاني يتسنى من التوجه إلى البحث عما يميز الصوت الشعري لمحمد الأشعري، أي العناصر التي تخص إيقاعه الخاص. وهذا التوجه لا يخص إضمامة **أعمال شعرية** وحدها، بل هو مطلب نقدي ملح تحرض عليه تجارب الشعراء المغاربة المعاصرين الذين انتقلوا من الديوان إلى العمل الشعري. ووحده هذا التوجه خليق بأن يحرر النقد من الأحكام العامة ومن خطاب واصف لا يصف شيئا، لأنه اطمأن إلى الجاهز الذي يعني الكل ولا يعني أحدا.

قصائد تنمو على حافة الاغتراب

قراءة في ديوان ثريا ماجدولين : "سماء تشبهني قليلا"

حسن مخافي

صدر للشاعرة ثريا ماجدولين ديوان شعري جديد يحمل عنوان **"سماء تشبهني قليلا"**، أخرجته دار الثقافة في طبعة أنيقة، ونزل إلى الأسواق قبل شهور. وهو الديوان الشعري الثالث في ربرتوار ثريا ماجدولين بعد "أوراق الرماد" الذي نشره اتحاد كتاب المغرب سنة 1992 و"المتعبون" الصادر عن دار الجسور في مطلع الألفية الجديدة.

وبهذا الديوان الجديد تؤكد ثريا التي بدأت النشر في الملاحق والمجلات منذ بداية الثمانينيات، حضورها المتميز بوصفها أحد الأصوات الشعرية النسائية التي ساهمت في ترسيخ أسس الحداثة في التجربة الشعرية المغربية، إلى جانب كوكبة من الشاعرات المغربيات اللائي أصررنا على خوض مغامرة القصيدة كشكل للتعبير واخترن الشكل المتمرد المتمثل في قصيدة النثر.

وإذا كانت النسوية صفة غير شعرية مما ينبني على نفي لمقولة الكتابة النسائية التي شاعت في الآونة الأخيرة، فإن الشعر الذي تكتبه نساء يظل مع ذلك محط سؤال خاص يحتاج إلى التأمل بعمق في تجارب الشاعرات قصد وضع اليد على الإضافات التي جئن بها إلى المشهد الشعري المغربي الحديث. وهي إضافات ستسهم لا محالة في توضيح بعض جوانب التجربة الشعرية الحديثة ببلادنا.

يحتضن ديوان **"سماء تشبهني قليلا"** بين دفتيه اثنتي عشرة قصيدة، كتبت على الأرجح خلال السنتين الأخيرتين. وما يدعو إلى عدم الحسم في تاريخ كتابة القصائد التي يتضمنها الديوان أن بعضها ذيل بتاريخ الكتابة وبعضها جاء خاليا من هذه الإشارة.

وإذا صح هذا فإن الشاعرة قد تكون تجاهلت ما كتبته سنتي 2001 و2002 على

الأقل، خاصة وأن من يتتبع مسارات القصيدة المغربية الحديثة يعرف أنها لم تنقطع عن الكتابة، وأنها أغفلت ما كتبته طيلة هذه الفترة لأسباب أو لأخرى.

إن هذا الانتقاء الذي تثبته الوقائع يؤكد على خاصتين عامتين في الكتابة الشعرية لدى ثريا ماجدولين : أولهما أنها مهتمة بصقل قصائدها وحريصة على أن تخرجها للقراء في صورة أنيقة، وهو ما سينعكس على أسلوبها في الكتابة كما سيتضح لاحقا ؛ وثانيتهما أن الشاعرة تمتلك تصورا محددا لما ينبغي أن تكون عليه المجموعة الشعرية من وحدة وتماسك بين القصائد، ولذلك استعملت وهي تعرّف بإصداراتها السابقة كلمة "ديوان" بدل "مجموعة شعرية" كما يفعل شعراء آخرون. (ص 130)

ومن يقرأ "**سماء تشبهني قليلا**" يحس بتلك الوحدة وذلك التماسك إلى الحد الذي يجعله يعتقد أن قصائد الديوان كتبت دفعة واحدة ولم تكتب على مدى سنتين أو ثلاث. ذلك أنها تعكس جميعها تحولا شعريا ينبئ ببداية مرحلة شعرية لدى هذه الشاعرة التي يبدو أنها اكتشفت فجأة من أين تلج مسارب الذات، وأن تسبر أغوارها بعد أن ظلت تنشد للآخر بأبعاده المختلفة.

للتخفيف من حدة التعبير عن هذا التحول أبادر إلى القول إن ثريا ماجدولين لم تنجز قطيعة داخل مسارها الشعري، بقدر ما أحدثت انعراجا في تحديد أولوية اهتماماتها الشعرية. إذ الذات بهذا المعنى ليست جزيرة منعزلة بقدر ما هي كائن يطفو على ماء الشعر بشكل يجعلها محورا لكل قصائد الديوان.

إن هذا ما يفسر أن أغلب قصائد الديوان كتبت بضمير المتكلم، أما تلك التي خاطبت الحاضر أو الغائب، وهي قليلة، فإنما لجأت إلى ذلك من باب التمويه الشعري، إذا صح التعبير، وبقيت وفية للذات بصيغ مختلفة.

الإخلاص للذات كموضوعة رئيسة في الديوان يطالعنا من العنوان : "**سماء تشبهني قليلا**" وهو عبارة عن جملة شعرية لا توجد في المتن الداخلي للكتاب، مما يعني أن العنوان هنا ليس عتبة بالمعنى المتعارف عليه، بل هو بكل بساطة "قصيدة" قصيرة جدا.

صحيح أن قراءة هذه الجملة تفضي إلى أن دلالاتها المتعددة حاضرة في كل القصائد، مما يجعل اختيارها عنوانا جامعا أمرا في غاية الدقة. ومع ذلك فإن هذا لا يعفي من التأكيد على هذه الجملة/القصيدة تأخذ مكانها باعتبارها جزءا من المتن العام وليست عنوانا فقط.

وإذا تجاوزنا العنوان وفتحنا الكتاب فإن الشاعرة تتخذ شعرية الغموض مطية للإلحاح على خرق المألوف. فلئن كان العنوان يخرج عن وظيفته التوضيحية الجامعة، فإن هناك عتبتين مختلفتين تنضافان إلى العنوان : واحدة للشاعر العالمي المعروف بول إيلوار يقول فيها :

"لا ينقصك الليل، وإنما ينقصك سلطانه".

والثانية للشاعرة نفسها أدرجتها تحت عنوان فرعي هو "فاتحة الكلام"، وتقول فيها :

لا أحب الشجر الشوكي
لأنه
يجرح الهواء.

ما العلاقة بين هذين التصديرين، وما الرابط بينهما وبين العنوان من جهة وبين باقي قصائد الديوان من جهة أخرى ؟ لاستكناه ظاهر هذه العلاقات المتشابهة، لا بد من الإشارة إلى أن العتبات الثلاث لا ترمي إلى هدي المتلقي بعلامات ما قد تساعده على قراءة النص، وهو ما يلجأ إليه بعض الشعراء والكتاب من أجل تجنب "سوء فهم" نصوصهم. وإنما العتبات تشكل لبنات لا يمكن فصلها عن البناء العام للديوان. من هنا فإن البحث عن علاقة "موضوعية" بينها وبين باقي القصائد يضيع على القارئ "لذة النص" التي ينبغي تلمسها من خلال نشيد الذات الذي يندرج فيه الديوان بأكمله.

إن هذا هو ما توضحه عناوين القصائد التي وإن جاءت عارية من ضمير المتكلم باستثناء واحدة : "كأني أوان الرحيل" (ص 93)، إلا أن صياغة العناوين على شكل جمل استعارية تتنافى، مثلها في ذلك مثل "العتبات" الأخرى، مع الوظيفة الأصلية للعنوان التي هي وظيفة توضيحية جامعة، وتعبر عن نفسها كجزء من بناء القصائد.

هكذا تعبر قصائد الديوان عن نفسها كيقظة للذات التي يبدو أنها كانت قارة منسية أو مهملة، وبدا أن الولوج إليها عبر منعرجات كثيرة حقق ضربا من التحول في الكتابة الشعرية لدى ثريا ماجدولين، التي بدأت الكتابة الشعرية متأثرة بالجو السياسي العام الذي كان سائدا في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات، ولم تجد متسعا للإنصات إلى نبض الذات.

إن هذا التحول يطالعنا من مطلع أول قصيدة في "**سماء تشبهني قليلا**"، فهو يتسم بالعاطفة واللين حينا والعنف والقسوة أحيانا. إنه أشبه ما يكون بحالة من الرغبة والخوف. لذلك توسلت الشاعرة للتعبير عن هذه الوضعية المفارقة باستعارات تنسج علاقات تنافر بين أطرافها حيث يغدو "الحنين" سهما مصيبا وموجعا و"الأنين" أداة ترمي بها الرياح.

كأن عينا
أصابتني بالحنين
كأن يدا
هتكت داخلي الشفيف
كأن رياحا
نبتت حول خصري
ورمتني بالأنين

هكذا يأخذ الشعر لدى ثريا ماجدولين شكل بيان لإعلان تمرد عارم يركب كل صور التحدي، من أجل إعادة تشكيل الذات، في رؤى متضاربة، ولكنها تجتمع في إرادة التحرر، على الرغم من أن التطلع إلى المستقبل يكتنفه غموض وخوف.

إن هذا هو ما يفسر أن علاقة التنافر التي تحكم طرفي الاستعارة المومأ إليها قبل حين سرعان ما تصبح علاقة ثابتة بين مقاطع القصائد. ففي قصيدة "شرفة تحتمل الغياب" نفسها تجتمع الكلمة وضدها والجملة ونقيضها والمقطع وضده.

والذات التي تشرئب لمشاكسة الرياح وتجهر بالمعنى عندما تحول الصمت إلى كتابة... هي نفسها التي تعيش عزلة تكاد تقاس بدرجة العدم :

ها أنا نبتة
تشاكس هندسة الرياح
ها أنا محارة
تكتب معنى الصمت
تضحك في سرها
من غباء الحروف
ها أنا
غيمة
شاردة
تنكفئ على سرير عزلتها
في مرايا العدم

إن الجمع بين هاتين الصورتين المتقابلتين ينم عن نوع من الاغتراب ينسحب على كل قصائد الديوان، اغتراب يصل ببعض القصائد إلى منتهى اليأس. ومن أجل هذا فإن أغلب القصائد في **"سماء تشبهني قليلا"** تنتهي بأفعال أو أسماء تنم عن معاني الانقراض والزوال. وهذه بعض الأمثلة :

يلبس عريه
يقف خلف الروح
ثم يندثر...

"نقش الروح" ص 26

أنزلق
كضوء خافت
بين سماءين

"مطر خافت" ص 41

ينتهي
شاهدا
على قبر الغياب

"الغريب" ص 49

أتبدد
كغيمة
في حاشية الطريق

"وقالت المحارة للبحر" ص 78

لا شك أن لهذه وهو ما ستخصص له هذه الدراسة حيزا في ساق آخر. ونكتفي الآن النهايات علاقة بالمسار الذي تتخذه القصائد في بنائها، بتسجيل هذه الخاصية في علاقتها بموضوعة الاغتراب التي تعد موضوعة مهيمنة على قصائد الديوان كلها.

يتخذ هذا الاغتراب في **"سماء تشبهني قليلا"** عدة أبعاد، نقف على اثنين من أهمها على سبيل المثال لا الحصر.

وأول هذه الأبعاد ما يمكن أن نسميه الاغتراب العمودي، الذي يفصح عن عدم انسجام وتعايش داخل الذات نفسها، وهو

الذي تنطق به العبارات المتناقضة المشار إليها سلفا، ولكن صورته الناصعة تتبدى في قصيدتي "نقش الروح" ص 21 و"لا وقت لاختلاس الأنفاس" ص 79.

لعل من باب المفارقة أن القصيدة الأولى عكس ما يشير إلى ذلك عنوانها تدور حول "الجسد" الذي ظل يمثل موضوعة مركزية في كتابة النساء الشعرية. ولكن عبارة "نقش الروح" التي تسم القصيدة، تشي بردم الهوة التقليدية بين ثنائية الروح/الجسد. ذلك أن قراءة هذا النص قراءة متأنية تجعل الفصل بينهما غير ممكن. إن هذا ما تنبئ به الصفات التي ألصقت بالجسد. إنه كائن يعيش حالة عشق صوفية، لذلك فإنه يعاني من غربة تجعله أشبه ما يكون بطائر الفينيق الذي يحترق ومن رماده يتجدد. إنه "يحتفظ بدهشة النار" وينكتب "بحبر النار" ويسير أبعد ما يكون "عن رغوة النار". ومن ثم عدم تلاؤمه مع الذات واغترابه عنها :

جسد لا يشبهني
يسر أبعد ما يكون
عن رغوة النار
ودون اشتهاء
يلبس عريه
يقف خلف الروح
ثم يندثر...

أما القصيدة الثانية فإنها تحمل سمات الاغتراب من عنوانها الموسوم بـ"الغريب" وهي وإن كانت مثل سابقتها تخاطب "الجسد" إلا أنها تقدم صورة أكثر مأساوية باتخاذها أبعادا أنطلوجية متشعبة. فالجسد الذي رأيناه يشتعل ويخبو طافحا بالحيوية في "نقش الروح"، بدا في "الغريب" انهزاميا ضعيفا، يعاني عزلة قاتلة. فقد فقد هويته وأصبح بلا اسم، يسير وحيدا دون هدف. ما يبرر وجوده، أو قل علة بقائه، هو الحنين إلى الماضي الذي يذكي "إيقاع القصيدة في دمه". لهذه الأسباب تكاد القصيدة تتحول إلى رثاء للجسد المثقل بوجوده. ومن هنا كثرت في القصيدة الألفاظ والعبارات الدالة على الموت والفناء :

في يده ورق
وبين ثناياه
خراب

***

أحلامه
المهرولة العمياء
تساقط كأنات الخريف
على حائط العمر

***

انتهي
شاهدا
على قبر الأيام

أما ثاني تلك الأبعاد فيتمثل في البعد الأفقي الذي يعبر عن علاقة متوترة بين الذات والواقع. وتبدو الذات انطلاقا من هذا البعد كائنا إشكاليا بالمعنى الذي يفيد انعدام التوافق بين الفرد ومحيطه. والواقع أن تجليات هذا المفهوم الذي عرف في النقد الروائي أكثر من غيره، يختزل

أزمة وجودية عميقة تطغى على كل الهواجس الأخرى في ديوان "**سماء تشبهني قليلا**".

لتجسيد هذا البعد يلجأ الديوان إلى الثنائيات المتقابلة كي يميز في نهاية الأمر بين عالمين : عالم الليل الذي يلقي بظلامه على الذات أعباء "وجودية" من الوحدة القاسية، وعالم الضوء المحلوم به، وهو عالم الخلاص الذي قد يأتي وقد لا يأتي. تستعمل الشاعرة لتوصيف علاقة الذات بالليل أسلوبا إخباريا لا تفلح كثافته الاستعارية في إخفاء قسوته ومعاناته. وتوظف الأسلوب الإنشائي لرسم معالم أفق نقيض ما يزال قيد الاستشراف.

إن عالم الليل يصبح مجالا لبسط أشكال من الاغتراب تجاه الآخر، ومن ثم فإن أحد أوجه العلاقة المتوترة بين الذات والعالم تتمظهر في العزلة التي تتحول إلى أفق مسدود في قصيدة "وقالت المحارة للبحر" (ص 65) التي تبدأ بهذا الاستهلال :

على حافة الليل
أسير وحدي
إلى القصيدة
يتبعني خطوي
يسبقني
صداي

إن ما يؤكد حضور الليل بالدلالة المشار إليها أن الشاعرة جعلت هذا المقطع خاتمة الديوان عندما أعادت كتابته على الدفة الأخيرة من الكتاب. وتعيد القصيدة إنتاج الحقل الدلالي نفسه في مواضع أخرى فتغدو جملة "على حافة الليل..." لازمة تتكرر خمس مرات. وتنمو مقطعا مقطعا على مكابدة الذات التي تصل في النهاية إلى حد التلاشي.

على حافة الليل
أجلس
في شرك الليل وحدي
ووحدي
أتبدد
كغيمة
في حاشية الطريق

إن هذين البعدين الذين يحفرهما شعور مأساوي بالاغتراب في "**سماء تشبهني قليلا**" يقابلهما تصالح مع الذات عبر القصيدة التي تصبح ملاذا وخلاصا. ومن أجل هذا فإن الديوان مليء بالكتابة عن الكتابة. وهي ظاهرة منتشرة في الشعر العربي منذ القديم، ولكنها تقدم في الشعر الحديث عادة لإبراز نزعة النبوة لدى الشاعر الذي يغدو في الكثير من الحالات كبش فداء لاستحالة انصهاره داخل النسق الاجتماعي.

في ديوان ثريا ماجدولين الأخير شيء من هذا، وفيه أيضا أكثر من هذا، إن القصيدة في الديوان لا تقف عند الدور الطهراني الذي يجعل الشاعر ضحية أبدية لتواطؤات اجتماعية، ولكنها تتجاوز ذلك لتتحول إلى أداة للتحرر من الارتهان للواقع بالمعنى القدحي للكلمة.

ففي "سماء جديدة" (ص 51) تبدو القصيدة نسغا لعلاقة قيد البناء بين الذات والآخر، إذ بها وفيها تتبلور تلك العلاقة الحميمة التي ترنو إلى فك طوق العزلة والوحدة التي اختزلناها في ما سبق في "الاغتراب" بأبعاده المختلفة. وعلى الرغم من القصيدة كما تمت الإشارة إلى ذلك قبل قليل تلعب دور الطهر بالمفهوم الأرسطي، وهو ما تدل عليه كلمة "نغتسل" في المقطع الأول :

تعال
نغتسل معا
من حمى المسافات
نهجر واحة الصمت
نفترش سماء جديدة
لنخيط قصيدة تشبهنا

فإن القصيدة لا تقف هاهنا. إنها في "سماء جديدة" فضاء لممارسة الحرية وفتح أفق آخر يتجاوز الماضي ليستشرف المستقبل :

دع القصيدة
تكبر على حوافنا
اغرس على ضفتيها
وردا ونايا وغناء

في "**سماء تشبهني قليلا**" تركيز على أهمية الكتابة الشعرية من أجل التحرر، وأهمية هذا التركيز تزداد لما يتعلق الأمر بالمرأة، وهو أمر طبيعي بالنسبة لثريا ماجدولين وللشاعرات المغربيات والعربيات عموما، حيث تتحول القصيدة إلى سلاح من أجل الانعتاق. هذا الهاجس أسقط الكثيرات في المباشرة والنثرية الفجة، ولكنه ظل لدى ماجدولين عاملا إضافيا من أسباب شعرية القصيدة حتى في "لا وقت لاختلاس الأنفاس" (ص 79) حيث المرأة تتمرد وتنتفض.

وهكذا فإن القصيدة في الديوان تنهض على مقومات يشدها تناسب محكم بين مكوناتها. فقد اختارت الشاعرة قصيدة النثر قالبا شعريا تعبيرا عن الانشداد لروح التحرر التي أشرنا إليها. ولكنها لا تجد غضاضة في حشو القصيدة أحيانا بقافية تجعل إيقاعها أكثر توقدا من بعض القصائد الموزونة، خاصة في المقاطع الطافحة بروح رومانسية هي من بقايا المرحلة السابقة في مسيرة ثريا ماجدولين الشعرية.

ويظهر أن "**سماء تشبهني قليلا**" صاغ رؤاه الشعرية بلغة تسمو على لغة النثر المعروفة بعصيانها على اللغة نفسها. من هنا في الديوان نفسا غنائيا يجعل قصائده تضفي تنوعا على قصيدة النثر، وفي نفس الآن لا تستجيب لإيقاع القصيدة الموزونة. وربما شكل هذا أحد وجوه قوة الشعرية في ديوان "**سماء تشبهني قليلا**".

احتفالية القول بين المد والجزر في ديوان "بملء الصوت"

أحمد زنيبر

يعتبر إدريس الملياني من الأسماء المغربية البارزة التي طبعت المشهد الشعري بالمغرب، باعتبار ما أفرزته نصوصه الإبداعية المختلفة من أفق تجريبي متنوع طال بعض الجوانب الهامة من مقومات القصيدة الحديثة، على مستوى الشكل والمضمون معا.

فبالرجوع إلى دواوين الشاعر، الممتدة في الزمان والمكان، نذكر منها على سبيل المثال "زهرة الثلج" و"في ضيافة الحريق" ثم "حدادا علي"، وغيرها من الأعمال الشعرية المنشورة، نتلمس عمق تجربته الفنية، في بعدها الواقعي، من جهة، وفي بعدها التخييلي من جهة ثانية؛ دون أن نستثني من هذا الحكم عمله الأخير الذي وسمه بعنوان لافت هو : "بملء الصوت". وهو عنوان يتخذ من الجرأة ميسما، إذ ثمة إصرار على الكلام بصوت مسموع ورغبة كاملة في بوح صريح معلن لا يشوبه خوف أو تردد.

إنه، بمعنى ما، إعلام رسمي من الشاعر بالحضور الفعلي لحاسة النطق والتلفظ، وبالتالي إقرار منه بالتصدي والمواجهة ردا لاعتبار الذات الشاعرة. لعل تتبع النصوص واستقراءها كفيلان بتبيان ذلك، عن كثب.

غير أن سؤالا أو أكثر ينتصب أمامنا، خلال عملية المتابعة من قبيل : لم هذه المواجهة ؟ ما طبيعتها ؟ ومن المقصود بها تحديدا ؟ وإذا كان امتلاء الصوت وقوته أحد رهانات القول في هذا المنجز الشعري، فإلى أي حد نجح الشاعر في محاورته للذات والآخر من ناحية، وفي مكاشفة العالم ومجابهته، من ناحية ثانية ؟...

تحتضن المجموعة المذكورة سبع عشرة قصيدة، تشاكلت عناوينها وتنوعت بتنوع محتواها. ومن هذه العناوين : الكاتب الكبير/ سلوانة الشعراء/ بملء الصوت/ الدمية المعدنية/ جوع الكرامة/ مدينة العبابيد.. وغيرها. غير أنه رغم تنوع أفضية هذه العناوين، وإحالاتها المرجعية، تبرز موضوعة شعرية جامعة تنصهر داخلها كل الموضوعات تتجلى في تغني الشاعر

---

* "بملء الصوت"، إدريس الملياني. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2005.

بالذات، من خلال الإنصات إلى بوحها وأسرارها تارة، وعبر ضبط إيقاع تفاعلها بما حولها تارة أخرى.

وهكذا تستوقفنا بعض السمات البارزة التي تميز قصائد إدريس الملياني في هذا الإصدار الجديد "بملء الصوت"، تتجلى في احتفالية صاحبها بالوجوه والأمكنة، حيث يعمد إلى تقديمها في لغة مفعمة بالأحاسيس والانفعالات المختلفة. ومن تم نصادف رموزا وأسماء لامعة في سماء الأدب والسياسة حينا، وندخل أمكنة هنا وهناك من بقاع الأرض الواسعة، حينا آخر، ليجد القارئ نفسه، بين هذا وذاك، أمام فسيفساء شعرية يتداخل أثناءها الماضي بالحاضر ويمتزج عبرها الذاتي بالموضوعي، وهو ما يغني واقع القصيدة في نهاية المطاف.

1 - استحضار الوجوه والأمكنة

لم يكن احتفاء الشاعر إدريس الملياني بشخوصه، الأحياء منهم والأموات، احتفاء مجانيا ؛ وإنما كان احتفاء بالمحبة في بعدها الرمزي الخالص وانتصارا لفضيلة الوفاء في بعدها الوجودي. يقول عن الكاتب الكبير محمد زفزاف وما خلفه رحيله من خسارة إنسانية وأدبية بدا خلالها السكون مريعا ولم يعد الاقتراب من عالمه، الغائب الحاضر، إلا عبر جسر الحلم والاسترجاع أو عبر الصيغ المتعددة للندبة والمناجاة : (ص. 12/11).

سآتيك أمس
وئيد الخطى
مثقلا بالأسى والحنين
بدمعة أولغا
غداة الرحيل
إلى حيث يسري بك الحلم
ذات مساء حزين
سأهديك، ماذا تراني
سأهديك، يا صاحبي
غير إطلالتي وثمالة كأسي
متبلتين
بشجو الحديث المشيع كالصحب
ما بين مقهى وأخرى
عن الحب والحلم بالمستحيل

وبنفس الأسى يهامس الملياني الشاعر الراحل أحمد المجاطي إثر موته، راصدا ما اعترى صداقته من ألم ارتسمت خلاله تأوهاته الشعرية وهي تسترجع دفء الزمان والمكان حوارا صامتا.. يقول من مقطع: (19).

قال لي : قف هنا !
فوقفت
على موجة كان، ممتطيا
صهوة الريح (والكأس !)
والفرس السابحة
قلت : ما أشبه الليل بالبارحة

كما يقول بنفس الإحساس من مقطع آخر، إذ يلمح لما كان بينه وبين الفقيد من بعض التشابه والتماثل في التصور وفي القناعة ؛ بل وفي الوهم أيضا : (ص. 27/26).

نحن معا قربان
سيجارة وكأس
ننفث فيهما الجوى العاثر
بالزوج وبالولد
نشرب أو نكتب ما يرسي

في ذاكرة النسيان
نكر أو نفر، مثل بيضة البلد
تطفو على وجه الزمان المختلس
محض شراب، من سراب،
هارب، وقبض ماء
ينساب بين أنمل الظمآن
سيجارة وكأس
مترعين
بالرماد وبالزبد

وتبعا لنفس السياق، يمضي إدريس الملياني عازفا ألحانه الشجية تجاه من فقدهم من الأصحاب والخلان راصدا تعلقه الوجداني بهم في صور فنية بليغة تعلوها الحرارة والمرارة، في آن. يقول : (ص. 81).

عم مساء، عزيزي نذير !
ولك الآن
أن تتوسد أجفاننا
كل أجفاننا حرقة وسعير
نم إذن
مطمئنا علينا
فنحن كما قد رأيت
كثير.. كثير
ولكن، إذا أنت فتحت
عينيك فينا ترانا دمى
نتحرك في مسرح
كل ما فيه عمي
وبكم وصم وموتى بغير قبور !

وكما حاور الملياني شخوصه، رثاء وتذكرا حينا، ونداء ومناجاة حينا آخر، ألم كذلك ببعض الأمكنة والمدن، التي شكلت، هي الأخرى، لحظة من لحظاته الشعرية، ومحطة من محطاته الواقعية، حيث تستوقفنا أسماء لأمكنة متنوعة، مغربية وغير مغربية، نحو : بني ملال، إسطنبول، اليابان، موسكو.. وما سواها. يقول عن عين أسردون مثلا : (ص. 38).

هي عين أسردون
ينسكب الماء منها دما
ودموعا غزار
تسر بما في حنايا الضلوع
إلى ربة العدل، أستراية البكر،
سيدة الأرض والبشر الواعدة
كي تعود بنكتارها العسلي
لكل الخوابي
وكل الجرار !..

وخلال عرضه لهذا المكان أو غيره من الأمكنة المستعادة عبر اللغة والذاكرة، تتبدى العلاقة الرمزية التي يحظى بها المكان في ذاكرة وهوية الإنسان. إذ كلاهما يستوجب الآخر. فالشاعر كان حريصا على رصد مختلف الأبعاد التفاعلية بين المكان ككيان مادي، وبين التصورات التي يعتقدها الإنسان بخصوص هذا المكان، سلبا أو إيجابا.

ومن ثمة، يحتفل الملياني بأمكنته من خلال استحضاره لأوجه الرؤى والأحاسيس التي تشكل هذا الفضاء وتؤطر بنيته ودلالته الواقعية والجمالية، في ذات الآن.

2 ـ استحضار الذات والآخر

وبنفس الإحساس الوجودي والشعري أيضا، يردف الملياني إلى تفاعله بالعالم والآخر،

تفاعلا جديدا يمثل وصلة شعرية موازية، تتمثل في مدى الاقتراب من "الأنا" كذات شاعرة، وبين صدى "اللغة" بوصفها أداة للتعبير تعكس واقعا شعريا يستمد وجوده من تنوع ثقافة الشاعر واختياراته.. وهكذا يغير الشاعر من نبرته الحزينة، كلما تعلق الأمر بالذات، في طموحها وفي جموحها، من خلال كثافة لغوية وتعبيرية وإيقاعية ملحوظة. يقول: (47)

أقيموا
أو ارتحلوا لي طريقي
أنا مبتداي
أنا منتداي
ولا شيء أقرب عني
أنا لحمتي وسداي
ولا شيء يفضي
إلي سواي...

ليعلن الشاعر، بعد ذلك، في مواضع متفرقة عن تمرد هذه الأنا وتشوفها إلى الحرية والانعتاق، تلميحا منه إلى بداية البحث عن تواصل جديد تقوده عملية اختراق الفراغ والبياض. فالشاعر مصر، عبر وسيط اللغة، على مواجهة المعيش وفك قيود العبث والانتظار. يقول الملياني: (49)

سأمضي إلي
أطهر منكم خلاياي
أطردكم من حواسي
مسامي
عروقي
دمائي
ومن كل منطقة في تراب حياتي
وأغسل منكم يدي ولساني
وأضرب كفا بكف
وأعلن: حريتي لي
من الآن حتى هنا
أنا لي
رفيقي أنا وطريقي أنا
وأنا سالك
ومريد وشيخ جليل.

كل هذا التوتر في تأكيد الوجود الإنساني تشكل عبر لغة تفاعلت مع هواجس الشاعر وانفعلت بها، رغبة في مقاومة الوصاية والنسيان من جهة، وانجذابا نحو أفق انتظار مغاير من جهة ثانية. لذلك لم يكن من الغريب أن يولي الشاعر اهتماما واضحا بالألفاظ والمفردات، بما تعكسه من مرجعيات تاريخية وأدبية ودينية مختلفة، تقاربت أحيانا بالنظر إلى سياق التجربة المرحلية الممتزجة بهموم شاعرها وانشغالاته الإبداعية والوجودية.

3 ـ استحضار المرجع والذاكرة

لقد استفاد الشاعر إدريس الملياني، وهو يجهد نفسه في رسم معالم شخوصه ورصد مواقفه وآرائه تجاه الناس والحياة والموت، من أفق الشعر العربي القديم ومن نفس الشعر الحديث، من ناحية، كما استفاد من القرآن والتاريخ والأساطير والحكم والأمثال، من ناحية ثانية حيث، تم توظيف ذلك بما يناسب إيقاعية التجربة الراهنة، وبما يوافق استعداد الذات الشاعرة.

ومن ثمة، تستوقفنا تنويعات تعبيرية وتركيبيه أثرت فضاء القصيدة وأغنت شعريتها،

صورا ودلالة وإيقاعا. فمن الملامح الفنية التي عبرت جسد النص الشعري تلك الإشارات اللغوية والإحالات التاريخية. يقول إدريس الملياني : (137/136)

أيها العابر المتعجل
واصل فقط
هذه الأرض مروية بالدماء
خفف الوطء وامش الهوينى
هنا
كل شبر من الأرض - حتى السماء
حقل لغم وحقد دفين
في عيون مدججة
أين منها عيون
مدوزا ولعنة لوط
فحذار اللغط
وحذار الغلط
وحذار الأمام حذار الوراء
وحذار اليسار حذار اليمين
وحذار الوسط...

ثمة في هذا الشاهد، مثلا، إضافة إلى الحس البلاغي الواضح الذي انعكس بدوره على مستوى البنية الإيقاعية، ثلاث إحالات مرجعية. الأولى دينية حيث الإشارة إلى قصة قوم لوط وما ترمز إليه من معان ضمن السياق القرآني التي وردت فيه. والثانية أسطورية حيث التلميح إلى عيون مدوزا وما تحملهُ من رمزية ودلالة أيضا. أما الثالثة فشعرية حيث استحضار الشاعر قصيدة أبي العلاء المعري الشهيرة "تعب كلها الحياة"، وهي ذات القصيدة التي تم الاستناد إليها عبر محاورة شعرية لطيفة، في غير ما موضع. يقول : (79/77)

وما نوح باك
يعيد إليك الحياة
ولا بوح شاد
يعيد إلينا الحيا..ء
وسواء علينا سواء
أأنذرت أم
أنت بشرت في كل ناد
فداء الأحبة يعدي
ولا شيء يشفي
من الحب ما أنت تبدي
وما نحن نخفي
ولا شيء يجدي...

كل هذه الإحالات وغيرها تم استحضارها، في هذا العمل، بشكل فني يدعم التجربة الجديدة ويقوي دلالتها من خلال إعادة صياغتها لغة وتركيبا وإيقاعا ؛ الأمر الذي يمنح القصيدة حلة إبداعية مغايرة، ويضمن لها تواصلا وانتشارا.

كما تظهر رغبة الشاعر في استعراض بعض المواقف الاجتماعية والسياسية والوطنية، حيث يبدي رأيه إزاءها، تأييدا أو انتقادا ؛ بل وسخرية أيضا بما أوتي من ملكة تعبيرية تقوم على بحث الصور الشعرية وانتقاء المحسنات البلاغية دون إغفال عنصر الإيقاع وما يحدثه في أذن المتلقي من جرسية ونغمية. فاستمع إليه حين يقول مثلا عن "السيد كوانجون" : (ص. 61)

ليس هذا حسنا على الإطلاق
ذلك السيد الطيب الوطني الغيور
على نفسه فحسب

قد يكون كامل الأوصاف فعلا
إنما ليس بارعا
جدا
إلا
في مجاملة الكاميرا

ثم أنصت إليه حين يقول : "في حضرة السيد علي" : (ص. 88)

أيهذي البلاد
البلاد التي كلما
عاث فيه الفساد
قلت : قلبي على وطني
وبكيت دما
والتفت إلى السوق
ألعن آلهة التمر
تعرضه للمزاد !

فالحس النقدي هنا واضح، من خلال هاذين الشاهدين، وغيرهما مما هو مبثوث في ثنايا نصوص المجموعة. فالشاعر يتابع تفاصيل المشهد المعبر عنه بما يعكسه من ربط النص بالواقع حينا، وبما يقتضيه أمر المتابعة من إشراك الذات، تفاعلا وانفعالا، حينا آخر.

4 - شبه خاتمة

تكشف نصوص ديوان "بملء الصوت" عن أصالة الشاعر المغربي وثقافته المتنوعة. فثمة العديد من الإحالات والمشاهد التي أسهمت بشكل بارز في إغناء المتن الشعري وهيأت لتجربة صاحبها حيزا من التميز والتفرد.

أما عن الجانب الفني، بما يحتويه من صور بلاغية تعتمد المجاز والتشبيه والاستعارة وما شاكل، فحاضرة بقوة بحكم امتياح الشاعر من ثقافة عصره من جهة، ومن خصوبة تراثه الشعري العربي القديم من جهة أخرى. فالمرجعيتان القديمة والحديثة معا، انصهرتا بغاية منح النص الجديد جماليته المطلوبة. ومن ثمة نجد الشاعر ينوع في استعمال الضمائر : (متكلم/مخاطب/غائب) وفي استعمال الأفعال: (ماض/مضارع/أمر) كما نجده ينوع في حالات أخر تتصل بتحديث المعاني المطروقة وتمثل الأساليب التعبيرية : (إنشائية/خبرية) وغيرها من التنويعات المصاحبة لعناصر الوزن والإيقاع أيضا.

لقد جاءت معظم قصائد الديوان مشبعة بلغة مكثفة تحمل أكثر من دلالة، وتنفتح، بالتالي، على أكثر من قراءة. كما أن تمكن الشاعر من ناصية الإيقاع ضاعف من جمالية النص ومنح القارئ المتلقي متعة شائقة...

أفليس الديوان في نهاية المطاف بوحا مسموعا بملء الصوت وإيقاعا مشفوعا بدفء الشعر، في ذات الآن..؟!

"الحداثة المعطوبة"* لمحمد بنيس : خيبة المثقف ومجتمعاتٌ تقيم في الماضي

جمال الموساوي

ربما كانت كلمة الحداثة، التي شاع استعمالها بدون مناسبة أحيانا وفي غير مواضعها أحيانا أخرى، إحدى الكلمات التي فقدت الكثير من تأثيرها ووقعها. فهي كلمة صارت بفعل الابتذال وسطوة الاعتيادي، دون معنى. حُرُوفٌ هَيْكَلٌ لا روح فيه، بواقع أن المجتمعات العربية والفاعلين الحداثيين في هذه المجتمعات، لم يتمكنوا من ترجمتها والانتقال بها من حيز المصطلح واللفظ إلى حيز السُّلوك والممارسة المتجليين في اعْتناق قيمها، فِعْلاً لا قولاً وتشدّقاً، وجعلها من صميم الحياة اليومية للأفراد والجماعاتِ.

المجتمعات العربية لم تتمكن من الولوج إلى عصر الحداثة ـ العصر الذي يصرّ الكثيرون في الغرب على أنهم غَادروه إلى عصر آخر أطلقوا عليه ما بعد الحداثة ـ لأنها لم تعش إرهاصاتها الضرورية ولم تتوفر فيها وتكتمل الشروط الممهدة لها. فالتقاليد لا تزال متحكمة في مناحي الحياة كلها، وآخذة بناصية العقل، فلا تَتْرُكُه يمارسُ شؤونه التنويرية ؛ وعلى أساس هذه التقاليد، إذن، يقوم السلوك اليومي للناس. إن هذه المجتمعات لم تعطِ الفرصة ـ أو لَمْ تُعْطَها أو هي فوتتها عندما كانت قاب قوسين أو أدنى ـ لقيام ثورات كبرى كالتي قامت في غير مَا مكانٍ من العالم، لتجديد الحياة العربية التي بقيت وفية لرتابتها في السياسة والثقافة والاقتصاد، وبقيت الحداثة بالتالي معلقة في الأوراق مجردَ حبر، أو في الألسن مجرد لفظة يلوكها الجميع، أو يختطها في هذا الكتاب أو في تلك الصحيفة أو فوق المنبر !

في هذا السياق، حيث كُلّ شيء يَنْشَدُّ إلى أوتادِ الماضي، يأتي كتاب "الحداثة المعطوبة" كأحَدِ الكتب الهامة التي أصدرها الشاعر محمد بنيس، وتكمن أهميته أولاً في كونه صادراً عن محمد بنيس بالذات، وهو الذي ساهم، من موقعه كشاعرٍ، في بلورة جزء من المشروع

---

*. منشورات توبقال، ط. 1 سنة 2004.

الحداثي العربي وتكريسه منذ ما يقرب من أربعين سنة، سواء من خلال انشغاله الأساسي بتطوير القصيدة العربية ـ عَطْفاً على ما قام به روادها ـ ومَدِّها بأنْسَاغٍ جديدةٍ مُسْتَمَدَّةٍ من انتمائِهِ للمغرب، أو من خلال كتاباته التنظيرية ومقالاته التي حاول عَبرها الإسهام في إشاعة القيم الحداثية في المجتمع / المجتمعات العربية.

كما تكمن أهمية كتاب "الحداثة المعطوبة" في كونه يضم بين دفتيه، بشكل يقطر مرارةً، خيبَةَ المثقف وهو يرى ما بناه ودافع عنه يعيش على إيقاع انتكاسات متتالية، أو يوشك أن ينهار، لأسبابٍ منها الموضوعي المرتبط بمختلف التطورات التي يعرفها العالم المعاصر، ومنها الذاتي المرتبط بصميم البنيات النفسية والاجتماعية المعقدة للإنسان والمجتمع العربيين.

يرصد كتاب "الحداثة المعطوبة" إذن، فشل، أو شبه فشل ـ على الأقل ـ المشروع الحداثي العربي الذي يفترض أنه انطلق مع ما سمّي بعصر النهضة العربي، ولكنه ليس رصداً كرونولوجيا أو ما شابهه، بل خلاف ذلك تماما، فمحمد بنيس، حتى وهو يخط هذه المقالات التي نشرت من قَبْلُ منجمةً في صحيفة الحياة، لم يخرج عن دائرة الكتابة الشعرية عبر تكثيف اللغة وخلق مجموعة من الصور المدهشة والانزياحات، والكتاب بذلك يحمل نفسا إبداعيا، وهو ما قد يكون سبباً في تصنيف المؤلف له ضمن المذكرات ذات الطابع التأملي حين يكتب : "صباحات متتالية، عبرت نهاية التِّسْعينيات وبداية الألفية الجديدة، كنت أجلس متأملا. وللتأمل شُكلُ مذكرات . أرصد وألاحظ هذا الذي يقع في ثقافة سعتْ إلى حداثة، فيما هي تبرز منفية في عهد لم تكن تعلم أنه سيكون عهد المأساوي"(1).

ولعل عهد المأساوي هذا ينسحب على جوانب عامة وهامة من الحياة في المجتمعات العربية، فقد كان القرن الماضي، وبداية الألفية الحالية أيضا، حافلا بالخيبات. كان زمنا للهزائم المرة والانتكاسات الشديدة وتراجع أو فشل مجموعة من المشاريع السياسية والثقافية والاجتماعية على امتداد الخريطة التي تؤوي الأقطار العربية، فمن الاستعمار المباشر إلى نكبة فلسطين سنة 1948، إلى الاستقلالات الناقصة أوالمشروطة بالتبعية، طوعا أو قسرا، إلى الهزيمة الكبرى سنة 1967، إلى اجتياح لبنان سنة 1982، إلى حروب الخليج المستمرة، لم يتنفس الإنسان في العالم العربي هواءً نقياً ولو للحظةٍ واحدة، بل أقسى من ذلك كان شبهَ ضحية للتحولات التي يشهدها العالم، فكراً وسياسة واقتصاداً...، حيث تَجَاوَزَتْهُ هذه التحولاتُ بالرغم من المظاهر التي يتلفع بها كأسمالٍ، والتي يتحدث عنها محمد بنيس بكثير من السخرية حين يكتب واحداً من تأملاته كما يلي: «سعادتنا جشعة. الآلة وحدها تسحرنا. التلفزيون والنقال. وها أنت حديث جدا. لقد امتلكتَ التكنولوجيا لكي تتساوى مع غيرك في العالم»(2). في المظاهر نعم، ولكن أين تجليات الحداثة في العمق ؟ أو أين التجليات التي تؤشر فعلا على ولوج عصر الحداثة من الباب الأوسع؟ بمعنى ما، أين العقل والديمقراطية وحريات الأفراد وأشياء كثيرة أساسية ؟. إنها أسئلةٌ ومحرقةٌ تضاف إلى الأسئلة التي يطرحها

المؤلف في "الحداثة المعطوبة"، وهي كثيرة بالتأكيد، لكنه يترك الإجابات معلقة في الكثافة اللغوية التي اختزل فيها الاستدراكات والثرثرة التي تحفل بها الثقافة العربية الآن، على خلاف ما كانت عليه في السابق، ولذلك أسبابٌ عدةٌ.

لا يختلف أحَدٌ على التربة الغربية للحداثة، وقد كان هذا من الدعاوى الأساسية التي جُوبِهَ بها مشروع التحديث في المجتمعات العربية، وقد أعادني كتاب "الحداثة المعطوبة" إلى بحث مطول كان قد نشره محمد بنيس في مجلة الكرمل سجل فيه أيضا هذا الاستنتاج، فكتب يقول : «نحن جميعا متورطون في الحداثة وقد أصبحت أثرا من آثار جسدنا ... وحتى لا نتوه في المفارقات والمطابقات نثبت أن الحداثة حداثات والمشترك بينها هو أرضية الغرب تقنية وفكرا وإبداعا»(3).

وقد أفرز الخطاب المقاوم للحداثة على خلفية أصولها الغربية وعلى خلفية الممارسات الاستعمارية - الغربية ! - في البلدان العربية، وغياب تلك الثورات الأساسية (الاقتصادية والسياسية والثقافية) لقيام مجتمع حداثي، وتراجع دور المثقف الحداثي نفسه بانخراطه في البحث عن مكاسب شخصية، كل ذلك أفرز انحساراً شديداً للروح النقدية الرافضة لسلطة المألوف في مقابل صعودٍ قوي ومتسارع لخطاب آخرَ تقليدي ماضوي يَسْتَغِلُّ بعض الحمولاتِ الدينية والخوف على الهوية ليجدَ لِنفسه مساحات للهيمنة، ولذلك تصطدم الحداثة العربية بالبنيات الذهنية والعلاقات الاجتماعية المؤسسة على قيم تقليدية تحدّ من فعالية العقل وتنبُذ ممارسات مثل الديمقراطية وإطلاق الحريات الفردية التي تَصْنَعُ الإنسان المبدعَ وتبني مجتمعا متقدماً، يقول بنيس : «إن الحداثة الغربية فعل للشمول، وهي أيضا رؤية تبدلت من أصولها المتعالية إلى إدراك علمي للمحسوس يملأ مع الزمن فراغاته مع ما يرافق إبدال هذه الرؤية من اختلاف جذري في علائق القوى الاجتماعية وما يضبط انتظامها، وهما عنصران غير متوفرين في الحداثة العربية التي ما زالت البنيات الذهنية والعلائق الاجتماعية التقليدية مترسخة فيها»(4). لكن الأهم في هذه الرؤية، هو أن المؤلف يسجل واحدة من المفارقات الكبرى وهو يتحدث بتقدير وافرٍ عن مقدمة الدكتور طه حسين، في العشرينيات من القرن الماضي، لكتابه "في الشعر الجاهلي" حيث اعتبرها نقطة مؤشرة ولحظة أساسية يمكن أن تكون محدداً من محددات تقدم الخطاب الحداثي في المجتمعات العربية فمنذ «ما يقرب من قرن لم تثبت الحداثة على الأقل في النقطة التي انطلقت منها، بل تراجعت إلى حيث أصبحت معزولة بين ذويها»(5). وهنا يحق طرحُ سؤال أساسي، هل لأن المثقف تخلى عن أن يقوم بدوره في التنوير وقيادة المجتمع فكريا والرقي بقيمه أم لأن أسباباً أكبر دفعته ليتنازل قسرا عن هذا الدور ؟

في المجتمعات العربية تقوم السلطة أكثر من المثقف، بتسويق خطاب الحداثة، مستغلة ما هو متاحٌ أمامها من إمكانيات مادية ومعنوية، ولكنه تسويق على طريقتها صيانةً لمصالحها. ولذلك يجد المثقف نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما : إما التموقع خارج الدائرة مع ما في ذلك من المغامرة والمخاطرة وإما الانصهار في بوتقة

السلطة والدفاع عن وجهة نظرها بحثا عن غنائم مادية أو معنوية، وقد أدى الكثيرُ من المثقفين ثمن مواقفهم في السجون أو في ساحات الإعدام. لكن وهذه مفارقة أخرى انتبه إليها محمد بنيس، كان صوت المثقف يرتفع بقدر ارتفاع القمع والسجون والتعذيب، أي أن المثقف كان مقبلا على النهوض بواجبه التنويري بالرغم من إدراكه لكل الأخطار الممكنة على عكس ما يعيشه العالم العربي اليوم، حيث القمع قَلّ - لكنه لم يختفِ نهائيا ! - بفعل المكاسب التي حققتها الشعوب بدمائها أو بفعل الضغوط الخارجية المباشرة أو الضغوط التي فرضتها التحولات التي يشهدها العالم، ولكن بالمقابل خفت صوت المثقف الحداثي وتراجع دوره بشكل مستغرب وصادم ؛ وقد جعل هذا التراجُعَ محمد بنيس يسمع «الحديثين الأولين يصرخون في أحفادهم وفي حكام بلدانهم. لم يمت أحد منهم. وهم في منزلة العذاب يشاهدون ما حل بأفكارهم وبالحياة التي قضوها مدافعين عن فكرة الحرية من سلطةٍ ومن استبداد»[6].

إن كتاب محمد بنيس "الحداثة المعطوبة" محاولة للكشف عن الأسباب الكبرى التي عطلت قيام الحداثة العربية، كالذهنيات المسكونة بالماضي والميل إلى الكسَلِ الفكري والخمول الجسدي، إلا أن من بين أكثر هذه الأسباب أهمية تخلي المثقف الحداثي عن واجبه في تخليص المجتمع من سطوة الماضي وقيادته في الطريق إلى المستقبل اعتماداً على العقلِ والتفكير الحرّ، والرؤية النقدية للسائِد، في السياسة والاقتصاد والثقافة والعلاقات الاجتماعية. وهو دور بدونه ستظل الحداثة العربية حلما يعاني من عرجٍ مزمنٍ وسيظل المجتمع بالتالي «في علاقة مرضية بالماضي لا سبيل للعلاج منها». هذا الماضي الذي مهما كان مضيئا لن يكون كافياً لهذا المجتمع كي يصون بقاءه في عالم يتحول ويجرف معه في تحوله كل الأشياء وكل الأفكار ... الجامدة !

هوامش:

1. الحداثة المعطوبة، ص. 7.
2. نفسه، ص. 16.
3. لمساءلة الحداثة، محمد بنيس الكرمل، عدد 12 سنة 1984.
4. نفسه.
5. الحداثة المعطوبة، ص. 42.
6. نفسه، ص. 131.

الديونيزوسية وحبائل التأويل ..!

ـ قراءة في كتاب :

"في قبضة الثقافة : نظرات ورؤى حول الجسد" لهشام العلوي

محمد أمنصور

1ـ ازدواجية الرهان

يتقدم هذا الكتاب إلى قارئه من خلال عنوانين : الأول رئيس، هو : "في قبضة الثقافة"، والثاني فرعي، هو "نظرات ورؤى حول الجسد". العنوان الثاني شارح للأول ويعطي الانطباع للوهلة الأولى بأن موضوع الكتاب هو مقولة الجسد ؛ بل إن فصول الكتاب الثلاثة تزكي هذا الانطباع من خلال جعل الجسد بؤرة تتقاطع عندها مساراتها المتنوعة. لولا أن القراءة المتأنية ما تلبث أن تكشف عن وجه آخر لموضوع مضمر، مما يدفعنا إلى الحديث عن رهانين أساسين في مشروع الباحث استطاع بالفعل، على مدى فصول الكتاب الثلاثة، أن يؤسس لهما أرضية مندمجة يصعب معها فصل الرهان العلمي عن الرهان الإيديولوجي.

بالنسبة للرهان الأول (العلمي) تبدأ ملامحه في التشكل منذ اللحظة التي يسوق فيها الباحث جملة من الأسئلة التمهيدية، أو بالأحرى يمدنا بالعناصر الخام التي تمكننا من بناء السؤال المحايث للبحث، والذي يمكن أن نصوغه على الشكل التالي :

ـ ما هي خصوصية الكساء الذي تخلعه كل من الثقافتين العربية ـ الإسلامية والغربية على الجسد الغفل كي يستحيل دالا وذا معنى ؟

وبخلاف الانتظار الذي قد يتوقع من الباحث الذوبان في إحدى الثقافتين (الشرقية أو الغربية)، فإن رهانه الإيديولوجي ـ الذي سنأتي على إضاءته ـ يجعله يقوم برحلة معرفية في الأنساق الدينية والفكرية والفلسفية للمرجعيتين، لا ينتصر فيها إلا لوجهة نظره هو التي تسعى الحفريات التمهيدية إلى تأسيسها نظريا قبل الانتقال إلى الشق التطبيقي، مرآة مرامي المنطلقات المعرفية وتجسيدها الملموس ..

2ـ سلطة التأويل

يتشكل كتاب (في قبضة الثقافة : نظرات ورؤى حول الجسد) ـ عبر فصوله الثلاثة ـ من

عدة مداخل، موضوعها الظاهر هو مقولة الجسد، بينما سؤالها المضمر والاستراتيجي هو سؤال التأويل أو القراءة بما هي أفق تأويلي مفتوح يزخر بأدوات توليد المعنى وبناء الدلالة. من هنا، يمكن القول إن الجسد يتقدم في "أطروحة" هذه الدراسة كذريعة ؛ أي باعتباره موضوعا متحركا يؤسس لرؤية نقدية ووجهة نظر تنطلق منها الكثير من فرضيات البحث.

كيف إذن، حاول الباحث أن يخوض في معارف غير متجانسة أنتجت حول الجسد ليخلق، في الآن ذاته، تجانس خطابه هو ؟

بالنسبة للفصل الأول، الذي يحمل عنوان (مداخل في الثقافة العربية الإسلامية)، تطالعنا ثلاثة حقول معرفية من التراث العربي - الإسلامي هي الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام والتصوف. وهنا، ينبغي أن نسجل للباحث جرأته وطموحه المعرفيين وهو يقتحم أدغال التراث العربي - الإسلامي كي يشارك الفلاسفة القدماء من أمثال الشيخ الرئيس ابن سينا وابن رشد أسئلتهم حول قضايا البعث وخلود الروح، وليس ذلك وحسب، بل يرصد أشكال ومستويات حضور مقولة الجسد ضمن انشغالاتهم التي كانت تتمحور حول أسئلة استئناف الحياة الجسمانية بعد الموت، وغيرها من القضايا الغيبية من قبيل الفروق القائمة أو المفترضة بين النفس والروح والجسد على مستوى النص القرآني، والحديث النبوي، امتدادا إلى ما أورده علماء الإسلام وفقهاؤه الكبار أمثال ابن قيم الجوزية وجلال الدين السيوطي وأبو حامد الغزالي في هذا الباب.

إنها قراءة متحررة من المسبقات، إيجابية ووظيفية، تنتصر من خلال أمهات التراث العربي - الإسلامي لمختلف مظاهر الاحتفاء بالجسد، حتى ولو تعلق الأمر بصاحب (إحياء علوم الدين) الإمام أبي حامد الغزالي الذي يورد الباحث عنه قوله :

"ويذهب أحد الفقهاء إلى القول إن الإشباع الجنسي ضروري لكل مجهود، فكريا كان أو روحيا، حيث إن اللذة تقوي النفس على العبادة وتنشطها، ومجالسة النساء والاستئناس بهن يزيلان الكرب عن القلب، ويخففان من شدة الضغوط والإرغامات" (ص. 22).

بالنسبة للمتكلمين، تتم استعادة مشهد مناظرة التجسيم وما انخرط فيه القائلون به من مشاغل كلامية تخص الكيفية التي يتعين بها أو من خلالها قراءة الآيات القرآنية التي تخلع على الذات الإلهية أوصافا وأفعالا من قاموس البشر وأحكام الإنسان المترتبة عن تقدير الحواس (...) إلخ . و من خلال هذا الجانب يتضح كيف أنه في صلب مسألة التجسيم والتشبيه تتناسل أسئلة التأويل، من قبيل :

- هل التأويل هو ذاك الذي يطابق مقتضى العقل ؟

- هل هو ما يأخذ بقياس الغائب على الشاهد ؟

- هل التأويل هو ما نجده عند غلاة المتكلمين من أمثال جماعة الحشوية الذين أغرقوا في التجسيم والتشبيه ؟ (...)

بصفة عامة، فإن هذا المدخل يقودنا إلى طرح أسئلة جوهرية بصدد التأويل انطلاقا من إشكاليات القدماء في مواجهتهم لظاهر النص القرآني. على أن الباحث في هذا الخضم

"الـكـلامي" الصـاخب، لا يترك الخيط الـنـاظـم لوجهة نظره (المحايثة لسيرورة العرض والانتقاء والتركيب) ينفلت. من ذلك حرصه بين الفينة والأخرى على صياغة أسئلة غير مباشرة من قبيل :

- كيف ينتصب الجسد معيارا للمطابقة والتشابه أو المفارقة والتعالي في تصور الله ؛ ذاتا وصفات وأفعالا ؟

أو بصيغة مباشرة وأكثر تدقيقا :

- كيف تعاطى المتكلمون لمسألة المقارنة والتجسيم في فهمهم للإلهيات ؟

3 - الرؤية الديونيزوسية

أما بالنسبة للمدخل المخصص للتصوف الإسلامي، فنلاحظ سعي الباحث إلى إبراز الحضور المركزي للجسد في الفعالية الصوفية، وهو هنا يحاول خلخلة الصورة النمطية السائدة عن علاقة الصوفي بجسده على مستويين :

أ. **مستوى الولاية** (عندما يبلغ الصوفي أقصى درجات الولاية).

ب. **مستوى الحضرة** (التي تعكس طقس الجذبة الجماعية الذي ينخرط فيه الصوفيون / المتصوفة).

ولعل التركيز على الجسد بين حدي الولاية والحضرة هو ما يقودنا، هنا، إلى جوهر الرؤية الفكرية للباحث وأس وجهة نظره النقدية في مجموع مداخل بحثه، والتي نصطلح عليها بالرؤية الديونيزوسية النابذة لكل قراءة سلبية للجسد، المنتصرة لحالاته القصوى في الذروة والانتشاء.

فانطلاقا من هذا الموقف الفكري - النقدي، سيحاول هشام العلوي تحرير صورة الصوفي من إطارها التقليدي المسكوك المكبل بالأحكام الضيقة. إن بلوغ الصوفي، بهذا المعنى، مرتبة الولاية لا يقرأ كمروق عن الدين، وانخراط الصوفية في طقوس الجذبة الجماعية (الحضرة) لا يؤول كبدع أو انتحالات، وإنما كاحتفالات ديونيزوسية تكرس مبدأ الجسد الخارق الساعي إلى توحيد الناسوت واللاهوت. إنها تنتصر له باعتباره كينونة خالصة، بدون ذاكرة ولا انتماء، ولا هوية ثقافية. (ص. 44).

هي إذن الصورة التي تنسجم مع وجهة نظر الباحث ؛ صورة الصوفي الذي تنتفي الحدود - في علاقته بجسده - بين الدنيوي والقدسي، وهو الأمر الذي جعله يضع عنوانا ماكرا لهذه الفقرة : (الصوفية وحبائل الجسد).

4 - حفريات

عندما ننتقل إلى الفصل الثاني من الكتاب الذي يحمل عنوان (مداخل في الثقافة العربية)، تقودنا حفريات الدكتور هشام العلوي إلى سقراط وأفلاطون وأرسطو بنفس الخلفية الديونيزوسية المشار إليها، فيميل بالنتيجة، إلى إبراز ما للمذاهب على اختلافها من تقاطع عند نقط معينة من قبيل أن المحسوسات هي غرض المعرفة، وأن الإدراك الحسي هو وسيلتها الوحيدة، وكيف إن الفلسفة لا تتصالح مع الجسد إلا بناء على أنه مجال لتحصيل اللذات الآنية. وقد قاد هذا المنحى إلى الوقوف عند

احتفاء القورينائيين والرواقيين والكلبيين قبلهم بالجسد، حيث يكتب معقبا بسخرية على "أرسطيفوس" القورينائي في سياق قوله :

"ذهبت إلى سقراط لأتعلم، وإلى ديونوسيوس لأستمتع". يقول :

"فلا تعارض، إذن، بين العلم والمتعة، بين المعرفة والجسد، ولكن بينهما تضافر، صاغه اليونان في شكل نمط حياتي محكوم بمعايير جمالية، ومطبوع بمسحة إبداعية ؛ يمكن تلمسها في شعائر ديونيسوس الاحتفالية، وازدهار الفنون التصويرية التي اتخذت من الجسد العاري موضوعها الأثير، من أجل تمثيل أكثر القيم تجريدا، من قبيل البطولة والعدالة والشجاعة والجمال، في نصب خالدة، روعي في إنجازها مطابقتها لمتخيل يوحد بين الأخلاقي والاستيتيقي، ويحول الشحنة الوجدانية والصفاء الروحي إلى ملامح مورفولوجية متناسقة، تحاكي نموذجا أصليا للجسد المثالي" (ص. 59).

تتوالى الحفريات في رصد التمثلات التي عرفها الجسد في الثقافة الغربية بدءا من الديانة اليهودية التي كانت أول ديانة فرقت بين الجسد والروح، مرورا بالمسيحية التي أفرطت في تحقيره وتجاهله وإماتته، وهو ما يدرجه الباحث - عموما - ضمن مفهوم حرب الميتافيزيقا ضد الجسد حيث يشير إلى ما للكنيسة من موقف سلبي تجاه الجسد انعكس على صورة المرأة المقترنة بالاحتقار، ومسرح القرون الوسطى.. إلخ... وكل ذلك لتنتهي تلك الحفريات إلى تكريس رؤية ديونيزوسية تبرز بشكل إيجابي احتفاء الإغريق بالجسد.

بعد ذلك، يعرج البحث على ديكارت ونيتشه وفوكو. وبالنسبة لنيتشه الذي يعتبر الجسد عقلا كبيرا، يوضح العلوي كيف يجعل هذا الفيلسوف من الجسد المكان الصحيح للثقافة، ما دام هو النمط المؤسس والموحد لتناقضاتها وتعدديتها، وقد دفعته رؤيته وروحه الديونيزوسية إلى إبراز القول النيتشوي باعتباره دعوة مفتوحة لتمجيد انبعاث الظاهرة الديونيزوسية بما هي خلاص وحيد للإنسانية من النور المعمى. فإذا كان ديكارت يكرس نظرة تجزيئية للجسد، فإن نيتشه ينبذ ذلك التجزيء لصالح منظور يكرس مبدأ وحدة الإنسان.

في ختام هذا الفصل، وبعد الانغمار في تقنيات تنميط الجسد وتشذيبه، كما يجليها ميشيل فوكو، يتم تسليط الضوء على العلاقة التي لطالما أبرزها هذا الفيلسوف ضمن الخطاب السائد في أي مجتمع، والذي هو في الجوهر خطاب سلطة تتحدد فيه - هذه الأخيرة - بالمعرفة.

5 - أفق المنهج الموضوعاتي

مع الفصل الثالث والأخير، الذي يحمل عنوان (مداخل في التجربة الأدبية)، ينتقل الكتاب إلى مدار السؤال النقد - أدبي، وهو المدار الذي يكتسي - في تقديرنا - أهمية خاصة؛ بل إنه الثمرة الناضجة لكل المجهود الفكري والحفريات المعرفية التي استغرقت الفصلين السابقين. فمن خلال تفحص مداخل هذا الفصل، تتبلور الملامح المميزة لما يمكن أن نسميه

"الأطروحة المركزية" لكتاب "في قبضة الثقافة : نظرات ورؤى حول الجسد"، والتي يمكن القول إن كل المداخل الفكرية والفلسفية، التراثية والمعاصرة التي تطرق لها الباحث، لم تكن سوى مقدمات لها. فها هنا يضع هشام العلوي (الناقد الأدبي) مسافة بينه وبين التصورات التي شددت على الجسد باعتباره موضوعا للاشتغال الفكري وجعلته مركز اهتمام النسق الفلسفي والنظر العقلي. وبالنسبة إليه، سواء أتعلق الأمر بديكارت أونيتشه أوفوكو، فإن مختلف فلسفات الجسد لم تستطع أن "تحوك خطابا أصيلا ومحايثا للفعالية الحسية إلا عندما نقلت مجال الاشتغال من "اللوغوس" إلى الـ"   " أي الوجدان. وبهذا يفتح هشام - الناقد المجال واسعا أمامه للانتقال من الحقل المعرفي الشاسع الذي لا ضفاف له إلى الحقل الأدبي، وتحديدا، إلى صلب الممارسة الإبداعية - الجمالية باعتبارها الأقدر على الانفتاح على جروح الجسد واستنطاق مسكوته. ففي لغة المجاز والاستعارة والتخييل - عموما - متسع للإفصاح عن الكينونة، وهو ما لا تدركه بقية المعارف.

وإذا كانت سفينة الباحث سترسو في الأخير على ميناء المنهج الموضوعاتي لمقاربة نصين سرديين، هما (الخبز الحافي) لمحمد شكري و(لعبة النسيان) لمحمد برادة، فلأن المدرسة الموضوعاتية بكل رموزها (غاستون باشلار / بارط / ستاروبنسكي / ريشار) قد ركزت أكثر ما ركزت على تيمة الجسد، مما يجعل هذا المنهج يمارس إغراءه بالفعل على الباحث.

إن الأخذ بالمنهج الموضوعاتي بالنسبة لساحتنا النقدية التي عرفت في السنوات الأخيرة ما يشبه انسداد الأفق أمام الاستهلاك المفرط لبعض المناهج، يشكل في تقديرنا ضربا من إلقاء حجرة في بركة ماء راكدة. وقد حرص الباحث على أن يؤشر إلى جوانب متميزة في هذا المنهج، يأتي في مقدمتها إعادته الاعتبار لسلطة المؤلف وهدمه لنظام الجنس الأدبي. فلا النص وحده ولا الجنس الأدبي يشكلان الشاغل الأساس للناقد الموضوعاتي، وإنما العالم المتخيل كما يرسمه "الترابط بين العمل والكينونة الجسدية والوجدانية لصاحبه" (ص. 100).

نعود إذن إلى الملاحظة التي أبديناها منذ البداية عن ازدواجية الرهان عند هشام العلوي. فعلى المستوى العلمي، يتحول الجسد في هذا البحث إلى مجرد ذريعة لرصد مسارات التأويل، أوما يشبه الحفر في المجرى العام لتاريخ مفترض للتأويل يحتاج لمن ينكب على دراسته وإعادة تشييده انطلاقا من الحفر في التراثين العربي - الإسلامي والثقافة الغربية. وهو نفسه سؤال القراءة، وسؤال المعنى كما يبلوره تحدي الجسد. كما أنها الرهانات نفسها، التي من شأن التصدي لها بمثل هذا الاجتهاد العلمي المحترم، ضخ دماء جديدة في شرايين السؤال النقدي بالمغرب.

أما الرهان الثاني، فيتعلق بالمستوى "الإيديولوجي" لهذا البحث، وقد جسده الباحث من خلال تمجيده للجسد في كل تجلياته وأبعاده داخل أنساق ثقافية مختلفة، تمجيد قاده

إلى مديح لكتابة الجسد، وهنا يكون هشام العلوي، رغم حرصه المعلن التزام صفة الباحث العلمي المتجرد، قد وضع قلمه وكلماته في قلب معترك الحداثة ؛ أي على طرف نقيض من كل المرجعيات المعرفية، الدينية أوالأخلاقية، ذات الموقف السلبي، من الجسد (كل القيم التي تهين أوتحتقر أوتكره الجسد انطلاقا من وعي شقي بحبائله) !.

هو زواج متعة، إذن، يقترحه علينا الدكتور هشام العلوي، بين المعرفة والجسد، بين المعرفة والمتعة ذاتها، لذلك يمكن القول في كلمة واحدة : كتاب "في قبضة الثقافة : نظرات ورؤى حول الجسد" انتصار للحداثة وكسب لموقع جديد في الحقل النقدي المغربي المعاصر.

مكناس، في 18-2-2005

قراءات في أعمال أمازيغية

محمد أقضاض

أصدر المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية خلال سنتي 2004-2005 أكثر من ثلاثين كتابا في مختلف المجالات الثقافية المرتبطة بالأمازيغية، سواء في الإبداع الأمازيغي أو في التاريخ والأنتروبولوجيا والتربية والديداكتيك، أو في الترجمة وتقعيد اللغة، أو في البحث الأدبي والفكري... وسنقتصر على تقديم بعض منها وخاصة ما يتصل بالإبداع والبحث الأدبيين :

ديوان "تانيرت Tannirt ألواح أمازيغية" للشاعر إدريس الملياني

ديوان صدر عن المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية نهاية 2004، يضم مجموعة قصائد أبدعها الشاعر على مدى أربعة عقود، منذ الستينيات من القرن الماضي. هو باقة شعر باللغة العربية، يجمع بين طاقتين إبداعيتين : شاعرية العمق الأمازيغي تاريخا وثقافة وتصورا ورموزا، وشاعرية اللغة العربية بعمق جماليتها الإيقاعية وصورها ومرونة بنيتها، خاصة حين تتحرك على أنامل شاعر مبدع مثل إدريس الملياني، غير أن الطاقة الأولى أكثر حضورا في مستويات فنية مختلفة : مستوى التكثيف الرمزي المرتبط بالفضاء الأمازيغي وتاريخه، فنجد "تازة" تلخص كل فضاءات الأمازيغ بشموخها وسقوطها، تازة الأوربية والعربية، عليا وسفلى، عاصمة الألم، أجمل مدينة وأبأسها، فضاء يمثل بوابة الريح كأمل في التحول الإيجابي. يتجزأ هذا الفضاء فضاءات صغرى كثيفة تتوزع على مختلف المناطق الأمازيغية...

ومستوى الوقوف على الزمن الأمازيغي، يمتد من أزمنة التكون الحضاري الأمازيغي من عهد يوغرتن إلى كسيلة والكاهنة إلى زمن غياثة المنهارة وبني ورياغل المذبوحة وهي شامخة،

وفترات إعلان لحرب متنوعة الأشكال، فترات سطو السلطة عبر من يربض على عتبات البيوت مثل أبي الهول يفرض الطاعة بالسيف...

مستوى الإيقاع، ففي الديوان ظاهرة مثيرة في أهم عناصر الإيقاع، القافية، باعتبارها تساوي أو تشابه مقاطع صوتية تنتهي بها الجمل الشعرية، وباعتبارها تخفي شحنة فكرية شاعرية عند الشاعر، والكلمة الحاملة للقافية تنطوي على دلالة مهمة تذوب فيها الدلالات المعتادة... وهي قافية منتزعة من التقليد الإيقاعي الأمازيغي، ففي قصيدة "مغارة الريح" مثلا نجد تواتر قافيتين في كل جملتين شعريتين، قافية "آه" وقافية رويها هو اللام أو النون ساكنان أو باء مجرورة. تماثل القافية الأولى صوت الأغنية الأمازيغية والإلقاء الشعري فيها، سواء في انطلاق المقاطع أو في نهايتها، كما تماثل صوت الاستغاثة أو الألم أو الفرح أحيانا. والقافية الثانية الساكنة هي نفسها ضربة القدم الصلبة والخاطفة على الأرض، هي نفسه صوت طلقة البارود...

"تانيرت" هو ديوان يمتد عبر حياة الشاعر إدريس الملياني منذ بزوغ إبداعيته، وهو بزوغ انطوى على بذرة وعي وطني أمازيغي أيضا، انطلقت تنمو إلى أن عمقت ذاتها وفنيتها وعمقها المعرفي. يمثل هذا الديوان/المسار أول ديوان أمازيغي بصياغة شاعرية عربية متميزة، وهو أول ديون ينبه إلى ضرورة إعادة كتابة تاريخ المغرب، أول ديوان يذهب بحضارة المغرب إلى أقدم العصور قبل الإسلام بل وقبل المسيحية ذاتها. وهو ديوان معلمة في طريق الإبداع المغربي عموما والأمازيغي خصوصا الخ. على هذه الأسس نشره المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية...

ديوان "تيقت Tiqqt"

لسعيد أقضاض

ديوان "تيقت" لسعيد أقضاض، نشره المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية خلال سنة 2005، هو ديوان أمازيغي مكتوب بالحرف العربي وبحرف تيفيناغ أيضا. فقد تجاوز فيه الشاعر الأسلوب التقليدي الذي يتحكم فيه البناء الشفهي الذي ما زال يهيمن على كثير من الإنتاجات الأمازيغية، ليدخل مجال الحداثة الشعرية عبر تكثيف التعبير بالصورة وتوظيف الرمز وتنويع الإيقاع المتعدد الأبعاد. يستعمل الشاعر الصورة التجريدية في الغالب والقائمة على المجاز الذي يجعل الصور رامزة منفتحة على تعدد دلالي يحتمل تعدد القراءات، ويخرج النص الشعري من روتينيته ومن اللغة اليومية ليعانق لغة السمو الشعري الإبداعي. وفي هذه الحالة يستدرج النص الشعري في هذا الديوان اللغة التراثية المنتزعة من ذاكرة الطفولة في أبعادها القروية والمرتبطة بالذاكرة الأمازيغية الجمعية. فيستثمر الحكي الشعبي والمثل وأناشيد الأطفال التي تشبه العبارات المأثورة، وهي مجالات خطابية منغرسة في السياق الخاص. يشتغل الشاعر على ذلك عبر إفراغ المقاطع

التراثية من معانيها المتداولة ليدرجها في تركيب فني يمنحها دلالات جديدة ، تنفتح على كل إمكانيات التلقي.

وهو في ذلك أيضا يعود إلى الرموز المنتزعة من التاريخ ومن الواقع، سواء كانت أسماء أعلام بشرية أو أسماء أعلام جغرافية أو أحداثا، لتدخل عمق الأسطورة كإحدى أهم أدوات التعبير... وموازاة مع ذلك يتخذ النص إيقاعا متميزا باستثماره التراث الشعري والسردي برؤية إبداعية تنقله من المعيارية المتكلسة إلى تنويع خاص يخرج المتلقي من الرتابة والمعتاد إلى الجديد وغير المألوف. فتجد الجملة الشعرية متنوعة الإيقاع الخارجي وكثيفة الإيقاع الداخلي من خلال التوازي الصوتي والتكرار الضروري، ومن خلال الإيقاع الدلالي عبر بياضات هندسية... لتوفير تنغيم خاص ومتميز ومتنوع ومتعدد الأبعاد وذي دلالات لا تخفى عن المتلقي. وهو بذلك يرنو أيضا إلى إعادة تشكيل أفق القارئ/المتلقي...

... وبناء على حيثيات إبداعية واسعة في هذا الديوان، تصور مركز الدراسات الفنية والتعابير الأدبية والإنتاج السمعي البصري، أنه ديوان يمثل أحد أهم النماذج الإبداعية في الأدب الأمازيغي المعاصر، التي تفتح آفاق الشعر الأمازيغي المستقبلية وفي نفس الوقت تمد الجذور في عمق الذاكرة اللغوية والرمزية والجمالية القديمة، ويشكل قيمة مضافة في الإبداع المغربي عموما...

"الأدب الأمازيغي بين الشفاهة والكتابة..."

وضمن الكتب التي أصدرها المعهد خلال سنة 2005 تلك التي تضم أعمال ندوات علمية حول الثقافة واللغة الأمازيغيتين، نذكر من ذلك كتاب "الأدب الأمازيغي : بين الشفاهة والكتابة، خصوصيات وتصورات La littérature amazighe : oralité et écriture, spécificités et perspectives" وهو كتاب يضم أعمال ندوة علمية عالمية حول الأدب الأمازيغي بين الشفاهة والكتابة، نظمها المعهد أيام 23 و24 و25 أكتوبر 2003 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. شارك فيها باحثون مغاربة وأجانب : جزائريون وفرنسيون... ولقد انصبت العروض على الطابع الشفهي للأدب الأمازيغي، وعلى ما راكمه هذا الطابع في مسار الإبداع الأدبي الأمازيغي من تقنيات فنية مختلفة مرتبطة بالإيقاع والتخيل مع حمولة فكرية ووجدانية مهمة. وهو ما جعل الشعر الأمازيغي يتداخل بين الغناء والرقص. هذا التداخل ينتج صعوبات حادة في إمكانية فرز ما هو إبداع أدبي عما هو موسيقي ورقص. غير أن ذلك لا يمنع من أن هذا الطابع الشفاهي قد خلق تلك التقنيات الفنية التي لابد أن تستند إليها الإبداعات الكتابية اللاحقة. كما راكم أنماطا شعرية، جماعية وثنائية وفردية، يمكن أن تساهم في إنتاج بعض الأسس الاصطلاحية قصد مقاربة النصوص الشفاهية والمكتوبة أيضا الخ.

وما يقال في مجال الشعر يمكن أن يقال في مجال الحكي، حيث يضم الأدب الأمازيغي بشفهيته ومنذ القدم مختلف أنماط الحكي الشعبي، من حكايات عجيبة وخرافية إلى حكايات الحيوانات وحكايات اجتماعية وحكايات دينية... مثلت عنصرا مهما في تكوين النشء الأمازيغي عبر العصور، وأنتجت تقاليدها في الحكي والبناء السردي وبناء الشخصيات.

كما تناولت عروض الندوة، ضرورة تدوين الأدب الأمازيغي حماية له من الضياع والتلاعب، وفي نفس الوقت لوضعه بين أيدي باحثين سوسيولوجيين وانتروبولوجيين ونقاد، قصد التعرف أكثر على حضارة وثقافة المغرب قديما وحديثا... وقد بدأ هذه المهمة التدوينية باحثون كولونياليون، فأنقذوا مادة أدبية واسعة من الضياع والتلف، رغم أن هدفهم لم يكن هو حماية هذا الأدب، وستشكل عملية التدوين هذه مجالا مهما ينطلق منه المبدعون في الأدب الأمازيغي وباللغة الأمازيغية الخ.

ونظرا لكثافة وضغط الأدب الأمازيغي الشفهي، فإن الأدب المكتوب، الذي انطلق منذ السبعينيات، مازال يرزح تحت تأثير التقنيات الفنية التي تراكمت في الأدب الشفهي، رغم أن الأدب المكتوب هو أدب فردي ينتجه مثقفون اطلعوا على الآداب الأخرى وعلى التصورات النظرية في الكتابة الإبداعية الخ. غير أن هذا التأثير هو أمر ضروري كقاعدة لانطلاق الكتابة، تتحرر من ثقل التراث تدريجيا لتعانق قضايا العصر والإنسان الحديث...

يمثل هذا الكتاب مادة مهمة في البحث الأدبي الأمازيغي، وسيشكل لبنة أساسية في مجال البحث الأكاديمي خلال مجال الأدب الأمازيغي واقعه وآفاقه الخ.

"أَسَكِّيفْ نْ انزَادَنْ Asekkif n inçadn"
رواية للكاتب علي إيكن

وفي الأنماط السردية نشر المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، خلال سنتي 2004-2005، بعض الحكايات التربوية للأطفال، وبعض الروايات نشير منها إلى رواية "أسكِّيفْ ن انْزادنْ Asekkif n inçadn" للكاتب علي إيكن، هي رواية قصيرة تقع في 74 صفحة مكتوبة بحرف تيفيناغ والحرف اللاتيني.

استثمر فيها الكاتب الفضاء الأطلسي المتنوع بطبيعة مواقعه وشخوصه وبمستويات حياته، رغم أن هذا الفضاء لا يخرج عن بعض مدن وقرى الأطلس المتوسط بتأثيثه المتميز. وفي نفس الوقت ساهم في جعل اللغة الأمازيغية قادرة على تحريك السرد وتحولاته، وقادرة على إنتاج حوارات بين الشخوص تختلف في رؤياتها للعالم وفي أساليبها، وقادرة على استبطان دواخل الشخوص غالبا بالسرد الخارجي الذي يقوم به السارد العالم، وأحيانا عبر الشخوص نفسها حين تعود إلى ذاتها فتجسد سيكولوجياتها.

وهي إلى جانب تفاعل السرد والوصف فيها، سواء الوصف الخارجي أو الوصف الداخلي، تنوع في البنية الفنية بتقاطع السرد القصصي الباني لنسيج الرواية كقصة طويلة، وبالخطابات المشهدية عبر الحوارات التي تمسرح بعض صفحات الرواية، وبالمقاطع الشعرية التي تطبع الخطاب الروائي بجمالية خاصة مثيرة ومكسرة لرتابة الحكي، وأحيانا ببعض خطابات المذكرات أو الرسائل الخ.

وتسهم الرواية في بلورة وتطوير لغة أدبية سردية تتشكل بالتدريج لتنسلخ من اللغة اليومية ولغة الحكي الشعبي. وتشير أيضا، رغم قصرها، إلى أن اللغة الأمازيغية قادرة على أن تنتج كتابات إبداعية سواء في مجال الشعر أو في مجال السرد، وهي أحد النماذج الموضوعة في طريق تطوير الكتابة الروائية في الأدب الأمازيغي المكتوب الخ.

أنشطة الاتحاد

- وثائق المؤتمر السادس عشر
- مِنظام الاتحاد
- محاضرات، ندوات وملتقيات
- علاقات، مواقف، تقارير

وثائق المؤتمر السادس عشر

الرباط : 25، 26، 27 فبراير 2005

كلمة الرئيس السابق لاتحاد كتاب المغرب

الشاعر حسن نجمي

"لي أمل أن تتحرر إرادة الكاتب المغربي".

تغمرني مشاعر خاصة، وأنا أقف أمامكم، لأعلن عن افتتاح أشغال المؤتمر الوطني السادس عشر لاتحاد كتاب المغرب ومازلت في هذا المكان بالذات مغمورا بدفء وجمال الكلمات الودودة الناعمة النفاذة المتقدة لأحد أكبر شعراء العربية، وأحد صناع الجمال الشعري في الأدب الإنساني المعاصر.

كأن مؤتمرنا بدأ وانتهى بالأمس حين دشنت غبطة القصيدة عرسنا وعلمتنا أن مؤتمرات الشعراء والكتاب والأدباء ليست بالضرورة محطات للمناورة والحسابات السياسية والتنظيمية المعتمة، وإنما يحقُّ لنا أن تكون مؤتمراتنا فضاءات لتجديد اللقاء والعلائق ونسج صداقات جديدة وللإنصات لبعضنا البعض بخصوص مصير ما نكتبه وننتجه أدبيا وفكريا في سياق من التحولات والإبدالات الجديدة في الثقافة والمجتمع.

والواقع أن اتحاد كتاب المغرب بالذات كان قد تأسس، قبل نحو نصف قرن تقريبا، نتيجة تحولات ثقافية ومجتمعية في مغرب نهايات الخمسينيات وبدايات الستينيات من القرن العشرين. بل كان في عمق التحولات الأدبية والفكرية الحديثة؟ وإذا كانت بلدان وتجارب أخرى تتأسس فيها

الاتحادات والروابط لتجمع شعراء وروائيين وقصاصين ونقادا وكتابا مسرحيين في إطار موحد، فإن ميلاد اتحاد كتاب المغرب شكل إطارا حيويا لاستيلاد وإنضاج شروط ميلاد الأجناس الأدبية الجديدة وبلورة المفاهيم وتداول مستجدات النظرية الأدبية المعاصرة. ومازال عدد من المؤسسين الرواد يذكرون الأسئلة الأولى حول الأدب المغربي الحديث، وحول صياغة هويته ورسم آفاقه كما كانت تعكس ذلك الأعداد الأولى من مجلة "آفاق" والأنشطة المبكرة للاتحاد.

وهنا أستعيد ـ لا على سبيل التذكر فحسب وإنما كمن يبحث عن جذوره ـ حشدا من أسلاف صامتين. أستعيد الرئيس المؤسس المرحوم محمد عزيز الحبابي، والكاتب الكبير عبد الكريم غلاب، والشاعر الخلاق محمد الصباغ، والشاعر الجليل الراحل أحمد المجاطي المعداوي، والشاعر الشهيد مصطفى المعداوي، والأساتذة محمد برادة، عبد الجبار السحيمي ومحمد ابراهيم بوعلو وأحمد اليبوري ومبارك ربيع وآخرين من الذين صنعوا مجد التأسيس.

ومع أنني أنتمي الى جيل جديد من أجيال الاتحاد المتلاحقة، فقد حرصتُ منذ انتخابي رئيسا لاتحاد كتاب المغرب، قبل ست سنوات، أن أستند الى رصيد الاتحاد التاريخي والرمزي، فآمنتُ منذ البداية بجدلية الاستمرارية والتجديد. لم أتصرف مطلقا كعقب عاق ولا كولد مقطوع الصلة والجذور مندفع بشهية مفتوحة نحو "قتل الأب" وعصيان التاريخ.

آمنتُ بأن لاتحاد كتاب المغرب مناعة تحول دون تسيُّب الأمزجة والإرادات الشخصية، وبأن الفكرة تُسْتَنْبَتُ داخل دائرة الحوار المفتوح، وبأن الحقيقة نصنعها جماعيا، والقرار نتخذه معا سويا داخل فضاء وأروقة الاتحاد، ولا يأتي جاهزا من الدهاليز والقاعات الخلفية عبر أعضاء مبرمجين أو من خلال أجهزة التحكم عن بعد. ولذلك، يشهد الله أنني لم أدخل اتحاد الكتاب لتحقيق مشروع شخصي وإنما اؤتمنت على أمانة جماعية فَصُنتُها وأدرتُها بروح جماعية. لم أتخذ قرارا واحدا فرديا. فإن أصبنا فالفضل كل الفضل لهذه الروح، أما الأخطاء وجوانب القصور، فإنني أعتز بأن أتحمل وحدي مسؤوليتها الأدبية والأخلاقية.

في ست سنوات إذن، تركنا آثار أقدامنا على امتداد خريطة المغرب، تحركنا في الحواضر والقرى، مددنا أيادينا الى كل الإرادات الحرة، عددنا شراكاتنا، نوعنا أنشطتنا، طورنا مجلتنا، راكمنا منشوراتنا، خلقنا فروعا جديدة تباينت مستوياتها ومردوديتها، وسعنا من المساحة التنظيمية ومن قاعدة المنتسبين للاتحاد، أصبحنا أكثر حضورا وإشعاعا، أسسنا مهرجانا للشعر المتوسطي وملتقيات وانشغالات ثقافية جديدة، وأحْسَنَّا الإنصات للكثير من الأفكار والمقترحات والمبادرات.

لم نركن إلى رصيد التاريخ وحده. فقد كنا على وعي بقدرات الاتحاد على الآداء والعطاء والتجدد. فاشتغلنا ليل نهار بمسؤولية، بموضوعية وبحرص شديد على التوازنات، سواء بين مختلف الحساسيات والتيارات والمكونات الداخلية للاتحاد، أو بين مختلف الأجيال واللغات.

وقد تعلمنا عبر سيرورة العمل الثقافي والأدبي كيف نتحرر ونحرر اتحاد كتاب المغرب من وهم الحرية الذي كان يجعل مؤسستنا دائما في عمق التوترات ومعضلات التواصل، ومن بعض أنواع اليقين التي اكتشفنا أنها خارج سياقها أو لم تعد في موضعها. وإذ أستعيد ما قاله غابرييل غارثيا ماركيز في مذكراته من أنه إلى "حدود سن المراهقة [ودعوني أقل إلى حدود سن الشباب في حالتنا]

يكون اهتمام الذاكرة منصبا على المستقبل"، يكون علينا أن ندرك هنا معنى أن تكون قيادة اتحاد الكتاب شابة وأن تكون ـ في إطار الحرص على التوازنات المطلوبة ـ مدعوة الى أن تحسن الإنصات حتى للذاكرة التي مازال اهتمامها منصبا على الماضي، بما في ذلك ماضي العلاقة المحتدمة بين دولة كان لها استبدادها المعلوم في السنوات العصيبة، ومكونات مجتمعية مضادة كانت لها أيضا حصتها من الخطأ والمجازفة والطموح.

لا أريد هنا أن أجازف أو أزايد أو أكون مدعيا تجاه الأجيال الرائدة التي لعبت دورا تاريخيا في حياتنا الثقافية والسياسية، وهو دور مازالت له امتداداته المؤثرة الى اليوم، لكن ثمة مع ذلك بعض الأبعاد السلبية في تجربتنا التاريخية كمغاربة ينبغي علينا كشفها وتخطيها؟ ولكم كانت هناك جملة من الأمور الباطلة الزائفة. سليمة وصادقة ظاهريا. ولذا، فإننا إن لم نتوجه نحوها بالنقد ستظل تحجب الرؤية والتمثل الجيد لمعطيات الواقع ولتحولات الدولة والمجتمع.

لا أريد أيضا أن أصدم أحدا أو أصدم نفسي إن زعمت بأنه كان بإمكاننا دائما ـ لو فكرنا ثقافيا وبعمق ـ أن نثبت أن مسار حياتنا الثقافية كان يمكن أن يكون على غير ما كان عليه، ولأننا لا نستطيع اليوم إعادة صوغ تجربتنا التاريخية من جديد، فإن بإمكاننا أن نعيد قراءة هذه التجربة قراءة نقدية.

إن القضايا الثقافية، كما طرحت في المغرب، ليست مجرد قضايا للتأمل، وإنما ينبغي أن نقرأها كماض معيش وكتجربة إنسانية كانت تحتمل الصواب وتحتمل الخطأ ومن هنا، أعترف بإعجابي الشخصي بالشجاعة الأدبية التي يتحلى بها بعض مثقفينا الشرفاء من أمثال الأخ عبد القادر الشاوي شافاه الله الذي قضى خمس عشرة سنة وراء القضبان كمعتقل سياسي، وامتلك من الوعي والأخلاق ما جعله يعيد قراءة تجربته وتجربة جيله بدون ادعاء زائف، بدون غطرسة وبدون حقد. ذلك لأن الرهان الأساس هو المغرب، هو مستقبل المغرب، وليست الذات الفردية العزلاء الجريحة وحدها لا غير! وأتحدث هنا عن الشاوي كمثال حي بيننا ومنا حتى لا أتحدث عن مناضل تقدمي آخر امتلك جرأة المراجعة والمكاشفة ووضوح الموقف إلى حد انزعج معه بعض الإخوة والأصدقاء من شدة وضوح مشاعره مخافة أن تنكسر وقدة الثورة المتأججة في كأس القهوة المرة. فاتضح مرة أخرى بأننا نخطئ الحوار فيما بيننا حتى حول البديهيات، وأن هناك من مازال بيننا يؤمن بأن الشتائم يمكن أن تكون وجهة نظر !

وفي نفس السياق، وفي موضوع استقلالية اتحاد كتاب المغرب وعلاقة الكاتب والمبدع بالسلطة في المغرب، كم تشابه البقر علينا ! وكم لاحقنا في السنوات القليلة الأخيرة من اتهام ضاغن ومن نثر إعلامي لاهث، لكننا اقتنعنا وأدركنا أن ليس على الاتحاد إلا أن يكون هو نفسه لكي يكون ما ينبغي أن يكونه، أي ذلك الإطار الوطني الذي يجر وراءه تركة التاريخ ويتفاعل مع التحولات التي تصنع المستقبل.

إننا لا ننطلق في تصورنا العام لهذه العلاقة التاريخية المعقدة من نموذج نظري محدد ومنغلق، بقدر حرصنا على مبدأ مركزي عام يتمثل في البعد الايجابي النقدي للثقافة ولأدوار المثقفين في التاريخ، وحرصنا على أن يشكل هذا المبدأ العام والمفتوح الخلفية المرجعية الناظمة لمواقفنا وصور

تدبيرنا اليومي لهذه العلاقة.

وقد تعلمنا من تجارب المؤسسات والجمعيات الثقافية في التاريخ أن التخلي عن الروح النقدية يولد ثقافة التسويغ والتبرير، ويوظف المنتوج الثقافي الرمزي لخدمة مصالح ظرفية لا تصمد أمام امتحانات التاريخ. ولعلنا لا نبالغ في هذا السياق عندما نعتبر أن التجربة التاريخية لعلاقة اتحاد كتاب المغرب بالسلطة قد رسمت المعالم الكبرى والمُوجِّهات الرئيسية لجملة من الخيارات التي لم نحد عنها، قدر ما عملنا على تطويرها في ضوء خصوصيات المرحلة التاريخية التي واكبت لحظة انخراطنا في تدبير شؤون الاتحاد قبل ست سنوات.

صحيح أن علاقة الاتحاد بالسلطة لم تتخذ صورة واحدة منذ ميلاده والى يومنا هذا، إلا أن جدلية هذه العلاقة في تفاعلاتها التاريخية المركبة صنعت قواسم مشتركة، وركبت مجموعة من المعطيات في تجاوب مع المتغيرات والملابسات التي عرفتها بلادنا طيلة الأربعة عقود الماضية.

نستطيع أن نتبين في صيرورة هذه العلاقة حرص الاتحاد على رسم مسافة معينة بينه وبين أجهزة الدولة التنفيذية، دون أن يعني هذا تفريط الاتحاد في حقوقه المشروعة، أو تخليه عن المبادئ التي منحته امتياز الهيئة الثقافية الوطنية الساهرة على تدبير الفعل الثقافي، الهادف إلى تطوير منتوج الإبداع الأدبي والفني في بلادنا، وذلك بالصورة التي ترسخ تقاليد العمل الإبداعي وتنظر إلى الثقافة كأداة فاعلة في عملية التنمية الاجتماعية الشاملة.

وإذا كانت المرحلة التي قضيناها على رأس الاتحاد قد واكبت، كما قلنا، جملة من التحولات الكبرى في بلادنا، حيث تولى الملك المحترم محمد السادس مقاليد الحكم بعد وفاة والده المغفور له الحسن الثاني، وواصل مشروع التحول الديمقراطي الذي انطلق في بلادنا سنة 1998 فيما عرف بتجربة التناوب التوافقي، فقد كان على الاتحاد أن يفكر في موضوع هذه التحولات انطلاقا من رصيده التاريخي، وفي علاقة مع المعطيات التي نشأت في قلب التحولات الجارية.

اختار الاتحاد أن يركب في علاقته مع المتغيرات جملة من المواقف المنسجمة مع القيم والمبادئ الكبرى التي صنعت صورته في تاريخ المغرب المعاصر. لقد اختار بوعي دعم مختلف الجوانب الايجابية في تجربة التحول القائمة، نقصد بذلك الانحياز الموضوعي الذي أعلناه ونحن نثمن تجربة التحول الديمقراطي في مجتمعنا. كما اختار المحافظة على الروح النقدية في تعامله مع صور التردد أو التراجع بهدف تعزيز آفاق التحديث السياسي في ثقافتنا ومجتمعنا. وكان الهاجس الأساسي وراء خيارنا المذكور، ينطلق من اقتناعنا الكبير بالدور المنوط بالعمل الثقافي في مشروع التنمية والتقدم في بلادنا.

ولم يكن الأمر سهلا ولا متيسرا، فنحن نعتبر أنفسنا في الاتحاد جزءاً من المؤسسات المدنية الفاعلة في مشهدنا الثقافي، ودور الثقافة والكتابة والإبداع في تجارب التحول الديمقراطي يعتبر من الأدوار المساعدة في دعم هذه التجارب. ولهذا السبب اجتهدنا في بناء المواقف السياسية والثقافية المنسجمة مع تجربة الاتحاد ومبادئه الكبرى، مع مراعاة المتغيرات الجديدة التي فتحت مجتمعنا على آفاق غير مسبوقة في العمل السياسي.

ولأننا عشنا تجربة التحول كما عاشتها نخب مجتمعنا، فقد ترتبت عن ذلك في مجال التصور

والفعل معطيات جديدة أضافت إلى رصيدنا في الاتحاد معطيات أخرى، فاستجبنا لمقترحات اعتبرناها متقدمة وإيجابية وأصبح اتحاد كتاب المغرب منخرطا في عدة فضاءات عمومية أو مؤسسات دستورية للحوار والاستشارة. وهكذا أصبح عضوا في المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، وعضوا في المجلس الأعلى للإنعاش والتخطيط، والمجلس الأعلى للتعمير وفي بعض لجن القراءة والمصادقة على الكتاب المدرسي، وبعض لجن القراءة المتابعة للأعمال الدرامية التلفزيونية... فضلا عن غير ذلك من المؤسسات المجتمعية كبعض لجن ومؤسسات أخلاقيات مهنة الصحافة والإعلام والتواصل، ولجن التضامن مع الشعب الفلسطيني والشعب العراقي والائتلاف الوطني للثقافة والفنون...

ما نريد أن نؤكد عليه، هو أن مواقفنا العامة اتجهت لدعم كل عناصر التحول الإيجابية ببلادنا. وفي هذا السياق عملنا على إشاعة قيم الحداثة والتحديث والحوار والنقد، باعتبارها القيم القادرة على بناء نقط ارتكاز جديدة في فكرنا ومجتمعنا. كما عملنا في الآن نفسه على محاصرة ونقد بعض المظاهر السلبية دون أن نرى في ذلك أي تناقض. وفي هذا المجال بالذات حافظنا على الجدلية التاريخية لاستقلالية الاتحاد ولاستقلالية أعضائه.

ولا نريد أن يفهم هنا من الاستقلالية الصورة النمطية لعلاقة محددة مع السلطة، فلا وجود للسلطة بالمطلق، ولا وجود لها بالمفرد في التاريخ، وأفعال "المحافظة على المسافة" و"الاستقلالية" و"النفور من كتابة التسويغ" صيغ تستوعب بصور متعددة، وذلك بناء على معطيات المدارات الزمنية والمجتمعية في تحولها وصيرورتها.. لهذا السبب حرصنا في مختلف المواقف التي اتخذناها في هذه الفترة على الوفاء للقيم الحداثية الكبرى، ولم نغفل تاريخنا الملموس، فعملنا على بناء مواقف في الإسناد الثقافي المشروط بمعايير التجربة كما تبلورت وما فتئت تتبلور في حاضرنا.

إن اتحاد كتاب المغرب مؤسسة ثقافية أدبية مستقلة. وليست الاستقلالية مجرد شعار للاستهلاك. كما أنها لا تعني مطلقا ألا يكون لنا حق التفاوض والحوار وتحقيق المكاسب لأسرة الأدباء والمفكرين والمبدعين المغاربة أو لا يكون لنا الحق في استعمال حصتنا المفترضة من المال العام، شأن باقي الجمعيات المدنية الأخرى التي ما أكثر ما سجلنا ونسجل أن بعضها كان يحظى بما لا يستحقه ويستعمل دفقا من الدعم والهبات والتبرعات العمومية والخاصة دون أدنى جدية في العمل والأداء والحضور.

ولذلك، أتساءل : لماذا يكون علينا أن نتصرف بتهيب كما لو مثل عذراء تخشى على نقاء بكارتها؟ نعم، لابد من تحوط سياسي بالنسبة لمؤسسة وطنية كاتحاد كتاب المغرب، كما أن الحرص على أخلاق المسؤولية ينبغي أن يظل واردا على الدوام. لكن "لا ينبغي أن نشتم المستقبل". وإني لأعتز اعتزازا عميقا بالمناقشات الرصينة التي جرت في مداولات اللجنة التحضيرية لمؤتمرنا، وبحضور عدد من إخواني وأساتذتي الذين اعتبرهم مصادر إدراك ومرجعية بالنسبة لمؤسسة اتحاد الكتاب، وهو ما آمل أن ينعكس على مستوى حوار وأداء ومردودية مؤتمرنا الوطني السادس عشر.

إن للحياة الثقافية المغربية ثراء باذخا وعميقا غير هذا النزوع إلى التفقير الثقافي والخطاب المكرور الذي ينحو نحو الاحتدام أو التوتر غير المنتج ثقافيا واجتماعيا بين الدول والمجتمع، أو بين

المكونات المجتمعية ذاتها التي كثيرا ما تتنازع حول سلطات وهمية، حول رهانات "ميتافريقية" خاوية ومنحطة.

علي أن أكون واضحا في هذا الإطار، فأقول بكل صدق بأننا بددنا الكثير من الوقت والجهد والإمكانيات عندما نحول قضايانا الثقافية إلى مشكلات سياسية. ولست في حاجة إلى توضيح اقتناعاتي الشخصية بأهمية العلاقة الجدلية بين الثقافي والسياسي في المغرب، إنما أقصد هنا تحديدا الكيفية التي مورست بها الثقافة سياسيا، حيث كانت هناك دائما أشكال من التصنيف ليست في جوهرها إلا أشكالا من الهيمنة. وهذه تصنيفات مارستها الدولة في مواجهتها للمجتمع مثلما مارستها مكونات المجتمع ضد الدولة ـ وبالأسف ـ ضد بعضها البعض أيضا.

إن ما يوصف به الحقل الثقافي في المغرب من كونه حقلا مأزوما أجده أكثر ملاءمة لتشييد لحظة انتقالية ثقافيا، لحظة تعيد تأسيس الفهم المشترك والعلائق المشتركة بين المجتمع والدولة على المستوى الثقافي.

لقد كان الأخ الدكتور عبد اللطيف كمال صائبا، أثناء مناقشات اللجنة التحضيرية للمؤتمر 16 عندما دعا إلى تبئير أشغال المؤتمر حول شعار مركزي يصوغ مقولة (الاتحاد كمؤسسة المستقبل)، وكان واضحا أنه يدرك مدى أهلية الاتحاد لأن يلعب أدوارا ثقافية ورمزية في المستقبل، وهو ما يتطلب نوعا من إعادة التأهيل"، سواء في مستوى الخطاب والتصورات والبرامج.

ولذلك، آمل أن يحظى اتحاد كتاب المغرب بما يستحقه من اهتمام ودعم لوجيستي ومالي. ولو تأملنا حقيقة الأشياء لوجدنا أن اتحاد كتاب المغرب أكبر من حيث عدد الأعضاء من بعض الأحزاب السياسية التي تحظى بالدعم الحكومي، وهو أكثر فروعا وانتشارا من بعض الأحزاب "إياها" ! وأكثر نفوذا ونفاذا وتأثيرا وإشعاعا من ثلثي الأحزاب السياسية المغربية المرخص لها بالزعيق الانتخابي !

والحقيقة أننا في اتحاد كتاب المغرب مازلنا لم نفهم ما معنى أن نكون جمعية ذات نفع عمومي منذ سنة 1996 دون أن يعني ذلك اتخاذ قرار حكومي واضح مسؤول بتخصيص ميزانية مالية سنوية حقيقية لتغطية مصاريف أنشطة الاتحاد. وما زلنا نلح بقوة بأن يتوفر اتحاد كتاب المغرب على مقر وطني لائق، حجما ومساحة يكون عن حق بيتا للكتاب المغاربة ومقرا لصون ذاكرتهم وأرشيفهم ووثائقهم.

وليس تزلفا أبدا التأكيد على أن جلالة الملك محمد السادس، الذي تجاوب مع استغاثاتنا عندما كان عدد من كبار كتابنا ومبدعينا يجتازون محنا صحية قاسية، (محمد زفزاف ـ محمد شكري ـ محمد القاسمي ـ محمد الكغاط ـ محمد خير الدين ـ العربي باطما ـ الشريف لمراني ... الخ) بإمكانه أن يكون في مستوى توقعات وانتظارات المثقفين والكتاب المغاربة.

ولي أمل ـ وأنا أغادر المسؤولية مقررا عدم ترشيح نفسي مرة أخرى لرئاسة اتحاد كتاب المغرب ـ أن يكون مستقبل مؤسستنا أفضل، وأن تتحرر إرادة الكاتب المغربي التي تطوقها ضآلة الإمكانيات وضعف الاستجابات السخية النظيفة التي توفر الدعم بلا شروط ولا ابتزاز ولا استعمالات.

البيان العام

يشكل انعقاد المؤتمر السادس عشر لاتحاد كتاب المغرب (الرباط : 27/26/25 فبراير 2005) محطة من المحطات التاريخية والثقافية، وذلك بحكم التحولات التي عرفها النسق السياسي في بلادنا، وبحكم الشروط التاريخية الجديدة التي عرفها العالم العربي وتعرفها العلاقات الدولية في نهاية القرن الماضي ومطلع القرن الواحد والعشرين. وفي هذا السياق يمكننا أن نوضح ما يلي :

أولا :

1- يسجل اتحاد كتاب المغرب أن المؤتمر السادس عشر يصادف مرور قرابة سبعة أعوام على انبثاق تجربة التناوب التوافقي التي تم فيها إطلاق جملة من المبادرات التي تروم تخطي وتجاوز أنماط من العمل السياسي وتركيب أفق جديد يستند إلى بعض مقدمات التحديث الهادفة إلى تعزيز المسار الانتقالي الجديد في مجتمعنا.

2- يدعو المؤتمر السادس عشر في سياق تعزيزه للمناخ السياسي الجديد في بلادنا إلى بلورة وعي جديد بالثقافة المغربية في كل أبعادها اللغوية والإبداعية والثقافية والجمالية، خاصة الثقافة الشعبية الشفوية باعتبارها خزانا للمتخيل الثقافي وللرمزيات الثقافية المتعددة التي تغني هذا المتخيل، وتجعله أداة للتطور ووسيلة لصيانة الهوية الثقافية المغربية في علاقتها بمختلف مكوناتها التاريخية المتمثلة في الأبعاد الإفريقية والعربية والمتوسطية والكونية، وذلك إيمانا منا بأن تعدد مرجعيات التكون التاريخي لذاتنا يغنيها ويمنحها ثراء يقوي نوعية أدائها الوظيفي.

3- يطالب المؤتمر السادس عشر في الإطار نفسه بتبني المشروع الديمقراطي الإصلاحي لوسائل الإعلام وللنظام التعليمي في المدرسة والثانوية والجامعة. كما يدعو إلى تطوير صيغ ترسيخ حقوق الإنسان وحرية التعبير، ويعتبر أن هيئة الإنصاف والمصالحة تعد اليوم، على سبيل المثال، محطة من محطات تصالح المغاربة مع ذاتهم التاريخية من أجل مزيد من قيم التحرر والديمقراطية والعدالة.

4- يدعو المؤتمر السادس عشر إلى مزيد من اليقظة والوعي في شأن الوحدة الترابية واعتبار ما تحقق في المناطق الجنوبية، من نهضة اجتماعية وعمرانية واقتصادية وثقافية، مكتسبا لا رجعة فيه ولا يقبل التنازل عما قدمه المغرب والمغاربة من تضحيات نموذجية منذ انطلاق مسيرة التحرير والبناء في منتصف السبعينيات وإلى يومنا هذا.

ثانيا :

أما على مستوى المغرب العربي، فإن المؤتمر السادس عشر يذكر باقتناعه، الذي تطور عبر كل مؤتمراته ومنذ تأسيس الاتحاد، حيث اعتبرت وحدة المغرب العربي حجر الزاوية في مشروع بناء المغرب بالمعنى السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي لما يجمع بين شعوب هذه المنطقة من

عناصر التكامل. وفي هذا الإطار يدعو المؤتمر السادس عشر لاتحاد كتاب المغرب إلى تفعيل مؤسسات اتحاد المغرب العربي بما يلزم من وضوح الرؤية والاستراتيجية وتجاوز الخلافات المصطنعة إلى جانب تحريك عجلة اللقاء والحوار الديبلوماسيين وفتح الحدود وفق تصور نهضوي شامل اقتصاديا وثقافيا.

ثالثا :

لما كان المؤتمر السادس عشر لاتحاد كتاب المغرب يصادف سياقا دوليا محددا في انعدام التوازن في العلاقات الدولية، فإن أعضاء الاتحاد يعبرون عن قلقهم إزاء ما يجري في منطقة الشرق الأوسط رغم الشعارات التي ترفع دعاوي الإصلاح، وتتجه لإنجاز برامج معينة في هذا الباب وهم يعتبرون أن منطق الولايات المتحدة الأمريكية في معالجة قضايا العالم المعاصر تتميز بازدواجيتها وازدواجية المعايير المستخدمة في مقاربتها، ويعلنون عن تمسكهم بمبادئ الحرية والاستقلال، ويعبرون عن دعمهم لكل جهود مقاومة صيغ الهيمنة الاستعمارية التي يفرضها الاستعمار العالمي تحت غطاء النظام الدولي الجديد وتوابعه من قبيل أطروحة صدام الحضارات والعولمة اللذين تشن باسمهما كثير من الحروب المدمرة في العالم وفي المنطقة العربية بالذات. كما يدعو المؤتمر إلى تمكين شعوب العالم العربي، حكومات وشعوب ومجتمعات مدنية ونخبا، من حق ممارسة بدائلها الوطنية في صياغة مشاريع الديمقراطية بالمعنى السياسي والثقافي والفكري والاقتصادي والاجتماعي والحقوقي كما هو الشأن في فلسطين، والتي يراد لها التخلي عن مشروعها الوطني في بناء الدولة والمجتمع والمؤسسات والاستجابة للإملاءات الخارجية حسب مقاييس سياسية مفتعلة تتناقض وحق الشعوب والدول في التمتع بحرية القرار وكل شروط الحصانة الدولية الفعلية في امتلاك حدودها التاريخية والطبيعية كما تؤشر على ذلك المواثيق الدولية منذ قيام منظمة الأمم المتحدة.

ويناشد المؤتمر، انطلاقا من حرصه على تتبع ما شهده لبنان الشقيق من أحداث مؤلمة، يناشد كل اللبنانيين، حكومة وأحزابا ومنظمات وطوائف، بالحرص على وحدة لبنان وتوفير مناخ عقلاني وديمقراطي للحوار دفاعا عن المكتسبات الوطنية التي تحققت واحتسابا للتحديات والأخطار السياسية التي من شأنها أن تهدد هذه الوحدة وتوقد فتيل النزاع والصراع مجددا.

وإذا كان المؤتمر الخامس عشر لاتحاد كتاب المغرب (الرباط 11/10/9 نوفمبر 2001) قد أدان كل أشكال ثقافة وإيديولوجيا العنف والإرهاب ودعا إلى تنظيم ندوة دولية حول الإرهاب، فإن المؤتمر السادس عشر يذكر بأن الإرهاب الدولي لن يتوقف بالصورة الذي تريدها الولايات المتحدة الأمريكية إلا بالحد من سياسة الكيل بمكيالين في شأن مقاومة الشعوب للاحتلال والاستعمار كما هو الشأن، بالنسبة إلى العالم العربي، في فلسطين ولبنان. وفي هذا السياق يدعو المؤتمر الجامعة العربية إلى مضاعفة الجهود لمزيد من إبراز هذا الحق في اجتماعاتها ومواقفها وقراراتها على مستوى قادة العالم العربي، وفي المحافل الدولية المختلفة تفعيلا الحق الشعوب العربية في الدفاع عن أوطانها وحدودها وأراضيها وفي العيش في أمن وسلام واستقرار، كما يدعو المؤتمر كافة المنظمات والهيئات والجمعيات العربية الوطنية والقومية باختلاف مشاربها وقناعاتها، إلى الدفاع عن هذا الحق باعتباره حقا تاريخيا عادلا.

الورقة الثقافية

في إطار مناقشات أعضاء اللجنة التحضيرية للمؤتمر السادس عشر لاتحاد كتاب المغرب، خلصت كافة الشخصيات والآراء المتصلة بالوضع الثقافي إلى صياغة ما يرتئيه الاتحاد إجابات واقعية، لكنها نقدية وطموحة، عن أؤكد أسئلة الثقافة وألح قضايا الإبداع مضافا إليها ما كان من أمر تصريف البرامج والأنشطة وإنجازها وكذا الارتقاء بشروط إنتاج الكتاب المغاربة لأعمالهم وضمان ما يليق بهم من وضعية اعتبارية منصفة ومحفزة.

وإذ نشير على هذا، يجدر بنا أن نعيد إلى الأذهان، من باب الاستحضار والتذكير ليس إلا، بأن اتحاد كتاب المغرب نشأ وتطور، منذ انبثاقه الأولى، بوصفه منظمة للكتاب المغاربة ومأواهم الرمزي في آن معا، جزءا لا يتجزأ من النسيج المجتمعي العام، متأصلا في قلب كبريات الهموم والانشغالات الوطنية، وفاعلا، من موقعه وتصوراته، في مجرى التحولات والانعطافات التي عرفها بلدنا. هكذا، وبقدر ما أهله تاريخه ودينامية أعضائه ليكون بمثابة نواة لمنظمات المجتمع المدني، التي أفرزتها الحركية المجتمعية التي انضوت إليها الفئات الحية ذات المصلحة في التصحيح والتغيير، فإنه سوف يشكل قوة اقتراحية إيجابية وغيورة بخصوص مجمل القضايا التي طرحها أو تلك التي كان ينبض بها الوجدان المجتمعي العام، وتنهض بها النخب الحزبية والجمعوية الحداثية والمستنيرة.

فرغما من حملات الإقصاء والتضييق التي كان كتاب المغرب عرضة لها لردح طويل من تاريخه، لم يحدث أن تراخى، انطلاقا من مسؤوليته المجتمعية والثقافية، عن طرح أفكار وجيهة وناجعة حول قضايا الديمقراطية، الحداثة، التقدم، التعدد، الاختلاف، حرية التعبير، وتمنيع الذات الوطنية وتفتحها في آن معا؛ هذا فضلا عن مواقفه المبدئية سواء من قضية وحدتنا الترابية المسترجعة، وهو ما عكسته على سبيل المثال الندوة الدالة والرمزية التي سبق أن نظمها الاتحاد بمدينة العيون وما رافقها من فعاليات فنية وفكرية (ديسمبر 1991)، أو من قضية فلسطين مما تبرهن عليه العديد من البيانات والمبادرات المعضدة لجانب أشقائنا الفلسطينيين، شعبا ومثقفين، في كفاحهم المستميت من أجل استرجاع أرضهم وهويتهم المصادرتين وبناء دولتهم الديمقراطية.

إن المكتسبات السياسية والحقوقية التي يحققها المجتمع المغربي حاليا ويواصل العمل من أجل ترسيخها ومأسستها لم يكن لها أن تكتسب، مهما اختلفنا حول حجمها وأثرها، لولا الدفعة القوية التي أمد بها الفعل الثقافي للاتحاد المجال السياسي والحقوقي الوطني، بل ولعل نجاح فكرة اتحاد كتاب المغرب، من الأصل، يفسره كونه منبرا ساهم، ولا يزال، في بلورة الأفكار والمقترحات والبدائل، معطيا، على هذا النحو، الكلمة لمختلف الفاعلين، كتابا ومبدعين وأكاديميين وإعلاميين... للخوض في موضوعات مختلفة ومطارحة كلياتها ومستدقاتها، وهو ما أتاحته منتدياته الكبرى

حول كتابة تاريخ الحركة الوطنية، والتعريب، وإصلاح التعليم العالي وتطويره، والثقافة الشعبية، والثقافة واللغة والكتابة الأمازيغية، والمغرب العربي وفلسطين ...

إن التزام اتحاد كتاب المغرب بالتطلعات الوطنية المشروعة، ومناصرته لقيم الحرية والعدل والإبداع والعقل وطنيا وقوميا وإنسانيا، لهما القيمة الأخلاقية المضافة لوظيفته الثقافية والتنويرية التي كانت وراء إنشائه على يد ثلة من الكتاب والمبدعين المغاربة الرواد في فجر الاستقلال. وفي إطار هذه الوظيفة سيقع تدبير المنتوج الثقافي والإبداعي المغربي بوصفه ذا أولوية في برامج الاتحاد، التي تحكمها مقررات وتوصيات مؤتمراته الوطنية، وتيسير سبل تداول الكتاب المغربي في مختلف الحقول، من شعر ورواية وقصة قصيرة ونقد وتشكيل وعلوم إنسانية واجتماعية وترجمة ؛ تمثل أنشطة الاتحاد وبرامجه الثقافية صلة الوصل بين هذه الحقول المعرفية، وفضاء لتفعيل أشكال من التحاور الخلاق بين القائمين عليها، وذلك بما يثري ثقافتنا الوطنية ويوسع مدارها ؛ هذا دون إغفال وقفات التكريم - المدارسة التي خص بها الاتحاد بعض الأسماء - العلامات الأساسية والفارقة في مسارنا الثقافي الحافل من عيار محمد المنوني، محمد عزيز لحبابي، المختار السوسي، عبد الله كنون، التهامي الوزاني محمد داود... على أن الاهتمام بما هو وطني سوف لن يثنيه عن الانفتاح على آفاق ثقافية شقيقة، كالأفق المغاربي والعربي، أو صديق، كالحضور الفاعل في الملتقيات والمؤتمرات الثقافية الجهوية والعربية والأفرو - آسيوية والأوربية... بحيث سيشكل الاتحاد جسرا لتواصل المغرب ثقافيا مع جغرافيات وبقاع مختلفة وتبليغ الصوت الفكري والإبداعي المغربي إلى مثقفيها وقرائها...

إن اتحاد كتاب المغرب إذ يواصل إصدار مجلة "آفاق" منذ 1963، فإسهاما منه في تحصين الذاكرة الثقافية المغربية وفي توسيع دائرة تداول الكتاب المغربي وتعميق التواصل بجمهور القراء.

ولا شك في أن المهام الثقافية الملقاة على عاتق اتحاد كتاب المغرب، متعددة ومتشعبة، تستلزم الاشتغال على عدة مستويات أهمها :

العمل على حماية اللغة العربية التي يبدو أن مجالها الحيوي بالمغرب في تقلص مستمر أمام هيمنة اللغة الفرنسية في قطاعات حكومية وإدارية ومالية ومعرفية، هيمنة واسعة ومتنامية. تحتاج هذه الحماية إلى إصلاح اللغة العربية وتأهيلها أكثر لتسهم في التحولات الثقافية والعلمية المتسارعة... كما تستلزم هذه المهام تكريس الانفتاح على اللغة والثقافة الأمازيغيتين، باعتبار هما مكونين أساسيين للهوية والشخصية الوطنيتين، وتختزنان إمكانات جمالية وفكرية مهمة ضمن الثقافة الوطنية الشعبية والعالمة. ومن البديهي أن يعمد اتحاد الكتاب في هذا الإطار إلى إنجاز شراكة مع المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. ولابد أن يفتح الاتحاد أوراشا حول الكتابة، عبر قراءات الكتب الإبداعية والنقدية والفكرية... قصد توسيع رقعة التواصل بين المبدعين والكتاب، وإثارة قضايا الكتابة في أبعادها المختلفة ...

ومن تلك المهام تحويل اتحاد الكتاب إلى مؤسسة ثقافية تنتج مشاريع وبرامج مدروسة، في مستوياتها المعنوية والمادية، تحتضن القضايا الوطنية ذات الأبعاد الفكرية والإبداعية في تعددها وتنوعها الوطني والجهوي والكوني، وتسهم في تنمية البلاد ولتعميق هذا الطابع المؤسساتي لاتحاد

الكتاب لابد من تطوير إنجاز الشراكات سواء مع الهيئات الوطنية المشتغلة في نفس المجال أو مع القطاعات الحكومية على رأسها وزارة الثقافة ووزارة التربية الوطنية ووزارة الشباب... وتشجيع الفروع على سن نفس الأسلوب في مشاريعها وبرامجها والتعامل مع أطراف متعددة جماعية وجمعوية ومندوبيات الوزارات... مع العمل على مد جسور دائمة بين مكاتب الفروع والمكتب المركزي على أساس التفاعل في إطار ديمقراطي ...

ولكي يطور علاقاته جهويا وعالميا ينبغي أن يعمق الاتحاد علاقاته ويرسخ العمل المشترك مع اتحادات كتاب وأدباء البلدان المغاربية، لممارسة فعلها في خلق الثقة بين الشعوب المغاربية... وفي هذا المجال أيضا يلزم تقوية العلاقة مع اتحادات كتاب وأدباء العرب في المشرق، في مجالات الإبداع الأدبي والفكري... واتحاد كتاب المغرب في انفتاحه واستقلاليته وتنوع لغات مبدعيه وكتابه مطلوب منه أن يوسع تعامله أكثر مع منظمات الكتاب والأدباء خاصة في أوربا، وأساسا إسبانيا إلى جانب فرنسا، وأن يشجع الترجمة من وإلى اللغات العربية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية بشكل مؤسساتي...

فلابد، إذا، أن تصغي برامج اتحاد الكتاب لنبض تحولات الواقع وإحباطاته والتباساته وطنيا مغاربيا عربيا ودوليا. إن حضور الاتحاد وتأثيره ومصداقية برامجه تلك تتطلب تمتين بنية الفروع وتقويتها والانفتاح في التدبير والمسؤولية والبرامج الثقافية على الأجيال الجديدة من الكتاب والكاتبات، وتكريس جائزة المبدعين الشباب التي تعد مشتلا لاستنبات أقلام إبداعية واعدة، وطبع أعمال الكتاب المغاربة، وحسن تدبير إسهام أعضاء الاتحاد في الندوات والملتقيات بالمغرب بالخارج، وتطوير الاستضافة لكتاب ومبدعين من خارج المغرب بما يعزز التواصل ويوسع الأفق.

وحتى تتم أنشطة الاتحاد في شروط مواتية ويشتغل مكتبه المركزي وفقا للأساليب الحديثة والمبتكرة في التدبير الثقافي، بل ولكونه، قبل هذا وذاك، يمثل معلمة رمزية بارزة في مشهدنا الوطني فإن أحد أبسط حقوقه تشغيل النفع العم قصد الاستفادة المادية وتوفير مقر ملائم لمكانته، مستجيب لشروط حفظ وثائقه وأدوات عمله، وقادر على استيعاب أنشطته والاستجابة لتطلعات أعضائه وزواره المغاربة والأجانب وتجويد، بالتالي، سمعة الاتحاد بما هي واجهة أساسية لسمعة المغرب بشكل عام.

منظام اتحاد كتاب المغرب
المنبثق عن
المؤتمر الوطني السادس عشر

المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب :

- الرئيس : عبد الحميد عقار
- نائبته : رشيدة بن مسعود
- نائبه : إدريس الملياني
- الكاتب العام : محمد بهجاجي
- نائبته : ثريا ماجدولين
- أمين المال : عبد الرحيم العلام
- المستشار : محمد أقضاض
- المستشار : أحمد شراك
- المستشار : عبد الفتاح الحجمري
- المستشار : مصطفى النحال
- المستشار : جمال الموساوي

لجنة التحكيم :

- مصطفى القباج
- محمد بوخزار
- حسن بحراوي

المجلس الإداري لاتحاد كتاب المغرب :

1- المكتب المركزي

2- الرؤساء السابقون :

- عبد الكريم غلاب
- محمد برادة
- أحمد اليبوري
- محمد الأشعري
- عبد الرفيع جواهري
- حسن نجمي

3- الأعضاء المنتخبون :

- حسن المودن
- محمد فراح
- نبيل منصر
- حسن مخافي
- مصطفى قشنني

- عبد الإله التهاني
- العربي الذهبي
- مصطفى لغتيري
- محمد مستاوي
- إدريس علوش
- جمال أزراغيد
- عبد الرحيم فريد
- الخمار العلمي
- أنور المرتجي
- المشروحي الذهبي

4- الكتاب العامّون للفروع :

- سالم كويندي
- يحيى ابن الوليد
- عبد النبي ذاكر
- عبد المجيد النوسي
- ياسين بهوش
- محمد المعزوز
- سعيد عاهد
- عبد الله شريق
- بوجمعة العوفي
- عمر أوكان
- رجاء الطالبي
- رشيد برهون
- بهاء الدين الطود
- المهدي حاضي الحمياني
- إبراهيم صادوق
- أحمد فرشوخ
- شرف الدين ماجدولين
- ليلى الشافعي
- يحيى عمارة
- محمد الناجي
- سعيد كريمي

أعضاء مكاتب فروع اتحاد كتاب المغرب :

فرع فاس

الاسم	الصفة
المهدي حاضي الحمياني	الكاتب العام
عبد السلام الموساوي	نائب الكاتب العام
عزيز الحاكم	نائب الكاتب العام
إدريس كثير	أمين المال
رشيد بن حدو	مستشار
الخمار العلمي	مستشار
محمد بودويك	مستشار

فرع مكناس

الاسم	الصفة
أحمد فرشوخ	الكاتب العام
عبد الناصر لوقاح	نائب الكاتب العام
محمد إدارغة	أمين المال
حسن مخافي	مستشار
بنيونس عميروش	مستشار
عبد الإله قيدي	مستشار
عبد النبي كوارة	مستشار

فرع شفشاون

الاسم	الصفة
شرف الدين ماجدولين	الكاتب العام
عبد الحق بن رحمون	أمين المال
عبد الكريم الطبال	مستشار

فرع تازة

الاسم	الصفة
بوجمعة العوفي	الكاتب العام
عبد الإله بسكمار	نائب الكاتب العام
أحمد القاطي	أمين المال
إدريس اليزامي	نائب أمين المال
محمد بلهيسي	مستشار

فرع الناظور

الاسم	الصفة
عبدالله شريق	الكاتب العام
الحسين القمري	نائب الكاتب العام
عبد الحكيم امعيوة	أمين المال
عزالدين الوافي	نائب أمين المال
جمال أزراغيد	مستشار

فرع سطات

الاسم	الصفة
عمر أوكان	الكاتب العام
أحمد بلعيطوني	أمين المال
عبد الباسط الكراري	مستشار
محمد عزيز الشبيهي	مستشار
بوشعيب حليفي	مستشار

فرع أكادير

الاسم	الصفة
عبد النبي ذاكر	الكاتب العام
عبد القادر اعبابو	نائب الكاتب العام
عبد السلام فزازي	أمين المال
رشيد يحياوي	مستشار
سعيد الباز	مستشار
لطيفة باقا	مستشار
عمر حلي	مستشار
مبارك حنون	مستشار

فرع سلا

الاسم	الصفة
رجاء الطالبي	الكاتب العام
عبد المجيد فنيش	نائب الكاتب العام
محمد معتصم	أمين المال
محمد الأطلسي	نائب أمين المال
مراد القادري	مستشار
محمد اللوزي	مستشار
محمد المعطي القرقوري	مستشار

فرع مراكش

الاسم	الصفة
إبراهيم صادوق	الكاتب العام
عبد الجليل الأزدي	نائب الكاتب العام
إبراهيم أولحيان	أمين المال
محمد اشويكة	نائب أمين المال
محمد أيت العميم	مستشار
نجاة الزباير	مستشارة
عبد الغفار السويرجي	مستشار
مصطفى غلمان	مستشار
عبد العزيزالراشدي	مستشار
محمد الرحماني	مستشار
أحمد طليمات	مستشار
أحمد الخلاصة	مستشار
إسماعيل ازويرق	مستشار

فرع الدار البيضاء

الاسم	الصفة
ياسين بهوش	الكاتب العام
محمد دراعو	نائب الكاتب العام
محمد بوجبيري	أمين المال
موليم العروسي	مستشار
توفيقي بلعيد	مستشار
حسن نرايس	مستشار
سعيد منتسب	مستشار
محمد فراح	مستشار

فرع الرباط

الاسم	الصفة
ليلى الشافعي	الكاتبة العامة
إكرام عبدي	نائبة الكاتبة العامة
هشام العلوي	أمين المال
إدريس الخوري	مستشار مكلف بالإعلام
بشير القمري	مستشار مكلف بالثقافة

فرع بني ملال

الاسم	الصفة
محمد الناجي	الكاتب العام
إدريس جبري	نائب الكاتب العام
بورقية حسان	أمين المال
أحمد الويزي	نائب أمين المال
عبد الكريم الجويطي	مستشار

فرع الجديدة

الاسم	الصفة
عبد المجيد نوسي	الكاتب العام
الحبيب الدايم ربي	نائب الكاتب العام
المصطفى اجماهري	أمين المال
عزالدين الماعزي	مستشار
عبد الحميد شكيب	مستشار

فرع المحمدية

الاسم	الصفة
سعيد عاهد	الكاتب العام
نور الدين فاتحي	أمين المال
عبد اللطيف محفوظ	نائبه

فرع تطوان

الاسم	الصفة
رشيد برهون	الكاتب العام
عبد اللطيف البازي	أمين المال
إيمان الخطابي	مستشارة
مصطفى الحداد	مستشار
رضوان أعيساتن	مستشار

فرع آسفي

الاسم	الصفة
سالم كويندي	الكاتب العام
محمد الزهيري	نائبه
عبد الحق ميفراني	أمين المال

فرع أصيلا

الاسم	الصفة
يحيى بن الوليد	الكاتب العام
إدريس علوش	أمين المال
المهدي أخريف	مستشار

فرع طنجة

الاسم	الصفة
بهاء الدين الطود	الكاتب العام
سعيد كوبريت	نائبه
مزوار الإدريسي	أمين المال
خالد الريسوني	نائب أمين المال
أحمد حسن بيريش	مستشار
خالد أمين	مستشار
عبد السلام شقور	مستشار
الزبير بن بوشتي	مستشار
أحمد بنشريف	مستشار

فرع وجدة

الاسم	الصفة
يحيي عمارة	الكاتب العام
مصطفى قشنني	نائب الكاتب العام
محمد قاسمي	أمين المال
مصطفى بدوي	مستشار
سامح درويش	مستشار
فريد الرياحي	مستشار
محمد المرابطي	مستشار

فرع القنيطرة

الاسم	الصفة
محمد المعزوز	الكاتب العام
مصطفى الكليتي	نائب الكاتب العام
محمد صولة	نائب الكاتب العام
محمد الشايب	أمين المال
حسن لشكر	مستشار

فرع الرشيدية

الاسم	الصفة
سعيد كريمي	الكاتب العام
محمد صواك	أمين المال
عبد الرحيم سليلي	مستشار

محاضرات، ندوات وملتقيات
مارس 2005 - فبراير 2006

محاضرات شهرية :

■ الأستاذ عبد الكريم غلاب : **"مسؤولية المثقف والثقافة في عالم اليوم"**، أدارها الأستاذ عبد الحميد عقار، وساهم فيها بالتعقيب والمناقشة الأساتذة : رحمة بورقية، محمد العربي المساري، محمد سبيلا. وذلك يوم الأربعاء 12 أكتوبر 2005 بقاعة مصطفى الخوضي بوكالة المغرب العربي للأنباء بالرباط.

■ الأستاذ عبد الله العروي **"عوائق التحديث"**، أدارها الأستاذ عبد الحميد عقار وساهم فيها بالتعقيب والمناقشة الأستاذان عبد المجيد قدوري، محمد نور الدين أفاية. وذلك يوم الخميس 15 ديسمبر 2005 بقاعة مصطفى الخوضي بوكالة المغرب العربي للأنباء بالرباط.

ندوات – ملتقيات :

■ **ملتقى "المرأة والكتابة"** (الدورة الخامسة) في موضوع **"الكتابة النسائية : التخييل والتلقي"**، بمشاركة **الشاعرات والشعراء :** عبد الحق ميفراني – إكرام عبدي – لطيفة المسكيني – فاطمة الزهراء بنيس – إدريس الملياني – عزيزة احضية عمر – أبو بكر متقي – ابتسام أشروي.

والباحثات والباحثين : رشيدة بنمسعود – رشيد بنحدو – زهرة زيراوي – ليلى العثمان – ربيعة ريحان – بسمة النسور – حسن بحراوي – شعيب حليفي – محمد معتصم – هاديا سعيد – رجاء الطالبي – محمد الداهي – محمد أمنصور – لطيفة حليم – عبد اللطيف محفوظ – فوزية رشيد – مليكة نجيب – شيرين أبو النجا – محمد علوط – الطائع الحداوي – فاطمة بوزيان – وفاء مليح –

العروسي – إبراهيم الحيسن – نعمان لحلو – حسن الوزاني.

■ **قراءات في الأدب الأمازيغي المكتوب**، بمشاركة الأساتذة : محمد مستاوي – عبد الله شريق – محمد أفقير – فؤاد أزروال – محمد الخطابي – بوزيان الموساوي – محمد أقضاض، يوم السبت 24 ديسمبر 2005 بقاعة العروض والمحاضرات بمقر جهة الرباط ـ سلا زمور زعير بالرباط.

■ **ضون كيخوطي : قراءات وتأويلات نصية وثقافية**، بمشاركة الأساتذة : أحمد المديني – إبراهيم الخطيب – سعيد يقطين – محسن الرملي – إسماعيل العثماني – شعيب حليفي – حسن بوتكي – أليرطو طوريس – عبد اللطيف شهبون – مصطفى جباري – سعيد بنعبد الواحد – أليرطو ريياس – مزوار الإدريسي – محمد الداهي – مصطفى النحال.

أدار الجلسات الأساتذة : سعيد كوبريت – خالد أمين - خالد الريسوني - إبراهيم الخطيب.

وبموازاة الندوة، نظم المعرض التشكيلي الإسباني الجماعي احتفاء بالكيخوطي، تحت عنوان : **رؤى وإيحاءات**، خلال يومي 20–21 يناير 2006 بطنجة بقاعة معهد ثربانطس. نظمت الندوة بتنسيق وتعاون مع فرع اتحاد كتاب المغرب، ومعهد ثربانطس بطنجة، وبدعم من وزارة الثقافة ومجلس جهة طنجة تطوان ومجلس مدينة طنجة، وفعاليات من المدينة.

■ **برنامج اتحاد** كتاب المغرب بالمعرض الدولي الثاني عشر للنشر والكتاب **الدار البيضاء 10–20 فبراير** 2006.

1. **بتعاون ودعم من وزارة الثقافة** :

– لقاء **الكاتب وجمهوره** بمشاركة الأديبين المبدعين الطاهر بن جلون يوم الأربعاء 15 فبراير بقاعة عبد الله إبراهيم ، ورشيد بوجدرة يوم الجمعة 17 فبراير بقاعة محمود المسعدي، قدم المبدعين الأستاذ موليم العروسي والصحفي الكاتب سعيد عاهد.

– **ندوة الرواية المغاربية : تجارب وشهادات** بمشاركة الروائيين المغاربيين : واسيني الأعرج - الحبيب السالمي - أحمد المديني - موسى ولد أبنو - إبراهيم الكوني - الميلودي شغموم - مبارك ربيع - بشير مفتي - عبد الله الغزال - وذلك في جلستين يوم الأربعاء 15 فبراير أدارها عبد الرحيم العلام ، ويوم الخميس 16 فبراير أدارتها رشيدة بنمسعود.

– إصدار كتاب بعنوان : **الأدب المغاربي اليوم**، بمشاركة باحثين وباحثات من المغرب تحية لأدباء المغرب العربي الكبير.

2. تقديم بعض الإصدارات الجديدة وتنظيم حفلات للتوقيع عليها برواق اتحاد كتاب المغرب بالمعرض الدولي.

علاقات، مواقف، تقارير

■ **علاقات الاتحاد :**

– أبرم المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب اتفاقيات الشراكة والتعاون التالية :

1. مع جمعية كتاب السينغال بتاريخ 27 فبراير 2005.
2. مع رابطة الكتاب الأردنيين بتاريخ 12 ديسمبر 2005.
3. مع المؤسسة البلدية للثقافة خوسي لويس كانو التابعة لبلدية الجزيرة الخضراء والمركز الثقافي الأندلس بمرتيل بتاريخ السبت 21 يناير 2006 بطنجة على هامش ندوة الكيخوطي.

– وشارك في اجتماع المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب وفي الندوة والمهرجان الشعري الموازيين له بسرت بالجماهيرية، من 28 يوليوز إلى 3 غشت 2005، وذلك بوفد يتكون من : مصطفى النحال وبنعيسى بوحمالة وعبد السلام بوحجر.

– وفي اجتماع المكتب الدائم والندوة الفكرية المرافقة له بالشارقة بالإمارت العربية المتحدة، من 22 إلى 26 يناير 2006، وذلك بوفد يتألف من : عبد الرحيم العلام ونجيب العوفي.

– على **إثر الزيارات** التي قام بها المكتب المركزي **لبعض السادة الوزراء** أصدر **البلاغ التالي** :

"قام المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب، في إطار دعم أواصر التعاون والشراكة مع شركائه، في مرحلة أولى، بزيارة ود وعمل للسادة الوزراء : محمد الأشعري وزير الثقافة، ومحمد نبيل بنعبد الله وزير الاتصال، وحبيب المالكي وزير التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي.

وقد تم خلال هذه الاجتماعات إطلاع السادة الوزراء على البرنامج الثقافي العام للمكتب المركزي، المصادق عليه من قبل المجلس الإداري للاتحاد، وعلى مشاريع الأنشطة واللقاءات المزمع تنظيمها مستقبلا بشراكة مع الجهات المعنية، بما يستلزم ذلك من دعم وتعميق التفكير والتشاور حول القضايا والمواضيع والبرامج ذات الاهتمام المشترك.

وقد أعرب السادة الوزراء، خلال هذه اللقاءات، عن تقديرهم للاتحاد، واستعدادهم الكامل للتعاون مع المكتب المركزي، ودعم مشاريعه الثقافية والاجتماعية، والاستجابة لمطالبه وحاجياته وتطلعات أعضائه.

وإذ ينوه المكتب المركزي بإيجابية هذه الزيارات المثمرة، وتحقيقا لمقاصدها، يضع اللمسات الأخيرة على مشاريع اتفاقيات الشراكة والبرنامج العملي الذي يجسد روح الاتفاقية، قصد تبادل

التوقيع عليها مع الوزارات المعنية".

– الاتحاد عضو ممثَّل في : المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان - الائتلاف المغربي للثقافة والفنون - الجمعية المغربية لأخلاقيات الصحافة - لجنة أخلاقيات المهنة – عضو بالأمانة العامة للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب.

■ **مواقف الاتحاد :**

المكتب المركزي ينعى :

– الصحفي والكاتب **مصطفى القرشاوي :**

"تلقينا في اتحاد كتاب المغرب بأسى وألم عميقين نبأ وفاة الكاتب والصحفي الأستاذ مصطفى القرشاوي، أحد أبرز رجال العمل الثقافي والسياسي والإعلامي، الذي ظل عضوا نشيطا وسندا دائما لاتحاد كتاب المغرب على امتداد سنوات طوال.

والمكتب المركزي إذ يعبر عن أصدق تعازيه ومواساته لأسرة الفقيد وأصدقائه من كتاب ومثقفين وصحفيين ومناضلين، يتمنى لذويه الصبر الجميل وحسن الاحتمال آملين أن تعوض المحبة هذا الفقدان الأليم، وعسى أن تكون أخلاقه وآثاره الباقية خير عزاء للجميع..".

28 **أبريل** 2005

– والأستاذ **عبد الله ابراهيم :**

"بتأثر وحزن بالغين، تلقى المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب خبر وفاة الأستاذ عبد الله إبراهيم يوم الأحد 11 سبتمبر 2005. وأمام هذا الحدث الأليم، يتقدم اتحاد كتاب المغرب، بصادق التعازي وخالص المواساة لأسرة الفقيد ورفاقه في المقاومة والنضال السياسي والمسؤولية والإبداع الثقافي والفكري.

برحيل الأستاذ عبد الله إبراهيم، يكون المغرب قد فقد أحد أبرز رجالاته في المجالين السياسي والفكري الثقافي العام، ممن وسموا تاريخ المغرب، خلال القرن العشرين، بروح التجديد الفكري والتطلع نحو مستقبل أفضل، وفي سبيل ترسيخ قيم التحديث والديموقراطية في الدولة وأجهزتها، وفي المجتمع وهياكله. إن إيمانه بضرورة تحرير الثقافة والفكر، من "البيتية" والنظرة الأحادية الضيقة، وتمسكه بفضيلة النقد والمراجعة للسلوكات والقيم والتصورات، يمثلان إحدى سماته الفارقة، وهي أصل ما حظي به من التقدير والاحترام حتى من الذين كانوا يخالفونه الرأي أو التحليل.

إن في تجربة الأستاذ عبد الله إبراهيم الفكرية والسياسية، وفي مؤلفاته المتسمة بالعمق والشمول، خير عزاء في رحيله المحزن، وعسى أن يكون في ذلك ما يساعد ذويه وأصدقاءه ورفاقه على جميل الصبر وحسن التحمل".

13 **نونبر** 2005

– **ويتضامن** مع الكاتبة الأديبة **زهور كرام :**

"تابع المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب بانشغال وأسف، ما تعرضت له الأديبة والباحثة

زهور كرام، العضو باتحاد كتاب المغرب، من اعتقال واقتياد من شارع عمومي إلى داخل السفارة الفرنسية يوم الأربعاء 13 يوليوز 2005.

والمكتب المركزي إذ يأخذ في الاعتبار الإجراءات القانونية المعمول بها، يحتج على هذا السلوك في حق كاتبة، لما فيه من اعتداء على حريتها، خاصة وأن الشارع العمومي، مكان الاحتجاز، ليس فيه ما يؤشر على منع أو خصوصية ما".

14 يوليوز 2005

– ومع الباحث الدكتور **المهدي المنجرة** :

"يستنكر المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب مَنْعَكُم من إلقاء محاضرة بتطوان، معتبرا ذلك المنع مسّا بالحريات العامة، واعتداء على الحق في الرأي والتعبير.

إن المكتب المركزي وهو يحتج على هذا السلوك، يُثَمِّنُ إيجابيا ما تضطلعون به من إشعاع وإسهام في التنشيط والتنوير الثقافيين، مع تضامننا الصادق".

– ومع الشاعر **عبد الله الريامي** :

"إن اتحاد كتاب المغرب, حرصا منه على ضرورة احترام حرية التعبير، وانتصارا منه لمبادئ الحق في الاختلاف والاحتجاج ضد ما يمس الكرامة، فإنه يعبر عن تضامنه التام مع الشاعر العماني عبد الله الريامي، ويستنكر ما تعرض له من اعتقال من سلطات بلاده، ويطالب بالإطلاق الفوري لسراحه وضمان حقه في التعبير الحر عن آرائه وأفكاره".

– **ويتضامن مع أسبوعية "الأيام"** :

"تلقى المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب بقلق ما تعرضت له أسبوعية الأيام في شخص مديرها من استنطاق صباح يوم الخميس 24 نونبر 2005 بسبب مادة صحفية. وإذ نعرب عن تضامننا التام مع الأسبوعية ومديرها، ومع كل الصحف والأسبوعيات التي طالها بعض التضييق على حرية العمل الصحفي خلال الأشهر الأخيرة، نؤكد على ما يلي :

1– انشغالنا واحتجاجنا على بعض مظاهر التضييق على حرية التعبير والنشر : بالتهديد، أو بالمقاضاة التي تتوفر على كل الضمانات القانونية المطلوبة، أو بإصار أحكام تفتقد إلى الإقناع والملاءمة مع موضوع المقاضاة، أو بالاستعمال المتصاعد للعنف في تفريق المتظاهرين والمحتجين من المعطلين أو ممن لهم مطالب.

2– اقتناعنا بأن المغرب في حاجة إلى المزيد من حرية التفكير والتعبير والرأي، وذلك :

– انسجاما مع ما يتطلبه تشييد دولة الحق والقانون من مشاركة الجميع بالتحليل والرأي والنقد البناء لمظاهر التعثر والفساد، ولكل من يعوق البناء الديموقراطي السليم، أو يحول دون السير العادي والقانوني للمؤسسات المشروعة، أو يحد من فرض شيوع ثقافة المحاسبة والانتقاد بمسؤولية.

– وإيمانا بالدور الإشعاعي والتثقيفي الذي تضطلع به الصحافة في هذا الاتجاه وفي بلورة الرؤى والتصورات، وفي تمكين الرأي العام من المعطيات والوقائع بمهنية ومسؤولية.

3– ضرورة مواصلة توفير الشروط والمناخ الملائمين لقضاء مستقل ونزيه في خدمة العدل والمساواة والكرامة، وينهض أساسا من أسس الدولة الحديثة : دولة المؤسسات وسيادة القانون ومشاركة الجميع".

26 نونبر 2005

■ **ومن بلاغات الاتحاد التنظيمية :**

1. **بخصوص استكمال تجديد مكاتب الفروع :**

"استكمل المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب تجديد مكاتب الفروع، فأتم بذلك هيكلة أجهزته، وأنهى الإجراءات الإدارية المطلوبة، وهو الآن بصدد وضع اللمسات الأخيرة على برنامجه الثقافي العام. ويود المكتب المركزي أن يسجل ويؤكد ما يلي :

* تنويهه بالروح الإيجابية التي ميزت أشغال الجموع العامة، وبما أبداه الأعضاء من ملاحظات وانتقادات وأفكار، غايتها الارتقاء بأنشطة الاتحاد، وتعزيز أخلاق المسؤولية وروح العمل الجماعي، وتطوير أدائه الثقافي والتنظيمي، وضرورة تضافر جهود الكتاب والكاتبات من أجل مزيد من الفعالية والمصداقية ؛

* تعبيره الصادق عن مشاعر التقدير والاعتزاز والشكر للشخصيات والهيئات الوطنية على رسائل التحية والتهنئة التي توصل بها المكتب المركزي في شخص رئيس الاتحاد بعد انتخابه. إنها رسائل تجسد، في تقديرنا، دعما معنويا قويا وإشارات رمزية تضاعف من إحساسنا بالمسؤولية وبما ينبغي أن يضطلع به اتحاد كتاب المغرب اليوم من دور في النهوض بالممارسة الثقافية، وفي ترسيخ ثقافة الحوار والتواصل، وتأكيد ما للثقافة من دور تنموي وفكري وقيمي وإنساني ؛

* تحيته الخالصة للصحافة الوطنية مكتوبة ومسموعة ومرئية على ما أولته وتوليه من اهتمام، وما خصصته من أحياز للحوار بصدد تجربة اتحاد كتاب المغرب ماضيا وحاضرا وما ينتظره من تحديات".

18 ماي 2005

2. **بلاغ عن اجتماع المجلس الإداري :**

بدعوة من المكتب المركزي، وانسجاما مع القانون الأساسي للاتحاد، انعقدت الدورة الأولى للمجلس الإداري لاتحاد كتاب المغرب يوم السبت 16 يوليوز 2005 بمدينة الرباط، بحضور رؤساء الاتحاد السابقين الأساتذة : عبد الكريم غلاب، محمد برادة، عبد الرفيع جواهري، وحسن نجمي، وكتاب الفروع والأعضاء المنتخبين مباشرة من المؤتمر السادس عشر، ولجنة التحكيم وأعضاء المكتب المركزي.

وحسب القانون الأساسي للاتحاد، فالمجلس الإداري ينعقد كل ثلاثة أشهر لتدارس مشروع البرنامج الثقافي العام ومشروع الميزانية العامة. فبعد تقديم مشروعي البرنامج الثقافي العام والميزانية العامة، والبرامج الثقافية للفروع، وبعد المناقشة بالإضافة والتعديل، صادقت الدورة الأولى على

المشروعين والاقتراحات المرفقة، وعلى عناصر التصور المجمل المؤطر لهما.

وقد شمل مشروع البرنامج الثقافي المصادق عليه، والمقرر إنجازه إلى غاية متم دجنبر 2005 ما يلي :

1) محاضرات شهرية باستضافة شخصية من عالم الفكر والثقافة والفن ومعقبين للمناقشة ؛

2) الكاتب وجمهوره : لقاءات حوار مفتوح مع كاتب حول تجربته في الكتابة والإبداع والحياة بمشاركة نقاد وقراء ؛

3) ندوات وطنية ومغاربية وعربية ودولية، ولقاءات أدبية مفتوحة لتوطيد الصلات والعلاقات الثقافية المتبادلة ؛

4) الاهتمام بالتعبيرات الثقافية الفنية مثل المسرح والسينما والتشكيل والموسيقى والموروث الشعبي ؛

5) توسيع فضاءات التنشيط الثقافي لتشمل، فضلا عن القاعات والمؤسسات المعهودة، فضاءي المدرسة والجامعة ؛

6) مواصلة إصدار مجلة "آفاق" بتصور وتبويب جديدين ؛

7) إصدار ثمانية كتب ضمن منشورات الاتحاد ؛

8) إصدار الكتب الفائزة بجائزة اتحاد كتاب المغرب للأدباء الشباب (دورة 2004) ؛

9) البت في طلبات العضوية ؛

10) مثلما صادق المجلس على اقتراحات ومشاريع برامج ثقافية تهيأ لسنة 2006 وتنجز خلالها، لما تتطلبه من إعداد مسبق مادي وأدبي ملائم لحجمها.

وخلال تدارس أعضاء المجلس الإداري لمواد البرنامج الثقافي والاعتبارات المؤطرة لصياغته، عبرت أغلب التدخلات عن الرغبة في مواصلة تحديث ودمقرطة آليات اشتغال الاتحاد، وفي تطوير مبدأ الشراكة مع القطاعات المعنية، واستمرار التواصل والتنسيق مع الفروع، وإدراج القضايا والأسئلة التي يطرحها الحقل الثقافي وطنيا وعربيا ودوليا في البرنامج الثقافي العام انخراطا في دينامية المجتمع، وحتى يستمر الاتحاد أداة أساسية في تفعيل حياتنا الثقافية، وفي تعميق دينامية الحوار العمومي بخصوص حاضر المغرب ومستقبله هوية وثقافة.

الرباط في 18 يوليوز 2005

3. أعضاء جدد في اتحاد كتاب المغرب :

بحضور أعضاء لجنة التحكيم الأساتذة محمد مصطفى القباج، حسن بحراوي، محمد بوخزار، وأعضاء المكتب المركزي، وبرئاسة رئيس اتحاد كتاب المغرب، انعقد اجتماعان بمقر الاتحاد خلال يومي الثلاثاء 25 أكتوبر 2005 والسبت 18 مارس 2006، للنظر والبت في طلبات العضوية للسنوات 2004 و2005 وبداية 2006. وقبل الشروع في البت وتطبيقاً للفصول 3، 9، 15 من القانون الأساسي لاتحاد كتاب المغرب، تم تأكيد معايير محددة تأخذ بعين الاعتبار القيمة الفنية

والفكرية للمنشورات، وما تتسم به من جودة، إضافة إلى وتيرة النشر وانتظامه، وتحقيق تراكم معقول، والمصداقية الثقافية لمنابر ومؤسسات النشر والجوائز لتوفرها على لجان للقراءة والانتقاء والتحكيم، وما للمترشح، فضلا عن ذلك من حضور، وإسهام في الإشعاع الفكري والأدبي.

وبعد النظر في مجموع طلبات الترشيح، وقراءة المنشورات المرفقة عند الاقتضاء، تقرر منح العضوية في اتحاد كتاب المغرب للكاتبات والكتاب التالية أسماؤهم :

عبد العزيز بنعبد الجليل،لطيفة المسكيني، وفاء مليح، محمد العدلوني الإدريسي، حميد المصباحي، الزهرة راميج، خالد سليكي، نور الدين وحيد، فاتحة مرشيد، خالد بلقاسم، أنيسة بلفقيه، بوسلهام الضعيف، عبد الإله الجوهري، محمد العربي غجو، عبد القادر الغزالي، أحمد الكبيري، مبارك الراجي،كمال أخلاقي، محمد عابد، رشيد أمحجور، مجيدة بنكيران، أحمد زنيبر، فاطمة الزهراء بنيس، أمل الأخضر، أحمد صابر، محمد واكراد، عياد أبلال، محمد بنعبود، محمد المسعودي، محمد الدوهو، محمد الشيخ الطالب خيار الشيخ ماء العينين، محمد بوعزة، محمد أحمد بنيس، أحمد بلخيري، محمد الهجابي، عبد الله المتقي ؛

وللفائزون بجائزة اتحاد كتاب المغرب للأدباء الشباب دورة 2004 الكتاب : عبد العزيز الراشدي، نجيب مبارك، عبد الواحد استيتو، هشام العسري.

وإذ نهنئ الأعضاء الجدد في اتحاد كتاب المغرب تقديراً لإبداعهم وحضورهم، يرجى مستقبلا، من المترشحين والمترشحات إرفاق طلبات العضوية بمنشورات حديثة الصدور، وببيان السيرة العلمية والثقافية الشخصية.

■ التقرير المالي برسم الفترة الممتدة من 22 فبراير 2005 إلى غاية 31 دجنبر 2006 :

الحساب البنكي إلى غاية 31 دجنبر 2005

الرصيد إلى غاية 2005-02-22	454.552,83	– مصاريف تنظيم المؤتمر 16	34.279,00
– التبرعات	167.000,00	– التحويل للصندوق	68.036,74
– الاشتراكات	7.200,00	– المصاريف	327.420,67
		– الرصيد إلى غاية 2005-12-31	198.016,42
	628.752,83		628.752,83

الحساب البريدي إلى غاية 31 دجنبر 2005

الرصيد إلى غاية 2005-02-22	189.226,83	– مصاريف تنظيم المؤتمر 16	11.145,00
– الاشتراكات	3.637,00		
– التبرعات والمنح	10.000,00	– المصاريف	3.546,00
		– الرصيد إلى غاية 2005-12-31	188.172,83
	202.863,83		202.863,83

رصيد الصندوق إلى غاية 31 دجنبر 2005

		– مصاريف تنظيم المؤتمر 16	25.499,70
– الاشتراكات	25.500,00	– مصاريف مختلفة	67.763,09
– التحويل من البنك التجاري المغربي	68.036,74		
		– الفائض في الصندوق إلى غاية 2005-12-31	273,95
	93.536,75		93.536,74

بيان حسابي للفترة الممتدة من 22 فبراير 2005 إلى 31 دجنبر 2005

المصاريف	المبلغ	المداخيل	المبلغ
– كراء المقر	8.119,00	– الاشتراكات	36.337,00
– التنقل	110.488,00	– التبرعات والمنح	177.000,00
– التعويضات والمكافئات	64.270,00		
– الإقامة	43.865,50		
– التغذية	25.207,00		
– الهاتف	42.225,23		
– مصاريف الطباعة	60.916,00		
– مصاريف التسيير	26.639,03		
– الدعم والتبرعات	18.000,00		
		– العجز إلى غاية 31-12-2005	186.392,76
	399.729,76		399.729,76